النبيّ الوزير

يوسف عليه السّلام الصّدّيق

من الابتلاء إلى التمكين



د. علي محمّد محمّد الصّلابي



بسم الله الرحمن الرحيم





رقم الإصدار: 168

الترقيم الدولي: 978-625-8336-63-4

اسم الكتاب: النبي الوزير يوسف الصديق عليه السلام من الابتلاء إلى التمكين

اسم المؤلف: د. علي محمد محمد الصلابي

رئيس التحرير: رجب صونگول

الطبعة: الأولى - يناير 2023م / رجب 1444هـ

دار النشر: دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة

Asalet Eğitim Danışmanlık

Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret

Sertifika No: 40687

Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.

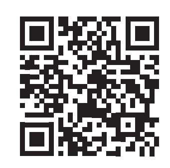
Yümni İş Merkezi, No: 16B/16 Vezneciler

Fatih, İSTANBUL-TÜRKİYE

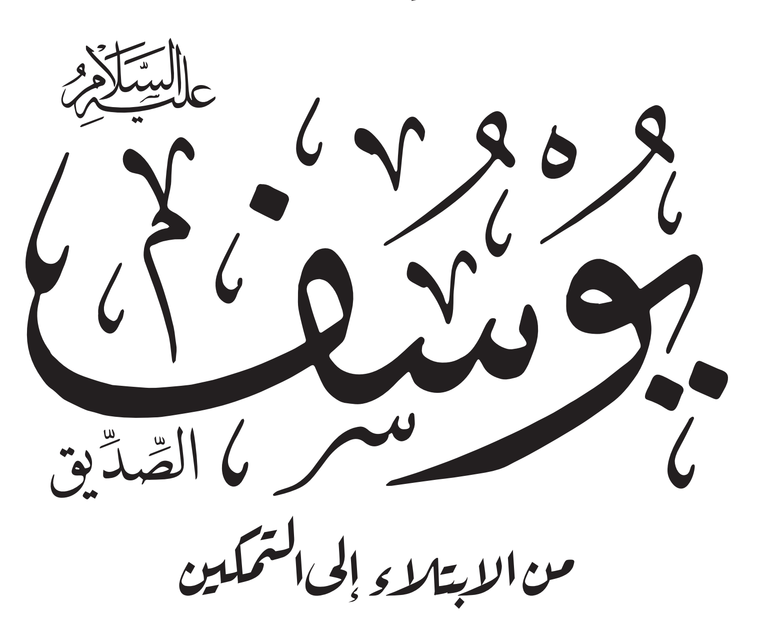
Tel: +90 212 511 85 47

www.asaletyayinlari.com.tr

asalet@asaletyayinlari.com.tr



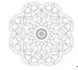
النبيّ الوزير

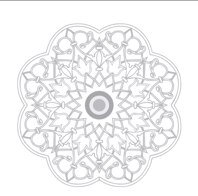


من الابتلاء إلى التمكين

د. علي محمّد محمّد الصّلابي





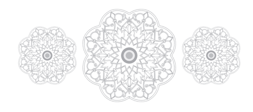


إهداء

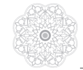
إلى أبناء الأمة الإسلامية وبني الإنسان الذين يعتزون بالقيم الرفيعة والأخلاق الحميدة، ويبحثون عن القدوات الحقيقية في حياتهم

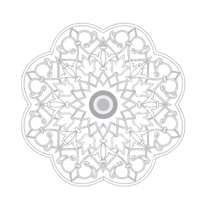
أُهدي هذا الكتاب

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].









تقديم لكتاب: النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين

بقلم
أ.د. علي محيى الدين القره داغي
الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المســلمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن لذة العيش مع القرآن الكريم لا يدركها إلا من ذاقها، ولا يحس بحلاوته إلا من تدبر آياته، وتعمق فيها، وعندئذ لا يستطيع أن يترك هذه الصحبة الطيبة ما دامت الحياة قائمة، لأنه يعيش مع كلام الله العزيز الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ولأن روحه المادية تحيى بالروح القرآني[1]، وبذلك ينسجم مع الفطرة التي بُنيت أيضًا على روح من عند الله تعالى فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

ومن هنا فإذا أزيحت حُجبُ الشهوات، وطهرت النفوس من زيغ الشيطان، فإن القلوب تنتعش بالقرآن وترتقي بآيات الله تعالى فيصبح القرآن الكريم غذاء روحه وسموها، ونور قلبه، وقوته، ونفحات، وهداية عقله وموائد أنسه، وشفاء جسده، ودواء أمراضه، وعندئذ يكون من الصعب عليه الابتعاد عنه

---

(١) إشارة إلى الآيات التي عبرت عن الوحي والقرآن بالروح مثل قوله تعالى ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾ [النحل: ٢]، وقوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فيطلب المزيد، وهذا ما أحسّ السابقون الأولون، فعاشوا مع القرآن الكريم فتحققت لهم حلاوة الارتقاء، ولذة الوصال، فتمنوا ألا يفارقوه في جميع الأحوال، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية عاش في خدمة الإسلام، ومع ذلك يقول في آخر حياته: "وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن"(١)، وكان الصحابي عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضع المصحف على وجهه، ويقول: كتاب ربي، كتاب ربي.(٢)

وأحسب أن فضيلة أخي الشيخ الدكتور علي الصلابي قد ذاق طعم القرآن، ولذة الوصال معه لذلك ترك أو أخر التأليف في التأريخ الإسلامي إلى أجل، مع أنه كان موفقاً فيه، وأصدر سلسلة طيبة من السيرة وتأريخ الخلافة الراشدة، والدول الإسلامية.

فقد عاد الشيخ الصلابي بكل قوته إلى أحضان القرآن الكريم، وبخاصة إلى سِيَرِ أولي العزم وهم (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، وقد أجاد فيها وأفاد، وأصبحت هذه الموسوعة من المرجعيات النافعة الجامعة التي نالت رضا جمهور المسلمين، وترجمت إلى عدة لغات (فجزاه الله خيرا).

واليوم عاد ليكتب عن نبي عظيم (يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ) وعن قصته التي وصفها الله تعالى بأحسن القصص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، وقد كتب الكثيرون حول هذا النبي العظيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، "ومنهم أنا العبد الفقير إلى الله تعالى" ولكن

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي ابن قدامة المقدسي ص ٢٢٥، ويراجع الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص٤٦٥، ٦٦٩

(٢) اتحاف المهرة لابن حجر (١١/ ٢٨٣) والتبيان للنووي (٢٣٢) وقال: "إسناده صحيح"

الشيخ المؤرخ المفسر قد أجاد وأفاد، فجمع وأضاف، وحقق وأناف، ودقق فبلغ المراد، وأفاض في ذكر المقاصد والسنن لتحقيق البصائر للناس، وبخاصة للدعاة، كما أنه قد أفاد في بيان التعقيبات الربانية على قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث فيها العبر التي ختم الله تعالى بها سورة يوسف ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

إن قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في حد ذاتها مدرسة للتربية والتزكية والصبر الجميل والأمل الكبير، والسياسة الرشيدة، والإدارة الناجحة الناجعة، وبخاصة في مجال السياسة الاقتصادية، والخطة المحكمة للحفاظ على الأمة وتنميتها، وهي مدرسة القيم والأخلاق والبصيرة والتحليل العميق للمآلات، ولذلك أمر الله تعالى رسوله محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع المنهج القائم على البصيرة بعد ذكر قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

كما أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة للشباب في العفة وسمو الأخلاق، ومقاومة الشهوات، كما أنه قدوة للاقلية المسلمة في التعامل مع الأكثرية غير مسلمة من حيث التعامل بالحكمة، ومن حيث الاتجاه نحو العلم المؤثر في حياة الناس، والتخطيط المبرمج لتصبح الأقلية أقلية نافعة تحتاج إليها الأكثرية، وليست عبئًا عليها، وهذا لن يتحقق في عضرنا هذا إلا بما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أهل مصر.

كما أن قصة يوسف من بدايتها إلى نهايتها سلوى وصبر للدعاة، حيث نرى أن جميع خطوات المحنة هي خطوات لمنحة الله تعالى على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ولذلك لا ييأس الدعاء، فإنه مهما كانت الابتلاءات شديدة، والمحن عظيمة

فإن وراءها منحاً ربانية، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: ٥]، وأن الفجر يأتي بعد الظلام الدامس، وأن الليل مهما طال يسير نحو بزوغ الشمس بإذن الله تعالى[١].

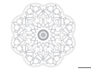
والحق يقال: إن فضيلة الأخ الدكتور علي الصلابي قد بذل في هذا الكتاب جهداً طيباً مباركاً، استثمر فيه خبرته الطويلة في كتابة التاريخ، وكتاباته النافعة حول سير أولي العزم التي أخرجها مع قصة بدء الخلق، وخلق آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في موسوعة عظيمة تتكون من ستة مجلدات ضخام.

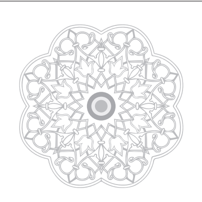
فقد استثمر المؤلف الكريم هذا التراكم المعرفي في إخراج هذا الكتاب ليعبر عن أحسن القصص، وليعطي له من العناية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي سبيل ذلك اعتمد على مصادر ومراجع نافعة، منها كتابنا: "يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قدوة المسلمين في غير ديارهم" حيث استشهد بمحتواه ونقل عنه الكثير بأمانة وتواضع العلماء، وقسّم كتابه إلى مبحث تمهيدي منهجي، و أحد عشر مبحثاً (أو كوكباً) على عدد إخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وخصص الكوكب الحادي عشر لتعقيبات ربانية على قصة يوسف، فكان حقاً خاتمة المسك الذي (يفوح من ذكرى شذاه المسك و العنبر و القرنفل) حيث أفاد في هذه التعقيبات الربانية وأجاد، فجزاه الله تعالى خير الجزاء وحشره وإيانا مع النبيين والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وتقبل الله منه، وجعله في ميزان حسناته

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩] آمين

كتبه الفقير إلى ربه
أ.د علي محيي الدين القره داغي
الدوحة، ١٥ جمادى الأخرة ١٤٤٤هـ

(١) يراجع: كتابنا: يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قدوة، طبعة ثانية ٢٠١٨م دار الفداء اسطنبول ص ٢٥ وما بعدها.





مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد؛

إن هذا الكتاب، والذي عنونته بـ "**النبيّ الوزير يوسف الصّدّيقُ** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **من الابتلاء إلى التمكين**"، يعتبر حلقة محورية وهامة في دراسة سير وقصص الأنبياء والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وإن علاقتي مع قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تمتدُّ من الطّفولة، ولكني تعمَّقت بها أكثر خلال دراستي الثانوية العامة، وفي تلك الأثناء كنت أَقصّها على زملائي في مدرسة الناصر صلاح الدين الأيوبي في مدينة بنغازي بليبيا.

وبعد أن قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عليّ السجن في زمن القذافي، بقيت فيه بين عامي ١٩٨١ و١٩٨٨م، فكان لقصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مذاقٌ خاص على المستوى الشخصيّ، وكذلك تأثر بها السجناء الذين كانوا معي في ذلك السجن السياسي، والذي امتلأ بشتى ألوان الطيّف الاجتماعي والفكري الليبي، ممن مثَّلوا توجهات وأفكار وآراء مختلفة، وخاضوا في السجن حوارات ونقاشات دفاعـًا عن آرائهم وقيمهم وتوجهاتهم.

ونتيجةً لما تعلمته وعلمته وقرأته وشاهدته وعايشته في تلك المرحلة، فقد سَمَّيت مرحلة السجن «مدرسة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»، فهي كانت بلسمـًا شافيـًا، وموردًا عذبـًا، وفضاءً معرفيـًا ووجدانيـًا وروحيـًا وأخلاقيـًا، جعل الله فيها راحةً وسكينةً وتأملاً وتفكراً، وكيف لا والقرآن الكريم هو سر سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وخلال فترة السجن، كنت أفهم الآيات الكريمة من سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حسب المعاناة، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]؛ إنّ الإنسان المسلمَ يتعامل مع كلّ البشر مهما كانت عقائدهم وأفكارهم بالإحسان إليهم في قوله وعمله، وهذا الفهم ساعدني في بناء صداقات متنوعة وواسعة ومؤثرة، حتى إنّ بعض السجناء هداهم الله إلى الصلاة والقرآن بعدما كانوا بعيدين كلّ البعد عن الإسلام وتعاليمه.

ولا أنسى أبداً حين أذن الله تعالى بخروجنا من مدرسة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وساق الأسباب لإطلاق سراحنا، فقد تمّ جمعُ السجناء في صالة كبيرة تستوعب المئات، وعندها حضرت صلاة المغرب بتاريخ ٢ مارس/ آذار ١٩٨٨، وقد صلى بنا شيخنا الجليل محمد الحراثي الطرابلسي، وقد كان من علماء ليبيا

الكبار، وقد آتاه الله صوتـاً شجيـاً له تأثير ووقع في الأسماع والقلوب، وقد قرأ نهاية قصة يوسف، وبدأ من قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٠ - ١٠١]، فقد أجهشت جموع المصلين بالبكاء، وفي جو روحاني عالٍ كانت المعنويات تعانق عنان السماء موصولة بالله رب العالمين، وطالبةً الرجاء والعفو والفرج والثبات.

وهكذا عشت حياتي مع معاني ودروس ومفاهيم سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكانت مرجعـاً وعضداً لي في طريق الصبر والمصابرة والإحسان، والتعرف على أسباب الابتلاء والتمكين، وقيمة العفو والوفاء والإخلاص والعِفة والصبر والتقوى والكرم.

وأسأل الله أن يُجملنا بأخلاق الإيمان في هذه السورة وما فيها من خير، وأساله تعالى أن يحسن خاتمتي، ويتوفني مسلمـاً، ويلحقني ووالدي وجميع المسلمين بالصالحين.

ولا بد من الإشارة أنه بعد توفيق الله تعالى وفضله وكرمه، أنني وقبل إعداد كتاب يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كنت قد انتهيت من موسوعة «نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام»، والتي تألفت من ٦ مجلدات زادت عدد صفحاتها عن ٥٠٠٠ صفحة، وهي:

١. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ الحضارة الإنسانية الأولى

٢. نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم؛ قصة ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٣. إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة.

٤. موسى كليم الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين.

٥. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ الحقيقة الكاملة.

٦. محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

وقد أجابت موسوعة بدء الخلق وقصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسير أولي العزم عن الأسئلة الوجودية الكبرى للإنسانية؛ من الذي خلقنا؟ ولماذا؟ وإلى أين المصير؟

كما تناولت تلك الموسوعة المفاهيم الإيمانية والقيم الروحية، والعقائد والتصورات، والأخلاق الإنسانية، وأسباب بناء الحضارات وعوامل ضعفها وزوالها، وطريق الفلاح والتمكين والنصر والعزة، ويقابله من جهة ثانية طريق الخسران والباطل والبغي والجهود والاستكبار والكفر والشرك بالله والظلم، وهو سبب تهدم العمران والاستبدال والهلاك الكبير.

وبعد ذلك، حان الوقت للانتقال من سِير المؤسسين العظام للحضارة الإنسانية، ومن تفاسير الكتاب العزيز لتجارب قادة الإنسانية إلى التعمق والغوص في سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأخذ الدرس المستفاد بأن الطريق الذي خَطَّه الأجداد والآباء من آدم إلى نوح، ومن ثم إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقد استنار به النبي الوزير يوسف الصدّيق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وسار على هديهم، وذلك بعد طول ابتلاء ومحنة وضنك واتهام وبهتان حتى ظهرت الحقيقة وبانت براءته. وبفضل الله، وبمشورة النبي الوزير وقيادته وحنكته وخطّطه أنقذ مصر وأهلها من هلاكٍ محتم.

وإن النية معقودة بأن تكون القصة بعد هذا الكتاب التي سأبحث بها – بإذن الله – هي قصة الأنبياء الملوك (داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ)، ومن ثم إكمال الكتابة والتأليف والتفسير والتبحر في سير جميع الأنبياء الذي ورد ذكرهم بالقرآن الكريم، نظراً لأهمية دراسة سيرهم، والوقوف مع الدروس والعبر والفوائد والأخلاق والسنن والقيم في حياتهم وتجاربهم بإذن الله. والتوفيق أولاً وآخراً من الله تعالى وحده.

وأما ما يخص الكتاب الذي بين أيدينا حالياً هو كتاب "**النبي الوزير... يوسف الصديق** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **من الابتلاء إلى التمكين**"، فقد قمت بتقسيمه إلى مباحث، وهي:

المبحث التمهيدي: المدخل إلى قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وبينت فيه اسمها، وعدد آياتها، وترتيب السورة في المصحف، وسبب نزول السورة، وزمن وظروف نزولها، والتشابه بين قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونبينا محمد رسول الله، وما هي الحكمة في سوقها في مكان واحد؟ وفضائل السورة، ومعنى كلمة يوسف، ونسبه، وفضله، وكم مرة ذكر يوسف في القرآن الكريم، والسور التي ذكر فيها، وأهمية قصة يوسف، وخصائصها، وأغراضها، وأنها ربانية المصدر؛ وقصص حق لا مرية فيه، وقصص واقعي، وقصص يلتزم بالنظافة والأدب، والقصص القرآني تميز بخصائص فنية عن غيره من القصص، وكان كذلك الحديث عن مقاصد سورة يوسف، وفي المبحث التمهيدي شملت المقدمة القرآنية حول قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وفي المبحث الأول، تكلمت عن رؤيا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونصيحة أبيه، وكيد إخوته، وإلقائه في البئر، ونجاته منه. وسرت على منهج علماء التفسير الراسخين من القدماء والمعاصرين مع الاستفادة من المراجع المتخصصة في القصص

القرآني وتاريخ الأنبياء والمرسلين، والكتب التي اهتمت بقصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كالتي كتبها:

١. شيخنا العزيز الدكتور علي محي الدين القره داغي، يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قدوة للمسلمين في غير ديارهم.

٢. الدكتور أحمد نوفل بكتابه «سورة يوسف: دراسة تحليلية».

٣. الدكتور ناصر العمر في كتابه «تدبر سورة يوسف: تهذيب آيات للسائلين».

وغيرها من الكتب المتخصصة في سورة يوسف..

وفي المبحث الأول، بيَّنت حكم الرؤى، وأنواعها، والآيات المتعلقة بها، وحقيقة الاجتباء ليوسف، وكيد الإخوة، وعداوة الشيطان للإنسان، وخطورة الحسد، وأهمية التربية للأبناء على توحيد الله ومعرفته من خلال الأسماء الحسنى، ووقوع إخوة يوسف في مكائد إبليس، ودخول يوسف في محنة الابتلاء، وصبر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونجاة يوسف من غياهب البئر بقدر الله ورعايته وحمايته.

وفي المبحث الثاني: بداية التمكين ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفتنه امرأة العزيز، ومكر نسوة المدينة، ودعاؤه بالخلاص من كيدهن.

وفي المبحث الثالث: دخول يوسف السجن، ودعوته لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وتفسيره لرؤيا صاحبيه.

وفي المبحث الرابع: رؤيا الملك، وتفسير يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لها.

وفي المبحث الخامس: مطالبة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتحقيق وثبوت براءته.

وفي المبحث السادس: يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سُدة الحكم والسلطان والتمكين.

وفي المبحث السابع: مجيء إخوة يوسف إلى مصر، وإكرامه لهم، وطلبه حضور أخيهم من أبيهم.

وفي المبحث الثامن: أخذ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الميثاق على أبنائه، وتوجيههم للتعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، وحيلة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في بقاء أخيه معه، وفقد يعقوب لأبنائه الثلاثة.

وفي المبحث التاسع: اشتداد البلاء على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصبره العظيم، وثقته المطلقة بالله تعالى وعفو يوسف عن إخوانه.

وفي المبحث العاشر: أثر البشارة على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطلب أبنائه منه المغفرة، واجتماع شملهم عند يوسف بمصر.

وأما **في المبحث الحادي عشر**: تعقيبات ربانية على قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد تعرض هذا الكتاب لأصل نشأة بني إسرائيل التاريخية، وشجرة النبوة الإبراهيمية، وأنبياء الفرع الإسرائيلي، وختم النبوة بالفرع الإسماعيلي، وبداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن هم الأسباط؟ وهل هم أنبياء أم لا؟ وحياة بني إسرائيل في مصر، ووصية يعقوب لبنيه حين حضره الموت، ووفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحقيقة النبوة، وأمور تفرد بها الأنبياء، وأهم صفات وأخلاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من عفة وحِلم وإخلاص وصدق وإحسان وتقوى وحزم وعلم وحكمة وكرم وحسن وتدبير.... الخ.

ولخصت في خاتمة هذا الكتاب أهم ما تضمنه، وشملت مراحله، وكيف تدرج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من سنن الابتلاء إلى التمكين، وذكرت أهم السنن والأحداث والدروس والفوائد التي يمكن لأي مسلم أو مسلمة أو أي إنسان باحث عن

حقيقة الإيمان بالله، ووحدانيته، فإنه سيجدها في قراءته لهذه القصة الإيمانية الماتعة والحِكم البديعة التي جمعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز في سورة واحدة «سورة يوسف»، وهي ترتيبها الثانية عشر بالقرآن الكريم، وهي السورة التي نزلت على رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فترة دعوته المكّية لمؤازرته وتصبيره وطمأنته ومؤانسته في طريق الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمة الحق.

وقد انتهيت من مقدمة هذا الكتاب في يوم الأربعاء بمدينة إستانبول بتاريخ ١٣ جمادى الأول ١٤٤٤هـ/ ٧ ديسمبر ٢٠٢٢م، ولكن مسودة متن هذا الكتاب كان في مدينة الدوحة العامرة، ونسأل الله أن يحفظ ديار المسلمين، ويُعيد للأمة نهوضها الحضاري في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال والجهل إلى الهدى والإيمان.

وحري أن أقول، بأنَّ هذا الكتاب سيجعلك بإذن الله تعالى، تتبحر وتنسجم مع تفاصيل قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منذ طفولته وحتى وفاته، وتتعرف على أهم المحطات التاريخية التي مرّ بها في حياته من ابتلاءات وتمكين، وكيف قاد شعب مصر والشعوب التي حولها إلى برّ الأمان خلال الأزمة الاقتصادية التي مرت في زمانه، وتدرك قيمتها في الوقت الراهن.

ولا يسعني في مرحلة الانتهاء من هذا إلا أن أقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ بقلب خاشع منيب معترفًا بفضله وكرمه، ومتبرئًا من حولي وقولي، وملتجئًا إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل عليّ، وربي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عنّي ووكلني إلى عقلي ونفسيي لتبلّد مني العقل، وغابت الذاكرة، وتيبّست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

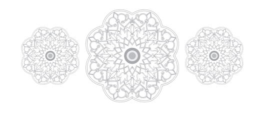
اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح صدري وجنبني - اللهم - ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري. وأسألك ربنا بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلا، أن تأجرني وإخوتي الذين أعانوني على إتمام هذا العمل، وأسألك اللهم أن تجعله لوجهك خالصاً ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم. وكما أرجو من كلّ من يطّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء.

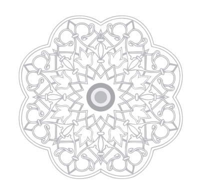
قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والحمد لله رب العلمين.

الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه
عليّ محمّد محمّد الصّلابيّ
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
الأربعاء ١٣ جمادى الأول ١٤٤٤هـ
٧كانون الأول ديسمبر ٢٠٢٢م





المبحث التمهيدي: مدخل إلى قصّة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

تعتبر قصة يوسف الصدّيق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ القصّة القرآنية الأطول التي ذُكرت في موضع واحد، ولم تُذكر في مواضع أخرى، ولو قارنتَها مع قصص كليم الله موسى وخليل الله إبراهيم عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ أو قصص أخرى، لوجدتّ أنّ تلك القصص تحتمل التّوزيع والتّقطيع على مشاهد متعدّدة؛ لأنّ كلّ مشهدٍ يُعدُّ وحدةً متكاملةً، مثل: (موسى والعبد الصالح)، (إبراهيم وحواره مع عبَدَة الكواكب والنّجوم) ... إلخ.

ولكنّ وحدةَ أحداث قصّة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لا تجعل من الممكن فنيّاً وموضوعيّاً أن تُقطّع أو توزّع على مرّات عرضٍ متعدّدة، وفي هذا يتجلى وجهٌ من وجوه الإعجاز القرآني، كما تتجلّى دقّة وحكمة هذا الكتاب الّذي هو ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١][(١)].

وهنا يقول الأستاذ محمّد المبارك فيما نحن بصدده من تميّز سورة يوسف وتفردها: إنّ لسورة يوسف موقعاً خاصاً في النّفوس، فلطالما اشتاقت إلى سماعها النّفوس مرّة بعد مرّة، ولطالما تفتحت القلوب والآذان لنغماتها الحلوة، وإنّ لها نغماً علوياً خاصاً بها، وإنّك لتحسّ فيها أنّ يدَ القدر الإلهي تحركُّ الحوادث، ولترى فيها الإنسان يريد ويقدر ومن فوقه عناية إلهية غالبة

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان- الأردن، ط١ (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، ص ١٠.

تبلغ من هذا الإنسان ما تريد لا ما يريد، وتصل بالأمور إلى عواقبها ونهاياتها المرسومة المقدّرة.

ولطالما هزّت سورة يوسف المشاعر والعواطف وحرّكت الضمائر، وهي تجول بنا في عالم الحياة الإنسانيّة بحوادثها ووقائعها ومشاعرها، وعواطفها وأفكارها وعقائدها. وإنّ الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقصُّ فيها قصّة حياة الإنسان أحسن القصص؛ إنّها قطعة من الحياة بعروقها النابضة، ومشاعرها المتأججة، ونوازع الخير والشرّ فيها.

إنّنا نرى فيها أنفسنا ولكن نرى مع ذلك يدَ القدَر ونحسُّ أثرها فينا وفي أعمالنا، إنّنا نراها تخط في الحوادث معبرنا، وتبلغ الغايات المقدرة، إنّها تفتح أمامنا أفق القدر لنجعل إرادتنا من إرادة الله، منفّذة لقضائه، منسجمة مع غايات قدره الّتي هي الخير المحض؛ فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل، ذلك هو السبب الّذي يجعل لسورة يوسف هوى خاصّاً في نفوسنا، وهي تأخذنا بعقولنا وقلوبنا نحو الله.

إنّ هذه السّورة تكشف لنا النقابَ عن سرّ الإرادة والقدر وعن العناية الإلهية الّتي تخفى، إلّا على من آتاه الله حسّاً مرهفاً وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون، وأسبابها الظاهرة، وعواطف الإنسان، ومقرراته وتصميماته.

وذلك ما أبصره يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أوّل القصّة فانكشفت له الحقيقة الكبرى فصبر وآمن وترقّب لطف الأقدار وصنيع العناية.

وإنّك إذ تقرأ هذه السّورة أو تسمع إلى من يقرؤها لتحسّ بأنغامٍ عذبة علويّة ترافق ما يتراءى لك فيها من صور الحياة الإنسانيّة وما تقرؤه من ورائها من أحكام القضاء وسطوة القدر.

افتُتحت السّورة بهذه الحروف المقطّعة الثلاثة (الر)، الّتي تريك من الكلمات موادها الظاهرة وتُخفي عنك سرّ ظهورها قرآنـًا بألفاظ عربية، وأمّا قصّة يوسف الّتي هي موضوع السّورة وقوامها، فقد استغرقتها كلّها وهي تزيد على مائة آية عدا نحو عشر آيات هي آخرها تضمّنت عبرتها ومرماها[١].

وسورة يوسف إحدى السور المكيّة الّتي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردتْ الحديث عن قصّة نبيّ الله (يوسف بن يعقوب) وما لاقاه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أنواع البلاء ومن ضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النّسوة، حتّى نجّاه الله من ذلك الضيق. والمقصود بها تسلية النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

والسّورة الكريمة أسلوب فذّ فريد في ألفاظها وتعبيرها وأدائها وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري برقّتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية الّتي تحمل في الغالب طابع الإنذار، إلّا إنّها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريّة نديّة في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جوّ الأنس والرحمة والرأفة والحنان، وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلّا استراح إليها»[٢].

✧ أولاً: اسمها وعدد آياتها:

الاسم الوحيد لهذه السّورة هو (يوسف)، فقد ذَكر ابن حجر في كتاب الإصابة في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ أنّ أبا رافع

---

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، دار الفكر، ط٤ (١٩٧٣م)، ص ٧٩-٨٢.

(٢) سورة يوسف (عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ)؛ دراسة تحليلية، نوفل، المرجع السابق، ص ١٤.

بن مالك أوّل من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهرٌ لأنّها قصّتْ قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلّها، ولم تُذكرْ قصته في غيرها، ولم يُذكر اسمه في غيرها إلّا في سورة الأنعام وغافر.

وهي مكيّة على القول الّذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره. وهي السّورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور، ولم تذكر قصّة نبي في القرآن بمثل ما ذُكرت قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه السّورة من الإطناب.

وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار(١).

وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البرهان: «ولا شك أنّ العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستعرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز»(٢).

وهذه السّورة محورها قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهي أخصّ سور القرآن الكريم به، وهو أخصّ أنبياء الله بها، بل أخص مذكور فيها، فناسب أن تسمى باسمه(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ط١ (١٩٨٤م)، ج١٢، ص١٩٧-١٩٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار إحياء الكتب العربية، ط١ (١٩٥٧م)، ج١، ص٢٧٠.

(٣) آيات للسائلين تفسير تحليلي وموضوعي، ناصر العمر، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص ٢٢.

✧ ثانيـًا: ترتيب السّورة في المصحف:

سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي السّورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، وتقع في الجزء الثاني عشر أيضـًا، وآياتها إحدى عشرة ومائة آية، ولا يماثلها في عدد آياتها إلّا سورة الإسراء.

وتأمل الموافقات، أنّ رقم السّورة والجزء الّذي هي فيه يناظر عدد أبناء يعقوب، وعدد الآيات يلمح إلى ذلك فهي إحدى عشرة آية بعدد إخوة يوسف ومائة آية. والقصّة الكريمة تستغرق من السّورة مائة آية وآية واحدة. ويستغرق التعليق عليها بقية الآيات وهي عشرة كاملة.

ونتجاوز هذه القضية لننتقل إلى فاتحة السّورة، ونجد أنّ افتتاحيتها هي بالحروف المقطّعة، وبالذات بحروف: (الر)، ولو تأملت هذه الحروف أيضـًا لوجدتها نصف حروف كلمة الرؤيا الّتي هي من المعالم البارزة في قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1].

✧ ثالثـًا: سبب نزول السّورة:

ذكر العلماء أسباب نزول السّورة منها:

أ. أخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقد قال: «نزل القرآن على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتلا عليهم زمانا فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، ومن ثم تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الآية. فتلا عليهم زمانـًا، فقالوا: يا رسول الله،

---

(١) سورة يوسف دارسة تحليلية، المرجع السابق، ص ٥.

لو حدثتنا، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية كلّ ذلك يؤمر بالقرآن». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[١].

ب. عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سألتِ اليهود النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: حدّثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [يوسف: ١ - ٢].

ويروى أنّ اليهود سألوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قصّة يوسف فنزلت السّورة بسبب ذلك. ويروى أن اليهود أمروا كفّار مكة أن يسألوا النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن السبب الّذي أحلّ بني إسرائيل بمصر فنزلت السّورة[٢].

ج. قيل نزلت سورة يوسف في فترة الحزن على وفاة خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأبي طالب (عمّ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الّذي كان يحميه، وهي فترة اشتدّ فيها أذى المشركين للنبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واجترأوا عليه لوفاة عمه، ولغياب الزوجة الصالحة الّتي كانت تسلّيه وتواسيه، فكان بحاجة إلى تسلية تخفف عنه ما تلقّاه من الأذى وما يُعانيه من الحزن، فقد اشتدّ فيها أذى قريش، حتّى إنّ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فقد بلغت الشدّة والأذى والابتلاء والتعذيب مبلغها من كفّار قريش لأصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاته، فنزلت هذه السّورة تسلية للنبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه، فهي

---

(١) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، ط١ (١٤١١هـ)، دار الكتب العلمية، ج٢، ص٤٠٩.

(٢) المحرر الوجيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ (١٤٢٢ هـ)، ج٣، ص٢١٨.

تقول لهم: إنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الّذي مرّ بمصائب عظام، وشدائد جسام، ومحن يتبع بعضها بعضاً، قد نجا منها جميعاً، وكانت عاقبته تلك العاقبة الحميدة، فاصبروا كما صبر الرسل، وثقوا بموعود الله لكم، فإنكم بعد هذا البلاء وهذا الأذى ستنتصرون - بإذن الله - ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخرها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠][1].

✧ رابعاً: زمن وظروف نزول السّورة:

وسورة يوسف مكيّة بالاتفاق - لدى المحققين - وآياتها مائة وإحدى عشرة آية، وعدد كلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون كلمة، وعدد حروفها سبعة آلاف ومائة وستون حرفاً.

نزلت سورة يوسف على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد سورة هود، أيّ في الفترة الحرجة العصيبة من حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخصّ بعد أن فقد زوجه أم المؤمنين خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وعمّه أبا طالب الّذي كان له خير نصير وسند قوي ومعين على أذى قريش وصناديدها. وبوفاتهما اشتدّ الأذى والبلاء على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين، حتّى عُرف هذا العام بـ (عام الحزن).

في تلك الفترة العصيبة من حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي ذلك الوقت الّذي كان يعاني فيه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون الوحشة والغربة والانقطاع في ظل جاهلية قريش؛ كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينزّل على نبيّه الكريم هذه السّورة

---

(١) سورة يوسف فرائد وفوائد، محمّد خالد، د/ ط، ص ٤.

تسلية له وتخفيفـًا لآلامه بذكر قصص المرسلين، وكأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول لنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تحزن يا محمّد ولا تتفجع لتكذيب قومك وإيذائهم لك، فإنّ بعد الشدّة فرجـًا، وإنّ بعد الضيق مخرجـًا؛ انظر إلى أخيك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتمعن بما حدث له من صنوف البلاد والمحن وألوان الشدائد والنكبات؛ محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه في الجبّ، ومحنة تعلّق امرأة العزيز به ومراودته عن نفسه بكل طرق الإغراء، ثمّ محنة السجن، وبعد ذلك العزّ ورغد العيش[1].

ويكتمل الخطاب الرباني في تصبير نبيه ورسوله الكريم بالقول: انظر إليه يا محمد! لمّا صبر يوسف على الأذى في سبيل الله وصبر على الضرّ والبلاء نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً في أرض مصر وملّكه خزائنها فكان السيّد المطاع والعزيز المكرّم وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على البلاء فلا بدّ أن تُقوّى نفسه على تحمّل البلاء، اقتداء بما سبقك من المرسلين، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

✧ خامسـًا: التشابه بين قصة النبيّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصة رسولنا محمّد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تتشابه قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخوته مع قصّة النبيّ محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع قريش، فإذا كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث تآمر أخوة يوسف عليه، وفكّروا في قتله وإبعاده وإخراجه، وقالوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩]، وهذا الحدث كان تثبيتـًا لفؤاد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم تآمروا عليه في دار الندوة، وقرروا حبسه أو قتله أو إخراجه من مكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ

---

(١) قصة يوسف مدرسة أخلاقية، محمد محمود حماد، المكتبة العصرية، ط١ (١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م)، ص ٧.

يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فظروف الغدر والتآمر التي مرّ بها يوسف مرّ بها رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه.

وإن غيابة الجبّ في محنة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قبيل الرحيل به لمصر فيها تسلية للنبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو في غار ثور قبيل الهجرة للمدينة. وسجن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بمصر ظلماً وعدواناً فيه ذكرى للنبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه وهم في شِعب أبي طالب بعد أن حاصرتهم قريش وقاطعتهم ظلماً وعدواناً، وهذا كلّه يُفصح عنه قولُه تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وإن سجن الطاغية ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وظلمه رغم ظهور الآيات الدّالة على براءته وصدقه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٥]، تذكر في تمادي المشركين في غيّهم في حقّ النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع رؤيتهم الآيات الدّالة على صدقه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ۝١٤ ﴾ [الصافات: ١٣ - ١٤].

ومن التشابه بين واقع يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وواقع النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أنّ الله تعالى مَكّن للنبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأرض المدينة كما مكّن ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأرض مصر(١). فهذه أوجه التشابه بين القصتين، فكل قصة منهما تحملان معانٍ ودروساً في الصبر والحكمة ومواجهة الصعاب والشدائد لتبليغ دعوة الله تعالى في الأرض ونشر كلمة الحق مهما كانت الظروف والأحوال.

(١) المصدر السابق، ص٨.

✧ سادسًا: قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والحِكمة في سوقها في مكان واحد:

قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم ترد في القرآن في غير هذا الموضع بخلاف قصص سائر الأنبياء وأخبارهم، فإنّها جاءت متفرقة، بل لعلّه لم يرد ذكر ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في غير هذه السّورة وآية في سورة الأنعام وآية في سورة غافر(١).

بدأت قصَّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وانتهت في سورة واحدة، والآيات طبيعتها تستلزم هذا اللّون من الأداء؛ فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة، فلا تتمّ العبرة إلّا بها، كما لا يتمّ التنسيق الفنّي فيها إلّا بأن يتابع السّياق خطوات القصّة ومراحلها حتّى نهايتها، وإفراد حلقة واحدة منها في موقع لا يحقّق شيئًا من هذا كلّه، كما يحقّقه إفراد بعض الحلقات في قصص الرّسل الآخرين؛ كحلقة قصّة سليمان مع ملكة اليمن (بلقيس ملكة سبأ)، أو حلقة قصّة مولد مريم بنت عمران، أو حلقة قصّة مولد عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو حلقة قصّة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم... إلخ. فهذه الحلقات القرآنية تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها، أمّا قصّة يوسف فتقتضي أن تأتي مشاهدها كلّها متوالية من بدايتها إلى نهايتها(٢).

وقال أبو إسحاق الإسفراييني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّما كرر الله قصص الأنبياء، وساق قصّة يوسف مساقًا واحداً إشارة إلى عجز العرب، كأنّ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي، فافعلوا في قصّة يوسف ما فعلت في سائر القصص(٣).

---

(١) آيات للسائلين، د. ناصر العمر، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١ (١٩٧٢م)، ج٥، ص٦٠.

(٣) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٣٠.

وقال أيضـًا: إنّ سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقصّ عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه، فنزلت مبسوطة تامّة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصّة، وترويح النفس بها والإحاطة بطرفَيها[١].

✧ **سابعـًا: فضائل سورة يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ:

كان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقرأ بها في الفجر، وفي حديث عبد الله بن شداد بن الهاد الليث، إذ قال: سمعت عمر نشيج عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صلاة الصبح وهو يقرأ من سورة يوسف وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، وتخصيصه لها في أطول الصلوات قراءة مشعر بمزيد مزيّة عنده.

وثبت أيضـًا من حديث علقمة بن وقاص الليثي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه كان يقرأ في العتمة سورة يوسف وهو في آخر الصفوف حتّى إذا جاء ذكر يوسف سُمع له نشيجـًا، وكما قال عبد الله بن عامر بن ربيعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما حفظت سورة يوسف وسورة الحجّ إلّا من عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من كثرة ما كان يقرؤها في صلاة الفجر، فقال: كان يقرؤها قراءة بطيئة.

وثبت كذلك عن فُرَافِصَةَ بن عمير الحنفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: ما أخذت سورة يوسف إلّا من قراءة عثمان بن عفّان إيّاها في الصبح من كثرة ما كان يرددها[٢].

وكلّ ذلك يُشعر بعظم ما تضمنته من معان لها أثرها الحميد في الأنفس الزكيّة؛ ولهذا أكثروا من تكرارها في أطول المفروضات قراءةً وذلك دالٌّ على فضلها[٣].

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠.

(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، حديث رقم ٣٥ .

(٣) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٢٧.

✧ ثامنـًا: معنى كلمة (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ ونسبه وفضله:

أ. معنى كلمة يوسف:

هو لفظ عربي قديم وفي اللاتينية: (جوزيف)، ومعنى يوسف: ذو اللطف، المتنبئ في المستقبل، الّذي فتح الله عليه أن يرى ما في المستقبل، أو صاحب الرؤيا في المستقبل، أو الّذي يستوحي ما في المستقبل.

وقد أسماه أبوه يوسف من وحي الحال الّتي كانت منتشرة، والظرف الّذي كان سائداً في تلك المرحلة، ومعناه: (صاحب الرؤية)، أو المتأمل صاحب الرؤية، الّذي لديه بُعد نظر فهو يرى أو يتوقّع في المستقبل من الّذي يفتح الله عليهم، فيستوحون ما سيكون في المستقبل من خلال ما يجري في الحاضر.

و (يوسف) عَلَم لا يحتاج إلى تعريف؛ لأنّه علامة تدلّ على الطّريق، وهو معلّم للخير، ويدلّ على الصّراط المستقيم، إمام وقدوة، ومعلم، ومنذر يُستدل به، فهو عنوان قائم للنّاس على مرّ الزمن[١].

وفي اللغة العبريّة (يوسف)؛ يعني الزيادة والإضافة، أو النماء[٢]، ومع هذا؛ فإنّ هناك وجهـًا لعربيّته وهو أنّه مشتق من الأسف، فيوسِف - بكسر السين - يُفعل من آسف، يوسف إذا أحزن وأهم وأغضب؛ لأنّه آسف أباه بفراقه. وبفتح السين (يوسَف)؛ لأن إخوته أحزنوه بفراق أبيه[٣].

---

(١) أسماء الأنبياء ودلالاتها ومعانيها، خالد محمد، نور حوران للنشر والتوزيع، دار العرب للدراسات، ط١ (٢٠١٦م)، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) أسماء الأنبياء وصفاتهم، صالح اللويزي، ص١٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.

وإن دلالة التّسمية لا تتنافى مع أحداث حياته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد تعرّض في حياته إلى محنٍ كثيرة ابتداءً بكيد الإخوة، ثمّ فِراقه لأبيه، وإلقائه في غيابة الجبّ، وبيعه بثمن بخس كالسّلعة من قبل العابرين الّذين التقطوه، فأصبح في محنة الرقّ، كما تعرض في بيت العزيز إلى كيد امرأته والنّسوة، ثمّ اتهامه بعفّته، وبعدها بسجن على أثر ذلك، فحياته محن تتلوها محن وحزن يتعقّبه حزن، وأسف يتعقبه أسف، فالاسم قد وافق لفظ العربيّة واشتقاقها(١).

ب. نسبه وفضله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

هو يوسف بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فهو من أشرف النّاس نسبـًا، وذلك أنّه نبي وأبوه نبي وجدّه نبي، وجدّ أبيه نبي، فهو من سلالة أنبياء(٢).

وبيّن رسول الله محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضله ومكانته، وأنّه أكرم النّاس؛ عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ»(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سُئل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكرم النّاس، فقال: «أتقاهم لله، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم النّاس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»(٤).

---

(١) أسماء الأنبياء وصفاتهم، المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٢) بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، محمد بن زريق الرحيلي، جامعة أم القرى، ط١ (١٤٣٤هـ)، ص ٨١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، حديث رقم ٣١٧٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،حديث رقم: ٣٤٩٠ .

قال المناوي-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وأيّ كريم أكرم ممن حاز مع كونه ابن ثلاثة أنبياء متراسلين شرف النبوّة وحسن الصورة وعلم الرؤيا ورئاسة الدنيا وحياطة الرعايا في القحط والبلاء؟ قال الشاعر:

إنَّ السَّرى إذا سّرى فبنفسه وابن السّرى إذا سرى أسْراهُما[1]

✧ تاسعًا: كم مرّة ذكر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم:

لقد ورد ذِكر اسم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم في (٢٦) آية، منها (٢٤) آية في سورة يوسف، وآية في سورة الأنعام، وآية في سورة غافر.

أ. الآيات الّتي ذكرت اسم يوسف في سورة يوسف:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].
- ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].
- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨].
- ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩].
- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١٠].
- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١].
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].
- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩].

---

(١) فيض القدير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١(١٣٥٦هـ)، ج٥، ص٦٤.

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦].
- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١].
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦].
- ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].
- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩].
- ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].
- ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٧٧].
- ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠].
- ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].
- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥].
- ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].
- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].
- ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].
- ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

كما أنّ سورة يوسف في معظمها تتحدّث عنه سوى بضع آيات في المقدمة، وتعتبر مقدمة تمهيديّة، وفي الخاتمة تكوّن العبرة التلخيصيّة[1].

---

(١) يوسف أيها الصديق، د. محمد عاطف السقا، دار المكتبي، ط١ (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)، ص ١١.

ب. ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأنعام:

جاء ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩٠]. وقد دلّت الآيات على أنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهؤلاء جميعًا أنبياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، كما وصفه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- أنّه من المحسنين المجازين بإحسان.

- أنه من المجتبين المهديّين إلى صراط مستقيم.

- أنّه من الّذين أوتوا الكتاب والحُكم والنبوّة.

- أنّه من الّذين أُمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ونحن تبعًا له - بالاقتداء بهديهم.

- أنه ذكرى للعالمين.

- أنّ من إخوانهم من ينطبق عليه هذه الأوصاف: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾[الأنعام: ٨٧]، ولا نعلم من الأنبياء الإخوة فيمن سبق إلّا إسحاق وإسماعيل، وموسى وهارون، وقد ذكروا في الآيات[١].

ج. ذِكر نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة غافر:

وقد ذكر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قول الله تعالى بسورة غافر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

فقد جاءت الآية ضمنَ حوار مؤمن آل فرعون مع قومه، وفيها دليل على أنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان رسولاً نبيّاً بعثه الله وأرسله إلى أهل مصر ليبلّغهم دين الله الحقّ ويدعوهم إليه، وأنّهم كانوا في غالبيّتهم في شكّ من أمره، أي: بيْن بيْن، لم يُظهروا الكفر والعناد، ولم يتمكّن الإيمان في قلوبهم فيسلموا ويتّبعوا كما أنّهم انتفعوا بتأثيره الخير حال حياته، فلمّا توفّاه الله قطعوا حبل الوصل معه، ولم يحفظوا من أمره إلّا اسمه وصفته، وأسقطوا كلّ ما يربطهم به، وفي التاريخ انقلب الفراعنة على أعدائهم الملوك الهكسوس، وأزال العهدُ الجديد - كما هي العادة - كلّ أواصر وصِلات وصِفات وأفكار ومعتقدات ورجالات العهد البائد، وكان من بين ذلك، العزيزُ عند الملِك يوسفُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دلّ هذا المعنى قوله: (هلك)، واللفظ يدلّ على سقوط الشيء، ومنه في الحسيّات: الموت هلاك. ومنه في المعنويّات: هلك مُلكه. فجمع اللفظ المعنيين: موت يوسف، وموت دعوته في المجتمع المصري[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢.

✧ عاشراً: مناسبة سورة يوسف لما قبلها (سورة هود):

وفيها تسعة أوجه:

- الوجه الأول: أن كلتا السورتين افتتحتا بقوله تعالى: (الر).

- الوجه الثاني: ختمت سورة هود بقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]، وبدأت سورة يوسف بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

- الوجه الثالث: جاء في سورة هود بيانُ ما لقي الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قومهم، وجاء في سورة يوسف بيان ما لقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من إخوته، ليعلم ما قاساه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أذى الأجانب والأقارب، وفي ذلك تسلية لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد[١].

- الوجه الرابع: جاء في سورة هود قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]. وقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣]، وذكر في سورة يوسف حال يعقوب مع أولاده وحال ولده الّذي هو من أهل البيت مع إخوته، فكان كالشرح لإجمال ذلك[٢].

- الوجه الخامس: اختتمت سورة هود بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

---

(١) البيان في علم المناسبات، فايز السريح، دار القبس للنشر والتوزيع، ط١ (٢٠١٩م)، ص ٩٥.

(٢) أسرار ترتيب السور، السيوطي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع،ط١ (١٤٣١هـ)، ص ٩٦.

وافتتحت سورة يوسف بالتركيز على الوحدانية من خلال قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحسن توكل يعقوب يوسف عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ كما توكّل هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قبل.

- الوجه السادس: قال عَزَّوَجَلَّ في ختام سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وأحداث قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وربنا ليس بغافل عمّا فعله إخوة يوسف بأخيهم فناسبت ختام سورة هود[١].

- الوجه السابع: تمّ التأكيد في سورة هود على أنّ كتاب الله معكم وأنّه من عند الله، ووجوب الإيمان بالتوحيد الخالص، وذكر دعوة مجموعة من الرسل، كهود ونوح ولوط وشعيب وموسى وهارون وكلهم دعوا أقوامهم للتوحيد الخالص وذكر عاقبة كفر أقوامهم وتكذيبهم، فناسب أن يتمّ ذلك بذكر قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من خلال قصته الكاملة[٢].

- الوجه الثامن: لمـّا قال تعالى في سورة هود: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، جاءت سورة يوسف فذكرت ندم إخوته واعترافهم بخطأ فعلهم، وفضل يوسف عليهم، قالوا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]، وعفوه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عنهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وجاء ندم امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٢]؛ فكلّ ذلك من باب إذهاب السّيئة بالحسنة.

---

(١) البيان في علم المناسبات، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٢) تفسير الموضوعي لسور القرآن، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط١ (١٤٣٥هـ)، ج٣، ص٥٠٦.

– الوجه التاسع: لمّا قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود: ١١٨ – ١١٩]، فلا أنسب لهذا من حال إخوة يوسف؛ فُضَلَاء لأب واحد من أنبياء الله وصالحي عباده جرى بينهم من التّشتّت ما جعله الله عبرة لأولي الألباب[١].

✧ حادي عشر: مناسبة أوّل السّورة بآخرها:

وفيها خمسة أوجه:

– الوجه الأول: بدأت السّورة بالحديث عن الكتاب في قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وختمت بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١][٢].

– الوجه الثاني: بدأت السّورة بقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، وختمت بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف: ١١١]، تنبيهًا على أنّ حُسْن هذه القصّة إنّما كان بسبب أنّه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة[٣].

– الوجه الثالث: ذكرُ وحي الله إليه في أوّل السّورة وآخرها، فقال في أوّل السّورة: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[يوسف: ٣]،

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم الزبير الثقفي، تحقيق: سعيد جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي، ط١ (١٤٢٨هـ)، ص ١١٥.

(٢) البيانات في علم المناسبات، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مرجع سابق، (٣/ ٥٠٥).

وقال في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

- الوجه الرابع: قال تعالى في أوّل السّورة: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]؛ أي: إنّك كنت من قبل هذا القرآن غافلاً وإن (مخفّفة) من الثقيلة. وقال في آواخرها: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فذكر أنّه كان غافلاً، ثمّ بعد الوحي إليه أصبح على بصيرة يدعو إلى الله سبحانه(١).

- الوجه الخامس: ابتدأت السّورة برؤيا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وختمت بتأويل هذه الرؤيا: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠](٢).

✧ ثاني عشر: أهميّة قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخصائصها وأغراضها:

ذكر الدكتور ناصر العمر أهمّ الأسباب الّتي دعته إلى اختيار قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تدريساً وكتابة، فذكر من تلك الأسباب:

(١) التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، ط١ (١٤٣٧هـ-٢٠١٦م)، ص ٢٣.

(٢) البيان في علم المناسبات، مرجع سابق، ص ٩٨.

١. أهميّة ربط الحياة بالقرآن والسنّة، فالأمّة الآن تعيش ظروفاً صعبة لم تمرّ بها في تاريخها وأعلم يقيناً أنّ المخرج يكمن في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ويقول النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ"(١). وإذ كان الأمر كذلك فلا بدّ من الوقوف مع آياته. فآثرت البدء بسورة عشت معها سنينَ عدداً، وأحسب أنّه قد مرت بي بعض تجاربها، وربّما كان لذلك أثر جعل دلالات السّورة لديّ أكثر وضوحاً، وأقرب فهماً(٢).

٢. كانت المدّة بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى من أشدّ السنوات الّتي مرت على النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام، فجاءت سورة يوسف مسليّة ومبيّنة السبيل الّذي يمكّنهم من الخروج من ذلك الواقع.

وأمّتنا اليوم تعيش فترة حرجة في تاريخها، فبعد أن وقعت الأمّة تحت وطأة الاحتلال عقوداً درست فيها معالم من علم الشريعة كانت لا تخفي على كثير من النّاس، ثمّ لمّا بدأت آثار الاحتلال تنحسر بقيام الصحوة الإسلاميّة المباركة في المشارق والمغارب، لم يجد الأعداء بدّاً من إعادة الكرّة للحيلولة بين الأمّة وبين نهضتها، وفي هذا الوقت العصيب يجد المسلم في كتاب ربنا وفي أحسن قصصه عزاءً وتسليةً، كما يجد الإرشاد إلى سبيل الرشاد.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه،كتاب العلم، حديث عبد الله بن نمير، حديث رقم ٣١٩.
(٢) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٨.

٣. الارتباط الوثيق بين الأمم السّابقة واللاحقة، فرغم اختلاف العصور يبقى التوافق في الطبع البشري، وفي الظّروف البشريّة؛ ولذلك قصّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نبيّه هذه القصّة رغم وقوعها قبل قرون من مبعثه ليستفيد ممّا فيها من دروس وعبر، وتستفيد منها أمّته إلى قيام الساعة. والقرآن الكريم بيّن أنّ قراءة سير الأولين للاعتبار منها، ترفع كفاءة الأمّة، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]. فالله جَلَّ وَعَلَا يدعو للسير في الأرض والنّظر في واقع تلك الأمم، سواء سيراً حقيقيّاً، أو سيراً فكريّا؛ بمعنى قراءة سِير السابقين وتتبّع تاريخهم.

٤. ذكر بعض أهل العلم في تفسير قوله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أنّ النبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن قصّة يوسف فنزلت هذه السّورة، وهذا لا يتعارض مع ما سبق بيانه، فالله يسّر سؤال السائل وقدّره لحكمة عظيمة، منها ما يتعلق بواقع المسلمين إذ ذاك، وإذا تأملت قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، بدا لك أنّ اللفظ أعمّ وأشمل من مجرد الإجابة عن سؤال خاص، بل اللفظ مشعر بأنّ فيهما جوابـًا لكلّ سؤال، ولعلّ هذه لطيفة من لطائف الاستهلال لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]؛ فوُصفَ الكتاب بالإبانة لكلّ ما يوجب الهدى، وهذا ما رأيته في هذه السّورة العظيمة، فقد اشتملت على أحكام شرعيّة تتعلق بفروع شتّى، كما أنّها تطرقت لأصول عظيمة تتعلق بالعقائد والأحكام والسياسات والاقتصاد والتربية والاجتماع. حقّـًا إنّ فيها لآيات للسائلين!

٥. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر السّورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١]؛ والعبرة: الاعتبار والاتعاظ والتذكر، وإذا تأملت الآية السابعة: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾[يوسف: ٧]، والآية الأخيرة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١]، وما بينهما، وما قبلهما من آيات يصدّق بعضها بعضاً، وجدتّ في ما بينهما الإكسير الّذي يمكن أن يكون له عظيم الأثر في حياة الأمة، إذا أخذت به كما أخذ به محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا تأثّرت به كما تأثّر به السلف[١].

ويقول الدكتور علي محي الدّين القره داغي-حفظه الله-في كتابه "يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة المسلمين في غير ديارهم"، وهو يذكر أهدافه من كتابه: الاستفادة من دروس التّاريخ والعبرة من قصص السابقين في الفروع، والاتّعاظ بما جرى للآخرين، قال تعالى في ذمّ هؤلاء الّذين لا يستفيدون من الماضي ومن الآخرين: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[التوبة: ١٢٦]؛ فقد أشارت الآية إلى ضرورة الاستفادة من الوحي بالرجوع إلى الله تعالى، والاستفادة من العقل بالتّذكر والتّدبّر والتبصر، والتحليل والنظر في المآلات فالعاقل من اتّعظ بغيره، والكيّس من عرف نفسه وعمل لمستقبله في الدنيا والآخرة[٢].

إذا تأملت خبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحبَي السجن وجدت ظرفاً من أصول منهج الدّعوة، فعند ما سأل السجينان يوسف عن الرؤيا بدأ بالتوحيد فدعا إليه رغم ظروف سجنه، ولم يعدّ السجن عائقاً عن الدعوة، بل جاء في السّورة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي القره داغي، دار النداء، إستنبول - تركيا، ط١ (٢٠١٨م)، ص ١٥.

تقرير منهج الدّعوة مجملاً: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والدّعاة في مشارق الأرض ومغاربها بحاجة إلى التّذكير بهذا المنهج[١].

وذكر الدكتور على القره داغي في كتابه عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّ من أهدافه في كتابه: بيان عظمة القرآن في منهجه المنفرد بتجديد معانيه وعبره وسننه، والاستفادة منه في أكثر من مقام. وقال: ... ولكن الله تعالى هداني في كتابي: «نحن والآخر» إلى أنّ قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنموذج كامل وقدوة شاملة وأسوة عظيمة للأقليّة الإسلامية حيث تتشابه ظروفها مع ظروف سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي قصّة نجاح لفرد مسلم داخل بشَعب غير مسلم - مصر في ذلك الوقت - فنحن نريد مثل هذا النجاح للأقليّة المسلمة، من خلال القيم الّتي تحلى بها يوسف، ومن خلال الأسباب والوسائل الّتي اعتمدها للوصول إلى النّجاح في الدنيا والآخرة[٢].

إنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان داعيـًا إلى توحيد الله، وقد أفرده بالعبادة، بأقواله، وأفعاله، وسمته، وهدوئه، وصمته، وحججه، وعقله، وقلبه، ولسانه، وجوارحه.

- ومن الأسباب أيضـًا ما وجدتّه من التلازم الشديد بين الشدّة والفرج - ونحن بأمسّ الحاجة إلى بثّ الأمل في الأمة - من أوّل السّورة إلى آخرها! ومن أمثلة ذلك: عندما أُلقي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في البئر أوحي الله إليه بأنّه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. وكذلك لمّا أخبر إخوته أنّه يوسف خافوا وبادروا بالاعتذار: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]،

---

(١) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ١٠.
(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ١٤.

فقال لهم مباشرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فزال ما بهم من انكسار. والأمثلة في السّورة متعدّدة[١].

- في سورة يوسف دعوة للتفاؤل وحسن الظنّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويوسف ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يفارقهما التفاؤل أبداً حتّى في أحرج الظروف، ومن أمثلة ذلك: لمّا فقد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثة من أبنائه قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣][٢].

- ومن أسباب اختيار هذه السّورة، معالجتها لثالوث خطير، كلّ واحد من أقطابه مهلكة، وقد منعت السّورة بمجمعها من دخولها، فمنعت من خوض بحر التنازل الّذي لا قعر له ولا ساحل، ومنعت من السقوط في هاوية الاستعجال، ومنعت من دخول بيداء اليأس المقفرة، فيوسف ووالده عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يصاحبهما الاستعجال ولا اليأس، ولا التنازل. وهذه الثلاثة إذا دخلت على الفرد قطَعته دون مراده وإذا دخلت على الأمّة ألزمتها ذيل الأمم، فالاستعجال عاقبته وخيمة، ومن المقرر أنّ من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، قضاء وواقعاً. أما التنازل؛ فهو الدّاء الّذي وقع فيه كثير من النّاس مع الظّالمين، فكان من الطّبيعيّ ألّا يتحقّق لها النّجاح المأمول، وإنّما اليأس والتشاؤم، فإذا دخل على النّفوس أحبطها، وأتعبها وأثقلها ومن كانت نفسه متضعضعة مهزوزة فأنّى له النصر؟ إنّ خذلان النّفس لصاحبها من أوّل أسباب انتصار عدوّها.

- فمن دروس هذه السّورة الثبات في منهج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، واطّراده وعدم تذبذبه من أوّل حياته، وحتّى آخر لحظات عمره، فهو مطّرد مستمر في منهج

---

(١) آيات للسائلين، مرجع سابق ص ١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢.

معتدل في سرّائه وضرّائه في البئر، في السجن، مع الملك، وهو يرفع أبويه على العرش، في كلّ أحواله الّتي قصّتها السّورة، نلحظ اطّراداً عجيباً. والدّعاة وطلّاب العلم، بل الأمّة كلّ الأمّة بشعوبها ودولها تحتاج إلى الاستقامة والاطّراد على المنهج الصحيح وبخاصّة في هذه الظروف الّتي تُقلّب فيها رياحُ الفتنِ القلوبَ وتصرفها.

- تبيّن السّورة أهميّة القصّة وأثرها على حياة الداعي والمدعو، وقد اشتملت سور القرآن على عدد من القصص كما بيّن الله في هذه السّورة. والحاجة ماسة لاستخدام هذا الأسلوب القرآني من قبل الدّعاة وطلاب العلم والمصلحين[١].

- في هذه السّورة دروس سلوكيّة وأخلاقيّة وتربويّة ونفسيّة مهمة. وخذ في هذه العجالة على سبيل المثال نموذجاً إلى أن يأتي موضع التّفصيل. تأمّل في هذه السّورة الدّعوة إلى عفّة الّلسان، تجد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قام استاذاً وداعية يلقي المحاضرات العمليّة في هذه القصّة في كلّ مراحل عمره وأحواله: صغيراً وكبيراً، مملوكاً ومالكاً، في حالة الشدّة ويوم أن فتحت له زهرة الدنيا، في حال الغضب والأسف، وفي حال الرّضا والفرح والغبطة، بل في كلّ السّورة. تأمّل موقفه من سجن الظلم والاستبداد فإذا به يقول للرّسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]؛ طلباً لإظهار الحق مع عفّة نبيلة، فلم يشر لامرأة العزيز، ولم يقل: اللاتي راودتني، وإنّما اكتفى بإشارة اقتضتها الحاجة إلى تبرئة مقام النبوّة. ومن عفّة لسانه أيضاً، توريته عندما قالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ

---

(١) (١)المصدر السابق نفسه، ص ١٤.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩]؛ فما قال لن نأخذ إلّا السّارق؛ لأنّه يعلم أن أخاه لم يسرق، فكان عفيفاً في مقام المكايدة لم يخرج به المقام إلى أن يصف أخاه بما هو منه براء[(١)].

– كذلك نجد في هذه السّورة قواعد وأصولاً في السياسة الشرعيّة الّتي نحن في أمسّ الحاجة إليها في هذا العصر في الشّورى، في التخطيط، في بُعد النظر، في العدل، الّذي هو أساس قيام الدول وغير ذلك.

– نجد في السّورة أيضاً قواعد وأصولاً في معالجة الأزمات، بل إدارتها، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمّة. وأمّتنا تمرّ بأزمات متنوّعة، ومن أقوى الأزمات الّتي ورد ذكرها في السّورة، السبع الشداد. وفي أسلوب إدارته عَلَيْهِ السَّلَامُ للأزمة الّتي مرّت بمصر فوائد ينبغي أن نقف معها.

– نجد أيضاً في السّورة منهاجاً في الحكم على الرؤى وبياناً لبعض شأنها، فالسّورة ذكرت الرؤيا في ثلاث مواضع، وقد قال النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أيها النّاس! إنّه لم يبق من مبشرات النبوة إلّا الرؤيا الصالحة يراها المسلم. أو ترى له..»[(٢)]. غير أنّه وقع فيها -عند النّاس- من الخلل والخطأ ما ينبغي التنبيه عليه، فهناك من أنكر إشارات الرؤى ودلالاتها وقلّل من شأنها، وقال كما قال أصحاب الملك: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف: ٤٤]. وبالمقابل هناك من غلا فيها، حتّى جعل من الرؤى تشريعاً – بكلّ أسف – وأهل الحقّ وقفو للمنهج الوسط[(٣)].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٥.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، بَاب النَّهْيِ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، حديث رقم ٤٧٩.

(٣) آيات للسّائلين، مرجع سابق، ص ١٥.

- نجد في السّورة كذلك بيان أن عاقبة المكر السيّئ خسارٌ وبوار، فإخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مكروا به من أجل إبعاده، فكيف كانت العاقبة؟ وامرأة العزيز كادت ومكرت، وغلّقت الأبواب، وأعتدت للنّساء متّكأً فلمن كانت العاقبة؟ وفي هذا عزاء للأمّة فإنّ المكر الكبَّار يحاك الآن على مستوى الأمم، وعلى مستوى الدّول، ومستوى الشّعوب، والأفراد، وقصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تقول لكلّ ماكر بباطل: إيّاك إيّاك! ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وفي ذلك طمأنينة للأمة وبيان لها بأنّ مكر أعدائها سيرتدّ عليهم[١].

- نجد في سورة يوسف قصص التائبين المستغفرين، وبيانَ أثر التّوبة والاستغفار في الحياة، وقد تتبّعت الدّعوةَ إلى التّوبة والاستغفار في القرآن فوجدتّ أنّه ما من نبي إلّا وقد أمر قومه بهما، والاستغفار خفيف على اللسان، وهو مع ذلك من أخصّ الدّعاء، والدّعاء هو العبادة كما في الحديث، ويقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فالتّوبة والاستغفار من السمّات الظّاهرة في سورة يوسف.

- نجد في هذه السّورة استثمار الفرص، وخاصة من قِبل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخاصة قبل أن يُسجن وأثناء سجنه وبعده، وحتّى آخر مراحل عِزّه. وإن الأمّة بحاجة إلى أن تستثمر الفرص استثماراً حقيقيًّا في موضعه، فتركُ الفرصِ غَصَص، والفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٥.

– وفي سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يضرب يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مثالاً نادراً في الصّبر بكلّ أنواعه ففازا في الدّارين، وخلّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرهما في كتابه؛ ليعلّم النّاس: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. والأمّة بحاجة إلى من يعلّمها الصبر، وحريٌّ بنا أنّ نقتدي بالّذين هداهم الله وجعلهم أئمّة.

– أشارت السّورة الكريمة لصفة الإحسان، وهي من أميز الصفات الّتي تحلّى بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وشهد له بها كلّ من عرفه، وهي لا تعني مجرّد التصّدق على المساكين كما يتبادر لذهن الكثيرين، ولكنّ معناها أوسع وأشمل وهذه الإشارة إنّما هي دعوة للمؤمنين للاقتداء بهؤلاء الأعلام لينالوا الرفعة في الدنيا والآخرة.

– أشارت السّورة الكريمة لمقوّمات النّصر والتّمكين، وأمتنا في أمسّ الحاجة لتأمّلها والعمل بها للخروج من هذه الهوّة الّتي تردّت فيها[1].

ومن أسباب اختيار هذه السّورة، ما اشتملت عليه من أغراض وموضوعات متعدّدة أشار إلى كثير منها ابن عاشور فقال: فأهمّ أغراضها:

– بيان قصّة يوسف– عَلَيْهِ السَّلَامُ– مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.

– فيها إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات وهو من أصول الحكمة المشرقية كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ [يوسف: ٤] الآيات.

– أن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.

– تحاسد القرابة بينهم.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧.

- لطف الله بمن يصطفيه من عباده.

- العبرة بحسب العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة.

- سكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر.

- تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لقيه يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من الآلام والأذى.

- لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الآلام أشد ما لقيه من كبراء كفّار قومه، مثل عمه أبي لهب، والنضر بن الحارث وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه، فإن وقع أذى الأقارب في النّفوس أشد من وقع أذى البعداء، كما قال طرفة:

وظلمُ ذَوي القُربى أشدُّ مضاضةً ... على المرءِ منْ وقعِ الحسامِ المهنَّدِ

- قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

- وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.

- وفيها العبرة بهجرة قوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البلد الّذي حل به كما فعل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وآله، وذلك إيماء إلى أن قريشاً ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعا لهجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها. واسترقاق الصبي اللقيط. واسترقاق السارق، وأحوال المساجين. ومراقبة المكاييل(١).

---

(١) المصدر السابق نفسه، ١٩.

– وإن في هذه السّورة أسلوبـًا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الّذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشـًا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

– وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث (رستم) و (اسفنديار) من أبطال فارس، فكان يحدث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمّد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه، ثمّ يحدثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموّه به عليهم بأنه أشبع للسامع، فجاءت هذه السّورة على أسلوب استيعاب القصّة تحدياً لهم بالمعارضة.

– على أنها مع ذلك قد طوت كثيراً من القصّة من كلّ ما ليس له كبير أثر في العبرة.

– ولذلك ترى في خلال السّورة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[يوسف: ٥٦] مرتين. ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾[يوسف: ٧٦] فتلك عبر من أجزاء القصّة.

– وما تخلل ذلك من الحكمة في أقوال الصالحين كقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] .

ومن أغراض قصّة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

– إثبات الوحي والرسالة.

– بيان أن الدّين كلّه من عند الله.

- بيان أنّ الدين كلّه موحّد في الأساس.
- بيان أن وسائل الأنبياء في الدّعوة موحّدة.
- تثبيت فؤاد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجال الدّعوة.
- العِبرة والاتّعاظ.
- تصديق التبشير والتحذير.
- بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه.
- تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان[1]. وغير ذلك من الأمور...

ومن أسباب اختيار هذه السّورة: بعض الخصائص الّتي ذكرها أهل العلم لهذه السّورة، ولخصائص القصّة القرآنية عامة، ومنها:

أ. ربّانية المصدر:

قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة يوسف، والقصّة القرآنية عمومـاً من خصائصها أنّها ربانيّة المصدر، موحى بها من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي لا يعتريها ما يعتري القصص البشرية من نقصٍ وتحريف، حفظها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحفظه لكتابه، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهي جزء من كتاب الله الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى هذه المصدريّة في بداية بعض القصص وفي خاتمتها، ومن ذلك قوله تعالى في بداية سورة يوسف: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن

---

(١) بعض المبادئ التربويّة المستنبطة من قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، مرجع سابق، ص ٣٥-٤٥.

كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ١ - ٣]. وقال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عقب قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

ب. قصص حقٌّ لا مريةَ فيه:

إن القصّة القرآنيّة ربانيّة المصدر فإنّها قصص حقّ، وهذا يعني أنّ كلّ ما ورد من وقائع، وشخصيّات وأزمنة وأمكنة له في عالم الواقع وجود، باعتبارها قصّة تاريخيّة، فالصدق فيها صدق واقعيّ، فليس فيها تلفيق أو اختراع أو بناء أحداث على أساس من الخيال، وإذا كان فيها من أخبار، أو شخصيّات لم يرد عنها في التّاريخ ما ورد في القرآن الكريم، فإنّ القرآن حجّة على التّاريخ؛ لأنّه تنزيل من حكيم خبير، ولأنه النصّ الدّيني الوحيد الّذي يسلم في تاريخ البشريّة من التحريف والّتزوير[١].

وإن القصّة القرآنية خالية من الكذب والأساطير والخيال، فالقصّة القرآنية سلمت من الخيال فلم تتعرض له في أيّ حلقة من حلقاتها، ولا جزئيّة من جزئيّاتها، إلّا أنّها تأخذ بمجامع القلوب، وتأسرها وتُحدث من التشويق ما لا تحدثه أروع الملاحم وأكثرها إغراقـًا في الخيال[٢].

ج. قصص واقعي:

إن القصّة القرآنيّة لا تحلّق بالإنسان في عالم المثاليّات الّتي لا وجود لها في عالم الواقع، بل تخاطبه على أنّه بشر له طاقة محدّدة لا يمكن أن يتجاوزها[٣].

(١) بعض المبادئ التربويّة المستنبطة من قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، المصدر السابق نفسه، ص ٢٥.

(٢) بعض المبادئ التربويّة المستنبطة من قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧.

فالقصّة القرآنيّة واقعية لا تخرج عن حياة البشر، ولكن هذه الواقعيّة رغم عدم إنكارها لحالات الهبوط، وواقعيّتها، إلّا أنّها لا تمجّدها وتسلّط الأضواء عليها، كما تفعل بعض القصص البشريّة[١].

إنّ القصص القرآني، إنّما هو من واقع الحياة فهو يصوّرها تصويراً دقيقاً بأخذ مجامع القلوب دون أن يكون للخيال أو الوهم، مداخل فيها أبداً[٢]. ومن واقعيّتها أنّها ترسم صورة الأنبياء والمرسلين، كما هم عليه من تبليغٍ لدعوة الله، وبما اتّصفوا به من كمال خلقي، ومع ذلك لا تغفل حالة الضعف البشري الّتي قد يصابون بها[٣]. وصحيح أنّ القرآن يختار من نفس (بطل القصّة) اللفظة المترفّعة المستعلية النّظيفة الرائقة، الّتي تصلح للقدوة وتغري بالارتفاع، ويختار من نفوس المنحرفين اللفظة الّتي تصوّر سوء قلوبهم، وسوء انحرافهم، لتصلح للتنفير من أفعالهم، والاعتبار - بمصيرهم - وهذا منسجم مع أهدافه، فضلاً على أنّه كلّه حقائق، إلّا أنّه في لقطات أخرى، وخاصّة في القصص الطويلة الّتي تتسع للعرض والتحليل، يعرض النفس البشريّة كاملة بكلّ ما فيها من لحظات (الضعف البشري)، كلّ ما هنالك أنّه لا يصنع كما تصنع الفنون (الواقعية) الحديثة، المتأثّرة بالتفسير الحيواني للإنسان، ولا يجعل من لحظة الضعف بطولة تستحق الإعجاب، والتصفيق والتّهليل، بل إنه يعرضها عرضاً (واقعيّاً) خالصاً، ولكنه لا يقف عندها طويلاً، وإنّما يسرع ليسلّط الضوء على لحظة الإفاقة؛ لحظة التغلّب على الضعف البشريّ؛ لأنّها هي الجديرة فعلاً بتسليط الأنوار عليها[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨.

(٢) الوحدة الموضوعية، محمد محمود حجازي، مطبعة المدني، القاهرة - مصر، ط١ (١٣٩٠هـ)، ص ٢٩٢.

(٣) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، ط١٤ (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، ص ١٩٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٦.

ومع استيفاء القصّة القرآنية لكلّ ملامح (الواقعيّة) السّليمة المتكاملة، وخصائصها في كلّ شخصية، وفي كلّ موقف، وفي كلّ خالجة، فإنّها تمثّل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء، الفنّي للقصّة، ذلك الأداء الصادق، الرائع، بصدقه العميق، وواقعيّته السليمة؛ المنهج الّذي لا يهمل خلجة بشريّة واقعية واحدة، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستنقعـاً من الوحل يسمّيه: (الواقعية)، كالمستنقع الّذي أنشأته الواقعيّة الغربيّة الجاهليّة.

وقد ألمّت القصّة بألوان الضعف البشريّ بما فيها، لحظة الضعف الجنسي، ودون أن تُزوّر - أيَّ تزوير - في تصوير النفس البشريّة بواقعيّتها الكاملة في هذه المواقف، ودون أن تُغفل أيّة لمحة حقيقيّة من لمحات النفس، أو الموقف، فإنّها لم تسفَّ قط لتنشئ ذلك المستنقع المقزز للفطرة السّليمة، ذلك الّذي يسمّونه في جاهلية القرن العشرين: (الواقعية)، أو يسمونه أخيراً: (الطبيعيّة)، وظلّت القصّة صورة نظيفة للأداء الواقعيّ، الكامل مع تنوّع الشخصيّات وتنوّع المواقف[١].

فهي قصّة شاملة لجميع نواحي الحياة، وجميع جوانب الإنسان المختلفة تصوّر الواقعة أدقّ تصوير بعيداً عن الإسفاف والمبالغة[٢].

وثمّة فارق هائل يفرّق القصّة القرآنيّة عن غيرها من القصص الإنسانيّ، ذلك أنّ الإسلام كدين هو منهج كامل متكامل من أجل الحياة، وهو كمنهج ينعكس أثره وتأثيره على واقع الحياة الإسلاميّة، فيلتزم به المسلمون التزامـاً قويّـًا في الفكر والسلوك، والقيم الحياتيّة الّتي تشكل حركة المسلم في إطار الجماعة، وإذا ما تمسّك المسلمون بقيم الدّين الإسلاميّ تمسكّـًا قويّـًا؛ فإنّ ذلك سيصبح

---

(١) في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٥٢.

(٢) بعض المبادئ التربويّة، مرجع سابق، ص ٣١.

إشارة فاعلة على التأثير الإسلاميّ في الفكر والنفس والحياة، ويصبح العمل الإبداعي كالقصّة له ملامح خاصّة تميّزه عن غيره من أنواع الإبداع الأخرى[١].

د. قصص يلتزم بالنظافة والأدب:

بقدر ما أن القصص القرآني قصص واقعيّ، ولكنه قصص نظيف لا يستطرد في عرض الفاحشة، فلا يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السّامع بمشاعر الجنس المحرّفة، بل يذهب سريعاً إلى ما وراءها من العاقبة والعبرة[٢]. فلحظة الجنس - منحرفة أو غير منحرفة - لا تستأهل الوقوف عندها بأكثر من مجرّد الذّكر؛ لأنّها عارض يعرض في الحياة ويمضي، يمضي ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق[٣].

وإن من الشواهد على الالتزام بهذه النّظافة والبُعد عن الفاحشة، قوله جَلَّجَلَالُهُ في حقّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٤]. وإننا نلاحظ في هذه الآيات كيف يعرض القرآن لحادثة الجنس، فهو يعرضها عرضاً نظيفاً نقياً وخالياً من الإسفاف وإثارة الكوامن الجنسيّة، لا كما تفعل القصّة البشرية حيث تجعل من قضايا الجنس بُطولةً بحدّ ذاتها، وتفخّمها وتهوّلها.

وكما أن من نظافة القصّة القرآنيّة أنّها لا تقف عند لحظة الضعف الجنسي، أمّا جانب التّصدي والصمود لهذا الضعف، فتقف عنده وقفة مناسبة وتسترسل

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣١.

(٣) بعض المبادئ التربوية، مرجع سابق، ص ٣١.

شيئًا ما، فتقول في التصدّي لتلك المراودة: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣][١].

هـ. قصص يسعى إلى تحقيق أهداف سامية:

للقصّة القرآنيّة أهداف عالية وسامية تسمو على أهداف القصّة الأدبية البشرية عمومـًا الّتي ربّما كانت لها أهداف رخيصة تسعى إلى التشوّف والإثارة بأيّ وسيلة كانت[٢].

فالقصص القرآني إنّما يهدف إلى غرض تربوي عالٍ: هو العبرة والعظة في الأحداث والأشخاص؛ من أساء منهم ومن أحسن، أمامَ دواعي الخير والشرّ[٣]، وذلك أنّ القصّة القرآنية تنشئ الأفراد والمجتمعات على إفراد العبوديّة لله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعدم الشرك به، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتُربّي الأفراد والمجتمعات على التّحلي بالأخلاق الفاضلة والبعد عن رذائلها وذميمها[٤].

و. القصص القرآني تميز بخصائص فنيّة عن غيره من القصص:

تناولت القصّة القرآنية عدّة ظواهر فنيّة لها حساب معلوم في الدّراسة الفنيّة للقصّة الحرّة في عالم الفنون، وهي:

– تنوع طريقة العرض: ففي قصص القرآن الكريم أربع طرق مختلفة للابتداء في عرض القصّة:

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٣٣.

(٣) الوحدة الموضوعية، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٤) بعض المبادئ التربويّة المستنبطة من قصّة يوسف، مرجع سابق، ص ٣٣.

• مرّة يذكر ملخصاً للقصّة يسبقها، ثمّ يعرض التفصيل بعد ذلك، من بدئها إلى نهايتها، وذلك كطريقة قصّة أهل الكهف.

• وثانية تُذكّر بعاقبة القصّة ومغزاها، ثمّ تبدأ القصّة بعد ذلك من أوّلها وتسير بتفاصيل خطواتها، وذلك كقصّة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص، وقريب من هذا النحو قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

• وثالثة تُذكر القصّة مباشرة بلا مقدّمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجآتها الخاصّة ما يُغني، وذلك مثل ذلك قصّة مريم عند مولد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومفاجآتها معروفة، وكذلك قصّة سليمان مع النّمل والهدهد وبلقيس.

• ورابعة: يجعل القصّة تمثيليّة فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبّه في ابتداء العرض، ثمّ يدع القصّة تتحدّث عن نفسها بوساطة أبطالها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ هذه إشارة البدء، أما ما يلي ذلك فمتروك لإبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، إلى نهاية المشهد الطويل، ولهذا نظائره في كثير من قصص القرآن الكريم.

- تنوّع طريقة المفاجأة:

• فَمَرّة يكتم سرّ المفاجأة عن البطل وعن القارئ، حتّى يُكشف لهم معاً في آن واحد، مثال ذلك قصّة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع العبد الصّالح، والعالم في سورة الكهف.

• في أخرى يكشف السرّ للقارئ، ويترك أبطال القصّة عنه في عماية. وهؤلاء يتصرّفون وهم جاهلون بالسرّ وأولئك يشاهدون تصرّفاتهم عالمين وأغلب ما

يكون ذلك في معرض السخرية ومثل ذلك ما نراه في قصّة أصحاب الجنة في سورة القلم[١].

• في ثالثة يكشف بعض السرّ للقارئ وهو خاف على البطل في موضع، وخاف عل القارئ وعن البطل في موضع آخر في القصّة الواحدة، مثال ذلك قصّة عرش بلقيس الّذي جيء به في غمضة، وعرفنا نحن أنّه بين يدي سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حين أنّ بلقيس ظلّت تجهل ما نعلمه نحن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]؛ فهذه مفاجئة عرفنا سرّها سلفـًا، ولكنَّ مفاجأة الصرح الممرّد من قوارير ظلّت خافية علينا وعليها حتّى فوجئنا بسرّها معـًا حين: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤].

• وفي رابعة لا يكون هناك سرّ، بل تواجه المفاجأة البطل والقارئ في آن واحد، ويعلمان سرّها في الوقت ذاته وذلك كمفاجأة قصّة مريم.

- الفجوات بين المشاهد في عرض القصّة: تلك الفجوات بين المشهد والمشهد الّتي يتركها تقسيم المشاهد و (قص) المناظر مما يؤديه في المسرح الحديث: إنزال الستار[٢].

✧ ثالث عشر: من مقاصد سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

تحدّث العلماء عن مقاصد سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقد ذَكر الدّكتور علي القره داغي أهمّ مقاصد سورة يوسف بإيجاز شديد، إذ قال:

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٦.

(٢) بعض المبادئ التربوية المستفادة من سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٣٧.

١- التّعقّل والتّدبّر والتبصّر، فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ أي: تعقلون ما أنزل الله تعالى من الآيات والقصص، وتتفكرون في مآلات الأمور، ولا تكتفوا بظاهر الأمور فقط، بل بباطنها ومآلاتها ونتائجها وآثارها، في الدنيا والآخرة.

٢- إحداث الوعي الشّامل والتّوعية القريبة والبعيدة الكاملة حتّى يخرج المسلم عن الغفلة والسطحيّة، ويكون قادراً على فهم الأشياء والقضايا على حقيقتها ومقاصدها.

٣- تقوية الإيمان بالله تعالى، والتّوكل الكامل عليه، وتفويض الأمر إليه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ فما على الإنسان إلّا الأخذ بالأسباب بقدر الإمكان مع التّوكل على الله حقّ التّوكّل.

٤- الرضا التّام من المؤمن بقضاء الله تعالى وقدره، وحسن اليقين بالله تعالى، بأن المصائب والابتلاءات والمحن تحمل في طيّاتها المنح الربانيّة ما دام صابراً راضياً مطيعاً لله تعالى، فلا يستيئس من رحمة الله، ولا يقنط من فضل الله، بل يطمع في نصر الله، وفي تفريج الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ فالسّورة تؤكّد على هذا المقصد من بداية محن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في البئر إلى السجن، ثمّ من السجن إلى القصر وإلى التّمكين. كما أنّ سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يمثّل قمّة الرضا والأمل الكبير، وطردِ البأس والقنوت.

٥- العبرة والاتّعاظ لأصحاب العقول السّليمة والألباب الواعية فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

٦- بيان أنّ الحسد لا يعود بالخير حتّى على صاحبه بل يؤدّي إلى الخذلان والذلّ والهوان، وإن الله تعالى قد يجعل حسد الحاسد سبباً لارتفاع المحسود، فكما يقول الشاعر أبو تمّام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طُويتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ

لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعرف طيبُ عرف العود[1]

٧- الدعوة إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإنكار الشّرك وإفراد الله بالعبادة والدلالة على ملّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

٨- الدّعوة إلى تزكية النّفس البشريّة من خلال التّعريف بها وبطبيعته وترغيب النّاس بمحاسبتها ومراجعتها، والرجوع إلى الله بالاستغفار والتّوبة.

٩- الدّلالة على الطريق الّتي تؤدّي إلى تقوى الله من خلال بيان وإظهار ثمارها في حياة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنّه سبب للمخرج من كلّ ضيق وبها ييسّر الله الأمور وينوّر العقول، ويطهّر النّفوس، وبها تتنزّل البركات الماديّة والمعنويّة، وبها الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم.

١٠- الإشادة بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة كالإخلاص والصدق والإحسان والعفّة، والكرم والعفو والصّبر والحكمة والعلم... إلخ.

١١- أهميّة تقديم الخير والإحسان، ومعاونة النّاس على حلّ أزماتهم والتّخلص من نكباتهم مهما كانت عقيدة هؤلاء البشر ويكون ذلك الفعل والعمل ممّا يتقرب به إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قدوة المسلمين في غير ديارهم، القره داغي، مرجع سابق، ص ٢٠.

١٢- أنّ التّمكين لعباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محض فضل من الله تعالى يسوق له أسبابه ويوفّر له شروطه، وسننه وصفات أهله وهو خاضع لمشيئته وقدرته.

١٣- أنّ القوة والتّمكين من الوسائل الّتي يتقرّب بها إلى الله في خدمة الفقراء والمحتاجين والمساكين وتقديم العون للمحتاجين، وصلة الأرحام مع الأقارب... إلخ.

١٤- بيان أنّ من كان مع الله كان الله معه، ومن وقع في الذنوب والمعاصي والآثام عاش في همّ وغمّ وحزن، كما أنّ رحمة الله قريبة من عبادة سواء الطائع، أو العاصي.

١٥- أنّ الغاية من الحياة تحقيق العبادة وعمارة الأرض والحرص على الوفاء على الإسلام، وأن يُلحق العبد بالصّالحين إلى غير ذلك من المقاصد والغايات في هذه السّورة العظيمة.

✧ **رابع عشر: المقدّمة القرآنيّة لقصّة يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١ - ٣].

أولاً: قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

١. ﴿الٓر﴾:

تلفظ: أَلِفْ لامْ را، وهي من الحروف النّورانيّة، وتسمّى أيضاً بالحروف المقطّعة، لتفريقها وتمييزها عن الحروف المتّصلة في الكلام المعتاد[١].

(١) يوسف أيها الصدّيق، د. محمّد عاطف السقّا، مرجع سابق، ص ١٥.

ولم يثبت عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه تكلم في شيء من معاني هذه الحروف المقطّعة، بل غاية ما ثبت عنه؛ هو ذكر عدد أسماء هذه الحروف[١]، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به عشر حسنات. والحسنة بعشر أمثالها. ولا أقول: (الم) حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[٢].

وبعد الاستقراء والاطّلاع، تبيّن أنّ الأحرف المقطّعة ذكرت في تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم المائة وأربع عشرة سورة، سنشير إليها بشكل مختصر، وهي كالتّالي:

- (الم): وردت في سورة البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.
- (المص): وردت في سورة الأعراف.
- (الر): وردت في سورة يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحِجر.
- (المر): وردت في سورة الرعد.
- (طه): وردت في سورة طه.
- (طسم): وردت في سورة الشعراء، والقصص.
- (طس): وردت في سورة النّمل.

---

(١) أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني، منال فهد، المكتبة المركزية، رسالة جامعية، ٢٠١٩م، ص ٧٧.

(٢) رواه الترمذي، سنن الترمذي أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر، رقم الحديث: ٢٩١٠.

- (يس): وردت في سورة يس.

- (ص): وردت في سورة ص.

- (حم): وردت في سورة غافر، وفصّلت، والزخرف، والدّخان، والجاثية، والأحقاف.

- (حم عسق): وردت في سورة الشورى.

- (ق): وردت في سورة ق.

- (ن): وردت في سورة القلم.

ويُلاحظ، بأنّ غالبية الآيات اللاحقة بالأحرف المقطّعة تتحدّث عن القرآن الكريم، وإنْ تعدّدت فيها الألفاظ؛ تارة (القرآن)، وتـارة: (الكتاب)، وتارة أخرى: (آيات الكتاب) والخ...

وقد اختلف المفسرون في بيان معنى الحروف المقطّعة اختلافـًا واسعـًا، وقد تعدّدت أقوالهم في بيان المراد منها، وفي صدد الحديث عنها، لا بدّ من التطرّق إلى بيانها، وبيان أوجه الاختلاف في تأويلها مع التّرجيح[1].

وملخص اختلاف العلماء في تأويلهم الأحرف المقطّعة كالتالي:

الأول: اسم من أسماء القرآن، كما جاء عن قتادة في قوله: (الم): اسم من أسماء القرآن[2].

الثاني: هي فواتح يفتتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها القرآن. عن مجاهد قال: (الم)، (حم)، (المص)، (ص): فواتح افتتح الله بها[3].

---

(١) أثر السّياق القرآني في الترجيح بين المعاني، منال فهد، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧٨.

(٣) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د/ ط، ج١، ص٢٠٥-٢١٠، المحرر الوجيز: ج١، ص٨٢.

الثالث: قيل: هي أسماء السور. سئل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ١ - ٢]، و ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[السجدة: ١ - ٢] و ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الرعد: ١]، فقال: قال أبي: إنّما هي أسماء سور.

الرابع: قيل: هي اسم الله الأعظم. عن الشعبيّ قال: هي فواتح السور من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[١].

الخامس: قيل: هي حروف مقطّعة من أسماء وأفعال، كلّ حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر.

السادس: لكلّ كتاب سرّ، وسرّ القرآن فواتحه.

السابع: قال آخرون: ابتدأ الله أوائل السور بذلك ليفتح لاستماعه أسماع المشركين، إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن حتّى إذا استمعوا له، تلي عليهم المؤلف منه.

الثامن: هو قسمٌ أقسم الله به وهو من أسمائه؛ عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: هو قسم أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، وهو من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ[٢].

التاسع: ابتدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه السّور بحروف صوتيّة منفردة، ومهما حاول العلماء أن يفسّروها لن يصلوا إلى معانيها وهي ظنون يردّدونها، وليست معاني يستقيم إدراكها، إنّها متشابه اختصّ الله بعلمه، وقد آمنّا به كلّ من عند ربّنا، ولا ينبغي تأويله، وما يعلم تأويله إلّا الله عَزَّ وَجَلَّ[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ج١، ص٢٠٥- ٢١٠.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، (١/ ٢٠٥- ٢١٠.

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط١ (١٤٣٢هـ)، ج٧، ص٣٩٧٤.

العاشر: ذُكرت لتنبيه العرب إلى أنّ القرآن الكريم إنّما أُلّفت كلماته من جنس ما تؤلّف منه كلماتهم، أي: من حروف الهجاء العربيّة المعروفة لديهم، فلم ينزل بكلمات خارقة للعادة حروفها، ولا مباينة للمألوف في مواد تركيبها، ومع ذلك فقد كان عجزهم عنه أبلغ في الحجّة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم حيث عجزوا عن الإتيان ولو بأقصر سورة من مثله، ومع أنّهم أصحاب البلاغة والفصاحة والبيان[١].

٢. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾:

- ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة للبعيد، واستعمل هنا ليشعر بارتفاع قدر آيات الكتاب فوق كلّ كلام ارتفاعـاً هائلاً وعلواً سامياً لا ينال ولا يُدرك، ولا حتّى يقرُب منه كلام آخر[٢].

ومع أنّ الآيات بين يديك ممسِك بصحائفها، إلّا أنّك تقول: تلك (إشارة للبعيد)، استشعاراً لعلوّ مكانتها، وشموخ معانيها، ورفعة شأنها[٣].

- ﴿ءَايَٰتُ﴾: ترد كلمة: ﴿ءَايَٰتُ﴾، في القرآن لمعانٍ منها:

الأول: بمعنى الجمل المنزّلة على النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقروءة باللسان، ويُقال لها: في القرآن فواصل، وسجعات، وفِقر، ومنه قولهم مثلاً: سورة يوسف مائة وإحدى عشرة آية، والفاتحة: سبع آيات، وهكذا.

---

(١) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، (١/ ٣٤)، أثر السّياق القرآني في الترجيح، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٢) تأملات إيمانية في سورة يوسف، ياسر برهامي، دار الخلفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ١٢.

(٣) يوسفيات، علي جابر الفيفي، دار الميمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، ص ٢١.

الثاني: بمعنى العلامات، فقال النابغة الذبياني:

توهمتُ آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ومنها العلامة الّتي أقامها في الأنفس والآفاق للدّلالة على وحدانيّته وكماله وتنزيهه.

الثالث: بمعنى المعجزات الخارقة للعادة، الّتي أجراها الله على أيدي رسله، ولعلّه قيل لها آية لأنّها علامة.

الرابع: بمعنى العبر والذكر والحكم والعظات الّتي توخذ بما ينزّله الله على نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المعنى قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]؛ فالآية هنا بمعنى العِبرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف: ١١١].

الخامس: بمعنى العجيبة؛ لأنّها عجب من العجائب، وقال الدّكتور محمّد عاطف السّقا: آيات: جمع آية، والآية هي الدّليل الواضح والبرهان الساطع، والحجّة البيّنة على أمر أو شيء ما(١).

وآيات القرآن الكريم هي آيات الله في كتابه الدّالة عليه وعلى مراده في خلقه، وقد جاءت على ثلاثة أنواع:

- آيات الله في كتابه.
- آيات الله لأنبيائه.
- آيات الله في خلقه.

(١) يوسف أيها الصّديق، مرجع سباق، ص ٢٢.

ومن مقاصد آيات الله تعالى في كتابه العزيز:

- الدّلالة على الله سبحانه، والتّعريف بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

- الدّلالة على صِدق رُسله.

- الدّلالة على مُراد الله من النّاس؛ إيمان وتكليف (عبادة)، ويتبعها حساب وجزاء.

وقد فَصّلها الله في آيات العقيدة، وفي آيات الشّرائع والأحكام، وفي آيات القِيم والأخلاق، وذلك لتتبيّن مقاصد الله في خلق هذا الإنسان المميّز بالإرادة العاقلة، والاختيار الحرّ، وجعله محلّ العبادة والتكليف الحرّ المختار، ومن ثمّ الحساب والجزاء[1].

وآيات الله من الخوارق الّتي يعجز غير الله تعالى أن يأتي بمثلها إلّا بأمره وإذنه، ومن أمثلة هذه الآيات: ناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء الموتى لعيسى، ومن أعظم الآيات وأبقاها؛ هذا القرآن العظيم الّذي أوتيه محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد أعجز الإنس والجن على أن يأتوا ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وأمّا آيات الله في خلقه: هي ما بثّه الله وخلقه في الكون العظيم بسماواته وأرضه (الكتاب المنظور)، في كلّ صغير وكبير، فيه من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة، ومن أصغر جرثومة إلى أكبر دابّة.

إنّ كلّ مخلوق في هذا الكون آية، ومن البداهة والسّلامة منطقـاً أنّ لهذا الكون خالقـاً عظيمـاً، ولم يدّعِ أحدٌ إلا الله خلق هذا الكون، أو شيئـاً منه، وكما أنّنا لا نجد أحداً من الخلق له القدرة على خلق ذرّة من عدم.

---

(١) يوسف أيها الصّديق، المصدر السابق، ص ٢٣.

إنّ هذا الكون أثبت أنّ خالقه واحد؛ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ودلّت آيات الله في خلقه العظيم أنّ هذا الخالق له صفات العظمة والعلم والقدرة والعدل والحكم، والوجود والقيّوميّة، وسائر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا الواردة في كتاب الله العزيز الحكيم دلّت على وجوده سبحانه، وعلى وحدانيّته في صفات ربوبيّه، وآيات الله في كتابه (المسطور)، دلّت على مُراده وعلى مقاصده(١).

- ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: كلمة الكتاب عندما تطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم(٢)، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى أنّ القرآن ما دام مكتوبـًا فهو موثّق لا ريب فيه، وفيها أيضـًا دلالة إعجاز أخرى، وهي أنّه في العهد المكّي والمدني كان مكتوبـًا على مواد بسيطة كما أثبتت الروايات، ولكنّه لم يكن مجموعـًا كاملاً إلّا في عهد أبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين دفتين جمع ما تفرق، وفي عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمع ما اختلف فيه من أحرف. فدلّ قوله الله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ على أنّه سيجمع وسيتكفّل الله بحفظه، وصدق الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولن تكون كتابته معمة، بل ستكون معيّنة، ويدلّ على ذلك قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، صحيح أنّها وصف لـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، لا وصف لـ ﴿ءَايَٰتُ﴾، غير أنّ الآيات جزء من الكتاب وما ينسب هنا على الجزء ينسحب على الكلّ. ولمّا أشار الحقّ لكونه مكتوبـًا موثّقـًا أشار إلى وصف حالي آخر فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]؛ فالهاء تعود على: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، فهذا الكتاب لم يكن

(١) يوسف أيها الصّديق، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، (٦٨١٨/١١).

ليكون كتاباً مكتوباً فحسب، ولكن شاء الله أن يحفظه مقروءاً، فهو محفوظ بالقراءة، إذ يأخذه جمع عن جمع بالتلاوة قبل الكتابة[1].

- ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: أيّ: الّذي يبيّن كلّ شيء تحتاجه حركة الإنسان في الأرض، فإن بان لك شيء، وظننت أنّ القرآن لم يتعرّض له، فلا بد أنّ تبحث عن مادّة، أو آية تلفتك إلى ما يبيّن لك ما غاب عنك. ويروى عن الإمام محمّد عبده أنّه قابل أحد المستشرقين في باريس، فوجّه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال: ما دامت هناك آية في القرآن تقول: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[الأنعام: ٣٨]، فدعني أسألك كم رغيفاً ينتجه إردبُّ القمح فقال الإمام للمستشرق: انتظر، واستدعى الإمام خبّازاً وسأله: كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من إردبُّ القمح فأجاب الخبّاز على السؤال. فقال المستشرق: لقد طلبت منك إجابة من القرآن، لا من الخبّاز، فرد الإمام: إذا كان القرآن قد قال: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[الأنعام: ٣٨]، فالقرآن قال أيضاً: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ولقد أورد الإمام محمّد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنّ العقل البشريّ أضيق من أن يسع كلّ المعلومات الّتي تتطلبها الحياة؛ لذلك شاء الحقّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن تُوّزع المواهب بين البشر، ليصبح كلّ متفوّق في مجال ما، هو من أهل الذكر في مجاله.

ونحن - على سبيل المثال - عندما نتعرّض لمسألة ميراث، نلجأ إلى من تخصص في المواريث ليدلّنا على دقّة توزيع أنصبة هذا الميراث. وحتّى يؤدّي المسلم من العامة فريضة الحجّ، فيكفيه أن يعلم أنّ الحجّ فريضة، ويبحث عند بدء الحجّ عمّن يعلّمه خطوات الحجّ كم أدّاها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهكذا..

---

(١) تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، (٣/ ١٢٧١).

ثانيـًا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

١. ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾:

- ﴿ إِنَّآ ﴾: أي: إنّ الخطاب من الله الحاضر غير الغائب ذي المجد والمعظمة، والسلطان؛ بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

- ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾: كذلك بصيغة الجمع للتفخيم، وأنزله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا. وضمير الهاء راجع إلى الكتاب[١]. وأمّا دلالة (الإنزال) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾، فإشارة إلى الإنزال، والإنزال يكون جملة واحدة، والتنزيل يكون على مراحل متعدّدة على اعتبار النزول، ولذا قيل: الإنزال يُستعمل في الدّفعة، والتنزيل في التدرّج[٢]. ونلاحظ في قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾، أنّها إحدى الصيغ الّتي أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للتّعبير عن حال وصول القرآن إلى النّاس، ولقد تعدّدت الصيغ في القرآن، الكريم، فالله تعالى يقول: ﴿نَزَّلَ﴾، و﴿أَنزَلَ﴾، ولكلّ من هذه الصيغ مدلولاتها، فسبحان الله العظيم، تعالى شأنه، وجلّت قدرته فيما أنزل[٣]. فمثلًا قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فنسب النزول مرّة لجبريل كحامل للقرآن ليبلّغ به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومرّة قال تعالى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]، والنزول في هذه الحالة منسوب لله عَزَّ وَجَلَّ. وأمّا قول الحقّ سبحانه: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٩٠]، فهو القول الّذي يعني أنّ القرآن قد تعدّى كونه مكتوبـًا في اللّوح المحفوظ ليباشر

---

(١) يوسف أيها الصّدّيق، محمّد السّقّا، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، د. أشرف أحمد، مكتبة آفاق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦/ ٢٠١٥م، ص ٢٧.

(٣) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٥.

مهمّته في الوجود ببعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السّماء الدنيا، ثمّ نزل بعد ذلك نجوما متفرّقة ليعالج كلّ المسائل الّتي تعرّض لها المسلمون[١]. وهكذا يؤول الأمر إلى أنّ القرآن نزل، أو نزل به الروح الأمين، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء: ١٠٥]، أي: أنّ الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزله من اللوح المحفوظ إلى السّماء الدنيا ثمّ أنزله مفرقـاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمّته في الوجود الواقعي. وفي هذه الآية يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، وفي الآية السّابقة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[يوسف: ١]، فمرّة يصفه بأنّه قرآن بمعنى المقروء، ومرّة يصفه بأنّه كتاب؛ لأنّه مسطور، وهذا من معجزات التّسمية.

ونحن نعلم أنّ القرآن حين جُمع ليكتب، كان كاتب القرآن لا يكتب إلّا ما يجده مكتوبـاً، ويشهد عليه اثنان من الحافظين[٢]، إذن، فهو قرآن وكتاب، وهذا من إعجاز التّسمية.

إن القرآن الكريم أُنـزل من العلو، فهو يحمل خصائص السموّ والعلوّ والارتفـاع، فكل من قرأه وأراد بذلك وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعمل به ابتغاء مرضاته، وحفظه مخلصـاً لله، تطهّرت نفسه، وارتفعت درجته عند ربّه، وعلتْ مكانته في الدنيا والآخرة.

وفي قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، يَستوقفنا من هذه الآية الإشارة إلى عظمة منزّل الكتاب من خلال نون العظمة، وكيف لا، وهو قيوم السماوات والأرض، وملك الملوك، والآخذ بناصية كلّ شيء. وإنّ هذه العظمة الّتي في

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٢٢).

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٢٣).

القرآن لتقطع لك بأنّه كلام الله، فإنه لا يستطيع بشر أن ينتحل هذه العظمة وإنّ عظمة المنـزِّل ترتبط بها عظمة الكتاب المنـزَّل، وعظمة الأمّة المنـزَّل فيها الكتاب[١].

- ﴿عَرَبِيًّا﴾: فالقرآن الكريم عربيّ اللغة، أنزله سبحانه على النبيّ العربيّ سيدنا محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب الهاشميّ القرشيّ في أرض العرب إذ قدّر سبحانه أن تكون رسالة كلّ رسول بلسان قومه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد جاء التأكيد على وصف القرآن الكريم بأنّه عربيّ اللغة في عدد من الآيات الكريمة منها:

- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه: ١١٣].

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]. وغير ذلك من الآيات، وكلّ ذلك يدلّ دلالة قاطعة على أنّ القرآن الكريم عربيّ اللغة بجميع كلماته.

- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

- وقال أيضاً: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

---

(١) تفسير سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

فالقرآن كلّه عربي، وما من كلمة فيه إلّا كان العرب يتكلمون بها قبل نزوله. ويدلّ نزول القرآن الكريم باللغة العربيّة على فضلها وشرفها على سائر اللغات، لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختارها لغة لأفضل الكتب وأشرفها، وكما يدلّ على أن اللغة العربيّة تمتاز بقدرتها الفائقة على تأدية المعنى مهما كان(١).

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني الّتي تقوم بالنّفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف بقاع الأرض(٢). وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كلّ الوجوه.

إنّ القرآن الكريم كتاب مبين واضح جليّ لأنّه نزل بلغة العرب، أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني، وهذا يفنّد مزاعم القائلين بعجز اللغة العربيّة عن مسايرة ركب التطوّر العلمي في العصر الحاضر، وهي أكذوبة كبيرة وفِرْيَة عظيمة على اللغة العربيّة، روّجها أعداء الإسلام من المستشرقين، وأخذ بها - مع الأسف - كثير من المثقّفين العرب، فعزلوا لغتهم العربيّة عن مجالات الدّراسة والتدريس في معظم الجامعات والكليّات العلميّة وغفلوا عن حقيقة هامّة، هي أنّ اللغة العربيّة كانت لغة الحضارة الإسلاميّة، الّتي ضمّت تحت أجنحتها مختلف الثقافات والعلوم الّتي كانت سائدة في العالم، الحضارة الّتي خلّفت أكبر تراث علميّ وحضاريّ لأمّة من الأمم. وغفلوا أيضـًا عن كون اللغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم الّذي لا تنتهي معانيه، والّذي أخبر عن كثير من

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مرجع سابق، (٤/ ١٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (٤/ ٣٦٦).

الحقائق العلميّة الّتي ما عُرفت إلّا في العصر الحاضر. ولقد ذهب بعض العلماء في مؤتمر الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم الّذي عقد في القاهرة سنة ١٩٨٦م إلى المطالبة بجعل الكلمات القرآنيّة العلميّة لأطوار خلق الجنين هي المصطلحات العلميّة، ونادى هؤلاء بتعميمها على سائر الأوساط العلميّة بسبب ما وجدوا من دقّتها العلميّة المتناهية في وصف أطوار الجنين وأحواله[١].

نالت العربيّة شرفها، وارتفاع مكانتها بين اللغات من ارتباطها بالموصوف، وهو القرآن الكريم، وهو فضل الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على العرب ولغتهم العربيّة بأنّ القرآن الكريم نزل بالعربية ليكون خطاب المولى سبحانه إلى كافة الخلق، فارتفع شأنها بهذا التكريم الرباني، ولولا ذلك لبادت واندثرت منذ زمن بعيد، ولتحولت إلى لهجات متباينة مختلفة لا يكاد الناطقون بأحدها يفهمون الأخرى[٢].

أخرج القرآن الكريم اللغة العربيّة من عالم الجزيرة إلى عالم الرسالة الرحب عندما خاطب بها العشيرة وخاطب بها أهل مكة ثمّ خاطب بها النّاس أجمعين، فاستطاع أن يقرب بين يديها معظم أنحاء العراق وبلاد الشام وشمال أفريقيا، واستطاع المسلمون الفاتحون أن ينشروا العربيّة في معظم البلاد المفتوحة، ذلك أن التعريب بالقرآن وتحت رايته جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام[٣]. وأصبح تعلم العربيّة ضرورة دينية، فالصلاة لا تكون إلّا باللغة العربيّة وكذلك الآذان فلا بد من قراءة القرآن ورفع الأذان وأداء الصلاة بالعربيّة[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٤).
(٢) العدد في القرآن الكريم، عبد الرحمن سعود، مرجع سابق، ص ٣١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

إنّ كون القرآن جاء بلسان عربي مُبين يقتضي ألّا يتعدّى لفهم القرآن الكريم وتفسيره إلّا من كان عالمـاً باللغة العربيّة؛ فقهها وصرفها وبيانها ومعانيها وبديعها، وأساليبها ودلالاتها، أمّا غير العرب، فإما أن يتعلموا اللغة العربيّة كما فعلوا فسبقوا بضعهم أهلها، وأبدعوا فيها، أو نترجم لهم معاني القرآن الكريم، فتكون المعجزة في معانيه وتشريعاته وما يتضمنه من الإعجاز العلمي والطبي ونحوه[١].

إنّ القرآن الكريم منهج حياة، ومعجزة ربانية لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزل باللغة العربيّة؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيجهر في الدعوة في أمة عربية، وكان لا بد من وجود معجزة تدلّ على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون ممّا نبغ فيه العرب؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدي ولا يمكن أن يتحداهم في أمر لا ريادة لهم فيه، ولا لهم به صلة، حتّى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلّم هذا ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيانٍ وأدب ونبوغ في الفصاحة والشعر، وكانوا يجتمعون في الأسواق، وتتفاخر كلّ قبيلة بشعرائها وخطبائها المفوّهين. وكانت المباريات الأدائيّة تقام، وكانت التحدّيات تجري في هذا المجال ويُنصب لها الحكّام. أي: أنّ الدربة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة محكوم عليها من النّاس في الأسواق، فهم أئمة بيان وبلاغة وفصاحة. لذلك شاء الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب، وهم أوّل قوم نزل فيهم القرآن، وحين يؤمن هؤلاء لن يكون التحدي بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام، بل بالمبادئ الّتي تطغى على مبادئ الفرس والروم[٢].

---

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة للمسلمين في غير ديارهم، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٢٥).

إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرسل محمّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرآن الّذي تميّز عن سائر كتب الرسل الّذين سبقوه، بأنه كتاب ومعجزة في آن واحد، بينما كانت معجزات الرّسل السّابقين عليهم الصلاة والسلام منفصلة عن كتب الأحكام الّتي نزلت إليهم، ويظل القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أن تقوم الساعة[١].

٢. ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

أيّ: وتدركون أنّ هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون من صنعة بشر، فلا بد عقلاً أن يكون القرآن وحياً، والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالاتها القاهرة[٢]. وإنّ من مهام القرآن أن يهدي العقل إلى الطريق السليم للتفكير، وأن يزوّده بالمعلومات السليمة الّتي تمكنه من التّفكير السّليم، فإنّ العقل يحتاج إلى منهج كالطريق يسير عليه ويحتاج إلى معلومات تشغله. والقرآن زودنا بكلّ ذلك، بالمعلومات الّلازمة عن الغيبيات وعن الكون، وزودنا بالمنهج الّذي به نفكر، ووفقه ننظم طاقتنا الفكرية، ونحفظ عقولنا من أن تتبدّد في الضلال وتأسرها الأهواء والأحكام الخاطئة والمناهج الفاسدة، من فلسفة ضالة، أو منطق مزيّف، وكم اخترع الإنسان من مناهج ضلّل بها نفسه، والحمد لله على منّة حفظ عقولنا مع منّة هداية قلوبنا[٣].

و﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ ما فيه حقّ وهدى ونور وخير وسعادة، وتعقلون سموه بما اشتمل عليه من أنواع الإعجاز، وبما اشتمل عليه من جمال اللفظ وجلال المعنى وقوّة الأسلوب، وحسن التّعليم، وتلازم الكلمات، وأخذ كلّ كلمة بحُجَز الآخر مما يأخذ بمجامع القلوب ولألباب وما إلى ذلك مما احتواه

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٦٨٢٦).

(٢) في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٤/ ١٩٧٠).

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

من القياسات الحكيمة والتشريعات الرشيدة، والمعاملات العادلة، مما أخبر به من أحوال الماضي، وما تنبأ به من أحداث المستقبل، كلّ ذلك من نبي أميّ لم يمسك قلمًا، ولم يقرأ في كتاب، ولم يدرس على معلّم، ولم يخالط العلماء، ولم يعاشر أحداً من القسّيسين والرّهبان. فإذا عقلوا القرآن الّذي نزل بلغتهم علموا أنّه كلام الله الّذي ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢][١].

و﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] حقائق الوجود وتدركونها وتعرفون الغاية الّتي من أجلها وجد الخلق، ونهاية المطاف بعد هذه الحياة ومعرفة صفات ربكم ووحدانيته وصدق رسله وتوابع ذلك من الإيمان، فليس بعاقل من أفنى عمره في لذات الطعام والشراب، والجنس والرياسة، والشهرة والمال، وهو يرى الموت يحصد أمامه من هو أشد منه قوة وأكثر جمعـًا، وليس بعاقل من رأى عاقبة من سبقه من الكفرة والفسقة والعصاة، ثمّ هو يسير على سننهم ويكرر غيّهم وضلالاتهم، وليس بعاقل من نسي نفسه، وجعل عمره لغيره، فأفسد دينه، وآخرته لإصلاح دنيا غيره، وما أصلحها، بل أفسده وأشقى نفسه وغيره! فالعاقل الحقيقي هو أن يُعدّ الإنسان لمستقبله بعد رحيله عن هذه الأرض، بعد رحلته القصيرة الّتي يحياها فوقها[٢].

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[يوسف: ٢]: تدل الآية على أن الإسلام لا يقوم على مجرد الأوهام والخيالات، بل بحكمة العقل والمنطق الّذي يضبط كلّ عاطفة حتّى لا تهبط بصاحبها إلى مهاوي الفتنة والهلكة. نعوذ بالله منها[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٥.

(٢) تأملات إيمانية في سورة يوسف، ياسر برهامي، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣) الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٢٨.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

يتحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن فعل من أفعاله، ويأتي بضمير الجمع، فسبب ذلك أنّ كلّ فعل من أفعاله يتطلب وجود صفات متعدّدة، يتطلب، علمًا، حكمة، قدرة... ومَن غيرُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له كلّ الصفات الّتي تفعل ما شاء وقت ما يشاء؟ لا أحد سواه قادر على ذلك؛ لأنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده صاحب الصفات الّتي تقوم بكل مطلوب في الحياة ومقدَّر، لكن حين يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الذات فهو يؤكد التوحيد فلا تأتي بصيغة الجمع، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه: ١٤].

١. ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾:

يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسلوب يُعبّر عن أفعاله، ولا يقدِر عليه غيره بالدقة الّتي شاءها هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[١].

والتعبير بـ ﴿ نَحْنُ ﴾ للدلالة على أنّ القصّة عظيمة، وهنا تنبيه مهم وهو أنّ إسناد فعل القصّة إلى الله تعالى لا يعطي الحقّ في إطلاق الصفة المشتقة منه عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك لا يجوز إطلاق (القاصّ) على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالقاعدة الذهبية في المسألة هي: أنّ ما أثبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذاته بصيغة الصفة، مثل: العالم، والقادر، ونحوهما يجوز إطلاقها وإطلاق فعلها على ذاته العلية[٢].

يقول العلامة الشعراوي: وفي كلّ ما يتعلق به ذاتًا وصفات وأفعالاً إنّما نلتزم الأدب؛ لأننا لا نعرف شيئا عن ذات الله إلّا ما أخبرنا الله عن نفسه؛ لذلك لا يصح

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٢٩).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٧.

أن نقول عن الله أنّه: (قصّاص)، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به، ولا نشتق منه اسما لله؛ لأنّه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنى بذلك، والواجب ما أطلقه اسما نأخذه اسمًا وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً[١]. ونعلم أنّ كلمة (قصَّ) تعني الاتبّاع، وقال بعض العلماء: إنّ القصّة تُسمى كذلك لأن كلّ كلمة تتبع كلمة، ومأخوذة من قصّ الأثر، وهو تتبع أثر السائر على الأرض؛ حتّى يعرف الإنسان مصير من يتّبعه، ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الّذي سار فيه من يبحث عنه. واقرأ قول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]؛ قصيه: أي: تتبّعي أثره. إذن فالقصّ ليس هو الكلمة الّتي تتبع كلمة، إنّما القصّ هو تتبع ما حدث بالفعل، فتكون كلمة مصوّرة لواقع، لا لبس فيه أو خيال؛ ولا تزيّد. وليس كما يحدث في القصص الفني الحديث، حيث يضيف القصاص لقطات خيالية من أجل الحبكة الفنية والإشارة وجذب الانتباه. وأمّا قصص القرآن فموضعه مختلف تمامًا، فكل قصص القرآن إنّما يتتبّع ما حدث فعلاً؛ لنأخذ منها العبرة والفوائد والدروس؛ لأنّ القصّة نوع من التاريخ[٢].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: العظيم يقصّ، والرسول الكريم يستمع نصًا يفيض نوراً؛ يا الله ما أجمل الموقف، أن يقصّ الخالق على المخلوق! إنها القصص المؤثرة في كلّ النفوس، وفي نفوس الأنبياء والمرسلين والمصلحين والصالحين والمؤمنين والمسلمين، والإنسان جُبل على حبّ القصص، فهي أسلوب تربوي يجذب المتلقي[٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣١).

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣٣).

(٣) أيها الصديق، محمد خيري، مركز آيات لتعليم القرآن الكريم، حقوق الطبع محفوظة، ص ١٣.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: والآيـة الّتي قبلها: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف: ٢]، يدل على مرونة اللغة، وقدرتها على تأدية مختلف المعاني بأفصح المباني، وأوضحها، فأحسن القصص أنزلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باللغة العربيّة، وهي في الأصل قصّة غير عربية في أشخاصها وأحداثها، فالقصّة عبرية، مع ذلك قصها الله علينا في القرآن العربي المبين بأرفع بيان، وأفصح كلام، في سورة واحدة بأداء واقعيّ كامل، رغم تنوّع الشخصيات والمواقف، ورغم كثرة العواطف والمشاعر ودقتها واختلافها، وكلّ ذلك يدلّ على فضل اللغة العربيّة وشرفها، وقدرتها على تأدية مختلف المعاني، سواء كانت تاريخيّة أو علميّة أو غير ذلك(١).

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ لأنّه قُص بأبدع أسلوب، ولأنه يبيّن عجائب النّفوس، وفيه أحسن الآداب، وما يهمّنا من اتقاء آفات النّفوس، وانحرافها؛ ولأن فيه علاج الآفات النفسية الّتي ينزغ فيها الشيطان نزغه؛ ولأن فيه علاج الأمم في اجتماعها واقتصادها وكافة أمور حياتها(٢).

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ ومن العلماء من يرى أن قصّة يوسف أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعدّدة؛ عبرٌ في الطفولة، في مواجهة الشيخوخة، والحقد والحسد بين الإخوة، والتمرد وإلقائه في الجبّ، والكيد له، ووضعه سجينًا بظلم، وموقف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الافتراء الكاذب، والاعتزاز بالحق حتّى تم له النصر والتمكين. وكيف ألقى الله على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ محبة منه؛ ليجعل كلّ من يلتقي به يتسابق على خدمته.

---

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٤).

(٢) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٤).

وكيف صان يوسف إرث النبوّة بما فيه من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة، فعفا عن إخوته بما روته السّورة: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقالها سيد البشر محمّد لأهله يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء"[١]. هكذا تمتلئ سورة يوسف بهذه العبر؛ لذلك فهي أحسن القصص، إمّا لأنها جمعت حادثة ومن دار حولها من أشخاص، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث، أو أنها أحسن القصص، لأن سورة يوسف هي السّورة الّتي شملت لقطات متعدّدة تساير العمر والزمن، والعمر العقلي، والعمر العاطفي للإنسان في كلّ أطواره؛ ضعيفـًا، مغلوبـًا على أمره، وقويـًا مسيطراً ممكنا من كلّ شيء[٢].

قال البقاعي: ومن ذلك قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد ضمنها سبحانه من النكت والعبر والحكم أمراً عظيمـًا، وذكر فيها حسن مجاورة يوسف عليه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لإخوته وصبره على أذاهم وحلمه عنهم وإغضاءه عند لقائهم عن تبكيتهم وكرمه في العفو، والأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن والتوحيد والنبوة والإعجاز والتعبير والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجميع الفوائد الّتي تصلح للدين والدنيا، وذكر الحبيب والمحبوب، ولم يدخل فيها شيئا من غيرها دون سائر القصص، وكان عقابها إلى خير وسلامة واجتماع شمل وعفو من الله وتجاوز عن الكل[٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣٥).

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣٦).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – مصر، (٤/ ٦).

وهناك من العلماء من قال: ليس المراد بـ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على وجه الخصوص، وأيد ذلك ابن تيمية فقال: وليس المراد بقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] قصّة يوسف وحدها، بل كلّ ما قصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يدخل في أحسن القصص، واحتج على ذلك بالأدلة الآتية(١).

- سياق الآيات في السّورة؛ فإنه قال في آخرها: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]؛ فبين أن العبرة في قصص المرسلين(٢).

- أنّ قصّة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصّة يوسف بكثير، ولهذا فهي أعظم قصص الأنبياء الّتي تذكر في القرآن، بل قصص سائر الأنبياء كنوح، وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم من المرسلين، أعظم من قصّة يوسف؛ ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثني قصّة يوسف(٣).

- أن الله قال بعدها: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، ولم يقل بما أوحينا إليك هذه السّورة.

- أنّ الآثار الواردة في ذلك عن السلف كلّها تدل على ذلك(٤).

(١) اختيارات ابن تيمية، محمد بن سريع، دار التدمرية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ، (٢/ ٧٨٨).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٢/ ٢٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد للطباعة والنشر، السعودية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، (١٧/ ٢١).

(٤) اختيارات ابن تيمية، مرجع سابق، (٢/ ٧٩١).

٢. ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]:

أيّ: أنّ هذا القصص مصدره الوحي الرباني، ولا عِلم لأحد به حتّى يُعلّمك إيّاه، فلا علاقة للنبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالقرآن سوى أنّه تلقاه بواسطة الوحي وبلّغَه للناس[١].

وإنَّ القصص الوارد في القرآن الكريم كان أحسن القصص؛ لأنَّه وارد من العليم الحكيم؛ فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعاً للسامعين في إبداع الألفاظ والتراكيب، فيجعل منه غذاءَ العقل والروح وابتهاج النفس والذوق مما لا تأتي بمثله عقول البشر.

واسم الإشارة: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، لزيادة التمييز، فقد تكرر ذكر القرآن بالتصريح والإضمار واسم الإشارة ست مرات، وجمع له طرق التعريف كلّها، وهي اللام والإضمار والعلَمية والإشارة والإضافة[٢].

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ أي بإيحائنا، ولا مصدر له، إلّا وحي الله تعالى، فقد أوحي به في ضمن القرآن الكريم ليكون دليلاً على إعجازه وسبباً من أسباب الإعجاز، إذ أخبر بما هو صادق، ولم يكن للعرب علم به عندهم[٣].

- ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾؛ أي: لمن الغافلين عن تفاصيل ما أوحي الله إليه من الكتاب والإيمان كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ

---

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٥).
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، (٧/ ٣٧٨٧).
(٣) زهرة التفاسير، مرجع سابق، (٧/ ٢٧٩).

لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولقد كان النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة مجتنبـًا لعبادة الأوثان مبتعداً عن مساوئ الأخلاق، متعبّداً لله على التوحيد، لكنّه لم يكن يعلم تفاصيل الإيمان والعلم الّذي امتن الله عليه بإنزال هذا القرآن العظيم على قلبه، وكذلك كلّ عبد لا يتدبر القرآن ولا يتعلمه يكون من الغافلين، فالقرآن ذِكْر لمن يتذكّر، يحيي الله به قلوب من اصطفاهم من عباده، فتستيقظ القلوب لنور التنبيه وتعدّ العدّة للسير عل الصراط المستقيم الموصل إلى رحمة رب العالمين(١).

قال الشيخ محمّد متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمقصود بالغفلة هنا أنّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أُمِّيـًا، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل نزول القرآن أنّه خطيب أو شاعر، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخُلقية العالية من صدق وأمانة؛ وهي صفات مطلوبة في المُبلّغ عن الله؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض؟

إن الكذب أمر مُسْتبعد تمامـًا في رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة وبعدها(٢). وقال: والغافل هو الذي لا يعلم لا عن جهل، أو قصور عقل، ولكن لأنّ ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله أو أن يكون المقصود بقوله: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، أي: أنك يا محمّد لم تكن ممَّنْ يعرفون قصّة يوسف؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب، ولم تجلس إلى مُعلِّم يروي لك تلك القصّة، ولم تجمع بعضـًا من أطراف القصّة من هنا أو هناك. بل أنت لم تَتَلَقَّ الوحي بها إلّا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة: اسألوه

---

(١) تأملات إيمانية في سورة يوسف، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٣٧).

عن أبناء يعقوب وأخوة يوسف؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر؟ وكان ضَرْبـاً من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالي بكل تفاصيل القصّة، كدليل عمليٍّ على أن مُعلِّم محمّد ﷺ هو الله، وأنه سبحانه هو مَنْ أَوحى بها إليه[١].

وقال الإمام محمّد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعَبَّر الله سبحانه بإثبات الغفلة، لَا بمجرد نفي العلم؛ للإشارة إلى أن هذا من دقائق العلم وعميقه الّذي تغفل عنا، العلماء، إلّا من يكون آتاه الله تعالى وحيا من علام الغيوب؛ لأنّه علم بالنّفوس، وخواطرها وما تختلج به الأفئدة، وذلك لا يكون إلّا من عليم، وفيه علم كامل بالاقتصاد من غير تعليم أحد من البشر، فعلم يوسف بالاقتصاد الصالح مع النزاهة النبوية علم من الله، فعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا الصادقة، وبها اهتدى ودبر الأمر، وادخر من سني الرخاء للشدة، وكان تدبيره خيرا، وبذلك علم النّاس، ألا يسرفوا في رخاء حتّى لَا يقحطوا إذا اشتدت من بعد[٢]. إنّ من أعظم دلائل النبوّة نزول القرآن بقصص لا عهد للنبيّ ﷺ ولا للعرب بها.

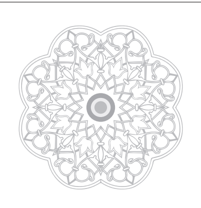
وقال الدكتور أحمد نوفل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمّا وصف الغفلة الّذي وصف به النبيّ ﷺ في هذه السّورة ووصْف ﴿ضَآلًّا﴾ في سورة الضحى، فيعنيان عدم تحصيل العلم. أيّ الأمية، وهذا من باب تقرير الواقع لا من باب الذم - معاذ الله - أمّا الغفلة المذمومة، فهي ما كانت عن تشاغل ولهو، وإعراض بعد معرفة، وفي هذا يظهر فضل الله على هذا الأمة الأمية، وعلى نبيها ويظهر لنا أيضـاً أن العقل يكون في غفلة وإن كان ذكيـاً ألمعيّـاً حتّى يتلقى علمـاً منهجيّـاً ينقله إلى دائرة الحضور والوعي[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٩٨٤٠).

(٢) زهرة التفاسير، مرجع سابق، (٧/ ٣٧٩٧).

(٣) سورة يوسف، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٧.



المبحث الأول: رُؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ونصيحة أبيه وكيد إخوته وإلقاؤه في البئر ونجاته منه:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: ٤ – ٢٠].

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: ٤ – ٦].

١. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾:

كانت هذه الرؤيا محور القصّة وبدايتها، وكان تحققها وتأويلها هي نهايتها السعيدة[١].

أ. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾:

أيّ: واذكر لقومك يا محمّد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصصك عليهم من قصّة يوسف إذ قال لأبيه. وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام[٢].

ومن هذه الآية، تبدأ قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى الآية (١٠١) بالظرف الزماني (إذ)، والّذي وظيفته اقتطاع جزء من الزمن الممتد والتركيز عليه ووضعه تحت الأضواء لأخذ العبرة منه والفائدة، ولذلك كثر هذا الظرف في القصص القرآني وكثر أيضاً في المواطن الّتي يراد لفت نظر العباد إلى ما فيها من آيات الله وإفضاله، وتأمل – إن شئت – آيات الأنفال الّتي وصفت لنا غزوة بدر.

---

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، (٤/ ٣٦٩).

- ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

- ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ [الأنفال: ١١].

- ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال: ١٢].

- ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗا﴾ [الأنفال: ٤٣].

- ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٤٤].

وفي اللغة يقدر لهذا الظرف فعل محذوف يتعلق به، كقولنا: (واذكر إذ)[١].

إنّ الآية الكريمة ابتدأت بكلمة: ﴿إِذۡ﴾ وهي مفعول لفعل محذوف والتقدير: اذكر إذ. أي: زمن يوسف. و﴿إِذۡ﴾ لا تحمل إلينا قصّة يوسف، وإنّما تحملنا نحن إلى زمن قصّة يوسف، وكأننا صرنا في الحضرة الّتي كان فيها يوسف يقص رؤيته على أبيه يعقوب. وهذا معنى: ﴿إِذۡ﴾ الدالة على زمان الحدث[٢].

وتأمّل كيف أنّ الآية الأولى في القصّة ذكرت لنا اسم الشخصية الأساسية، وذكرت لنا أهمّ الشخصيّات الأخرى في القصّة، وذكر عاقبة القصّة[٣].

ب. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: قال يا أبت، ولم يقل يا أبي وإمّا وضع التاء مكان ياء المتكلم، والتاء لا تأتي بدلاً من ياء المتكلم إلّا مع الأب والأم، وهذان في الدنيا هم

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.
(٢) من حديث يوسف وموسى، محمّد محمّد أبو موسى، مرجع سابق، ص ٥٥.
(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

الرحماء، ولها دلالة هي التقرب، والتودد والحب والتدلل أيضـاً، وكل معنى يسبق إلى قلبك حين تسمع ولدك يقول لك يا أبت، جاء في المؤتمر العلمي لتفسير سورة يوسف: كأنّ هذه الكلمة ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ من الابن إلى الأب استعطاف واسترحام وتذكير بالأبوّة وواجباتها، نحو الشفقة الّتي تجب مراعاتها والوفاء بها من الطرفين[1].

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾: وهذا التوكيد لأمرين:

الأول: غرابة الخبر.

الثاني: شدّة عناية سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ به وفرط اقتناعه به وحرصه على أن يقصّه على أبيه، ثمّ كرر ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، وتجوز في دلالة الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ودل عليهم بضمير جمع العقلاء، وقدم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِي﴾ والأصل أن يقول: رأيتهم ساجدين لي. ولكن لمّا كان هذا الجار والمجرور هو الأصل في المعنى قدّمه. إنَّ الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم دقائق ما جرى في قلب وعقل هذا النبيّ الكريم، فأبان عنه باللسان العربي المبين الّذي أنزل به كتابه لعلكم تعقلون، وما كان للغة من لغات الأرض أن تتسع طرائقها لبيان هذه الخواطر، إلّا هذه اللغة الشريفة، كما قال وقرر خيار علمائنا - رضوان الله عليهم - وسكت يوسف وانقطع صوته ومضت أحداث، وألقي في الجبّ، وخرج منه، وبيع بثمن بخس، ودخل بيت العزيز، ولم نسمع له صوتـاً، إلّا لما أرادت امرأة العزيز أن ترميه بما هو بريء منه حينئذ نطق، وقال كلمة واحدة: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف، عبد الله العلمي، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١م، (١/ ١٧١).

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]: أمّا الأحد عشر كوكباً فهم الإخوة، ووصْفهم بهذا الوصف بدل – من أوّل القصّة – أن نهايتهم خيّرة، وأنّهم طيبون، غلب على نفوسهم نزعة الخير، لا نزعة الشياطين ونزعات الشر. ومعلوم أن الرؤى رموز في الغالب، ولا تكون مباشرة(١).

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: القمر تأويله: الأب، والشمس تأويلها: الأم، فانتزع بعض النّاس في تقديمها وجوب بر الأم، زيادة على برّ الأب(٢).

وهذا موافق لما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ رجلاً قال: من أحقّ الناس بصحبتي قال: (أمّك)، قال: ثمّ من؟ قال: (أبوك)(٣).

والطفل محتاج لأُمّه وعنايتها وحنانها أكثر من حاجته لأبيه، فتعبير الشمس بالأم مستقيم؛ لأنّ الشمس تمدّ الخلق بالحرارة والإشراق، كما تمد الأم ولدها بالدفء والحنان(٤).

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الارتفاع في الدنيا والآخرة. وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعدادا لما يرد على العبد من المشاق، لطفا بعبده، وإحسانًا إليه، فأوّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأنّ ذلك لا يكون إلّا بأسباب تتقدمه من اجتباء

---

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢) المحرر الوجيز، مرجع سابق، (٣/ ١٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة، حديث رقم ٥٦٢٦.

(٤) إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، محمد بن موسى بن نصر، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (١/ ٥٤).

الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتّمكين في الأرض. وأن هذه النّعمة ستشمل آل يعقوب، الّذين سجدوا له وصاروا تبعـًا له فيها(١).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وابتداءُ قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هيأ نفسه للنبوءة، فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة " أن أوّل ما ابتدئ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح". وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصّة وهو تقرير فضل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من طهارة وزكاء نفس وصبر. فذكر هذه الرؤيا في صدر القصّة كالمقدمة والتمهيد للقصّة المقصودة، وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعلو شأنه ليتذكرها كلّما حلّت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أنّ عاقبته طيبة(٢).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بيّنت في هذه السّورة الكريمة في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠] الآية. ومن المعلوم أنّ رؤيا الأنبياء وحي(٣).

وقال الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكلنا رأينا الشمس والقمر؛ كلّ في وقت ظهوره؛ لكن حلُم يوسف يُبيِّن أنّه رآهما معـًا، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة في

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص ٥٠٠.

(٢) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٢/ ٢٠٨).

(٣) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ، (٣/ ٥١- ٥٢).

السماء آلافاً لا حَصْرَ لها، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط؟ لا بُدَّ أنّهم اتصفوا بصفات خاصة ميَّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى؛ وأنه قام بعدِّهِم.

إن رؤيا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تبيِّن أنّه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً؛ ثمّ رآهم بعد ذلك ساجدين. وهذا يعني أنّه رآهم أولاً بصفاتهم الّتي نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود؛ ثمّ رآهم وهم ساجدون له؛ بملامح الخضوع لأمر من الله، ولذلك تكررت كلمة (رأيت) وهو ليس تكراراً، بل لإيضاح الأمر.

ونجد أنّ كلمة: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وهي جمع مذكر سالم؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلّا إذا كان المفرد عاقلاً، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين، وأسْمَى ما في الخضوع للدين هو السجود لله. ومَنْ سجدوا ليوسف إنّما سجدوا بأمر من الله، فَهُم إذن يعقلون أمر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[١].

مثلهم في ذلك مَثَلُ ما جاء في قول الحق سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٢]، هذه السماء تعقل أمر ربها الّذي بناها. وقال عنها أنها بلا فُرُوجٍ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] وهي أيضاً تسمع أمر ربها، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]. أي: أنها امتلكت حاسة السمع؛ لأن «أذنت» من الأذن؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله؛ تنفعل وتنشق. وهكذا نجد أن كلّ عَالَم من عوالم الكون أُمَم مثل أمّة البشر، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه في اللغة، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة، أو من خلال مُترجم، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها[٢].

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٤٤).

(٢) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٦٨٤٥).

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد، أو لغة النبات، أو لغة الحيوان؛ إلّا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد، أو أن يفهم الجماد عنه. والمثل: هو تسبيح الجبال مع داود، ويُشكِّل تسبيحه مع تسبيحها «جُوقة» من الانسجام مُكَوَّن من إنسان مُسبِّح؛ هو أعلى الكائنات، والمُردِّد للتسبيح هي الجبال، وهي من الجماد أدنى الكائنات ونحن نعلم أن كلّ الكائنات تُسبِّح، لكننا لا نفقه تسبيحها، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلِّمه مَنْطِق الكائنات الأخرى، مثلما قال سبحانه عن سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ...﴾ [النمل: ١٦] وهكذا عَلِمْنا أن للطير منطقـاً.

وعلَّم الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل؛ لأننا نقرأ قول الحق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٨ - ١٩].

إذن، فلكُلِّ أُمَّة من الكائنات لغة، وهي تفهم عن خالقها، أو مَنْ أراد له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يفهم عنها، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدتْ بأمر ربها ليوسف في رؤياه؛ إنّما فهمتْ عن أمر ربها[1].

﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾: فسجود الوالدين رحمة ومحبة وشكر لله على ما أنعم على ابنهما وأمّا سجود الإخوة فتكريم واحترام وتقدير ليوسف وعرفان له بالفضل. والسجو - هنا - مظهر للاحترام وليس عبادة بطبيعة الحال،

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٤٦).

وهذا المظهر منعه شرعنا سدّاً للذرائع ومنعـاً لأي بارقة من بوارق الشرك أن تتسلل إلى القلب[١].

وقال الدكتور أحمد نوفل رَحِمَهُ اللَّهُ: وملخص الرؤيا الّتي يقصها الفتى يوسف على أبيه أنّه رأى أحد عشر كوكبـاً يسجدون بين يديه، ورأى الشمس والقمر. والذي أرجحه هنا أنّ الواو ليست للعطف، وإنّما هي واو المعيّة، كما تقول رجعت والغروب، تقصد مع الغروب، وتقول مشيت والساحل، أي: مع الساحل، فهنا يقول يوسف أنّه رأى الأحد عشر كوكبـاً تسجد له، بحضور الشمس والقمر؛ إذ لا يليق أن يسجد الأب والأم للابن، خاصة وأنّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي قد بلغ من الكبر مبلغـاً، ويرجح ما أقول بإذن الله ما ورد في آخر السّورة الكريمة: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ أي: الإخوة[٢].

✧ الرؤى؛ ثبوتها وحكمها وأنواعها:

من مواضيع سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ موضوع الرؤيا، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر سبع رؤى في ستة مواضع، ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى، جاءت في سورة يوسف، وهي:

- رؤيا يوسف، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

- ثمّ الموضع الثاني، وفيه رؤيتا صاحبي السجن اللذين ذكرا له ما رأيا، وكلّ واحد منهما رأى رؤيا غير الّتي رآها صاحبه.

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٨.

- ثمّ جاءت الرؤيا الرابعة في الموضع الثالث من السّورة، وهي رؤيا الملك، فهذه ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى كلّها في سورة يوسف.

- وتجد ذكر الرؤيا في بقية القرآن، مرّة في سورة الأنفال عند قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

- ثمّ الصافات في قصّة إبراهيم مع إسماعيل عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، قال الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

- والموضع السادس والأخير جاءت فيه الرؤيا السابعة وهي رؤيا النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الّتي أخبر الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عنها من سورة الفتح، فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

فهذه سبع رؤى في القرآن أكثر من نصفها جاء في سورة يوسف(١).

✧ ثبوت الرؤى:

إنّ سورة يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ تدلّ على ثبوت الرؤى والاعتداد بها سواء كانت من مؤمن أو غيره، وإن أوّل ما بدأ به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح(٢).

---

(١) آيات للسائلين، د. ناصر العمر، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ،ح رقم ٣.

فصدْق الرؤيا المناميّة حقّ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، ويؤيده العقل المتفتح على الواقع وتؤمن به النّفوس السويّة، ولم ينكر كون الرؤيا الصالحة من الله تعالى إلّا الفلاسفة ومن نحا نحوهم في هذا العصر من بعض من يشتغلون بعلم النفس، فجعلوا الرؤى أضغاث أحلام وهؤلاء يفسرون الرؤى بنوع من أنواع مرئيات المنامات، وينكرون الحقّ فيها، ومثل هؤلاء ومن أخذ بقولهم لا يلتفت إليهم، لأنّ الرؤيا الصالحة ثابتة بالكتاب والسنة وهذه الآيات في سورة يوسف دليل عليها. وفي السنة المطهرة عشرات الأحاديث الّتي تتناول الرؤى وتُظهر العناية بها[١].

✧ أنواع الرؤى:

هناك أحاديث صحيحة تدلّ على أنواع ما يراه الإنسان، وهي ثلاثة أقسام:

- الرؤيا الصادقة، فهي من الله تعالى، منها قول النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعون جزءاً من النبوّة"[٢].

- الحلم: وهو من الشيطان، فقال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الحلم من الشيطان"[٣]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه، فلا يحدث به النّاس"[٤].

- أضغاث أحلام، أو أحاديث النفس: وهي تفاعل للنفس تجاه الواقع والمواقف الّتي بمر بها الإنسان، فتستخرج هذا المخزون في شكل أحلام،

(١) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري،كتاب التعبير، باب، رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعون جزءاً من النبوّة، ح رقم ٦٥٨٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب: الحلم من الشيطان وإذا حلم فليبصق عن يساره، وليستعذ بالله عَزَّ وَجَلَّ، ح رقم ٦٦٠٢.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، ح رقم ٢٢٦٨.

يقول النبيّ ﷺ: "والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بُشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه"(١).

وقال ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب. وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا. ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوّة والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله. ورؤيا تحزين من الشيطان. ورؤيا مما يحدث المرء نفسه. فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل. ولا يحدث بها النّاس"(٢). وهذا الحديث أصل عظيم في موضوع الرؤيا، وإثباتها، وأنواعها، وأقسامها، وكيف نتعامل معها(٣).

وأما المنهج الشرعي في التعامل مع الرؤى، فتعتمد على الرؤى، وهي ثلاثة أنواع كما مرّ معنا في الحديث السابق:

- الرؤيا الصالحة: لا تحدث بها إلّا من تحب وذلك لأسباب، منها: منع الحسد والضغينة.

- حديث النفس: ومن علامته أن يفكر المرء في أمر ما، ثمّ يرى في نومه ما يتعلق به، كمن يفكّر في شراء سيارة ثمّ ينام فيراها. والموقف منه، الإعراض عنه وعدم الاشتغال به.

- رؤية ما يحزن: وهذا من تهاويل الشيطان، وعلى الرائي:

أولاً: أن يتعوذ بالله من شر ما رأى، ومن شر الشيطان.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الرؤيا، ح رقم: ٢٢٦٣.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الرؤيا، ح رقم: ٢٢٦٣.

(٣) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٦٩.

ثانيـاً: ينفث عن يساره ثلاثـاً.

ثالثـاً: ينقلب على جنبه الآخر.

رابعـاً: يقوم فيتوضأ، ثمّ يصلي ما شاء الله.

خامسـاً: لا يحدث بها أحداً.

ومن عمل بهذا فلن تضره - بإذن الله - ومن لم يتمكن من عمل هذه الخمس فليعمل بعضها، كأنْ ينقلب على جنبه، وأن يستعيذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، والمهم ألا يحدث بها أحداً، فإنه يُخشى إذا حدث بها أن يكون أثر لها عليه، فقد ورد في حديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن الرؤيا على رِجْل طائر فإذا عُبّرت وقعت[1].

وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته ومن بقية الأدلة المعتبرة، ولا تؤخذ من الرؤى لأن اعتمادها سيفتح باباً خطيراً وشرَّاً مستطيراً في زيادة الأحكام أو نسخها، فالدين قد اكتمل والإسلام قد تم، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة: ٣].

ويدل على ذلك، ما رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قال: قال الرؤيا الصالحة[2]، حيث يدل على حصره أنه لا تأخذ الأحكام الشرعية من الرؤيا، وإنما هي دلالات وإشعارات لوقوع شيء»[3].

---

(١) رواه الترمذي في السنن، أبواب الرؤيا باب: ما جاء في تعبير الرؤيا ، ح رقم: ٢٢٧٨، وقال حسن صحيح.

(٢) سبق تخريجه .

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القرداغي، مرجع سابق، ص ٣٩.

٢. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾:

أدرك يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بحدسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام، ولم يفصح هو عنه سياق ذلك، وأمام تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة بعد انكشاف العيب المحجوب ولهذا ينصحه بأن لا يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءه لأخيهم الصغير - غير الشقيق - فيجد الشيطان من وراء هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلىء نفوسهم بالحقد فيدبروا له الأمر[1].

أ. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾: وهو خطاب تحنين، ويدلّ على القرب من القلب، و (بني) تصغير: (ابن)، وفيها كثير من الحنان والرحمة والشفقة والعطف. فقد جاءت كلمة ابن مصغرة وهو تصغير تدليل، وما من نبي نادى ابنه في القرآن كلّه إلّا صغّر الابن:

- قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾[الصافات: ١٠٢].

-وقال نوح لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[هود: ٤٢].

وفي هذا النداء دلالة تربوية أيضاً، ذلك أنّ طلب الأنبياء من آبائهم، أو أبنائهم، لا بدّ أن يسبقه تودد وتحبب، فسيدنا إبراهيم قبل أن يعرض الرؤيا على ابنه إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قدّم النداء بالتصغير، وكذلك فعل سيدنا نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع ابنه، وهكذا ينبغي أن يفعل الآباء مع أبنائهم أن يقدموا جانب المودة والقرب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٤/ ١٩٧١.

قبل الطلب، فقد أتبع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الطلبَ بذكر السبب، وما ذلك إلّا احترام لعقل المخاطب(١).

وقول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب وغير المناسب.

وحين يفزع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مما يُزعجه أو يُسيء إليه أو أيُّ أمر معضل، فهو يلجأ إلى من يحبه، وهو الأب لأن الأب هو الأقدر في نظر الابن على مواجهة الأمور الصعبة(٢).

- ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾: نهى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته؛ لأنّه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته، فيفهمون تأويلها ويحصل الحسد له(٣).

وهذه الآية أصل في ألّا تُقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيه؛ فجاء في الحديث كما تقدّم: « الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوّة(٤). "والرؤيا معلقة بِرِجْل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلّا عاقلاً أو محبّاً أو ناصحاً(٥).

وقيل لمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيعبِر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلّا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل

---

(١) الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٤٨).

(٣) فتح القدير، مرجع سابق، (٣/ ٨).

(٤) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد المغراوي، (٦/ ٢٧).

(٥) سبق تخريجه.

خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثمّ قال: الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة[١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذه الآية دليل على أنه مباح أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا في معنى الغيبة، لأن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له، وفيها ما يدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً، وقال النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كلّ ذي نعمة محسود»[٢].

وفيها أيضـًا دليل واضح على معرفة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتأويل الرؤى، فإنه علم من تأويلها أنّه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل أيضـًا على أن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاه عن قصّ الرؤيا عليهم خوف أن تغل صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه[٣].

- ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾: علّل سيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمره ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكتمان الرؤيا عن إخوته، لأنهم إنْ علموا بذلك يدفعهم الحسد والغيرة إلى الكيد والمؤامرّة وظاهر الجملة: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ يدلّ على أنّهم يكيدون مجتمعين، وأن كيدهم يتجدد حتّى ينالوا مبتغاهم، وأن كيدهم مؤكد مطلق وشامل، ثمّ بيّن سبب ذلك بأن ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فيوسوس لإغرائهم على الإقدام

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، (٣/ ١٠٧٥).

(٢) السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، (٣/ ١٠٧٥).

(٣) التدبر والبيان، مرجع سابق، (٦/ ٢٧).

على إيذاء يوسف كما فعل ابن آدم من قبل حين استغلّ غيرته وحسده على قبول قربان أخيه؛ لأنْ يدفعه إلى قتله، فأصبح من الخاسرين[١].

والكيد: احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابهته، ولا يكيد إلّا الضعيف؛ لأن القوي يقدر على المواجهة، ولذ يقال: إن كيد النّساء عظيم؛ لأن ضعفهن أعظم[٢].

ويحتمل أن تكون ﴿كَيْدًا﴾ للتعظيم أو التحقير، فإن كان للتعظيم فليردع ابنه، وليكون المنع آكد، وإن كان للتهوين والتحقير، فحتى يخفف من أضغان النّفوس بين يوسف وإخوته[٣].

وقال حسين مخلوف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾: فيحتالون في هلاكك احتيالاً خفيّاً، لا قِبَل لك بدفعه، و (كاد) يتعدى بنفسه فيقال: كاده كيداً، ويتعدى باللام، لتضمنه معنى احتال.

والكيد في اللغة: يكون ممدوحاً ومذموماً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر من مثل:

- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]. وسميت الحرب كيداً لما فيها من الاحتيال والخديعة، ومنه حديث ابن عمر: "غزا رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ غزوة كذا وكذا ولم يلق كيداً". أي: حرباً[٤].

---

(١) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٥٣).

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٤) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

- ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾: أي: يتكلموا معك بكلام حسن، وهم في أنفسهم يضمرون لك السوء، ويظهرون الفعل الجميل، وهم يرصدون لك الانتقام.

والكيد بهذا المعنى من صفات العاجز الّذي يحتال على عدو له قوي، لا يقدر على معارضته بالبطش، ولا مصارعته بالانتقام فيظهر له رفقًا ولين جانب، وهو من خلال ذلك ينصب له حبائل الشرّ حتّى يرتطم فيها[١].

ب. ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾:

فالشيطان يُوغر صدور النّاس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر[٢].

ولقد أبرزت قصّة آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ما جرّه الشيطان للإنسان من شر ووبال وما يضمره الشيطان في نفسه للإنسان من كره شديد[٣].

وهذه العداوة معروفة لنا تمامًا، لأنّه خرج من الجنة ملعونًا مطروداً، عكس آدم الّذي قبل اللهُ توبته، وقد أقسم الشيطان بعزّة الله ليغويَنّ الكل، واستثنى عباد الله المخلصين؛ ولذا يقول الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم»[٤]. ونحن نقرأ القرآن، نجد إحاطة الشيطان بالإنسان فيه يقِظة: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ولم يأت كر للمجيء من الفوقيّة، أو من التحتيّة لأنّ من يحيا في عبودية تحتيّة، وعبودية فوقيّة، لا يأتيه الشيطان أبداً[٥].

---

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، (٤/ ١٩٧١).
(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٦.
(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٥٣).
(٥) المصدر السابق نفسه، (١١-٥٨٥٤).

قال أبو السّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥]؛ ظاهرُ العداوة فلا يألو جهداً في إغواء إخوتِك وإضلالِهم وحملهم على ما لا خيرَ فيه وهو استئنافٌ، كأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوّة؟ فقيل: إنّ الشيطان يحمِلهم على ذلك[١].

وقال محمّد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة بيّنها لا تفوته فرصة لها، فيضيعها. هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد، وهو أنّه من وسوسة الشيطان في النزغ بين النّاس عندما تعرّض له داعية من هوى النفس، وشرها الحسد الغريزي في الإنسان[٢].

ودليل ذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم"[٣].

بيّن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنّ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: أن أعمال الكيد الّتي يقوم بها النّاس، قريبهم وبعيدهم تجاه الحقّ والصدق والتقوى، إنّما الشيطان هو بطلها الحقيقي. ولذلك تجد الشيطان في هذه القصّة حاضراً في كلّ مواطن التأزم والكيد والمكر، وفي تسلسل الحوادث، وغير خاف أن السّرج الّذي يركبه الشيطان من الإنسان هو - في الأعم الأغلب - النفس[٤].

(١) تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، (٤/ ٥٣).

(٢) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، (١٢/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، ح رقم٢٨١٢.

(٤) في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٧٢.

وهكذا يبرز الشيطان من وراء الستار في الأدوار الآتية:

- مكر الإخوة.
- كيد النّسوة، وعلى رأسهن امرأة العزيز.
- محاولة إبقاء يوسف في السجن.

والأحداث في القصّة ستبين ذلك.

٣. ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

أ. ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾:

والإشارة في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانيّة به. أي: ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربك في المستقبل. والاجتباء: الاختيار والاصطفاء[١].

واختارك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لتكون خالصاً لله تعالى. والإشارة إلى ما تضمنته الرؤيا، أي كهذه الرؤيا الّتي سجدت لك فيها الكواكب والشمس والقمر، يختارك الله تعالى لتكون نبيّه[٢].

وقد علم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك بتعبير الرؤيا ودلالتها على رفعة شأنه في المستقبل، فتلك إذا ضُمت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إياه، وذلك يؤذن بنبوءته. وإنّما علم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن رفعة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مستقبله رفعة إلهية لأنّه علم أن نعم الله تعالى متناسبة فلما كان ما ابتدأه

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٥/ ٦٤١).

(٢) زهرة التفاسير، محمّد أبو زهرة، مرجع سابق، (٧/ ٣٧٩٩).

به من النعم اجتباء وكمالاً نفسيًا تعيّن أن يكون ما يلحق بها، من نوعها ثمّ إنّ ذلك الارتقاء النفساني الّذي هو من الواردات الإلهيّة غايته أن يبلغ بصاحبه إلى النبوءة أو الحكمة، فلذلك علم يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن الله سيعلّم يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من تأويل الأحاديث، لأن مسبب الشيء مسبب عن سبب ذلك الشيء، فتعليم التأويل ناشئ عن التشبيه الّذي تضمنه قوله: وكذلك، ولأن اهتمام يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ برؤياه وعرضها على أبيه دل أباه على أن الله أودع في نفس يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الاعتناء بتأويل الرؤيا وتعبيرها. وهذه آية عبرة بحال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع ابنه إذ أشعره بما توسمه من عناية الله به ليزداد إقبالاً على الكمال بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾[١].

وفي خطاب يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لابنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦]، التركيز على أن يتعلق ابنه بربّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولذلك قال: ﴿رَبُّكَ﴾: الّذي هو مربّيك بالتدبير وأصناف النعم وإصلاح قلبك والارتقاء بروحك وأخلاقك، ومدبّر أمرك في شؤونك كلّها فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ رب كلّ شيء، وخالقه ومليكه والقادر عليه، والمتصرف في جميع أموره وبهذا فإنه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في حقيقته، وتحت قهره فهو المحي والمميت والرزّاق الكريم[٢].

ب. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾:

قال شيخنا الدكتور علي القره داغي في تفسير الآية: إنّ جماهير المفسرين قد فسّروا هذه الآية بتعبير المنام وهذا حقّ لا شك فيه، ولكنّ الكلمتين: ﴿تَأۡوِيلِ﴾،

---

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٥/ ٦٤١).

(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، بدون طبعة، ص ٩١.

﴿ٱلۡأَحَادِيثِ﴾، تحملان معنى آخر، وهو استعمال العقل والبصيرة والفطرة السليمة لمعرفة نتائج الأفعال ومآلاتها وآثارها السلبية، أو الإيجابية، وهذا ما يسمى بالتحليل العقلي: الاقتصادي، أو السياسي[١]. ولا مانع من الجمع بين هذين المعنيين، إذ لا تعارض في الجمع بينهما، بل إنّ كمال النّعمة وتمامها بتحقيق النبوّة والحكمة، فالنبوة هبة من الله تعالى، وليست مكتسبة، أمّا الحكمة فهي مكتسبة من حيث المبدأ، وقد أجاز علماؤنا الجمع بين المعاني المشتركة، أو بين الحقيقة والمجاز ما دام ذلك ممكناً[٢].

فالتأويل لغة: من آل يؤول أوْلاً، ومآلاً. أي: رجع وصار، وأوَّل الشيءَ إليه: أرجعه. وأوّلَ الكلام: فسره وردّه إلى الغاية المرجوّة منه.

وأمّا الأحاديث فهي تشمل الحوادث والوقائع والأخبار والرؤى وبالتالي فإن تفسير: ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، بالمعنيين صحيح، وحينئذ تكون دلالة الآية على التحليل العقلي الحكيم واضحة. يقول ابن عاشور: والتأويل إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله[٣].

ويصح أن تكون جمع حديث، بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها، بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعنىّ بالحكمة وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصح أن تكون جمع حديث، بمعنى الخبر المتحدث به، فالتأويل: تعبير الرؤيا، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين، واستدلوا بقوله في آخر القصّة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

(١) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، مرجع سابق، ص ٣٢.
(٣) المصدر السابق نفسه، مرجع سابق، ص ٣٤.

وقال ابن عاشور: ولعلّ كلا المعنيين مراد، بناءً على صحّة استعمال المشترك في معنييه، وهو الأصح[١].

وبناءً على ذلك، فإنّ تأويل الأحاديث يشمل ما يسمّى في عصرنا الحاضر بالتّحليل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وبذلك يتحقق الاقتداء الكامل؛ لأنّ تأويل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للأحاديث إذا حمل على النبوّة فلا قدوة فيها، لأنها غير مكتسبة، ولكن إذا شمل التحليل العقلي القائم على الحكمة فإن ذلك هو محلّ الاقتداء[٢].

وقال أبو السّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أشار بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، إلى ما سيقع من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من تعبيره لرؤيا صاحبَيْ السجنِ ورؤيا الملِك وكون ذلك ذريعةً إلى ما يبلّغه الله تعالى إياه من الرياسة العظمى الّتي عبر عنها بإتمام النعمة وإنّما عرَف يعقوبُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك منه من جهة الوحي أو أراد كونَ هذه الخَصلةِ سبباً لظهور أمرِه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الإطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفتُه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لذلك بطريق الفِراسةِ والاستدلال من الشواهد والدلائل والأَمارات والمخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لا بد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالِها وتمييز ما هو آفاقيٌّ منها مما هو أنفُسيٌّ كيف لا وهي تدل على كمال تمكّن نفسِه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عالم المثال وقوةِ تصرفاتِها فيه فيكون أقبلَ لفيضان المعارفِ المتعلّقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعةِ بحسبها في عالم الشهادةِ[٣].

---

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٥/ ٦٤٢).
(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٣.
(٣) تفسير أبو السّعود، مرجع سابق، (٤/ ٢٥٤).

وقال الشيخ محمّد متولي الشعراوي: ومعنى تأويل الشيء أي: معرفة ما يؤول إليه الشيء، ونعلم أن الرُّؤى تأتي كطلاسم، ولها شَفرة رمزية لا يقوم بِحلِّها إلّا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك؛ فهي ليست عِلْمـًا له قواعد وأصول؛ لأنها إلهامات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض؛ حين يُوجد الجَدْبُ، ويعُمُّ المنطقة كلّها، وتصبح عزيز مصر[١].

ج. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾:

الكثير يظنون أن النّعمة هي ما تراه العيون من زينة الدنيا، أو ما تتعلّق به القلوب من الجاه والملك والسلطان، والحقيقة أن النعم على وجهين:

- نعم مؤقتة زائلة كالصّحة والمال والوقت والسمع والبصر والعافية، حيث إنها تزول بالموت وتنتهي بانتهاء الأجل.

- نعم مؤبّدة، لا ينقطع نفعها في الدنيا ولا في الآخرة، وهذه هي نعمة الإيمان واليقين والطاعة والأعمال الصالحة. وكل النعم من الله وحده: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، المؤقتة منها والمؤبدة، الظاهرة منها، والباطنة، فالمنعِم واحد، والجميع متمتّعون بنعمه غارقون في فضله وكرمه[٢].

وفي قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦]، تمام النعمة هنا ليس هو الملك والسلطان؛ لأن الله يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ، وإنّما تمام النعمة تكون بالنعمة الكبرى، وهي الرسالة والدعوة الّتي خص الله بها أباه من قبل، وذلك أنّ الله لا يعطي الدين إلّا من يحبّ. فالعلم النافع والهداية لطريق الحقّ، والاستقامة

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٥٦).
(٢) وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ٩٦.

على منهج الله ودعوة عباد الله إلى الله كلّ ذلك من النعم العظيمة الّتي لا توازن بها نعم الدنيا الظاهرة كلّها، ولا أدلّ على ذلك من أنّ كلمة (سبحان الله) تملأ الميزان. و(سبحان الله والحمد لله) تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض. وقد جاءت نصوص كثيرة تُعمّق هذا المعنى في القلوب، حتّى تتبدّل رغبات النّفوس، وتتطلّع إلى النعم الحقيقيّة الباقية، وتنظر إلى الحياة على أنّها فرصة لتحصيل الأجور والمنافسة في الخيرات[١].

وقال الشيخ محمّد متولي الشعراوي في الآية الكريمة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦]: فكل ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً. أو أن: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ...﴾ [يوسف: ٦]، بمعنى ألّا تسلب منك النعمة أبداً؛ ففي حياة يوسف منصبٌ مهم، هو منصب عزيز مصر، والمناصب من الأغيار الّتي يمكن أن تنزع. أو أن: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ...﴾ [يوسف: ٦]، بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك[٢].

وقال الدكتور محمّد أبو موسى في قوله تعالى ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: وهذا يوشك أن يكون نصاً في النبوّة، وإن كانت كلمة: ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ جعلت سيدنا يوسف كأنه على باب النبوّة؛ وألحق يعقوب إتمام النعمة به وبأبويه إبراهيم وإسحاق، وهي لا تكون إلّا النبوّة.

د. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾:

أي: وعلى من يصطفيهم ويختارهم للنبوة من آل يعقوب. فكلمة ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، تعمّ الأنبياء وغيرهم، وقد تفرّع من آل يعقوب: الأسباط - القبائل -

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١-٦٨٥٦).

الاثنا عشر، الّذين يكونون اليهود، وقد اختار الله تعالى، منهم من عهد موسى إلى عهد عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كثيراً من الأنبياء. ولا دليل في الآية على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، كما رأى بعض المفسرين، فما صدر منهم في حقّ أبيهم وأخيهم - كما سيأتي - لا يتّفق مع أخلاق الأنبياء، قبل النبوّة وبعدها، ولو كان إخوة يوسف هم مراد قوله تعالى: ﴿ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾، لكان الأظهر أن يقول: وعلى إخوتك.

والقول بأنهم لم يكونوا أنبياء هو قول أكثر المفسرين سلفـًا وخلفـًا، فلم يُنقل عن أحد من الصحابة ولا عن التابعين أنّه قال بنبوتهم، ولكن وُجد بعد ذلك بعض المفسرين القائلين بنبوّتهم كابن زيد، وقد بالغ في ردّه البغوي وابن كثير، وذكر ابن تيمية في مؤلف له خاص هذه المسألة وملخصه: الّذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أنّ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسوا بأنبياء، واحتجّ من قال بأنهم أنبياء بقوله تعالى في آيتي البقرة والنساء: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، وفسّر ذلك بأولاد يعقوب، والصواب: أنّه ليس المراد بهم أولاده لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم: (بنو إسرائيل)، ويقال لسائر النّاس: (بنو آدم). وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، صريح في أنّ الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل. وكل سبط أمة، وقد صرّحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وأصل السبط: شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطـًا قبل أن ينتشر عنهم الأولاد[1].

ولو كانوا أنبياء ما وصّاهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما حضره الموت بالثبات على عبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ

---

(١) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، (١٢/ ١٨٤).

قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣][1].

هـ. ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾:

أتمّها بإكرامهما بالنبوّة[2]. والآية الكريمة تبيّن أفضال الله على آل إبراهيم بما أنعم عليهم فجعل منهم أنبياء آباءً وأحفاداً[3].

ولقد اجتمع ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من عراقة النسب الشيء العظيم، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[4]».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أكرم النّاس؟ قال أتقاهم لله، قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم النّاس يوسف نبي الله بن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله[5].

وقال القاسمي: استدل بالآية على أن الجدّ يطلق عليه اسم الأب[6]. وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم وكانوا يقولون للنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا ابن عبد المطلب، بل قاله هو أيضـاً[7].

---

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/ ١٢٣).
(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٢٣).
(٣) إتحاف الإلف بذكر فوائد الألف، مرجع سابق،(١/ ٨٤).
(٤) أخرجه البخاري، رقم: ٣٣٨٢.
(٥) سبق تخريجه .
(٦) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، (٦/ ١٩١).
(٧) تفسير المنار، محمّد رشيد رضا، مرجع سابق، (١٢/ ٢٥٦).

وأراد بالأبوين: الجد وأبا الجد، لأنهم في حكم الأب في الأصالة[١]. وسمي الجد وأبا الجد أبوين، لأنهما في عمود النسب[٢].

ومن الفوائد التربويّة في الآية، حرص يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ربط ابنه بآبائه الصالحين: (إبراهيم وإسحاق). ولا شك أنّ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قصّ على أولاده ومن بينهم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سيرة إبراهيم وما حدث له من أحداث في العراق وهجرته إلى الشام، وذهابه إلى مصر وبناء البيت الحرام بمكة المكرمة، وكذلك سيرة إسحاق جده، وإسماعيل عمّ يعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وما بذلوه من جهاد عظيم في الدعوة إلى الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، ومحاربة الشرك، والتحلّي بالأخلاق الحميدة، والمحافظة على العبادة الرّشيدة، وفهم تصوّرات الوجود عن الكون والحياة، والإنسان والقضاء والقدر، والجنة والنار.

إنّ سيرة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كانت من عوامل الثبات بعد الله والاستمرار على نهجهم في حياة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

و. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

بعدما بين يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فضل الله عليه باصطفائه له وتعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه، قام بتعريف ابنه ببعض أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى فعندما تستقر هذه المعاني، في نفس الصغير، فإنه سيتذكر عند كلّ ابتلاء أن الله تعالى الّذي أحبه فاصطفاه هو الأعلم والأحكم، وأنّ ما سيصيبه من بلاء إنّما هو بعلمه وحكمته، فيطمئِن، ولا يلتجئ لغير العليم الحكيم.

---

(١) الكشاف، مرجع سابق، (٢/ ٢٤٣).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، (٦/ ٢٤٠)، إتحاف الإلف بذكر فوائد الألف، (١/ ٨٤).

وقد بدا جلياً عظيم أثر هذه التربية على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ إذ قال لأبيه في نهاية القصّة: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فرد الفضل إلى الله في تحقيق رؤياه وخروجه من السجن واجتماع شملهم، ثمّ جعل نزغ الشيطان هو السبب فيما حل بهم من بلاء، فكأنّه يقول: إنّ ما وقع فيه إخوتي بلاء، وما مسني من ضر بلاء، والسبب في البلاءين نزغ الشيطان، ثمّ كأن تعقيبه الّذي جاء به بصيغة التوكيد دالاً على عميق إحساسه بلطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلمه وحكمته، ولذا لم يحدّث أباه عما حل به من بلاء، لم يحدثه عن السجن، عن طول مكثه فيه، لكن حدثه عن إحسان الله بإخراجه من السجن، وأبوه يرى ما ترتب على هذا الخروج من عزّ وسلطان، ولم يحدثه عن غربته على طولها، ووحشتها لكن ذكرّه بإحسان الله لهم جميعاً بجمع شملهم وإبدالهم حياة أطيب من حياتهم الأولى قبل أن يأتوا من البدو، وكأن يوسف يقول لأبيه عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: يا أبت ها قد تحققت رؤيتي وأنا مُستمسك بما علمتنيه، وأنا أقصها عليك. وإذا تأملت قول يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وقارنته بقول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ بدا لك عظيم أثر صفات ذي الجلال والإكرام في نفس يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولا سيما تلك الّتي غرسها الأب في نفس ابنه عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. فانظر كيف عملت فيه عملها فتعامل مع الحوادث العظام بمقتضى علمه بها(١).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجملة إنّ ربك عليم حكيم تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنّفوس الصالحة

---

(١) آيات للسائلين، د. ناصر العمر، ص ١٠٨.

لهذه الفضائل، لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

وتصدير الجملة بـ (إن) للاهتمام، لا للتأكيد إذ لا يشك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتأهله لمثل تلك الفضائل[1]. إن التربية في الصغر لها فوائدها في الكبر[2].

قال الدكتور أحمد نوفل: وتأمل كيف لطفُ الله: أنّ هذا الفتى ما غادر حجر النبيّ الكريم يعقوب إلى بلاد الشرك إلّا بعد أن تشرّب عقيدة التوحيد، وهذا بحدّ ذاته أعظم اللطف إذ لو كان القاؤه في الجبّ في سن مبكرة وهجرته إلى بيئة جاهليّة قبل سن التفتح والتمييز والإدراك لكان محتاجاً إلى المربي. وأين يجده؟[3]. الله أعلمُ بمَنْ يستحق حمْل الرسالة، وهو الحكيم الّذي لا يترك شيئاً للعبث؛ فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافِقاً للصواب[4]. كما أن الآية الكريمة احتوت على ثلاثة من أسماء الله الحسنى: (الرب، العليم، الحكيم).

✧ معنى اسم الربّ:

والربّ هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخصُّ من هذا: تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا أكثر دعائهم له بهذا الاسم الجليل لأنهم يطلبون منه التربية الخاصة. وهذا واضح وجلي فيما

---

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٤٣).

(٢) إتحاف الإلف، (١/ ٩٣).

(٣) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص ٩٤.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٨٥٧).

ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأوليائه الصالحين حيث صدّروا دعاءهم بهذا الاسم الكريم، ومن ذلك:

- دعاء الأبوين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بقولهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

- دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

- دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. وهكذا مع الأنبياء وكذلك الصالحين في القرآن الكريم.

إنّ حديث المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن اسم (الربّ) هي دعوة للتأمل في هذا الاسم العظيم وآثاره في خلقه. إنّ ربوبيته سبحانه إنّما تتحقق بكونه فعالاً مدبراً، متصرفاً في خلقه بعلم وقدرة وأنه يريد ويسمع ويبصر وذلك هو حقيقة الألوهية.

إنّ الربّ هو القادر الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، المعطي، المانع، الضار، النافع، المقدم، المؤخر، الّذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذلّ من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته الّتي له منها ما يستحقّه من الأسماء الحسنى(١).

- ومن معاني الربوبيّة، اختصاصه سبحانه بجلب المنافع ودفع المضار، وتفريج الكروب، وقضاء الحاجات، فإن العباد -بما أودع الله في فطرهم

---

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣١٩هـ، (٢/ ٢١٢).

من معرفة ربهم بهذه الصفات-يلجؤون إلى ربهم ويتضرعون إليه في الشدائد والملمّات، وينفضون أيديهم من كلّ ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وكلما عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته أثّر هذا في دعائه وقوة رجائه ولجوئه وتضرّعه لربه سبحانه، والوثوق بكفايته سبحانه، وقدرته على قضاء حوائج عباده، ولذلك سنرى في دعاء يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[يوسف: ٣٣]. وقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

✧ معنى اسم العليم:

إنّ اسم العليم ذُكر بوضوح في قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مواطن متعدّدة. وعندما نتدبّر اسم الله العليم نعلم أن العلم كلّه بجميع اعتباراته وجوهره لله تعالى، فهو يعلم الأمور المتأخرة، أزلاً وأبداً، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منه وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات -أو المستحيلات- والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى ويعلم ما فوق السماوات العلى، ويعلم تعالى جزئيّات الأمور وخبايا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة؛ فهو الّذي أحاط علمه جميع الأشياء في كلّ الأوقات، ولا يعرِض تعالى لعلمه خفاء، ولا نسيان؛ كقوله في غير موضع: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩][(١)].

فالله عَزَّوَجَلَّ علمه شامل لكلّ شيء في السماوات والأرض، ولكلّ ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وعلمه بمفاتيح

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، ص ٣٣٥.

الغيب وما يحدث من صغير أو كبير في البر، أو في البحر، وعلمه بمكنونات القلوب، وما تخفيه الصدور، وما توسوس به النّفوس، وعلمه بكلّ ما يقوله له العباد، ويعملونه سراً وعلانية، وعلمه بما في الأرحام لكلّ أنثى، وعلمه سبحانه لكلّ الأشياء قبل وقوعها، وأنّ ذلك في كتاب، وله الحكمة البالغة في تقديرها. وعلمه سبحانه بأحوال عباده تقيّهم وفاجرهم، وغنيهم وفقيرهم، وغير ذلك من الفوارق. وذلك قبل أن يخلقهم ويكلفهم، وأنّ توفيقه لمن يشاء وخذلانه لمن يشاء إنّما يكون عن علم بأحوال عباده، وعن حكمة بالغة، وعلمه سبحانه محيط، ودقيق بكلّ مناجاة بين اثنين فأكثر مهما أسروّا النّجوى، وعلمه شامل لما ينزل من الشرائع على رسله، وأنّه أعلم بما ينزل وبما يصلح لعباده، واختص الله عَزَّوَجَلَّ نفسه بعلوم الغيب[1].

إنّ الله سبحانه – لكمال علمه – يعلم ما كان ويكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون، أي إنّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلم الأمور الماضية الّتي وقعت، والأمور المستقبلية الّتي لم تقع بعد، ويعلم الأمور الّتي لم تقع لو فرض أنّها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور. ولا شك أنّ يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ آمنوا إيمانـاً عظيمـاً باسم العليم وعرفوا عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى وأثمر يقينهم بعلم الله الشامل وقدرته المطلقة ومشيئته النافذة وحكمته العظيمة في وضع الأشياء مواضعها.

والإيمان باسم الله تعالى العليم اقتضى محبّة يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ للعلم والحرص عليه، وتطوير ملكاتهم وأدواته المعرفيّة؛ لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العليم، يحبّ كلّ عليم يسير في طريق التّعلم والتّعليم والمعرفة الّتي تدلّ على حقائق

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

الأمور وتعمّق الصّلة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعباده على هذه الأرض. إنّنا مطالبون بتعميق الإيمان في نفوسنا، وتحقيق التّوحيد في قلوبنا، والسّير على منهج الله في حياتنا. وإنّ التأمل في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأبعادها المتعدّدة وأعماقها المتنوعة والوقوف مع أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا والحرص على حفظها وفهمها والتعبد به؛ تفتح للإنسان الّذي يريد أن يتّصل بموكب الأنبياء والمرسلين آفاقًا رحبة وحياة طيبة.

✧ معنى اسم الله الحكيم:

وقد دلّت العقول الصحيحة والفطر السّليمة على ما دلّ عليه القرآن والسنة؛ أنّه سبحانه حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا ولا لغير معنى ومصلحة. وحكمته هي الغاية المقصودة بالفعل بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل. كما أنّها ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دلّ كلامه وكلام رسوله على هذا. وهذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها[1].

"والحكيم" هو الّذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الّذي أحسن كلّ شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع سدى، الّذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك؛ فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه، والحكمة وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها[2].

وقد لاحظت في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتران اسم الله العليم بالحكيم في مقام الصبر وانتظار الفرج ومقام التواضع والتحدث بنعمة الله.

---

(١) شفاء العليل، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ، (١/ ٩٠).

(٢) قصّة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م، ص ٣٥٨.

✧ مقام الصبر وانتظار الفرج:

إن مقام ارتباط الصبر وانتظار الفرج باسم الله "العليم" ارتباطـًا قويـًا، وذلك أن العبد إذا كان عظيم الإيمان عميق الصلة بربه واستلبت عليه الفرج لم يتزعزع يقينه؛ لأنّه معتمد على علم الله عَزَّوَجَلَّ في اختيار الزمان الأنسب لما يرجوه من الفرج، معوّل على حكمته في تهيئة الأسباب له ليقع على أحسن ما يكون، كما في قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

✧ مقام التواضع والتحدث بنعمة الله:

مثل ذلك يقال في مقام التواضع والتحدّث بنعمة الله وفضله؛ لأنّ قوامه أحداث ترجع إلى علم "العليم" وحكمة "الحكيم"، كما في قوله تعالى عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠][(١)].

ثانيـًا: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ٧ - ١٠].

١. ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾:

دارت هذه الآية على الزمان والمكان، في الماضي في مواطنها الجغرافية في بادية الشام ومصر وأبطالها الحقيقيين: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾،

---

(١) قصّة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الصلابي، ص ٣٥٨.

بصيغ التوكيد والتحقيق ﴿لَّقَدۡ﴾ فالقصّة قد وقعت فعلاً وحقـًا. وفي الحاضر، قريش في مكة واليهود من ورائهم في يثرب في مناسبة القصّة، يسألون محمداً صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنها. وفي المستقبل في كلّ زمان ومكان، الكل سائل ينشد الحقيقة والحكمة والعبرة[١].

✧ **ومن دلالات هذا الآية:**

- وكلمة: ﴿ءَايَٰتٞ﴾ تدلّ على كثرتها وتنوعها، وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت إجابة عن سؤال سئل عنه النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والأظهر أنّ الآية أعمّ من أن تكون مجرد إجابة عن سؤال واحد، بل فيها آيات للسائلين في شتى المجالات الإيمانية والعقدية والسياسية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية، وفيها تبيانـًا لسبيل الخروج من كثير من الفتن كفتنة النّساء والسّجن والملك والمال والعلم، وغيرها. وقل أن يسلم الإنسان من الوقوع في فتنة أو أكثر، وقد أشير في المقدمة إلى بعض ما تتضمّنه قصّة يوسف وإخوته في أهميّتها، ومن دلالات هذه الآية، وجود علاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فقد نزلت هذه الآيات في العهد المكي، تسرية عن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والصحابة الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وعبرة وهدى ورحمة، وهي كذلك لأولي الألباب والمؤمنين إلى قيام الساعة حيثما كانوا[٢].

- قال الإمام محمّد أبو زهرة: وقد ابتدأ الله سبحانه بالإشارة إلى ما في قصّة يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ من آيات بينات في تكوين النّفوس والمجتمعات من أوّل الأسرة إلى المجتمع الإنساني الأكبر الّذي يجمع العناصر المكونة للمجتمع الكبير والمجتمع الصغير، وفي الأسرة والحي.

(١) يوسف أيها الصديق، محمّد عاطف السقا، ص ٦٩.

(٢) آيات للسائلين، ص ١٠٩.

أوّل هذه الآيات بدءا وظهورا: «الحسد» الّذي يعتري أولاد العلّات أو أولاد الضرائر، وهو ظاهرة من الظواهر الّتي تبدو، ويحسب بعض النّاس أنّه داء لا علاج له، والسّورة تشير إلى أنّه داء، يمكن تَوَقِّيه، وإذا وقع يمكن تحسين عواقبه، وأنه لَا يصح لإبعاده، منع تعدد الضرائر، أو منع تعدد الزوجات ولكن السّورة أشارت إلى أن الوقاية منه هو منع ما يثيره، بإظهار المنزلة العالية، لبعض الأبناء، وإظهار البخس للآخرين أشار إلى ذلك قول يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وإنّ هذا الحسد ليس حسداً مستمكناً، بحيث يبقى بين الإخوة ما داموا، بل إنّه سرعان ما تقضي عليه المحبة التالية الّتي إن اختفت حيناً، فلن تختفي طوال الحياة، وسرعان ما تكون، وهي الباقية، والأصل، والحسد عارض لَا يدوم، ألم تر لقاء يوسف بإخوته ذلك اللقاء الحبيب، وهم يقولون: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١].

والثانية: من الآيات النفسية، أنّه لَا يذهب بقوة الرجل غير الحزن الدفين المستكن في النفس، فهذا يعقوب الإنسان يُمضّ نفسه الحزينة، حتّى تبيض عيناه من الحزن وهو كظيم.

الثالثة: إنّ البِشْر بعد البؤس، والسرور بعد الألم يرد إلى النفس ما أذهبه الحزن، فإنه لما ألقى على وجهه قميص يوسف ارتد بصيرا؛ لأن الحزن قد ذهب إلى غير أوبة، والسرور يفعل فعله في الجسم فيزيل ما فعلته الكآبة فيه.

الرابعة: أنّه في وسط ثورة الباطل وحدَّته في غلمان يعقوب وحسدهم لأخيهم وجد من يدعو إلى الرفق، ويستمع إليه، فقد اتفقوا على قتله، فجاء واحد منهم، وهم في حدة الحسد، وقال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، وهذا يوحى إلى أنّ كلمة الرفق لها استجابة في أشد الإخوة عنفاً.

الخامسة: إنّ أشد ما يثير الحسد، هو الإيثار بالمحبة، فإن إثارة الحسد، لا تكون بالإيثار بالطعام أو الشراب وإعطاء المال فقط، بل إن الإيثار بالمحبة أفعل وأشد، ألم تر أولئك الغلمان يقولون: إن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة.

السادسة: إنّ الصِّبا أقرب إلى حبّ الانتقام من كِبَرٍ في السن، فشدة الصبا، معها شدة الجهالة وحب الانتقام، من غير نظر إلى العواقب، وأنت ترى صبيان يعقوب، وهم يحسدون يوسف قد بدَّله الله تعالى منهم رجالا يتحملون التبعات بعد أن أوشكوا أن يكونوا كهؤلاء أو كانوها.

السابعة: لَا يطفئ الحسد إلّا المحبة القوية المانعة، ألم تر أن المحبة الّتي كانت تنبعث من قلب الأب الرفيق الشفيق كانت تنهنه من حدة الحسد فيهم؛ وقد بدا ذلك منهم عندما طلب يوسف أخاهم من أبيهم، فقالوا: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾[يوسف: ٧٨]، فهل كانت هذه حالهم عندما أخذوا يوسف، وألقوه في غيابة الجبّ بعد أن أرادوا قتله.

وإنّ هذا يدلّ على أنّ حسد الإخوة مهما يكن مآله إلى زوال، وعوامل زواله أقوى من عوامل بقائه.

الثامنة: إنّ الدّعوة إلى الخير لَا يصحّ أن يكفّ عنها المؤمن مهما يكن في حال من البؤس والألم، ألم تر يوسف الصديق وهو في السجن، لم تشغله حاله عن الدعوة إلى التوحيد[١].

التاسعة: أن السّورة تصور النفس الإنسانية في انحرافها، واستقامتها، ألم ترها تصور امرأة العزيز وقد انحرفت عن الجادة نحو فتاها، وأنه شغفها حبا،

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٢٨٠٠).

وإن ذلك يدل على فساد القصور في هذا العهد، ألا ترى أن في هذا دعوة لأن يحتاط أرباب البيوت فلا يجعلون في خدمهم جميلا؛ فإنهم يفسدون به نساءهم، ويفسدونهم، ويطمعونهم فيهم.

وإنّ هذه الحال من شغف امرأة العزيز بيوسف، وردها، ومقاومة دواعي الهوى في شاب قوي فتي، يدل على أن الإرادة القوية الحازمة تكبح جماح الشهوة.

العاشرة: أنّ السّورة تصور نساء الطبقة المترفة في ذلك العصر لقد كنَّ يُشعن إشاعة السوء وينشُرنها، وهنَّ غير ملتفتات إلى عواقب ما يقلن، وما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ذلك لَا يزال خلق المترفات من نساء مصر، وخصوصا أهل القصور.

الحادية عشرة: أنّ الرؤيا الصادقة سبحة روحانية، وأنها تكون للمشركين كما تكون للمؤمنين، والإنسان ولو كان مشركا له روح، فقد رأى الفَتَيان صاحبا يوسف في السجن، رأيا رؤية كانت صادقة، فأوَّل لهما يوسف الصديق الرؤيا، ووقعت كما أوّل.

الثانية عشرة: أنّ يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ، كان علمه لدنيًّا من الله تعالى، فما تعلم على أحد، وما درس، فقد فصل عن أبيه في سن دون سن التعلم، وعاش عيش العبيد، وهو «الكريم ابن الكريم»، وقد علمه الله تأويل الأحاديث، وعلمه تدبير السلطان، وخصوصا وقت أن تعقَّد الاقتصاد وتأزمت حلقاته.

الثالثة عشرة: أن مصر كانت مصدر الخير، لأهل الشرق، فكانت مزرعته الّذي يقصد إليها في شدائده.

الرابعة عشرة: أن أرض الله يفيض خيرها بعضها على بعض، كما رأيت ما أفاضت به مصر على جيرانها، وكيف كانت تعيرهم، وتمونهم.

الخامسة عشرة: أن الله تعالى له عبرة في خلقه، كيف جعل ذلك الأسير الّذي باعوه بثمن بخس لأنهم لَا يريدونه - ملكا مسيطرا على مصر، ومن حولها من بقاع الأرض[١].

السادسة عشرة: أن سيادة العدل تأتي بالخير الوفير، وأن الظلم لَا يأتي إلّا بالشر المستطير.

السابعة عشرة: أن الصفح الجميل علاج كلّ الآفات الاجتماعية ما دام الصفح عن قوى.

الثامنة عشرة: أن العز الحقيقي يجب أن يفيض على الأحباب حتّى من ظلم، ولا يُبخس لحق غيرهم كما فعل يوسف مع أبويه.

التاسعة عشرة: أنّه يجب أن يخضع الكبير في سنه، لحكم الصغير في سنه ما دام عدلا، وقد رأيت خضوع يعقوب ليوسف، كما قال: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي خاضعين؛ لَا أنّهم سجدوا له سجود الصلاة.

الآيـة المتممة للعشرين: شكر المنعم، كما فعل يوسف الصديق، فقد قال خاضعا خاشعا: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١][٢].

هـذا ما نـراه في معنى الآيـات الّتي ذكرها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في قوله الآية المتممة للعشرين: شكر المنعم كما فعل يوسف الصديق فقد قال لله تعالى

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٠٣).

(٢) المصدر السابق، (٧/ ٣٨٠٤).

خاشعـًا خاضعـًا: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال الشيخ محمّد رشيد رضا: أي لقد كان في قصّة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الّذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلّا منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجبّ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النّسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة، ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦]، فما من حلقة من هذه السلسلة إلّا وكان ظاهرها محرقـًا، وباطنها مشرقـًا، وبدايتها شراً وخسراً، وعاقبتها خيراً وفوزاً، وصدق قول الله - عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨][(١)].

---

(١) تفسير المنار، (١٢/ ٢٥٩ - ٢٩٠).

إنّ في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخوته عبر كثيرة وعظات بليغة وأدلّة قاطعة على أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى لكل الّذين سألوا عن قصتهم، أو للذين يسألون وللذين لا يسألون، فالقصّة مليئة بالعبر والمواعظ والحكم والأحكام، ولم تذكر في التنزيل الحكيم لمجرد الاطلاع على أحوال بعض الأمم السالفة، ويتنزّه كلام الحكيم العليم عن اللغو والباطل وما لا فائدة فيه؛ ولهذا كرّر القرآن الكريم دعوة النّاس ليتدبروا آياته ويعرفوا ما فيها من حكم وأحكام وإعجاز، كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤][(١)].

وبعد أن أشارت الآية السّابقة إلى ما في السّورة من عظات وعبر، نقلتنا الآيات مباشرةً إلى إخوة يوسف وبيان سبب هذا الكيد والمكر[(٢)].

٢. ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾:

من هذا المشهد يبتدئ سرد قصّة يوسف بالظرف (إذ) مرّة أخرى، فهناك اقترنت إذ بالموجد وهنا اقترنت ببدء التفصيل. والغريب أنّ الإخوة يجتمعون على قضيّة لا يليق بمثلهم سناً ولا تربية أن يجتمعوا عليها، وتأمل أنّ رجالاً أشداء، أبناء نبيّ، بل أنبياء، يعقوب وإسحاق، يعقدون مؤتمراً صاخباً لأجل حبّ أبيهم لأخيهم يوسف[(٣)].

أ. ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾:

إنّ التّصريح باسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخفاء اسم الأخ الآخر دلالته أن القوم مغتاظون من يوسف، وأمّا أخوه فليس بذي شأن بالنسبة ليوسف، فألحقوه إلحاقاً.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٤).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٣٦).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٤).

وثمّة لفتة قد نبّه عليها الدكتور حسن باجودة في كتابه "الوحدة الموضوعية": عن بروز ضمير المتكلم في هذه الآية والتأكيد على ذواتهم في معرض الحديث عن تشخيص الواقع الّذي يعيشون، فانظر كم مرّة تردد ضمير المتكلم في نصف سطر: (أبينا)، (منّا)، (ونحن عصبة)، (إنّ أبانا). وهنا ننبّه إلى أنّ الوهم قد يسيطر على الإنسان فيقع الإنسان فريسة له وهذا الّذي حدث مع أبناء يعقوب، وهل كان ثمّة شيء من الّذي قالوه، أم أنّها خيالاتهم السقيمة، وإلا فإنه لا يعقل من نبي كريم كيعقوب أن يقع منه ما يستوجب ثورة هؤلاء الأبناء ولا حقدهم على أخيهم. ولئن كان مميزاً يحبّ، فهذا لا جريرة ليوسف منه، فإن كان من خطأ فليس هو مخطئاً.

يدّعي الإخوة أنّهم أحقّ بالحب من يوسف لأنّهم عصبة. والعصبة كما في الكشاف: العشرة فصاعداً[١]، وكما في مفردات الراغب: الجماعة المتعصبة المتعاضدة، وكما في النهاية لابن الأثير: من العشرة إلى الأربعين[٢]. والاثنان لا يطلق عليهما لغة عصبة، وكأن الإخوة يقولون: نحن عصبة وليس هذان بعصبة. وهذا الّذي قالوه من أفضليتهم، عنوان على فساد قياسهم؛ إذ متى كانت الكثرة عنوان الأفضلية ومعيارها، فمثقال من ذهب خير من مئة من تراب.

إن المقدّمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة، فإخوة يوسف افترضوا أنّ أباهم في ضلال مبين وأنّه يحبّ أخاهم أكثر منهم رغم أنّهم عصبة، ثمّ تصرفوا بناءً على هذا التصور، والنتيجة أنّهم ندموا ندماً عظيماً، فلم يخْل لهم وجه أبيهم كما افترضوا، ودفعوا نتيجة فعلهم والله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

(١) الكشاف، (٢/ ٣٠٤).

(٢) النهاية، ابن الأثير، (٢/ ٢٠٤).

لقد أساؤوا الظنّ، وحسدوه على منزلته وأخاه من أبيه، والحسدُ داء عضال قتال، وهو نكد في الدنيا وخسارة في الآخـرة؛ لذا جاء النهي عنه صريحـاً واضحـاً: «ولا تحاسدوا"، وفي الحديث الآخر قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " دبّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتّى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم".

ورُوري عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب»، وتُكلّم في ثبوته[١].

ومما يُحكى عن بعض السلف قوله: « لا تعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الّذين يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله"[٢].

إنّ هذا الذنب العظيم الّذي وقع فيه إخوة يوسف ابتداء كان مقدمة فاسدة، ثمّ كان بدورة مقدمة لفعل أشنع. ومما يحسن التنبيه إليه هنا، هو أنّ حبّ يعقوب ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن سبباً يستحق لأجله يوسف ما فعله به إخوته، وهنا يحسن التنبيه إلى أنّه قد أخطأ من خطّأ يعقوب، وشارك بعض من تكلم في الآيات بطريق مباشر أو غير مباشر في تخطئة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حبّه لابنه، والصواب أنّ حبّ يعقوب ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حبّ طبيعي بشريّ له مسوّغاته العقليّة والفطريّة والشرعيّة، ومنها:

– كان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أصغر إخوانه وكما هو مسلّم به عند كلّ أب وأم أنّ للصغير حباً خاصـاً تظهر فيه معاني الحنان والشفقة، والكبير محبوب أيضـاً ولكن يعكس هذا الحبّ التقدير والاحترام والاعتزاز بالابن، فمثلاً

(١) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحسد ،ح رقم: ٤٩٠٣.

(٢) آيات للسائلين، ص ١١١.

النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحبّ فاطمة ويحب ابنيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولكن كان أسلوبه في استقبالهم والتعامل معهم مختلفـًا، فكان إذا دخلت عليه فاطمة قام إليها وقبّلها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه[١]. أماّ ابناها فقد روي أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى طعام دعي له فإذا حسين يلعب مع الغلمان في الطريق، فاستقبله أمام القوم، ثمّ بسط يده وطفق يمر هاهنا مرّة وها هنا مرّة، وجعل رسول الله يضاحكه حتّى أخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه، ثمّ أقنع رأسه فوضع فاه على فمه وقبله[٢].

وورد غيره في هذا المعنى. والشاهد، أنّ حبّ يعقوب ليوسفَ كان حبّـًا فطرياً يلائم سنّه. ويحكى أنّ أعرابيّـًا سئل: من أحب أبنائك إليك؟ فقال: أصغرهم حتّى يكبر، وغائبهم حتّى يحضر، ومريضهم حتّى يشفى[٣].

- قال الدكتور عليّ القره داغي: فقد كان تقدير الإخوة للأمر غير صحيح، وحكمهم على أبيهم بأنه يفرّق بينهم حكمـًا ظالمـًا؛ لأنّ أباهم كان يحبّ يوسف وأخاه بنيامين، لأنّهما كانا صغيرين توفيت أمّهما في حين أن إخوتهما العشرة كانوا كباراً، ومن أمّ واحدة ما زالت موجودة معهم، فيكون من الطبيعي أن يكون حبّ يعقوب لهما لصغرهما وفقدان أمهما حتّى يعوضهما حنان الأم. وقد اعترف الإخوة بأن يعقوب يحبهم، ولكن حبّه يوسف وأخاه كان أكثر، وهذا يدل على التعبير بكلمة ﴿أَحَبُّ﴾، فهم بيّنوا استحقاقهم لحب أكبر، لأنهم عصبة قوية، تقوم بواجبات البيت، وهذا باطل لما تقّدم[٤].

---

(١) سنن أبي داود، أبواب النوم ، باب ما جاء في القيام، ح رقم: ٥٢١٧.

(٢) رواه ابن ماجة في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، فضل الحسن والحسين ابني على بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ح رقم ١٤٤ .

(٣) آيات للسائلين، ص ١١٤.

(٤) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د علي القره داغي، ص ٤٣.

- ولا جناح على المرء أن يحبّ أحد أبنائه، أو إحدى زوجاته حبًا يفوق حبه لبقية أبنائه أو زوجاته، ما لم يتسبب هذا الحبّ في ظلم الباقين. ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يظلم بقيّة أبنائه وحاشاه(١).

إنّ الشخص لا يلام على محبّته لبعض أبنائه دون بعض، أو بعض النّاس دون بعض؛ إذ المحبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الّذي يلقيها في قلوب العباد، فهذا النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إذا أحبّ الله عبداً نادى جبريل! إن الله يحبّ فلانـًا فأحبه، فيحبّه جبريل. فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحبّ فلانـًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض"(٢).

هذا، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. وقال نبينا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إنّي رزقت حبّها». وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبّ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حبًّا خاصـًا، لكنّه كان تامّ العدل. والإنسان بإمكانه أن يقوم بالعدل، لكن ليس بإمكانه التحكم في ميل قلبه؛ ولهذا لمّا سئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح من حديث عمرو بن العاص، قال: أي النّاس أحبّ إليك؟ قال عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثمّ من؟ قال: عمر بن الخطاب، فعد رجالاً(٣)، وروي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"(٤).

وهنا يحسن التنبيه إلى مسألة مهمة: إذا أحبّ أحد ابنـًا له حبـًا خاصـًا فعليه أن يركّز على أن سبب الحبّ هو الصفة الّتي تحلّى بها هذا الابن لا شخصه، حتّى

---

(١) آيات للسائلين، ص ١١٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة ، ح رقم: ٣٠٣٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لو كنت متخذا خليلا)، رقم: ٣٤٦٢.

(٤) سنن أبي دواد، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، ح رقم: ٢١٣٤.

يتنافس الأبناء في تحقيق هذه الصفة كأن يكون باراً بوالديه، أو فيه صلاح، أو غير ذلك. مع الحرص على العدل(١).

كما أنّه ينبغي للوالد على ألّا يحمله حبّه لولد من أولاده على أن يعطيه ويحرم إخوانه، فهذا من الظلم الّذي نهى الله عنه. وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "أعطاني أبي عطية، فقالت عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لا أرضى حتّى تشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني أعطيت ابني من عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: أعطيت سائر ولدك مثل هذا، قال: لا، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، قال: فرجع فرد عطيته، وفي رواية لمسلم: "فلا تشهدني إذن فإني لا أشهد على جور""(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»(٣).

- قال الشيخ محمّد متولي الشعراوي: إنّ الحبّ مسألة عاطفيّة لا تخضع إلى التقنين؛ ولا تكليف بها؛ وحينما يتعرض القرآن لها، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوضّح: أنّ الحبّ والبغض انفعالات طبيعيّة؛ فأحِبْ مَنْ شئتَ وأبغِضْ مَنْ شئتَ؛ ولكن إياك أن تظلم النّاس لمن أحببت؛ أو تظلم مَنْ أبغضت، بل اقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨](٤).

---

(١) آيات للسائلين، ص ١١٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب: الإشهاد في الهبة ،ح رقم: ٢٤٤٧، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة ،ح رقم: ١٦٢٣.

(٣) يوسف الأحلام، محمود المصري، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص ٤٨.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٨٦٦).

ب. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

والعصبة من عدد عشرة فما فوق. والعصبة أيضاً هم المتكاتفون المتعصبون لبعضهم البعض، وهم الّذين يقومون بالمصالح، ويقضون الحاجات، وقد تقاعد أبوهم، وترك لهم إدارة أعمال العائلة وقالوا: ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة، فكان من الواجب أن يَخُصَّنا أبونا بالحب ولم يلتفتوا إلى أنّهم عُصْبة، وهذا ما جعل الأب يحبهم، لكنّه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية، ولكنهم سدروا في غَيِّهم، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨][(١)]. أي: إنّه بعيد عن الصّواب. وأكّدوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة. و [اللام] في قوله ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والتعبير: ﴿لَفِي﴾، فيه إشارة إلى أنّ الضلال محيط به إحاطة عظيمة. وسيطر الشيطان على نفوسهم فحرّك الحسد إلى أقصى غاياته[(٢)].

قال محمّد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الظاهرُ أَنَّ مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الّذي وصفوا به أباهم- عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- في هذه الآية الكريمة إنّما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي. ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى في نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي لست عالمًا بهذه العلوم الّتي لا تعرف إلّا بالوحي، فهداك إليها وعلمك بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظنُّ سلمى أنّني أَبغي بها ... بدلًا أراها في الضلال تهيمُ

---

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٦٨٦٨).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٠٥).

يعني: أنَّها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنّه يبغي بها بدلًا وهو لا يبغي بها بدلًا. وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنّما مرادهم أن أباهم -في زعمهم- في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به، حيث آثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعًا له، وأقدر على القيام بشئونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق الّتي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وهذا أشهر معانيه في القرآن؛ ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات. الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في الطَّعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمى العرب الدفن إضلالًا؛ لأنّه تغييب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها؛ لأنها تصير رميمًا وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] الآية.

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] أي غاب واضمحل[١].

---

(١) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ، (٣/ ٥٢- ٥٣).

٣. ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩].

أ. ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾:

هكذا كانت مشاورات إخوة يوسف فيما بينهم؛ التفكير بالقتل لأخيهم الصغير الّذي لم يرتكب جريرة ولا جريمة، وهذا يذكرنا بقتل ابن آدم لأخيه ويذكرنا بأنّ الإنسان إذا خضع لوسوسة الشيطان انحطَّ إلى أسفل السافلين ورُدَّ إلى مرتبة أحطّ من الوحوش، وصار كما توقعت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ وأيّ دماء؟ إنها دماء بريء، وأي بريء؟ إنّه الأخ اللطيف المهذب الّذي لم يسئ ولن يسيء.

ب. ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾:

مع التراجع السريع عن القتل إلى الطرح أرضـًا، والطرح أرضـًا أخف من القتل، وقد يصل إلى حد القتل ولكنه قتل بالتّسبب، وهم لا يريدون القتل بالعمد، ولكن لا بأس بالقتل بالتّسبب، وقد لا يترتب على الطّرح أرضـًا موت ولا قتل[1].

ولفظة: ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾، احتوت دلالات دقيقة كشفت لنا ما في نفوس الإخوة من غلّ وحسد حتّى وصل بهم الأمر أن تقترح نفوسهم الطرح أرضـًا، فالكلمة تعبّر عن نوبة صرع جامحة للنفس لا تجد من يروضها ويطفئ نارها إلّا بالخلاص من هذا الفتى الصغير، فكان الطرح، والذي يضمن النبذ والإلقاء والرمي بعيداً عن قلب أبيهم وعدم الاعتداد به، وعدم الالتفاف والحاجة له، وهذا النبذ والرمي

---

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٢٩٧.

وعدم الالتفاف له لا يكون في مكان قريب أو مكان يأمن فيه على نفسه، بل هو مكان بعيد غاية البعد والجهالة، وما هذه المعاني إلّا لتدل على مزيد التخلص من يوسف وعلى غض النظر بما يحصل له مكروه، محاولة لإطفاء نار الحسد والغيرة، الّتي تتغلغل في جنباتهم دون النظر إلى أنّه الأخ الصغير البريء في طفولته؛ لأنّ البصائر قد عميت والقلوب قد أقفلت فجاءت لفظة: (الطرح) مؤدية للغرض الّذي سيق لأجله من بيان ما اعترى في نفوسهم من حسد وغيرة، تحمل في طيّاتها معاني الإبعاد الحسي الّذي يراد منه الإبعاد القلبي والمعنوي بعد ذلك ولا يمكن للفظة أخرى أن تؤدي هذه الرسالة الّتي اختصّ بها هذ اللفظ.

وفي قوله: ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، جعلوا طرحه أرضـًا مساويـًا لقتله وهذا يعني أن يطرحوه أرضـًا بعيدة مجهولة منكرة في بوادي بعيدة منكرة، تأكله الذئاب[1]، ولاحظ ما في كلمة: (اطرحوه) من غلظة وقسوة ورغبة في هلاكه، وما في كلمة (أرضـًا) من تنكير تتسع الدلالة فيه وتأخذ آماداً بعيدة ولو حاولت أن تعبّر عن المعاني الّتي يتسع إليها التنكير في هذه الكلمة لوجدتّك في حاجة إلى كلام طويل.

ج. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾:

صورة بيانيّة من أرقى صور البيان وكأنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شاغلاً لوجه أبيهم ولم يكن خاليـًا لهم، يعني كأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قاطعـًا لهم الطريق الّذي يصلون منه إلى وجه أبيهم، فإذا قتلتموه، أو طرحتموه أرضـًا خلا هذا الطريق وأمكنكم أن تسلكوه إلى وجه أبيكم[2]. و﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: أي:

---

(١) من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م، ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٦.

يصْفُ لكم ويخلص لكم وجه أبيكم، فيقبِل عليكم ويزداد حبّه لكم، وقد ظنّوا أنّه عندما يفقد يوسف، يخرج حبّه من قلبه وما علموا أنّه عندما يفقده سيزداد حبّاً له وشوقاً إليه وأنّ خيال ولده المفقود سيبقى في قلبه وأنّ قلبه لن يخلو لهم وهو يعلم أنّهم سبب إبعاد حبيبه عنه ومفارقته له.

وقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يدلّ على غلظة نفوسهم وتبلّد مشاعرهم، فغياب المحبوب يلهّب الشوق ويضاعف المحبّة، وأنّى لهم أن يستشعروا هذه المعاني وقلوبهم ممتلئة بالحقد والحسد والضغينة والبغي[١].

د. ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾:

لقد علم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ما عزموا على فعله ذنب وأنّهم قد عقدوا العزم على التوبة منه بعدُ. ولا يكون ذلك مسوّغاً لفعلهم؛ إن من قدّم العزم على التوبة قبل صدور الذنب تسهيلاً لفعله وإزالةً لشناعته، وتنشيطاً لنفسه عليه، فلا يُحمد له أبداً هذا العزم وذاك التعليق، بل قد يكون صنيعه هذا دالاً على استخفاف بمعصية الله تعالى، ولو صدق في إرادة التّوبة واجتمع عمل القلب الّذي يقوم بالتائب؛ لما أقدم على الذنب أصلاً، فإذا كان تقديم العزم على ذنب متعلقاً بحق آدمي كان ذلك أشدّ، فإنّ من شروط التوبة ردّ الحقوق إلى أهلها، فإذا تعلّق بأكثر من مخلوق واحد كان أعظم، فإن كان المخلوق قريباً يجب برّه أو يجب تعظيمه من نحو عالم وأب كان ذلك أكبر، ولا يسوّغ ذلك بحال حسنُ النيّة والقصد، فإخوة يوسف ما فعلوا فعلتهم إلّا ليخلوا لهم وجه أبيهم، فالغاية لا تجعل الوسيلة المحرمة حلالاً[٢].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٨).

(٢) (٢) آيات للسائلين، ص ١١٦.

﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾: هكذا ينزع الشيطان، وهكذا يسوّل للنّفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث، وهكذا لمّا غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا... والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات وليست التوبة هكذا، إنّما تكون التوبة من الخطيئة الّتي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر، حتّى إذا تذكر ندم وجاشت نفسه بالتوبة. أمّا التوبة الجاهزة الّتي تُعدّ سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالمها، فليست توبة، وإنّما تبرير لارتكاب الجريمة بزينة الشيطان[١].

ولا بدّ من الإشارة أنّ باب التوبة مفتوح للعبد ما لم يغرغر ولم تطلع الشمس من مغربها، فالتوبة والأوبة والإنابة إلى الله، باب مفتوح لم يُغلق في وجه واحد قال لا إله إلّا الله. وإن العبد قد يرتفع إلى أعلى عليين بالأوبة والتوبة والإنابة والعمل الصالح وقد كان يوماً في أسفل السافلين[٢].

إنّ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه السّورة في نهاية المطاف ندموا وطلبوا العفو والسماح من يوسف ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وحسنت توبتهم ورجوعهم إلى الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤ . ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

إنّ الإخوة لم يكونوا متوانين عن قتل يوسف، بل اقترح أحدهم حلًّا يشفي غليلَ الإخوة ويبعد مسألة القتل الّذي هو أعظم الجرائم بعد الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[٣].

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٧٣).
(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٦٧.
(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي القره داغي، ص ٥٣.

أ. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾:

وفي هذه الصيغة جماليةٌ لغويةٌ، تتمثّل في انتخاب أفضل أسلوب لغوي، بأفضل الكلمات فيما يتناسب مع موضوع الكلام. فالكلام هنا سُرد لواقعة تتواصل فصولا مع الآيات في حديث بين عدّة أشخاص، والصيغ المطروحة عدية، كأن تقول: قال أحدهم، أو قال كبيرهم، أو قال فلان منهم. أما أن تقول: قال قائل منهم، فإن الوقع في الأذن أرقّ، والقبول في النّفوس أوفق، والتناسق محقَّق.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ إشارة أخرى إلى الإعجاز القرآني وتفوّقه على كلام البشر، فلو أنّ الرّسول - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - كان يأتي بهذا الكلام من عنده لكان اعتمد على ما فطرت النفس البشرية في خصائصها وسلوكها في تحديد الأشخاص بدقّة، كأن يقول: قال رويبل. أو قال: يهوذا. لكنّه ما هو إلّا مبلغ عن ربّه وشاء الله تعالى ألّا يذكر اسم القائل علوّا عن منهج النّاس في السرد والكلام، فبلّغ الرسول الكريم ما جاءه من ربه بالحرف[١].

إنّ هذه الكلمة ﴿قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ تشمل واحداً غير متعين منهم، وبالتالي حفظ مقامهم جميعـًا، حيث لا يجوز لنا تخصيص واحد منهم بعينه بنيّة القتل، ووصفه بأنه مجرم بعينه، فهذا إرشاد من الله تعالى إلينا بالاستفادة من القصّة بأخذ العبرة، دون الخوض في اتهام أحد بعينه، أو كرهه، ولا سيما أنّهم جميعـًا تابوا إلى الله تعالى وغفر لهم، وعفا عنهم والدهم وأخوهم يوسف[٢].

(١) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٤٦.

(٢) لطائف التفسير في سورة يوسف، المرجع السابق، ص ٤٦.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ﴾ التحريض على الإخلاص في دفع المفاسد ما أمكن فلم يذكر اسمه ولا صفته مع أهميّة موقفه فإذا علم الله صدقك فليس مهمّـًا أن يعرف النّاس اسمك(١).

- ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾: ففي ظاهر السّياق لا حاجة إلى ذكر يوسف لاكتمال المعنى، وقد ذُكر اسمه في الآية السّابقة إلّا أنّ إعادة اسمه يحمل فوائد عدة منها:

الأولى: لغوية، في انشراح الصدر بعد انقباضه مما ورد في الآية السّابقة على الواقع خاصة، فبعد أن سمعنا: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾، سمعنا مباشرة: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾.

الثانية: معنوية، فإن تكرار ذكر اسم يوسف أمام الإخوة، يحملهم على استذكار كلّ ما يحمله الاسم من النواحي الإيجابيّة في نفوسهم حياله، وقد التصق اسمه في أذهانهم بمواصفاته أنّه أخوهم وصغير فيهم.

الثالثة: رمزية، فكما أنّنا لاحظنا أنّ المتكلم الأوّل في الآية السّابقة، أبعد عن نفسه شخصيّـًا مسألة قتل يوسف، أو الاشتراك القولي في قوله: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾، فها هو الأخ الثاني الّذي ينتهج المنهج ذاته في إبعاد نفسه قوليّـًا عن الاشتراك في التفكير في قتل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فقال: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾.

وفي قوله: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ دروس، منها:

- إن لم تستطع إزالة الشرّ فخففه ما استطعت.

- محزن أن تبدو الرحمة في شكل رفض القتل، حتّى يظهر أنّ أكثر الموجودين حنانـًا ورحمة هو ذلك الّذي يرفض القتل ويرضى بما دونه من التعذيب والتنكيل.

---

(١) لطائف التفسير في سورة يوسف، المرجع نفسه، ص ٤٦ - ٤٧.

ولا شكّ أنّ الألطاف الربانيّة كانت تحوط بيوسف فمن بين مكائد إخوته ارتفع صوت: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾. ومن عمق البئر جاءته صرخة: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾. وفي أولى خطوته في القصر سمع همسة: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، ولحظة إلصاق التهمة به في بيت العزيز ارتفعت شهادة: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧]، وقبيل خروجه من السجن جاءته رسالة: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [يوسف: ٥٤][(١)].

- ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١٠]، كان مجرد اقتراح، لكنّه أنقذ مصر والشام من المجاعة وغيّر مسار التاريخ فلا تحقرنّ فكرة أو رأياً. وسبحان الله! حتّى أصحاب النيّات السّيّئة تتفاوت نواياهم في السوء والشرّ والعداوة مراتب ودرجات، والخصوم يتفاوتون ضراوة ونكاية وقد يدفع الله ببعضهم شرَّ بعض[(٢)].

ب. ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾:

من المعروف في اللغة أنّ الجبّ يختلف عن البئر في مواصفاته: ذاك أنّ البئر هي الحفرة في الأرض الّتي تضم في قعرها ماء متّصلا بينبوع يؤمّن استمرار تدفق الماء، أو بشريان مائي يجري تحت سطح الأرض، وقد أقام النّاس على حوافّ هذه الحفرة، بناء محيطاً بها، منعاً من اندراسها. أما الجبّ: البئر الواسعة. وسميت جبّاً لأنها قطعت من الأرض قطعاً، وهي كذلك يتصل قعرها بالماء، ولكن لا حواف لها عند السطح فهي الركيّة الّتي لم تطوّق. أما غيابة الجبّ، فهي ما غاب عن سطح الأرض داخل الجبّ، ولكنه ارتفع عن سطح الماء ولم يغب فيه. وإنّما ذكرت الغيابة مع الجبّ دلالة على أن هذا القائل أشار عليهم بإلقائه

---

(١) يوسفيات، علي جابر الفيفي، ص ٣٩.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمّد خيري، ص ٣٣.

في موضع بناحية الجبّ في إحدى أطرافه السفلى، بعيداً عن وسطه الّذي فيه الهوّة، الّتي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره، فهذه المشورة خطة ثالثة تحتوي سلامة يوسف، وتضمن حياته، وتكفل بقاءه، وذلك لا يكون إلّا بما قلنا وصوّرنا، فالمراد أن يُلقوه في ناحية من نواحيه إلّا في وسطه حتّى يكون بعيداً عن الماء؛ لأنّهم اتفقوا أخيراً على عدم إهلاكه، وهذا لا يتحقق إلّا بهذه الصورة، وأمّا لو كانوا يريدون إلقاءه في جب مملوءة ماء لكانوا يريدون إهلاكه وهو خلاف ما وقع عليه اتفاقهم أخيراً(١).

إن الوصف القرآني يصور لنا بدقته واقع الخطة بكاملها بكلمتين اثنين: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾، فإذ بنا نفهم أنّ المقترح أراد التخلص من يوسف دون أن يتم قتله بصورة مباشرة، بأن يُقصى عن أبيه، وأن لا يذهبوا به بعيداً جداً لمشقة ذلك عليهم، ولا يتركوه في مكان قريب يمكنه من العودة إلى أبيه، ولا يتركوه في الفلاة في مكان مكشوف. إلّا إنّه خشي أن يقول: ألقوه في البئر، فيغرق، فإذا به يتحرى الدقة في موضع إلقائه، فيقول: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾، بما يضمن عدم قتله. وأل هنا ﴿ٱلۡجُبِّ﴾ للعهد لا للجنس أي: الجبّ المعهودة المعروفة لكم، والتي ليس فيها ماء مغرق وليست مهجورة بحيث تكون مأوى العناكب والحيّات والعقارب، وليست معزولة عن طريق المارة فيموت من الجوع، ولكنها الجبّ الّتي تعرفون على ممرّ السيارة حتّى يلتقطه هؤلاء ويأخذونه(٢).

ج. ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾:

أيّ: يلتقطه بعض المسافرين السائرين على الطريق.

(١) مؤتمر تفسير يوسف، (١/ ٣٣٤).

(٢) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٠٣.

- والالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق. واستعير لأخذ شيء مضاع[١]. ومنه اللقيط، وهو: الولد الصغير الّذي يوجد ملقي على الأرض ولا يعرف أبواه[٢].

- والسيارة: الجماعة الموصوفة بحال السير وكثرته. والتعريف به تعريف العهد الذهني لأنهم علموا أن الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر[٣]. وبهذا أصبح الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقيطاً في أيدي الغرباء[٤].

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾: قال: يلتقطه بعض السيارة، فالتقطه بعض السيارة بالفعل. هناك نوع من المقادير مرتبط بكلمة تخرج من فم متفائل أو مؤوّل، أو ظن بالله ظن الخير، فلتكن ألفاظك دائماً تحمل توقعات الخير لعلّ قدراً ما، يوافق ذلك[٥].

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾: أي: كنتم فاعلين بمشورتي. ويدلّ قوله هذا على أنّه كان مرتاباً من قبولهم لرأيه، بسبب ما يرى من شدّة حقدهم وضغينتهم على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنّ الله غالب على أمره، قدّر ليوسف ألّا يموت حتّى يبتلي بما ابتلي به، ثمّ يمكنه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الأرض، فانصرفوا عن قتله، وإلقائه في الأرض، إلى إلقائه في الجبّ الواقعة على طريق القوافل، واتّفقوا على هذا الرأي[٦].

- إنّ هذه الآية الكريمة تدلّ على وجوب درء المفاسد بقدر الإمكان، وأنّ من كان قادراً على درء أي مقدار من المفاسد فعليه أن يفعله، حيث إنّ هذا القائل لم

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٠٥.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٩).
(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٣٠٥.
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٩).
(٥) يوسفيات، علي جابر الفيفي، ص ٣٨.
(٦) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٠).

يكن مرتاحاً للإجراءات السّابقة حتّى في هذا الإجراء فقال: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، فاستعمل لفظ: (إن) الدال على التشكيك والتثبيط، وفي هذا توجيه إليهم بعدم الفعل، ولكنهم كانوا مصرين على ذلك(١).

ولقد أشارت الآية الكريمة إلى سنّة من سنن الله تعالى وهي سنة التّدافع، وهو الصّراع بين الخير والشر، وبين الحقّ والباطل، فهؤلاء إخوة يوسف عملوا على قتله ظلماً وجوراً وفساداً في الأرض فهيّأ الله تعالى واحداً منهم صرفهم عن قتله إلى تركه يقع في يد السيارة ونجح في ذلك.

قال أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: في الآية دليل على مشروعية التقاط اللُقطة وقد أذن فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يأذن في ضالة الإبل إذ قال في اللقطة: «اعرف عقاصها (وعاءها) ووكاءها ثمّ عرَفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها. وقال في ضالة الغنم هي لك أو لأخيك أو للذئب»(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية فإن بعض الشر أهون من بعض والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل(٣).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: لفظ اللقيط في الشرع لا يطلق إلّا على الطفل الصغير لا على الكبير(٤).

---

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي القره داغي، ص ٥٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب المساقاة الشرب، باب: شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار، ح رقم: ٢٩٧٢. أيسر التفاسير، (٢/ ٥٩٦).

(٣) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٩/ ١٣٤).

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١١ - ١٥].

تفسير الآيات الكريمة:

بعدما اتفق إخوة يوسف على أن يلقوه في غيابة الجبّ شرعوا في التنفيذ وارتكاب الجريمة وبدأوا في محاورة أبيهم للوصول إلى هدفهم

١. ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾:

والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كلّ ما بذلوه ليندسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب، الّذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم.

- ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾ بهذا اللفظ الموحي والمذكر بما بينه وبينهم من آصرة.

- ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ سؤال فيه عتب، وفيه استنكار خفيّ، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه، وهو تسليمهم يوسف، فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات العلوية الّتي يرتادونها لأنّه يحبه، ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الّذي يحتملوه وهم كبار، لا لأنّه لا يأمنهم عليه، فمبادرتهم له بأنه لا يأمنهم على أخيهم وهو أبوهم، المقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثمّ يفقد إصراره على احتجاز يوسف، فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة[١].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٧٤).

- ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾: قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء، وذكر النصح هنا - وهو الصفاء والإخلاص - يظهر عكس ما كانوا يخفونه من الدغل المريب[١].

- قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي قولهم: ما لك لا تأمنا، دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم، وذكروا سبب الأمن وهو النصح أي: لم لا تأمنا عليه وحالتنا هذه؟ والنصح دليل على الأمانة، ولهذا قرأنا في قوله: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، وكان قد أحس منهم قبل ما أوجب ألّا يأمنهم عليه[٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي؛ لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ [و] الحال ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الّذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم[٣].

وقال البغوي في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾: النصح هو القيام بالمصلحة وقيل: البر والعطف، إنا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، ونحفظه حتّى نرده إليك[٤].

وقال أبو السّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ خاطبوه بذلك تحريكـاً لسلسلة النسبِ بينه وبينهم وتذكيراً لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليتسببوا

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٩٧٤).

(٢) البحر المحيط، (٦/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) تفسير السعدي، (ص ٥٠١).

(٤) مختصر معالم التنزيل، (١/ ٤٣٢).

بذلك إلى استنزاله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحس منهم بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا ﴿مَا لَكَ﴾ أي أيُّ شيء لك ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ أي لا تجعلنا أمناءَ ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مريدون له الخيرَ ومشفقون عليه ليس فينا ما يُخلُّ بالنصيحة(١). قبل أن يسمعوا جواب أبيهم على سؤالهم وعتابهم طلبوا منه أن يرسله غداً معهم إلى المراعي والقفار كأنّ كلامهم أمر محقق لا شك فيه ولا ارتياب(٢).

٢. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾:

- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾: في لفظة: ﴿أَرْسِلْهُ﴾ دليل على أنّه كان يمسكه ويصحبه دائماً(٣).

- ﴿غَدًا﴾: يطلق على اليوم الّذي يلي يومك، وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد(٤).

- ﴿يَرْتَعْ﴾: الرتع الأكل والشّرب في الربيع رغداً. والرتع لا يكون إلّا في الخصب. ورتع فلان في المال إذا تقلب فيه أكلا وشرباً(٥). وهذه اللفظة قد احتوت على دلالات دقيقة كشفت لنا أيضاً ما في نفوس الإخوة من مكر وحيلة وتمويه تجاه أخيهم لتحقيق خطتهم الّتي اتفقوا عليها لإلقائه في البئر. وهذه اللفظة الّتي فيها من التقلب في الأكل والشرب والسعة، لتوحي عند سماعها بالاستقرار والراحة والطمأنينة والنعيم والانبساط الّذي سيلحق بأخيهم الصغير، وما ذلك إلّا للتّمويه والتغطية على مجريات الخطّة بطمأنة أبيهم على يوسف

---

(١) تفسير أبي السّعود، (٤/ ٢٥٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٠).

(٣) البحر المحيط، (٦/ ٢٤٥).

(٤) إتحاف الإلف بذكر الفوائد الإلف، (١/ ١٥٦).

(٥) دلالات الألفاظ الّتي انفردت بها سورة يوسف، ص ٨.

حتّى يصلوا إلى مرادهم من الانفراد بيوسف، وإلقائه في البئر وعلّلوا طلبهم والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط[(١)].

- ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾: والمراد اللعب المباح بقصد الاستجمام ورفع السآمة[(٢)]. وهذا اللعب من شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده. قال ابن عاشور: وهو مباح في الشرائع كلّها إذا لم يصر دأباً[(٣)].

وهو يتفق مع فطرة الإنسان وحاجة جسمه إليه، وهو مقرر في جميع الشرائع، ويقتضيه العقل والفطرة، للكبار والصغار خاصة، ولذا قيل: من كان له صبيّ فليتصابَ معه، وليلعب معه، وجاء في الأثر: لاعب ابنك سبعاً، وصاحبه سبعاً.

وجاءت شريعة الإسلام لتقرر اللعب والرياضة المفيدة النافعة للجسم للصغار والكبار، وسيأتي المزيد بإذن الله في السّياق، وبأنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سابَق عائشة وقالت: سابقني رسول الله فسبقته[(٤)]، وقالت: "كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فيلعبن معي "[(٥)]. والأدلّة على ذلك كثيرة.

وهذا ما استمر مع البشريّة، وظهر اللعب في المدارس من الروضة إلى الجامعة، مع فتح النوادي الرياضية، والملاعب، والمسابقات في ذلك، استمراراً لشرعة الله تعالى[(٦)].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٩.

(٢) تفسير القرطبي، (١١/ ٢٧٢). التحرير والتنوير، (٥/ ٦٥٠).

(٣) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٥٠).

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء ،ح رقم: ١٩٧٩.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: الانبساط إلى الناس ،ح رقم ٥٧٧٩.

(٦) شرعة الله للأنبياء، د. محمّد الزحيلي، ص ٢٥٧.

ويُفضِّل الشرع أن يكون اللعب في مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً؛ كأن يتعلمَ الطفلُ السباحةَ، أو المصارعة، أو إصابة الهدف؛ وهي الرماية وهكذا نفهم معنى اللعب: أنّه شُغل لا يُلهِي عن واجب، أما اللهو فهو شغُلُ يُلهِي عن واجب وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها النّاس؛ ويجلسون معـًا؛ ثمّ يُؤذِّن المؤذن؛ ويأخذهم الحديث؛ ولا يلتفون إلى إقامة الصلاة في ميعادها؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة: لَصَار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها[١].

- ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾: من أن يناله مكروه وأكّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة إسمية، وتحليتها بأنّ واللام، وإسناد الحفظ إلى كلهم، وتقديمه له على الخبر احتيالاً في تحصيل مقصدهم[٢].

- ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أيّ: نسترعيه، ونحفظه من أذىً يريده[٣].

لقد أكّدوا لأبيهم أنّهم سيقومون على حفظه ورعايته، وقابل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مكر أولاده وكيدهم بصدر سليم ونفس بريئة صافية، فهو نبي كريم، لا يحمل في صدره شيئـًا على أحد، فضلاً عن أولاده، وهو أيضـًا أب عظيم رحيم ممتلئ القلب بعاطفة الأبوّة الصّادقة، ولهذا صارح أولاده بما يحمله في قلبه من المحبّة الشّديدة لولده يوسف، وما درى أنّه بهذه المصارحة والمكاشفة قد سعّر أحقاد أولاده على أخيهم، وألهب مشاعر الحقد والغضب في نفوسهم، فجعلهم أكثر تصميمـًا على تنفيذ جريمتهم[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٥٨٧٧).

(٢) تفسير أبي السّعود، (٤/ ٢٥٧).

(٣) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤١).

٣. ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣].

- ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾: أي: إنَّ ذهابكم به يُدخل عليّ حزنـًا، فأنا شديد المحبة له، لا صبر لي على مفارقته، ولو لبعض يوم، وشدة المحبة تؤدّي إلى مشاعر الخوف والقلق على المحبوب[١].

- ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾: فقد كانت أرضهم كثيرة الذئاب، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صغيراً لا يستطيع الامتناع منها بنفسه.

- ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي: وأنتم عنه في غفلة وانشغال[٢].

جمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الآية بين الخوف والحزن وهو ما يعبر عن مكنونات النفس البشريّة. والحزن له تأثير سلبيّ على النفس البشريّة ويساهم في إضراره، وهو يتولد من مكروه ماضي أو حاضر. والخوف كذلك له تأثير سلبيّ على الإنسان وهو يتولّد من مكروه مستقبلي، فإذا اجتمعا على شخص ما، تنغصت حياته ولم ينتفع بعيشه[٣] إلّا إذا التجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

إنّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عمل على إبقاء الثقة بينه وبين أولاده، واعتذر عن دعوتهم لأخيهم بعذرين: الحزن على يوسف وذهابه من عنده. ثانيـًا: بخوفه أن يأكله الذئب في ساعة غفلة منهم. وتأمل الحكمة وأسلوب التربية العظيمة، فإنّه ليس من الحكمة أن يهدم جسر الثقة بينه وبين أبنائه، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم منهم يقينـًا ما هم عليه من سوء طويّة، لكنّه لا يفاتحهم بذلك حرصـًا على بقاء خيط

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٤١).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤١).

(٣) عجائب فريدة من سورة يوسف، عادل أكتوف، دار طليطلة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، ص ٩٠.

الحياء في نفوس الأبناء موصولاً، فإذا انقطع تجرأوا على المعصية أكثر. فلينتبه الآباء والأمّهات والمدرّسون إلى هذه النقطة: أن انقطاع حبل الحياء بين الكبير والصغير يجعل الحياة لا تطاق(١). **واستمر أبناء يعقوب في جدالهم وحوارهم مع أبيهم لإقناعه بذهاب يوسف معهم فقالوا:**

٤. ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾:

- ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي: جماعة فينا قوة ومنعة، وحالهم أنّهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب(٢).

- ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾: أي: لضعفاء عاجزون مستحقون للهلاك، لأنّه لا نفع في حياتنا. فإذا ضيعنا أخانا، وأكله الذئب، فنحن لما سواه أشد تضييعاً(٣).

قال أبو حيان: هالكون ضعفاء وجوراً وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا، لأنهم لا غنى عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسار والدمار، وأن يقال: خسّرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون(٤). وهكذا استسلم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهذا التوكيد ولذلك الإجراء، ليتحقق قدر الله وتتم القصّة كما تقتضي مشيئته.

الآن ولقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يلقي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي، وأنه سيعيش وسيُذكّر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنّه هو(٥).

---

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٠٩.

(٢) البحر المحيط، (٦/ ٢٤٧). الكشاف، (٢/ ١٤٥).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤١).

(٤) البحر المحيط: (٦/ ٢٤٧). اتحاف الإلف: (١/ ١٧٩).

(٥) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٧٥).

٥. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾: إنّ التعبير بلفظ (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ مشعر باستعجال الإخوة في التنفيذ، فالفاء للتعقيب المباشر دون التراخي، أي: إنّهم أخذوا يوسف بمجرد الموافقة الّتي قد تكون صريحة، أو ضمنية، لأنّ القرآن الكريم قد طوى ذلك. وقد طوى جواب الشرط (فلمّا) لأنّ جوابه هو جميع نتائج القصّة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم وقد حُذف لأجل هذا التعميم، ولا مانع لغويّـًا من أن يكون جزاء وجواب: (فلما)، قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ في الآية التي بعدها، وفي ذلك دلالة على سرعة التنفيذ والإيقاع.

وإن منهج القرآن الكريم يقبل هذا التنوع العظيم. والتعبير بلفظ: ﴿ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ أيّ: بتعدية الفعل بالياء ولم يقل: ذهبوا معه، أو ذهب معهم، وذلك مشعر بالإسراع بالأخذ به بصورة غير ودّية. إنّ إيقاع هذه الجملة الشرطيّة يدلّ على أنّهم بمجرد الموافقة أخذوا بيد يوسف وذهبوا به، ثمّ إنّ وضع جملة: ﴿ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ مع: [أجمعوا] مؤذن بالعجلة خوفـًا من تراجع الوالد من موافقته الّتي لم يكن مرتاحـًا إليها، ولكنّهم حاصروه من كلّ جانب، وأخرجوه بجميع الوسائل، وأعطوه كلّ الضمانات، حتّى استسلم لهذه التوكيدات، فوافق على ذهاب يوسف معهم، ليبدؤوا تنفيذ مراحل هذه الخطة.

إنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الحالة: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾، مغلوب على أمره. يكفي أن نتأمل الصيغة في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ حتّى ندرك أنّهم لم يذهبوا معه، ولم يصطحبونه بمودّة، ولم يرافقوه برفق، بل أخذوه أخذاً قسريّـًا بعد جهود كثيفة وكذب كثير.

ونعرف أنّ علينا أن ننتظر حدثاً بعد الذهاب به، لورود الآية بصيغة تعليق الذهاب على نتيجة لاحقة، مما يشدّ المستمع لمتابعة أحداث المشهد[1].

- ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: اتفقوا كلهم على إلقائه في ظلمة الجبّ، وحكى الله تعالى إجماعهم على جريمتهم هذه، لأنّها جريمة فظيعة منكرة، فكلّهم اشتركوا بها وتحمّلوا وزرها، وقاموا بتنفيذها بلا رادع ولا مانع، فلم يهتزّ ضمير واحد منهم في أثناء تنفيذ الجريمة وهو يرى أخاه الصغير خائفاً زائغ البصر، يستجير بصراخه ودموعه، فلا يتحرّك قلب واحد منهم ولا يهتزّ ضميره ووجدانه.

ولا بدّ أنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد فوجئ بعد ابتعادهم عن أبيهم بانفجار أحقادهم المكبوتة في صدورهم، فقد ظهرت فجأة في عيونهم الّتي تنظر إليه، شرراً وتقدح في وجهه ناراً، وفي أيديهم الّتي انهالت عليه ضرباً ولكماً ألا ما أقسى قلوبهم الّتي لم تتأثر باستغاثات أخيهم الصغير ودموعه وهم يدفعونه دفعاً إلى مكان الجريمة، ثمّ وهم يشتركون جميعاً كلهم في إلقائه في ظلمة قعر الجبّ[2].

وأدركت رحمة الله الغلام الصغير وهو في قعر الجبّ وظلمته، بتحسّس موطئاً لقدميه وموضعاً يستند إليه، وهو يرتعش من برودة الماء ويرتجف من هول الجريمة الّتي فاجأته على غير توقّع وانتظار. خرج مع إخوته طلباً للأنس والانشراح، فإذا به يُلقى في قعر بئر مظلمة، وينتقل من حِجر والده وعطفه عليه وحنانه إلى وحشة الجبّ وظلمتها ورطوبتها، وتداركه الله برحمته ولطفه[3].

---

(١) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٦١.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٣).

(٣) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤٣).

كانت عناية الله ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فوق كلّ عناية، وحفظه فوق كلّ حفظ، قال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتْكَ عيونُها ... نَمْ فالمخاوف كلّها أمانُ

فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نزل في الجبّ وهو بحالة الذلّ ولم يغادره إلّا وهو موحى إليه(١).

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: اختلف فيه المفسرون فذهب بعضهم إلى أنّ المراد بالوحي هنا وحيُ النبوّة والرسالة، ولكن يعكّر صفوه أن يوسف لم يكن بالغًا، بل كان صغيراً(٢). قال الضحاك: كان عمره ستّ سنين، وقال الحسن: ألقي يوسف في الجبّ وهو ابن اثني عشرة سنة، ولقي أباه بعد ثلاثين سنة(٣)، والله أعلم. ولذلك أجابوا عنه بأنّ الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحًا لقبول الوحي والنبوّة. وذهب جماعة أخرى إلى أنّ هذا الوحي هنا هو الإلهام، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[القصص: ٧](٤).

وأيًّا ما كان، سواء بوحي إلهام، أو بوحي النبوّة، الله سبحانه هو أعلم بذلك، المهم أن الله سبحانه تداركه برحمته ولطفه، بما سكّن نفسه المضطربة، وأزال وحشته وخوفه، فشعر أنّ الله معه يرعاه ويرحمه، ويلطف به، وأنّه سينجيه من محَنه، ويظهره أيضًا على إخوته، حتّى يأتي الوقت الّذي يذكّرهم فيه بجريمتهم هذه(٥).

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، عليش متولي، شركة مكتبة المعارف المتحدة، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص ٩٠.

(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٥٧.

(٣) البكاء والقيم الجمالية له بصيغة الجمع في النصوص القرآنية، د. قاسم صالح العالي، دار المقتبس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، ص ٢٥٦.

(٤) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٥٨.

(٥) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٣).

- ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

إعلام غيبيّ من الله تعالى ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ زاخر بالمعاني، غنيّ بالإشارات، منها ما يلي:

- لقد أعلم الله تعالى نبيه أنّه سيعود ليلتقي بإخوته لاحقـًا، مما يشير إلى أنّ دورة الحياة مهما ذهبت به بعيداً، فإنه سيلتئم شمل عائلته من جديد مما يُهدئ نفسه وهو في أشدّ أوقات محنته.

- وفيه إعلام بأنّه يجتمع بهم مجدداً، ويكون قد مرّ وقت طويل تتغيّر ملامحه فيكون قد أصبح رجلاً، يعرفهم ولا يعرفونه، يختار هو الوقت والمناسبة لتعريفهم بنفسه.

- وفيه إعلام بأنّه حين يجتمع بهم مجدداً، تكون له الغلبة في الموقف فيكون هو الطرف القوي، ويكونون هم في موضع الضعف ويستشعر الإمداد بالقوة، من قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾، ففيها التوكيد على حصول اللقاء، وفيها التوكيد على العلوِّ ساعة اللقاء[١].

إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آنسه وهو في قعر الجبّ وظلمتها، فأزال وحشته، ونفّس كربته، بما أوحي إليه، فتحول قعر الجبّ المظلمة الموحشة إلى أنس ونور، ولا يتخلّى سبحانه عن أصفيائه وأوليائه أبداً، يمدّهم ويرعاهم، ويكلؤهم برحمته وعنايته، وهم في ذروة معاناتهم، فعندما كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غار ثور، والمشركون محدّقون بالغار من كلّ جانب، والسيوف بأيديهم مشرّعة وقلوبهم ممتلئة بالحقد والغضب، وأبو بكر يذرف الدمع بصمت، وهو داخل الغار مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خوفـًا عليه، أنزل الله قوله الكريم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ

(١) لطائف التفسير في سورة يوسف، ص ٦٥.

نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وعندما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكّة مهاجراً إلى المدينة المنورة، ونظر إليها نظرة مودّع أنزل الله عليه قوله الكريم مثبتاً له ومبشراً إياه بالعودة إليها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥]. ولما خافت أمّ موسى على ولدها من فرعون ووحشيّته وذبحه للأطفال وقتلهم، أوحي الله إليها أن تلقيه في اليم، وهو أمر كبير وخطير على كلّ أم في مثل موقف أم موسى، فثبّتها الله سبحانه وسكّن قلبها وأزال حزنها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وانتظر إخوة يوسف بعد ارتكاب جريمتهم حلول الظلام ليستتروا به وجاؤوا بالكذب الشنيع لإخبار والدهم المبتلى.

رابعـاً: قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٦ - ١٨].

١. ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾:

جاء إخوة يوسف عشاء، حتّى لا تظهر ملامح وجوههم، عند بكائهم لدى والدهم، فيتبين له أنّ بكاءهم، أو بكاء بعضهم ليس حقيقة، وهو ذو فراسة

وبصيرة؛ لأنّ من المعلوم أنّ النائحة المستأجرة ليست كالثكلى، بالإضافة إلى إشعار والدهم بأنهم تأخروا للاهتمام بالحادثة[١].

- يقول الشيخ محمّد متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهنا تتجلّى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبّراً عن الانفعالات الّتي توجد في النفس الإنسانية، فها هم إخوة يوسف خدعوا أباهم ومكروا بأخيهم، وأخذوه وألقوْه في الجبّ مع أنّهم يعلمون أنّ أباه يحبّه، وكان ضنيناً أنْ يأتمنهم عليه، فكيف يواجهون هذا الأب؟

هذا هو الانفعال النفسي الّذي لا تستطيع فطرة أن تثبته؛ فقالوا: نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء: والعشاء مَحَلُّ الظلمة، وهو ستر للانفعالات الّتي توجد على الوجوه من الاضطراب؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الّذي حدث؛ بل بحديث مُخْتلق.

وقد تخدعهم حركاتهم، ويفضحهم تلجلجهم، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم؛ فقالوا: الليل أَخْفَى للوجه من النهار، وأستَر للفضائح؛ وحين ندخل على أبينا عِشَاءً؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا. وبذلك اختاروا الظرف الزمني الّذي يتوارون فيه من أحداثهم: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ﴾ [يوسف: ١٦][٢].

- قال الشيخ محمّد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي أنّهم قضوا النهار غائبين عن أبيهم، ثمّ عادوا في العشية، يقول المفسرون: أنّهم كانوا يتباكون، ولا يبكون. ونحن نميل إلى أنّه كان ثمّة بكاء حقيقي من بعضهم على الأقلّ، وهو بعض من النّدم على ما ارتكبوا وقد أحسّوا بفظاعته، وخصوصاً عندما لقوا أباهم، فإنْ لم يكن لأجل يوسف، فلأجل أبيهم الثاكل[٣].

---

(١) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٥٨.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٣٨١).

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١٠)

- قال الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والعشاء: وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها. والبكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر. وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنّما اصطنعوا البكاء تمويهـًا على أبيهم لئلّا يظن بهم أنّهم اغتالوا يوسف- عَلَيْهِ السَّلَامُ-، ولعلّهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي النّاس عجائب من التمويه والكيد. ومن النّاس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحاكاته فيعتريهم ما يعتري النّاس بالحقيقة. وبعض المتظلّمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكما، وإنّما يناط الحكم بالبينة. جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبطلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أباهم عشاء يبكون وهم ظلَمة كذبة، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلّا بالحق. قال ابن العربي: قال علماؤنا: هذا يدل على أنّ بكاء المرء لا يدلّ على صدق مقاله لاحتمال أن يكون تصنّعـًا. ومن الخلق من لا يقدر على ذلك ومنهم من يقدر[١]. ومن الأمثال: «دموع الفاجر بيديه».

- قال الدكتور محمّد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ﴾: جملة يبكون، جملة حالية، وفعل المضارع يفيد إحضار صورتهم، وكأنّك الآن وأنت تقرأ تراهم يبكون، وهكذا تفعل اللغة، تحيي الموتى، وتطوي الزمان، وتريك الميّت حيّا يبكي، وكلّ هذا لتنفذ المعاني في قلبك وعقلك، ولاحظ أنّ الجملة الحاليّة أيضـًا وقعت فاصلة، والجملة كلّها صورة تمثيليّة تصوّر زورهم وكذبهم، ومكرهم الساذج الغبيّ[٢].

---

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٥٥).

(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٣.

٢. ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾:

- ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ﴾: نادوه باسم: (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم فيترك غضبه عليهم، الداعي إلى تكذيبهم، فهم يحاولون تلطيف الجو الممتلئ بالمخاوف بهذا النداء، ثمّ قدّموا بين يدي النبأ السبب الّذي من أجله أكل الذئب يوسف، هذا السبب يبدو من قولهم:

- ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: قال د. محمّد مصطفى الزحيلي: وقوله: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ افتعال من السبق، وهو بمعنى التسابق، والمراد: الاستباق بالجري على الأرجل، وذلك من مرح الشباب ولعبهم[(١)].

قال ابن العربيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المسابقة شرعة من الشريعة وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه وبخيله[(٢)]. وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: "سابقني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسبقته، فلبثنا حتّى إذا أرهقني اللحم، سابقني فسبقني، فقال: هذه بتلك"[(٣)]. والأمثلة على السّباق والمسابقة كثيرة في السّيرة النبويّة، والأحاديث الشّريفة، ومن الصّحابة رضوان الله عليهم، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لا سبق إلّا في خفّ أو حافر أو نصل»[(٤)].

---

(١) شرعة الله للأنبياء، د. محمد الزحيلي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ٢٥٧.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، (٣/ ١٠٧٥).

(٣) رواه ابن حبان صحيحه، باب السبق، ذكر إباحة المسابقة بالأقدام إذا لم يكن بين المتسابقين رهان، ح رقم ٤٦٩١.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في السبق، ح رقم ٢٥٧٤.

واستمر السّباق والمسابقة طوال التّاريخ، وظهر في العصر الحاضر الأندية الرياضية، وحلبات السباق، والملاعب، وتبنّته الدّول في المدارس والجامعات، وغيرها. ويألفه النّاس بكثرة، ويتّفق مع حاجات الإنسان والجسم، ولكن ظهر فيه المبالغات الكثيرة، والإفراط، والبذخ الشديد، بل أصبح ملهاة للشّعب في كثير من الأحيان(١).

- ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ [يوسف: ١٧]: أيّ: تركناه عند متاعنا من فضل ثيابنا وطعامنا وشرابنا ليحفظه لنا. وقولهم هذا نقض لشرط يعقوب عليهم لخروج يوسف معهم، فأين فعلهم هذا من قولهم لأبيهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، هل هم الذين سيحفظونه، أم هو الّذي سيحفظ لهم المتاع، وكيف يتسابقون، جميعاً وهم عشرة دون أن يتركوا واحداً مع أخيهم يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ، وقد تعهّدوا لأبيهم بالحفظ والرعاية والحماية لأخيهم(٢).

هذا، ولعلم قصدوا بقولهم: ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ [يوسف: ١٧]، إيهام أبيهم عَلَيهِ السَّلَامُ أنّهم لم يقصّروا في المحافظة على يوسف ومراقبته، بل تركوه في مأمن حيث لا يكاد يُطرح المتاع إلّا في مكان يؤمن فيه الغوائل وأنّهم يتسابقون قريباً منه، وما فارقوه إلّا ساعة يسيرة حدث أثناءها ما لم يتوقع حسب زعمهم(٣).

﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾[يوسف: ١٧]: أي عقْب تركنا له عند متاعنا من غير مضيّ زمان يعتاد فيه التفقّد والتعهّد، وهكذا لم يجدوا عذراً يقدّمونه لأبيهم خيراً

(١) شرعة الله للأنبياء، ص ٢٥٧.
(٢) يوسف وقصته العجيبة، عليش متولي، ص ٩٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٩٨.

من العذر الّذي نبّههم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الحذر من الالتجاء إليه ونكثوا في عهودهم بالمحافظة عليه من الذئب حيث قالوا لأبيهم جوابًا بالمحافظة عليه من الذّئب حيث قالوا لأبيهم جوابًا لقوله لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]، قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]، وحكمهم هذا على أنفسهم بالخسران قد تحقق فيهم الآن بلا شك، فقد خانوا وكذبوا ولفّقوا وارتكبوا جريمة منكرة في حق أبيهم فلم يرعوا فيه أبوة ولا نبوّة ولا في حقّ أخيهم قرابة ولا أخوّة(١).

- ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]: قولهم هذا يدلّ على أنّ أباهم غير مصدّق ولا واثق منهم، حيث إنّ التعبير بالجملة الإسمية يدلّ على الثبات والاستقرار في عدم التصديق، كما أنّ وقوع كلمة: ﴿مؤمن﴾ نكرة في سياق النفي يدلّ على نفي إيمانه لهم مطلقا وعدم وجود أي تصديق لهم. وقولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، حيث أثبتوا الشك في صدقهم من خلال هذه الجملة المبدوءة بـ: (لو)(٢).

- ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]: فيها تأكيد شديد يؤكد أنّ أباهم لن يصدقهم، ولو كانوا صادقين، وتوشك هذه الجملة أن تكشف كذبهم(٣).

قال ابن كثير: نحن نعلم أنّك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنّا عندك صادقين، فكيف وأنت تتّهمنا في ذلك، لأنّك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٥٨.
(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٤.

قال العلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: يقولون: ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط، فإنّهم ما كانوا صادقين في بكائهم، ولا في قولهم، أنّهم ذهبوا يستبقون، وقد تركوا يوسف عند متاعهم، ولا في قولهم: إنّ الذئب أكله، فكل ذلك كذب، كما أنّ الدم الّذي جاؤوا به على قميصه كان كذبـاً، فروايتهم هذه الّتي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع. الصادق عند الإطلاق، والصادق على الحقيقيّة من صدق قلبـاً ولسانـاً وجارحة، فلا ينطوي قلبه على كذب، ولا يعمل أعمال كذب، بل يكون في كلّ أفعاله وأقواله ظاهراً وباطنـاً على حق، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هذا، فالقلب واللسان ليسا بصادقين، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ليس بصادق، وهم يقولون لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وهم إنّما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم[١]. وهم يعرفون أنفسهم أنّهم كاذبون وعلموا من فراسة أبيهم وذكائه وفطنته أنّه لن يصدقهم.

٣. ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف: ١٨]: نلاحظ فيها غضبـاً شديداً من وصف الدم بأنه كذب والدم مكذوب به، ولو بالغت قلت: دم كاذب، لأنّ الدم لا يكذب، وإنّما أُسند إليه الكذب للمبالغة، والتعبير في الآية لم يقل بدم كاذب، وإنّما جعل الدم نفسه كذبـاً. ومن غباء أهل الباطل أنّ القميص الّذي جاءوا به، وعليه الدم الكذب، ليكون دليل صدقهم في أن الذئب أكل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان هو دليل كذبهم، لسبب ظاهر لا يخفى، على من عنده قدر ضئيل من الفكر، وهو

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٣٧٥).

أن هذا الدم لو كان دم يوسف وأكله الذئب لكان القميص ممزّقًا، ويستحيل أن يأكله الذئب، ويبقى القميص غير ممزق، ولذلك لم يلتفت يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا وضرب عنه صفحًا، ولم يناقش، ولم يبيّن الكذب وإنّما قال[١]:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]: وهذا القول من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إضراب عن تكذيب صريح، تقديره: إن الذئب لم يأكله، بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً. ومعنى: ﴿سَوَّلَتْ﴾ [يوسف: ١٨] أي: زينت وسهّلت. والتسويل: تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن. وجاء لفظ: ﴿أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] منكّراً فهو أمر عظيم منكر اقترفوه في حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢]. فكأنه كان يرى أنّهم عملوا معه مكيدة ولا بدّ، ولكن كان لا يراها إلّا إجمالاً؛ لأنها لم تتعين عنده صورتها، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط، وغمّ عليه أمرها واستعظم. والتنكير في ﴿أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] إمّا للتعظيم والتفخيم، كأنه يقول: أمراً عظيمًا ارتكبتموه في يوسف وهوّنته عليكم نفوسكم، أمراً ذا بال، أمراً من نوع الدهاء، أمراً فيه دسيسة ومكر أو للإيهام فكأنه يقول: أمراً لا يعلمه إلّا أنتم ويوسف[٣].

- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]: وهذه الجملة الثانية في رده على بنيه، وخاطب بها نفسه، أي: فصبري صبر جميل لا يشوّه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله ولا الشكوى إلى غير الله[٤].

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٧٥.
(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٠٥.
(٣) إتحاف الإلف، (١/ ٢٤٨).
(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٠٦.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف: ١٨] أي: فشأني وحالي صبر لا جزع منه ولا شكوى فيه للخلق، مع الرضا بقدر الله تعالى وقضائه[١]. فالشكوى لغير الله مذلّة وكلما ارتفع مستوى الإيمان، وجدت المؤمن يستحي أن يشكو مصيبته لغير الله[٢].

إنّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قرر أن يصبر صبراً جميلاً، لأنّه من أعلى درجات الصبر وهذا يحتاج العون من الله تعالى؛ ولذا قال:

- ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]: وهو في صبره الجميل يتجه إلى الله ويقول: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] أي: لا يستعان إلّا بالله وحده في الصبر على ما يصفون من قول ولم يقل على ما وقع، بل قال على ما وصفتم، وللإحساس بأن ما وصفوا غير ما وقع[٣].

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]: فما لم تحصل للعبد من الله إعانة على التحلي بالصبر الجميل، لم تحصل له الغلبة على مشقات الحياة وكدرها، ولهذا جمُل بمقتضى ذلك أن تختم هذه الآية بما ختمت به، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨] أي: وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب، ولا يستطيع الإنسان تحمّل مثل هذا الاختلال والتمويه إلّا بعون الله، وتجميله بالصبر الجميل[٤].

هكذا استقبل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف، ومصيبته أيضـًا بعقوق أولاده، واحتيالهم وكذبهم وحقدهم على أخيهم وحسده له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليواجه كذبهم وتزويرهم وما كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يستطيع

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٦).

(٢) تفسير النابلسي، د. محمد راتب النابلسي، (٦/ ١٥٩).

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١١).

(٤) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ١٣١.

أن يفعل شيئًا سوى الصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى. استعان بالله تعالى وحده ولم يطلب معونة أولاده لأنّه يعلم أنّهم هم سبب بلائه ومصيبته، فكيف يستعين بهم؟ ولم يقم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يبحث بنفسه عن ولده، ويتفحّص عنه، لمعرفته بشدّة حقدهم على يوسف، فقد خشي إن بالغ في الطلب والبحث عنه أن يُقدموا على إيذائه وقتله؛ ولهذا لم يجد سوى الصبر الجميل، وتفويض الأمر بالكلية لله تعالى، لا سيما إن قلنا: إنّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان عالمـًا بأن ما وقع لا يمكن تلافيه حتّى يبلغ الكتاب أجله[١]. وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] غاية البلاغة، لأنّه كان متأكداً من كذبهم وواثقـًا أنّهم ألحقوا بأخيهم الضر، وأنّهم ضخّموا الحدث وقلّبوا الأمور ليصدقهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٢].

وتركت الآيات الكريمة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقد طوى جوانحه على آلامه وأحزانه وانتقلت إلى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قعر الجبّ تقصّ أخباره، وتحكي أحواله[٣].

خامسـًا: قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩ - ٢٠].

تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى مشهد جديد من مشاهد قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إذ ستنقطع عنّا من الآن وحتّى جزء متقدم من السّورة، أخبار يعقوب وبنيه. ولنتابع معها، ما قدّر الله تعالى ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن تركه إخوته في غيابة الجبّ وانصرفوا عنه غير عابئين بمصيره[٤]. وجاء فرج الله تعالى:

---

(١) روح المعاني، (٢/ ٢٠٢).

(٢) إتحاف الإلف، (١/ ٢٥٩).

(٣) إتحاف الإلف، (١/ ٢٦٠).

(٤) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٧٥.

١. ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾[يوسف: ١٩]:

كانت القوافل قديماً تأتي من الشام إلى مصر، فمرّت إحدى القوافل من المكان الّذي كان فيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحيداً في غيابة الجبّ مقطوعاً عن كلّ الخلق ينتظر فرجاً من الله تعالى، الّذي لطف به وآنسه وبشّره بما يؤول إليه حاله في المستقبل؛ من مكان كريم، ومكانة شريفة عالية(١).

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ [يوسف: ١٩]: وهذا شروع فيما جرى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجبّ بعد الفراغ عن ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه، أي: وجاء إلى الجبّ سيارة. والتعبير بالمجيء وإيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما؛ إيماء إلى كونه عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكرامة والزلفى عند ملك مقتدر، وفي عثور السيارة على الجبّ الّذي فيه، آية من لطف الله به. وقال: ﴿سَيَّارَةٞ﴾ [يوسف: ١٩] مبالغة في السير، يعني أنّهم أنس يسيرون دائماً بين البلدان البعيدة، وكانوا في طرقهم من جهة مدين إلى مصر باعتبار سيرهم المعتاد، وهو الّذي يقتضيه قوله تعالى على لسان قائلهم: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، والظاهر أن الجبّ كان في طريق سيرهم المعتاد(٢). والمقصود بالسيارة القوم المحترفون للسير، مثل من كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف، بهدف التجارة وجلب البضائع.

- ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥ﴾[يوسف: ١٩]: والوارد هو الّذي يرد الماء ليأتي به إلى بقية القوم، وربّما يعيّن في القافلة لتكون هذه مهمته فيها بناء على معرفته

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٢.

بالأماكن الّتي توجد فيها[١]. وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر بل يذهب واحد منهم إلى البئر ليأتي لهم بالمياه.

﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ [يوسف: ١٩]: أي: أرسل دلوه في البئر فرأى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فيها سلّم النّجاة وسبيل الصعود من قاع الجبّ، فتعلق بها[٢]. ونلحظ من التعبير بفاء السرعة أوّل الجملتين: ﴿فَأَرۡسَلُواْ﴾ [يوسف: ١٩]، ﴿فَأَدۡلَىٰ﴾ [يوسف: ١٩] أن الوقت بين مجيء السيارة وبين عثور المدْلي على يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يستغرق إلّا زمنا قليلاً، بمعنى أنّهم جاءوا وتوّاً أرسلوا واردهم، ولم يتأخروا، وهذا لطف من الله تعالى بعبده يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[٣]. وفوجئ الوارد بغلام متشبثاً بدلو الماء فصاح مستبشراً[٤]:

- ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ [يوسف: ١٩] أي: يا بشرى أقبلي هذا أوانك، نزّل البشرى منزلة شخص ينادَى، مما يدلّ على شدّة وقع المفاجأة على نفسه عندما رأى يوسف[٥]. والعجب كيف صاح واردهم حين وجد يوسف، فقال: يا بشرى، وصدق والله بالبشرى، فكيف لو علم بحقيقة البشرى؟ فقد كان يريد ماء لقافلة سيارة، فإذا به يجد الّذي به تكون النّجاة لمصر كلّها عند فقدان الماء سبع سنين[٦]. إنّ طلائع النّجاة تبدأ بالتفاؤل في بدايات المحنة[٧].

(١) المصدر السابق نفسه، (١١/ ٥٨٩٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٧).
(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٣.
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٧).
(٥) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤٧).
(٦) يوسف أيها الصديق، ص ٥١.
(٧) يوسف أيها الصديق، ص ٥١.

﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ [يوسف: ١٩]: والغلام: من سنه بين العشر والعشرين(١). واختلف العلماء في تقدير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أخرج من الجبّ ثمّ اشتراه العزيز، فمنهم من قدره بثلاث عشرة سنة، وآخرون بسبع عشرة، وذهب البعض أن عمره كان ثلاث سنوات، وغيرهم إلى أنّه كان ابن ثلاث عشرة سنة، أو أقل بقليل(٢). وقد رجحت أنّه كان ابن اثنتي عشرة سنة كما مرّ معنا.

- ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ [يوسف: ١٩] أي: جعلوه بضاعة سراً، وعزموا على بيعه رقيقاً، وبما أنّه لم يظهر لهم أنّه رقيق، تعاملوا معه بمقتضى السرية، وباعوه بسرعة خوفاً من أن تنكشف حقيقة أمره. وفي هذا الجزء من الآية دلالة واضحة على أن الرقّ مكروه ومنبوذ حيث يفقد الإنسان آدميّته، فيصبح بضاعة تباع وتشترى ولذلك كان علماؤنا على حقّ حينما فضّلوا دعوى كافر يدّعي بنوّة لقيط له على دعوى مسلم يدّعي أنّه عبده(٣).

- ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]: من استرقاق من ليس لهم حقٌّ في استرقاقه، ومن كان حقّه أن يسألوا عن قومه ويبلّغوه إليهم؛ لأنّهم قد علموا خيره، أو كان من حقهم أن يسألوه لأنّه كان مستطيعاً أن يخبرهم بخبره(٤). والله عليم بما عمله إخوة يوسف وأمرهم مع أخيهم يوسف وأبيهم في إخفائه وتغريبه وادّعائهم أنّ الذئب أكله. وحكمة الله فوق كلّ ذلك، والله عليم بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من الأسرار والفوائد المطوية تحت باطنه فكلّ ما

---

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٥٩).
(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٤.
(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٤.
(٤) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٦٠).

فعله الإخوة مع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونيّة القافلة من استرقاقه وبيعه فيما بعد يجري كلّ ذلك بعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإرادته، وذلك ليبسّر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بحر من الأقدار إلى تظهر حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها ويمتحنه الله بالسراء والضراء ليستعد لما يريد منه من حمل الرسالة[1].

- ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]: ولا يخفى ما فيها من تهديد ووعيد لأولئك الّذين استعبدوا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو حرّ كريم، واستعباد الحر واسترقاقه من كبائر الذنوب في الإسلام.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثمّ غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره[2]. فالإسلام دين الحريّة، فهو يسعى في تحرير النّاس من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ولهذا شنّع على تحرير الأرقّاء، وجعل ذلك عبادة من أفضل العبادات الّتي يُتقرب بها إلى الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٣].

وشرع الإسلام صرف مال الزّكاة في فكّ الرقاب من أَسْر العبودية ورقّها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠]، كما جعل تحرير الرقبة كفارة لكثير من الذنوب والآثام كالقتل خطأً والإفطار في نهار رمضان بغير عذر وعدم الوفاء باليمين المتعمدة، وغيرها...[3]

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب: إثم من باع حرا، ح رقم: ٢١١٤.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٨).

وهكذا أصبح الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عبداً مسترقاً، وحُمل بضاعة إلى سوق الرقيق في مصر، وعُرض كأيّ سلعة للبيع[١].

٢. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[يوسف: ٢٠]:

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾[يوسف: ٢٠]: وشروه هنا معناها: باعوه لأنّ (شَرَى) تستعمل بمعنى البيع، وبمعنى الشراء، وعندما تكون بمعنى البيع يكون التعبير بلفظ الشراء، فتكون دلالة على الزهد فيه وتركه[٢]. فالقافلة هي الّتي باعته، وما قيل في التوراة ونقله بعض المفسرين أن الّذي باع يوسف هم إخوته، فهذا أولاً مما لا ينسجم مع النص واستبشار الوارد بلقيا الغلام، ثمّ إنّ إخوة يوسف حين خطّطوا قالوا: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ [يوسف: ١٠]، ولم يكن وارداً بيعه. ثمّ ثالثاً: إنْ كانوا يريدون بيعه، فلماذا يلقونه في الجبّ[٣]. إنّ كثيراً من الأقوال تتقبلها كتب التفاسير اعتماداً على روايات واهية وضعيفة ولا وزن لها في الميزان العلمي الرصين.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] أيّ: بثمن مبخوس غير مرغوب فيه[٤]. والثمن البخس: القليل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[الأعراف: ٨٥] أي: لا تنقصوا[٥]. فهم باعوه بثمن يسير تافه[٦].

قال ابن كثير: وقيل: المراد بقوله: بخس، الحرام. وقيل: الظلم، هذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا، لأنّ هذا معلوم يعرفه كلّ أحد أنّ ثمنه حرام على

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٤٨).
(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١٣).
(٣) سورة يوسف، د. نوفل، ص ٣٢٥.
(٤) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١٣).
(٥) سورة يوسف، دأحمد نوفل، ص ٣٢٥.
(٦) سورة يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٨.

كلّ حال وعلى كلّ أحد لأنّه نبي ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وإنّما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما[١].

- ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: ٢٠]: ثمّ ذكر القرآن هذا الثمن البخس أنّه دراهم معدودة قليلة[٢]. بحيث تعد عدّاً، ولا توزن وزناً، فقد كان هناك في عصر يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (نقود) معدودة، ودراهم موزونة، وقد كانوا إذا كانت الدراهم قليلة عدوها عداً، ولا يزنوها وزناً إلّا إذا بلغت من الكثرة حداً معيّناً[٣].

- ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]: إنّ الّذي أخرجوه من البئر وأسرّوه بضاعة هم الّذين باعوه بثمن بخس لأنهم لا يجهلون قيمته، ولمّا لم يكن من بضاعتهم فعلاً، أرادوا التخلص منه فباعوه بثمن بخس، ناقص لا يساوي قيمته، والسارق والكاذب يحاول دائماً التخلص مما معه خشية أن ينكشف حاله[٤]. فزهدهم فيه لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بما باعه لأنه لم يدفع فلساً واحداً، قال الشاعر:

ومـنْ أَخَـذَ الـبِـلَادَ بِغَيْـرِ حَـرْبٍ　　　يَـهُـوْنُ عَـلَـيْـه تَـسْـلِـيـمَ الـبِـلَادْ

وحيث إنّهم لم يدفعوا فيه شيئاً بل إنّهم قد وجدوه مصادفة، فقد كان همهم محصوراً في التخلص منه بأي ثمن قبل أن يحدث لهم ما لا تُحمد عقباه[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٣٧٧).

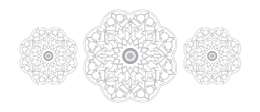
(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٣٢٥.

(٣) التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، رفيق المصري، دار القلم، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص ١٣٣.

(٤) آيات للسائلين، ص ١٣٩.

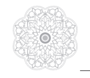
(٥) يوسف وقصته العجيبة، ص ١١٩.

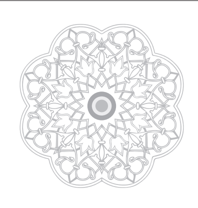
وربما أُصيبوا بالقلق والهم والغم من عند الله تعالى فعملوا على الخلاص منه، وفقدوا الحرص عليه والرغبة فيه، وسارعوا ببيعه، ليمضي قدر الله في يوسف، وينتقل لمرحلة جديدة، وظلت عين الله تعالى ترعى يوسف وتكلؤه في جميع تقلّباته ومراحل حياته، وقدّر سبحانه أنْ يشتري يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رجلٌ تفرس في وجهه الخير والنبل وكرم المَحْتد، كان هذا الرجل هو عزيز مصر، كما صرّحت الآيات بعد ذلك وألقى الله محبةَ يوسف في قلبه، والرغبة في شرائه، فاشتراه وأخذه إلى بيته معززاً مكرّمـًا وأوصى امرأته به[1].



(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٩).







المبحث الثاني: بداية التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وفتنة امرأة العزيز ومكر نسوة المدينة ودعاؤه بالخلاص من كيدهن:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ

ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾[يوسف: ٢١ - ٣٥].

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٢١ - ٢٢].

١. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف: ٢١]:

هذه المرحلة في حياة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من أكثر المراحل خطراً وأشدها صعوبة وأقساها امتحاناً، فلئن ابتلي مع إخوته بتشريده الأسري فلقد كان ابتلاؤه في هذه المرحلة من حياته للجانب الروحي والخلقي نتيجة الجمال الخَلْقي والخُلُقي[1].

وقد اشتمل هذا النصّ على تحديد مكان القصّة (من مصر)، وأنّ المشتري له من ذوي المكانة بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف: ٢١]، وأنّ يوسف كان إذ ذاك صبيّاً بدليل قوله تعالى: ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[يوسف: ٢١]، ففي

---

(١) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٣٨٧.

ذكر قول المشتري، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ [يوسف: ٢١] عناية بإظهار ما تحدث به لنعرف وندرك ما نتفوّه به، لأنّ لذلك شأناً في تفسير الأحداث ومعرفة بعض ما يمكن أن يخص تعريف هذا القائل بالاسم الموصول مع صلته: ﴿ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١] لا يظهر فيها تحديد دقيق لشخصيّة هذا المشتري ولا لمكانته، وإن كان ذلك سيظهر من خلال إشارة أخرى في النص، وكل ما دلت عليه الجملة هو أن هذا القول هو ممن اشتراه وهذا يشعر بحاجه لمثل هذا الصبي، وعنايته بأمره كما تنبئ عنه مقالته[1].

وإن في التقييد لهذا المشتري بكونه: ﴿مِّصْرَ﴾ [يوسف: ٢١] تحديد أكثر دقة؛ لأنّه عيّن المكان، وبما أنّ الكلمة ممنوعة من الصرف، فهذا يعني أنها العلم على مكان محدد، ولكن هذا التحديد لم يوقفنا على مكانة هذا المشتري بعد. وتعريف الزوجة بلفظ المرأة، وإضافتها إلى ضميره، فيه إشارة إلى أن هناك ما يمنع إطلاق الزوجة عليها؛ لأن لفظ الزوجة يشعر بالمزاوجة الدال بصورة أوضح على كمال العلاقة بين الزوجين، وفي ذكر ﴿ٱمْرَأَةٌ﴾ [النساء: ١٢٨] هنا إلماح إلى وجود ما لا تتم به العلاقة الزوجية على أكمل وجوهها، ويفسر ذلك ما بعده من كلمات تشعر بأنهم لم ينجبوا حتّى وقت هذه المقالة، وفي توجيه الكلام إليها في صورة الأمر: ﴿أَكْرِمِى﴾ [يوسف: ٢١] يدل على عناية بأمر هذا الصبي، خصوصاً أن مادة الكرم تدل على العناية بأفضل ما عند الإنسان؛ لأن الكرم هو تخير أنفس ما عند الإنسان وقد يكون في ذكر الكرم هنا ما يشعر بمكانة هذا القائل وأنه ممن يصح أن يوسف بالكرم، وغالباً ما يكون ذلك من ملك المال، أو المنصب. وانتفاء كلمة المثوى: ﴿مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١] دون غيرها،

---

(١) جماليات النظم القرآني، د. عويض العطوي، مركز تدبر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ١٦.

لما فيها من دلالة البقاء والرّاحة والاستقرار، وذلك أن الثواء يدل على النهاية والمصير، وكأنّما هو يصطفيه لنفسه ويريد أن تكون نهايته له وإليه، لا يرى بد من يوسف أن يصير إلى غيره، وكأن في ذلك ما يلمح إلى أمرها بفعل كلّ ما يضمن بقاءه وذلك لحاجتهم إليه. وإسناد الإكرام إلى المثوى دون صاحبه بأن يقال: (أكرميه)، كناية عن إكرام الذات، وهذا الأسلوب أدل على العناية بشأنه، فإذا كان المثوى سيكرم، فمن باب أولى صاحبه، وهذا هو أحد أسباب تأثير الكناية، وهو ذكر الشيء بدليله[١].

يقول صاحب الظلال: والمقصود بالإكرام لا لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته وهي مبالغة في الإكرام في مقابل مثواه في الجبّ وما حوله من مخاوف وآلام[٢]. كما أن في هذه النسبة ما يشعر بعموم الإكرام لكلّ ما يتعلق به، من حيث المكان والملبس والمأكل والمشرب، وغير ذلك. وقد لا يكون ذلك ظاهراً لو قال: (أكرميه). وقد يكون في هذا الأمر المشعر بتلك العناية ما يثير الاستغراب والعجب عند الزوجة فقال معللاً لها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[يوسف: ٢١].

ومجيء (عسى) دون (لعلّ) مثلاً لما فيها من دلالة الرغبة في المطلوب أكثر من (لعلّ). يقول أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويستعمل في المتوقع فيه: (لعلّ) وفي المطموع فيه: (عسى). وعسى: هي لمقاربة الأمر على سبيل الرجاء والطمع، أي لتوقع حصول ما لم يحصل، سواء يرجى حصوله عن قريب أو بعيد مدة مديدة[٣].

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١١.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٧٨).

(٣) جماليات النظم القرآني، ص ١٢.

وقال أبو البقاء أيضـاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عسى: هي موضوعة لرجاء دنو الخير، بل لطمع حصول مضمون الخير مطلقا سواء يرجى حصوله عن قريب أو بعد مدة مديدة تقول: عسى الله أن يدخلني الجنة، وعسى النبيّ أن يشفع لي، وإذا قلت: (عسى زيد أن يخرج) فهي بمعنى (لعله يخرج) ولا دنو في (لعلّ) اتفاقا[١].

ثمّ إن تعليل مطلبه بقوله: ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، فيه كشف لحجم الحاجة إلى الولد عنده وعند زوجه، ذلك أن كلمة: (النفع) لا تعني النفع المادي المعهود من الولد، لأن القائل من ذوي الهيئات والمكانة على ما تدل عليه أحداث القصّة القادمة، فعلم من هذا أن النفع هنا خاص، وهو ما تتعلق نفوس الزوجين من الولد، وهذه فطرة جعلها الله سبحانه سببا للتناسل والبقاء، إلّا أن هذه الدلالة تزاحمها دلالةٌ التعليل الآخر: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [يوسف: ٢١] علّة ثانية، قد تكون هي المقصودة؛ لأنها المناسبة لوصفها الاجتماعي والأسري خصوصـاً أن ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ [يوسف: ٢١]، فيها من دلالة الاتخاذ والاصطفاء والاختيار والاهتمام ما ليس في غيرها، ذلك أنّ مادة الاتخاذ في القرآن تشعر بهذا[٢].

وفي تحديد صفة المتخذ بـ (ولـداً) كشْف أوسع لذلك الاصطفاء وتلك الحاجة واختيار لفظة الولد على الابن مثلاً، لأن الولد أشمل وأعم من حيث الجنس ومن حيث العدد، يقول الراغب: الولد: المولود. يقال للواحد والجمع والصغير والكبير، ويقال للمتبني ولد، قال أبو الحسن: الولد: الابن، والابنة. والوُلْد هم: الأهل والولد[٣].

---

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، دار الرسالة، بيروت – لبنان، ص ٦٥٧.

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٢.

(٣) مفردات غريب القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ص ٨٨٣.

- ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]: أي: نتبناه ونجعله ولداً لنا. ويبدو أن عزيز مصر كان لا يولد له. كما يظهر أن التبني واستلحاق إنسان بنسب إنسان آخر كان أمراً شائعاً في المجتمعات القديمة وعند العرب قبل الإسلام حتّى إن النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبنى زيد بن حارثة، وألحقه بنسبه الشريف قبل مبعثه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكان يُدعى: زيد بن محمّد، حتّى أنزل الله تعالى على نبيه تحريم ذلك بقوله الكريم: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥]، فرجع النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك وحرم أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه، وقال: «ليس من رجل ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلّا كفر»(١).

وقال الشيخ محمّد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يبيّن القرآن اسم الّذي اشتراه من السيّارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته؛ لأنّ القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ، وإنّما قَصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب، ولكن وصفه النّسوة فيما يأتي بلقب العزيز - وهو اللقب الّذي صار لقب يوسف بعد أن تولى إدارة الملك في مصر - فالظاهر أنّه لقب أكبر وزراء الملك. وللمفسرين أقوال في اسمه واسم ملك مصر ليس للقرآن شأن فيها. وفي سفر التكوين أنّه كان رئيس الشُّرَط وحاشية الملك وناظر السجون، وأن اسمه فوطيفار، ووصف فيه بالخصي، ولكن الخصيان لا يكون لهم أزواج. فقيل في تصحيحه: لعله لقب لا

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: نسبة اليمن إلى إسماعيل ،ح رقم: ٣٣١٧.

يقصد به هذا المعنى. وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة إذ وصى امرأته بإكرام مثواه، والمثوى: مصدر واسم مكان من ثوى بالمكان يثوي، كرمى يرمي. ثواء أي: أقام، فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كلّ ما يختص بإقامته، بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١] بالقيام ببعض شؤوننا الخاصة أو شؤون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١] فيكون قرة عين لنا ووارثا لمجدنا ومالنا، إذا تم رشده وصدقت فراستي في نجابته، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو أن يكون له، وروي أنّه كان عقيما. وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده، وكانت صالحة ملهمة، وأما العزيز فكان ذكيا صادق الفراسة فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه، وذكائه وحسن خلاله، على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته، خير متمم لحسن استعداده الفطري، إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلّا البيئة الفاسدة وسوء القدوة، وما كان إلّا صادق الفراسة[١].

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنّه قال: "أفرس النّاس ثلاثة: العزيز حيث قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١]، والتي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وأبو بكر الصديق حين تفرس في عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا"[٢].

---

(١) تفسير المنار، (١٢/ ٢٧٢).

(٢) صححه الحاكم، كتاب التفسير « بسم الله الرحمن الرحيم قد بدأنا في هذا الكتاب بنزول القرآن، في ما روي في المسند من القراءات، وذكر الصحابة الذين جمعوا القرآن وحفظوه، هذا قبل تفسير السور"، تفسير سورة يوسف بسم الله الرحمن الرحيم،ح رقم ٣٣٢٠، ووافقه الذهبي.

وقد جرت العادة أن يُهان الرقيق ولا يُكرم، ولكن الله تعالى هيّأ ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يعيش مكرّماً معززاً في أرفع بيوت مصر وأعلاها، ممّا يدل على عناية الله تعالى ورعايته له في محنته وغربته وحرمانه من أبيه وأهله، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]: وبعد انتهاء عزيز مصر من كلامه جاء حكم الله سبحانه المبيّن حكمته جلّت قدرته من هذه الأحداث وتسلسلها. وقد جاء هذا الحكم الإلهي بأسلوب مختلف عمّا كان عليه حال يوسف من قبل، فمحتوى هذا الحكم هو التمكين والتعليم والغلبة وهذه مرحلة جديدة في حياة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإذا تأملنا النص وجدنا في أوّل الآية أسلوب التشبيه بما هو معتاد في القرآن.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [يوسف: ٥٦]: والكاف للتشبيه. والمشبّه به هو تمكين يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتعلمه وهذا أسلوب عجيب يراد منه الاستدلال على الحكم الجديد المغاير والمناقض لحالته الأولى، بحكم واقع حاصل، وهو شراؤه واستقراره والاهتمام بأمره. يقول ابن عاشور: إن أجرينا اسم الإشارة على قياس كثير من أمثاله في القرآن كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] في سورة البقرة، كانت الإشارة إلى التمكين المستفاد من مكنّا ليوسف تنويها بأنّ ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتم منه لما كان إلّا أن يشبه بنفسه[١].

ومما يلفت النظر: الحالة الجديدة والحقبة المتحددة من حياة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مجيء مادة التمكين: ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦]، وما فيها من دلائل النصرة، إذ

---

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٦٢).

إن التمكين مأخوذ من المكان ومعنى ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦]: جعلناه في المكان، وهذا يؤول إلى الاستقرار والبقاء مع قوة وقدرة، ولعلّ هذا تعويض لحالة التنقل والبيع الّتي مرّ بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[(١)].

وإن دخول اللام على يوسف في قوله: ﴿لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٥٦] دون تعدية الفعل إلى مفعوله بأن يقال: (مكنا يوسف)، يشير إلى التعليل، أي: لأجله، وإن كانت هناك دلالة أوضح من ذلك وأنسب بالسياق وهي التمكين، لما في اللام من دلالة الحيازة والملك ويؤيد هذا المعنى تحديد مكان التمكين، بقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٦]، وفي سعة مدلول ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٦] ما يشعر بعظم ذلك التمكين، فالأمر ليس متعلقاً بمدينة أو قرية أو مملكة بل بالأرض كلّها وحتى لو كان المراد بالأرض أرضاً خاصة إلّا أن ظلال الشمولية في لفظة: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٦] تبقى مشيرة إلى دلالة السعة وعظم التمكين وهو ما دلت عليه الأحداث بعد ذلك، ولا يمكن أن نتجاوز دلالة الظرفية في حرف الجر: (في) المشعرة بالعمق مما يزيد معنى التمكين رسوخاً[(٢)].

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٦]: ما كان شراً في البداية أصبح تمكيناً في النهاية وسبحان من جعل الرق سبباً للتمكين[(٣)]. وقد ذُكر التمكين في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مرتين، المرّة الأولى هنا وذلك بعد أن أراد إخوته أن يزيلوه عن ظاهر هذه الأرض فألقوه غيابة الجبّ. والمرّة الثانية بعد أن بدا لذوي المرأة أن يحولوا بينه وبين رحابة الحياة وسعة الأرض في غيابة السجن، فانظروا

---

(١) جماليات النظم القرآني، ص ١٤.

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٥.

(٣) أيها الصديق، محمّد خيري ، ص ٥٥.

أرشدني الله وإياكم إلى التدبير الرباني والإحكام القرآني حيث كان التّعقيب على هاتين كلتيهما؛ أعني إخراج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من غيبة الجبّ وإخراجه من غياهب السجن بهذه العبارة القرآنية: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦][١].

وقال الدّكتور ناصر العمر: والتمكين نوعان: تمكين خاص وتمكين عام، وليتحصّلا ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مكنه الله تعالى في أوّل الأمر من قلب العزيز، فبعد أن حجب الشيطان في قلوب إخوته معاني الأخوّة، قذف الله في قلب عزيز مصر معاني الأبوة فتعاهده بالرعاية والإحسان وفي الآية إشارة إلى أن دخوله بيت العزيز وما لقيه فيه من إكرام كان مبدأ تمكينه في أرض مصر، فقد أصبح بذلك من أهل الشأن الّذين لهم كلمة. كيف لا وهو من أفراد بيت العزيز، ثمّ بعد السجن والتمحيص جاء أفراد بيت العزيز، ثمّ بعد السجن والتمحيص جاء التمكين العام بالولاية العامة عندما قال الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٦]، فأصبح هو عزيز مصر الآمر الناهي[٢].

- ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]: كتعبير الرؤى ومعرفة حقائق الأمور[٣]. ويأتي العطاء الثاني بعد التمكين معطوفًا بالواو: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ [يوسف: ٢١] والنص على التعليم لأنّه أحد صور التمكين، خصوصًا إذا ارتبط بعلم خفي يحتاجه النّاس، مثل تأويل الأحاديث، ومما يدلّ على خفاء العلم

---

(١) قصص القرآن الكريم، ص ٣٨٨.

(٢) آيات للسائلين، ص ١٤١.

(٣) تفسير المنار: (١٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

ودقته هنا كلمة: ﴿تَأۡوِيلِ﴾ [يوسف: ٢١] دون: (تفسير) مثلاً ذلك أنّ تعبير الرؤيا أمر يحتاج إلى علم خاص، وفيه إلهام من الله للمعبّر، وهو علم لأن الله سبحانه قال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ [يوسف: ٢١]، وفي دخول: (من) في قوله تعالى: ﴿مِن تَأۡوِيلِ﴾ [يوسف: ٢١] دلالة على أنّه علم عظيم واسع وما أعطيه يوسف؛ هو بعض هذا العلم. ومجيء كلمة: ﴿ٱلۡأَحَادِيثِ﴾[يوسف: ٢١] دون كلمة: (الرؤيا) قد يكون فيه إشارة إلى أنّ الرؤيا في ذلك العهد مما يهتم به النّاس ويتحدثون به ويتناقلون به. ومن الملحوظ أن هذا المعنى ذكر أولاً في السّورة بلفظ الرؤيا: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، ثمّ ذكر بلفظ الفتوى: في قوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، ثمّ ذكر في لفظ الأضغاث في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤] وهذا التنوع له دلالته بحسب الموقع الّذي ذكر فيه والقائل الّذي صدر عنه وهو ما ينبغي العناية به[(١)].

إن جماهير المفسرين قد فسروا: ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾[يوسف: ٢١] في السّورة بتعبير المنام وهذا حق لا شك فيه، ولكن الكلمتين: ﴿تَأۡوِيلِ﴾ [يوسف: ٢١]، و﴿ٱلۡأَحَادِيثِ﴾[يوسف: ٢١]، تحتملان معنى آخر، وهو استعمال العقل والبصيرة والفطرة السليمة لمعرفة نتائج الأفعال ومآلاتها وآثارها السلبية أو الإجابية بالتحليل العقلي: الاقتصادي والسياسي[(٢)]. ولا مانع من الجمع بين هذين المعنيين، إذ لا تعارض في الجمع بينهما، بل إنّ كمال النعمة وتمامها يتحقق بالنبوّة والحكمة، فالنبوة هبة من الله تعالى وليست مكتسبة، أمّا الحكمة فهي مكتسبة من حيث المبدأ.

(١) جماليات النظم القرآني، ص ١٦.

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي القره داغي، ص ٣٢.

وقد أجاز علماؤنا الجمع بين المعاني المشتركة، أو بين الحقيقة والمجاز ما دام ذلك ممكنا. فالتأويل لغة: من آل يؤول أوْلاً ومآلا أي: رجع وصار. وأوّل الشيءَ إليه: أرجعه. وأرجع الكلام: فسّره وردّه إلى الغاية المرجوّة منه، وأمّا الأحاديث فهي تشمل الحوادث والوقائع والأخبار والرؤى، وبالتالي فإنّ تفسير: ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف: ٢١] بالمعنيين صحيح، وحينئذ تكون دلالة الآية على التّحليل العقلي الحكيم واضحة. ويصحّ أن تكون جمع حديث، بمعنى الشيء الحادث، قال ابن عاشور: فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام. وهو المعني بالحكمة، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصحّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدّث به، فالتأويل: تعبير الرؤيا. سميت أحاديث لأن الرائين يتحدثون بها، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين. واستدلوا بقوله في آخر القصّة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ١٠٠]. وقال ابن عاشور: ولعلّ كلا المعنيين مراد، بناء على صحة استعمال المشترك في معنييه وهو الأصح(١).

ومما لا شك فيه، أنَّ تمام النعمة بنعمة النبوّة ونعمة الحكمة الدنيوية، والاجتباء الأخروي مع المجد الدنيوي، وبناء على ذلك، فإنّ تأويل الأحاديث يشمل ما يسمى في عصرنا الحاضر بالتحليل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وبذلك يتحقق الاقتداء الكامل؛ لأنّ تأويل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للأحاديث إذا حمل على النبوّة فلا قدوة فيها، لأنها غير مكتسبة، ولكن إذا شمل التّحليل العقلي القائم على الحكمة فإن ذلك هو محلّ الاقتداء(٢).

---

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٤١). يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٣٢.

(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٣٣.

لقد أصبح يوسف في بيت العزيز ممكّنـًا له وتوفرت له فيه أسباب الراحة والرغد وهناءة العيش والنعيم، ثمّ كلّ أسباب التعليم، وصار قريبـًا من مراكز صناعة القرار في مصر وتعلّم الشيء الكثير من أحوال البلد وعقليّة الإدارة والتركيبة السياسية، والاجتماعية والإمكانات الاقتصادية واطّلع على تفاصيل المجتمع المصري، والمملكة المصرية في ذلك الوقت، مما ساعده بعد توفيق الله فيما بعد على اتخاذ القرارات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية الصحيحة الّتي ساهمت في انقاذ مصر ومن حولها من كوارث شديدة الخطورة.

- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]: لها هنا معنى خاص في هذا السّياق وهو أن النّاس يدبرون ويمكرون، ويتآمرون ويفعلون كلّ ما يبدو لهم، والأمر في الأول وفي النهاية في يد الله وهو جلّ وتقدّس غالب كلّ مكر، وكل ظلم، وكل استبداد، وكل قهر، حتّى إنك أيها الظالم لا تدري ما في أمر الله، وربما كان في أمره أن هذا المظلوم الّذي أنت قاهر عليه سيأتي اليوم الّذي يكون فيه قاهراً عليك، فافعلوا ما شئتم أيها المجرمون، وتأكدّوا أنّ تدابير القدر ليس في أيديكم منها شيء، وإنّما هي في يد واحد، في يد الغالب على أمره، وإن كان أكثر النّاس لا يعلمون، ولو علمت أيها الإنسان المتعالي أنّه لا تسقط ورقة إلّا وهو يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس، لو علمت ذلك لعرفت حجمك، ولو عرفت حجمك لسهرت ليلك تدعوه تضرّعـًا ورجاء وخيفة[1].

- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] وفيه ملمح آخر من ملامح التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن كان النظم في هذا الحكم جاء مغيراً عمّا سبقه فقد جاء بالسياق الاسميّ، ولم يرد بالسياق الفعليّ، وإلا لقيل: (ويغلب الله). وذلك لكون

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٩.

هذا الحكم كالقانون الّذي لا يتبدّل مع يوسف ومع غيره، والجملة الاسميّة أكثر دلالة على الثبات من الجملة الفعليّة، خصوصاً إذا كان الخبر اسماً، كما هو الحال.

وفي بدء الجملة بلفظ الجلالة: ﴿وَٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٢١]، ما يشعر بالهيبة والعظمة، إضافة إلى ما في مادة الغلبة في قوله - جلت قدرته -: ﴿غَالِبٌ﴾ [يوسف: ٢١] من دلالة القوّة كما لا يخفي، ويؤيّد ذلك حرف الجر: (على) الدّال على الاستعلاء بأصل وضعه. قال ابن عاشور مشيراً إلى هذه الدلالة: وحرف: (على) بعد مادة الغلب ونحوها يدخل على الشيء الّذي توقع فيه النزاع، كقولهم: غلبناهم على الماء[١]. وهذا التركيب: - ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] يعني: والله متم ما قدّره ولا راد لحكمه وتدبيره، وهذا يشير إلى أنّ إخوة يوسف أرادوا شيئاً، وأراد له ربه خلافه فكان ما أراد الله سبحانه، وفي ذلك إلماح إلى برهان واقعي للتمكين، وليكون أكثر تطميناً ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[٢].

- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] أي: على كلّ أمر يريده ويقدره، فلا يغلب على شيء منه، بل يقع كما أراد، فكلّ ما وقع ليوسف من إخوته، ومن مسترقّيه وبائعيه، ومن توصية من اشتراه لامرأته بإكرام مثواه، ومما وقع له مع هذه المرأة، وفي السجن قد كان من أسباب ما أراده الله تعالى له من تمكينه في الأرض، وإن كان ظاهراً على خلاف ذلك، ويجوز أنْ يكون المعنى: والله غالب على أمر يوسف، فهو يدبره ويعلمه الخير ولا يكله إلى تدبير نفسه، واتباع هواه[٣].

---

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٦٣).
(٢) جماليات النظم القرآني، ص ١٦.
(٣) تفسير المنار، (١٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]: فلا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء، وهو القائل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. أو: والله متولّ على يوسف لا يكله إلى غيره، وقد أرادوا هلاكه، وأراد الله تعالى سلامته ونجاته، فكان ما أراده سبحانه. فلا راد لقضائه، ولا غالب لمشيئته[١]. ولمّا كان هذا الأمر وهو غلبة الله على أمره ووقوع ما قدّره سبحانه، مما يغفل عنه النّاس، أو يعقلون ضد مقتضاه جاء الاستدراك المبيّن لحال النّاس المخالف لذلك[٢]:

- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]: لايعلمون أنّه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الأمور، كما استدلّ إخوة يوسف بإبعاده على أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكون من بعده قوماً صالحين، ويقابل الأكثر في هذا المقام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد كان يعلم أنّ الله غالب على أمره، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصّة، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط بتفصيل الجزئيات المخبوءة في مطاوي الأقدار[٣].

٢. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ [يوسف: ٢٢] أي: وصل إلى غايته من النضج والاستواء ومن كلمة (بَلَغَ) [يوسف: ٢٢] أُخذ مصطلح البلوغ، فتكليف الإنسان يبدأ فور أن يبلغ أشده، ويصير في قدرة على أن ينجب إنساناً مثله[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥١).
(٢) تفسير أبي السّعود، (٤/ ٢٦٣).
(٣) تفسير المنار، (١٢/ ٢٧٢-٢٧٣).
(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٠١).

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [يوسف: ٢٢] أي: بلغ الغاية من اشتداد جسمه وقوّته ويكون هذا عادة ما بين الثلاثين إلى الأربعين من عمر الإنسان، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

- ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]: أي: آتيناه علم النبوّة وحكمتها. أو: آتيناه حكمة في أقواله وأفعاله، وعلمنا علوماً كثيرة، كما أشرنا سابقاً، ولعله الأرجح؛ لأنّ الله تعالى قال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، وما كان حينئذ نبيّاً، فما نبأه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتّى عاد من مدين إلى مصر، إذ أوحي إليه وهو في طريق عودته[١].

قال الدكتور علي القره داغي: وهذه الآية تدل على أنّ الله تعالى جعله نبياً ورسولاً بعد بلوغه الرشد، وذهب بعض أهل العلم، منهم الحسن البصري إلى أنّ النبوّة بدأت في الجبّ عندما أوحى الله إليه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، ثمّ جاءت الرّسالة بعد بلوغ الرشد، وهناك أقوال أخرى[٢]. والمراد بالحكم في الآية: الحكمة العمليّة. والمراد بـ(العلم): الحكمة النظريّة، وقدّم الله تعالى الحكمة العملية على النظرية للاستشعار بأهميتها وأنها الثمرة والناتج. قال بعض المفسرين: الحكْم هو النبوّة؛ لأن النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥١).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٦٣. التفسير الكبير، أبو عبد الله فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، (٤/ ٨٩).

يكون حاكماً على الخلق، ومبيناً لأحكام الله في تصرفات عباده. وقال بعض آخر: إنّ المراد بالحكم هو القدرة على حكم نفسه وضبطها أمام الشهوات، ويكون حينئذ بمعنى التحكّم[١].

وقال الدكتور أحمد نوفل: والحكم بمعنى نفاذ الكلمة والتأثير في النّاس، قال الحسن: من أحسن عبادة ربّه في شبابه آتاه الله الحكمة في اكتهاله: أخذا لهذه الفائدة من هذه الآية الكريمة. وأصل الحكم: الإلزام والمنعة، والحكم: ملكة في النفس بها يقدر الإنسان أن يحكم نفسه بحيث يلزمها بالطاعات ويمنعها من المعاصي.

وهو كذلك القدرة على وضع الشيء في نصابه، وصواب الفهم ودقته، والرأي السّديد الصّائب والحلّ الموفق للمعضلات، كلّ ذلك - والله أعلم - من معاني الحكم والحكمة. والحكمة عملية وفكرية، وقد ورد الحكم والعلم في قصّة داود وسليمان، وفي قصّة موسى، وفي قصّة لوط بالإضافة إلى ما هاهنا[٢].

والحكمة شيء، والمعلومات شيء آخر، وإن كانت الحكمة تُستقي من كلّ معرفة ومعلومات يحصّلها الإنسان، وإن كانت الحكمة في الأساس تنبع من الدّين، وقُدمت الحكمة على العلم لأنها الّتي تجعل الانتفاع بالعلم ممكنا، ورُب عالم محتاج للحكمة، ورُب عارف بالحكم تنقصه معرفة الحكمة، ولقد كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قلة المعلومات في عصرهم كانوا قمماً في العلم والفقه في الدين؛ لأنهم اوتوا الحكمة[٣].

---

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٦٣.

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣٤-٣٣٥.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالأحكام المشتمل على المعرفة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المصحوب بنفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق والعمل به والصد عن اتباع الهوى والباطل والحكيم من له ذلك[١].

- ﴿وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]: والإشارة إلى تعليم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أكثر من موطن يدلنا على أهميّة العلم والجد في تحصيله، وأنَّ العلم أساس الملك، فقبْل أن يسلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقاليد الخلافة في الأرض زوّده بالعلم. ولاحظ العلاقة بين تأويل الأحاديث الّتي تعني استشفاف المستقبل واستشراف الآتي، وعلاقة هذا بالسياسة الّتي تحتاج إلى بعد نظر[٢]. ولقد أوتي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (العلم) الّذي هو نور العقول وحياة النّفوس، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم النبيين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. والعلم خير من المال، لأنك أنت تحرس المال، ولكن العلم يحرسك. والمال بلا علم صائر للزوال:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ يُزَانُ بِهِ الفَتَى ... فَمالُ الفَتَى جَهلٌ عَظيمٌ يَشِينهُ

لَعَمْركَ إنَّ المَال داعيةُ الهوىٰ ... إذا هَوَ لمْ يُصحَبْ بِعلْمٍ يَصُونُهْ

ويظهر لنا أن إيتاء الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو في بدء سن الرشد: الحكمةَ والعلم هو من قِبَل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصير، فهو بإتيانه: (الحكم) يكون قد ملك نفسه وهواه، وبإتيانه: (العلم) يكون قد انتقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي[٣].

---

(١) موسوعة الأخلاق، إشراف الشيخ علوي عبد القادر السقاف، الدرر السنية، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، (١/ ٤١٨). شرح النووي على مسلم، (٢/ ٣٣).

(٢) سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٤٩٧).

في عبادة الخالق ببذل الجهد والنّصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علماً نافعاً. ودلّ هذا، على أنّ يوسف وفّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين النّاس والعلم الكثير والنبوة[١].

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]: الّذين بلغوا رتبة الإحسان في طاعة الله تعالى، وهي المرتبة الّتي قال فيها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢].

والآية الكريمة تكشف لنا عن سنّة الله في المحسنين بأن يكرمهم الله بالحكمة والعلم. وأركان الإحسان ثلاثة: الإيمان الصحيح، والأعمال الصحيحة، والآداب والأخلاق الفاضلة[٣].

وإن الإحسان ليس له جزاء إلّا الإحسان: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، والجزاء في الدنيا والآخرة[٤].

وهذا الجزاء عام في كلّ مؤمن أحسن، فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الربّ له فالخطاب يتناول يوسف ومحمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ويتناول غيرهما لأنّ القرآن كتاب هداية فعمومه لا يخصَص بالواحد والاثنين[٥]. ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أحسن في أقواله وأعماله ونواياه وسرائره، فمن الله عليه بالحكم والعلم، وكان الجزاء على

---

(١) تفسير السعدي، ص ٥٠٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ،ح رقم: ٥٠.

(٣) سورة يوسف، ص ٣٣٦.

(٤) إتحاف الإلف، (١/ ٢٩٦).

(٥) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٣م، (٢/ ٦٠٣).

السبب لا عن النسب، فلم يقل: (وكذلك نجزي أولاد الأنبياء) أو يقل: (وكذلك نجزي ذوي البيوتات العريقة)، بل جعل هذه المجازاة أثراً من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيرته؛ لأن الله تعالى لا ينظر للأنساب والأحساب ولكنّه ينظر إلى الأعمال والنوايا، فالمرء بأعماله لا بآماله، وبسببه لا بنسبه[١].

لقد تردّد وصف يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالإحسان كثيراً، والطّريف أن هذه الآية سبقت الآية المتحدثة عن المراودة مباشرة حتّى يتهيّأ الذهن إلى أنّه لن يكون من يوسف إلّا ما يتفق مع هذه الأوصاف الّتي وصف بها: العلم، والحكمة والإحسان.

إن العلم والحكمة الّتي أفاضها الله على يوسف إنّما هي جزاء إحسانه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإن سنة الله في الخلق أن يجزي المحسنين بهذا الجزاء: العلم والحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. والمرّة الثانية الّتي وصفه بها ربه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]؛ إن ثمرة الإحسان في الدنيا، التّمكين للمحسنين في الأرض مع ادّخار أجرهم كاملاً يوم القيامة. وفي مرّة ثالثة وصف يوسف بالإحسان على لسان السّجينين: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، ولقد أنبأ السجينين عن إحسان يوسف، مسلكه في السجن وخلقه الرفيع في المعاملة وتهذيبه العالي. واعتقد السجينان - صوابًا وحقًا - أنّ الإحسان من مؤهلات تعبير الرؤى: الّتي هي من عالم الروح، فلا بد لمعبرها من أن يكون ذا روحانيّة عالية، وإحسان. ومرّة وصف بالإحسان ولكن على لسان إخوته وهم لا يشعرون من يمدحون حين رجوه قائلين: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].

---

(١) إتحاف الإلف، (١/ ٢٠٠).

ومرّة يأتي الحديث عن الإحسان على لسان يوسف نفسه في حديثه عن سنة الله الّتي أُكرم يوسف بمقتضاها، يقول: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، والإحسان في هذه الآية هو التقوى والصبر، وقد أكدت هذه الآية ما جاء في سابقها من حفظ أجور المحسنين وثوابهم(١).

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٤].

١. ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]:

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها، أعظم أجراً لأنّه صبَر اختياراً، مع وجود الدواعي الكثيرة لوجود الفعل، فقدّم محبة الله عليها، وأمّا محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره الّتي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلّا الصبر عليها، طائعا أو كارها، وذلك أنّ يوسف عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ بقي مكرّمـًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك(٢).

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]: إذ أعجبت سيدة البيت زوجة العزيز بجمال يوسف وشبابه ووسامته، وكمال رجولته، ففتنت به، وأحبته

---

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص ١٤٨.

(٢) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

وعشقته، وشجّعها على ذلك كونه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعيش قريباً منها في قصرها، فهو في بيتها، يغدو ويروح، أمام ناظرَيها وهو في ريعان شبابه، وقد حباه الله تعالى نضرة وجمالاً وبهاء، لا نظير له في زمانه، حتّى وصفه نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما رآه ليلة الإسراء والمعراج بقوله: « فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن"[١]. ولا شك أن دخول الرجل على المرأة واختلاطه بها من أكبر أسباب الافتتان الّتي تؤدي إلى الفواحش والزنى ولهذا حرّم الإسلام اختلاط الرجل بالمرأة وخلوته بها، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يخلون أحدكم بامرأة إلّا مع ذي محرم»[٢].

وحذر النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دخول الرجال على النّساء، فقال: «إياكم والدخول على النّساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ فقال: الحمو الموت»[٣]، والحمو: القريب من جهة الزوج. وأراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول هذا أن يبيّن أن شأن القريب إذا دخل على المرأة أخطر من غيره؛ لأنّ النّساء عادةً يتساهلن في الاحتجاب والتستّر عن الأقارب، ولأنّه يدخل دون أن يخشى إنكار النّاس عليه، وقد شرط الله تعالى في الخادم الّذي يدخل على النّساء، لخدمتهن، أن يكون طفلاً لا يعرف شيئاً عن أمور العلاقات الجنسيّة مع النّساء، أو كبيراً لا شهوة له في النّساء، فقال: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾[النور: ٣١].

وأمر الله سبحانه أيضاً الرجال والنساء جميعاً أن يغضّوا من أبصارهم عن النظر إلى العورات والمحرمات، وأنْ يحفظوا عورتاهم بسترها، والبعد عن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماوات وفرض الصلوات ،ح رقم: ١٦٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة ،ح رقم: ٤٩٣٥.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٢).

الفواحش والآثام، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَالِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

وعندما تفتن امرأة برجل وتشتهيه تدنو منه بلطف، وهي تعرض عليه حسنها وجمالها، وتغريه بنفسها، ليكون هو المفتون بها والطالب لها، ولا بدّ أن تكون امرأة العزيز قد فعلت ذلك وحاولت أن تلفت نظر يوسف إلى جمالها ومواضع الفتنة في جسدها. والفرص المواتية لغرضها هذا كثيرة وكبيرة، فقد كانا يعيشان في بيت واحد، وتحت سقف واحد، وهي السيدة الآمرة في البيت، مما يدلّ على طول المحنة الّتي مرّ بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

ومدلول كلمة: ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ [يوسف: ٢٣] يدلّ على طول المحنة وشدّتها، إذ معناها دارت عليه بالحيل، فهو كناية عن المخادعة الّتي هي لازم معنى: (راود يراود)، إذا جاء وذهب، فقد دارت عليه بكلّ حيلة ونصبت له أشراك الخداع، ويلزم منه القصد والإتيان والإقبال والإدبار، والرفق والمهلة، وإعمال الحلية[٢].

ولا بد أنْ يكون عَلَيْهِ السَّلَامُ قد عرف قصدها، وفهم مرادها، فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أذكى النّاس، وأكثرهم فطنة ونباهة، فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يسعى ما استطاع أن يغضّ بصره عنها، ويتجاهل نظراتها وحركاتها، ويسعى أيضاً أن يكون بعيداً عنها، ولكن مشكلته عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه كان يعيش في قصرها، وتحت سلطانها وأمرها، وهو المعنى البارز في قوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ [يوسف: ٢٣]، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مضطر أنْ يكون

(١) التفسير الموضوعي لسورة يوسف، (٤/ ١٥٣).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – مصر، (١٠/ ٥٦).

في بيتها، وأن يكون أحيانـاً موجوداً في مخدعها، المخصص لها وحدها، والذي تنام فيه مع زوجها، وهذا يبيّن لنا مدى المعاناة النفسيّة الشّديدة الّتي كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعاني منها والإحراج الشديد الّذي كان يشعر به وهو يواجه تبرّجها وتهتّكها. والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أطهر النّاس نفوسـاً، وأتقاهم قلوبـاً، وأكثرهم حياءً. ومرّت الأيام ولعلّها شهور وأعوام على هذه المعركة الصامتة الرهيبة بين:

- الطهر والعفاف، والحياء المسلح بسلاح الإيمان بالله تعالى من جهة، وبين الشهوات المسعورة المسلّحة بسلاح الفتنة والإغراء، والتمكّن والسّلطان من جهة أخرى، وكلّما ازداد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إعراضـاً وإباءً، ازدادت إقبالاً عليه وشغفـاً به، وازدادت تهتكـاً وإغراءً[1]. واستمرت تراوده بخداع رهيب عسى أن توقعه في أسر عبودية الشهوة، ووحل ذلّ الهوى. ثمّ قال تعالى مصوّراً هدفها الأساسيّ من هذه المراودة:

- ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]، ليدلّ على أنّها لا تطمع في سموّ دينه وطهارة أخلاقه. هي لا ترغب في رقيّ تعامله، وجاذبية صدقه، بل تطمع في إشباع غريزتها؛ لذا كانت كلّ هذه المحاولات لتراوده عن نفسه، إنها لا تريد إلّا نفسه لتملأ بها نزواتها الحيوانيّة، فهي تعرّض لهذه الغاية وحدها، وترى الآية تصرح بذلك، ولكن في أدب سام كلّ السمو، منزّه غاية التنزيه، مرتفع أعلى الارتفاع، عال أجمل العلو[2]. وأخيراً فاض - بالمرأة - الكيل وانتقلت من التلميح إلى التصريح، وقذفت إلى ميدان المعركة كلّ ما تملك من أسباب الفتنة والإغراء، وأسباب التمكّن والسلطان، أمرته بالحضور إلى مخدعها، وضربت

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٤).

(٢) يوسف في بيت العزيز، عبد السلام المجيدي، مكتبة عالم الثقافة، بدون طبعة وتاريخ، ص ٥٠.

عليه الحصار، وطوّقته بكلّ ما عند المرأة الأنثى الغنيّة المترفة من أطواق الإغراء والفتنة، ومن وراء كلّ ذلك طوّقته أيضـًا بطوق الحصار الماديّ عندما غلّقت الأبواب[١].

- ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣]: والأبـواب هذه كما جرت العادة من القديم، إلى الآن، أن يكون لقصور الأمراء والكبراء عدّة أبواب ونوافذ من الجهات الأربع، أو أن يكون لكلّ قصر أبواب متتابعة بعضها، وراء بعض، خارجة وداخلة ووسطى وقد جرى أبو حيان في البحر على الاحتمال الأول؛ إذ قال: هي أبواب ليست على الترتيب، بل هي جهات مختلفة، وكلها منافذ البيت الّذي كانا فيه، وشأن بيوت الأمراء والكبراء أن يكون القصر الواحد له عدّة أبواب من عدة نواح للدخول والخروج، كما يكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور[٢]. والإغلاق: إطباق الباب بما يعسر معه فتحه. وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣] هو تضعيف تكثير لإفادة شدّة الفعل وقوّته، أي أغلقت كلّ باب إغلاقـًا محكمـًا والمعنى المفهوم من قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: أحكم إغلاق باب المخدع الّذي كانا فيه، وباب الهواء الّذي يكون، أمام الغرف في بيوت العظماء، وباب الدار الخارجي، وروي أنّ الأبواب كانت سبعة، ولا دليل على ذلك، فقد تكون سبعة أو أكثر، أو أقل، والمراد أنّها قد أَحكمت إغلاق كلّ الأبواب الّتي يحتمل أن يأتي منها أيُّ قادم، سواء من داخل القصر أو من خارجه[٣].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٤).

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٩٥).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٥١.

إنَّ مجيء الأبواب جمعـاً، للدلالة على الكثرة الَّتي أغلقت وأحكمت بقوة وشدّة لتكون امرأة العزيز في أمان من فعلها، وهذه اللقطة أوحت بما هو مكنون في نفس امرأة العزيز من حرص شديد على فعل الفاحشة في تكتّم شديد وأنّ إظهار ذلك يضرّ بها، والغلق المستحكم يسهل عليها قنْص الفريسة، خاصة مع ما وجدته من ممانعة يوسف منها في كلّ مراودة.

ومجيء الفعل: ﴿غلقت﴾ ماضياً يدلّ على تحقق وقوع إحكام الأبواب كلّها بشدة وإيثاق، وفي هذا دلالة على عنف المحنة والكربة الّتي وقعت بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد إذ سدت الأبواب في وجهه إلّا باب الله الّذي كان منجاة له من هذا الجوّ الخانق.

من ثمّ إن مجيء التّعليق بالفعل وليس بالاسم، ليدلّ على الحدوث والتجديد وفي ذلك دلالة على طغيان الفتنة شيئاً فشيئاً، وهذا يُضفي على الموقف الخوف والضنك والضيق والتّأهّب والاستعداد لمكابدة المشقّة والكرب والعنت، فحدوث الإغلاق، وتجدّده في كلّ باب مع إحكامه، ليصوّر ويخيل لنا موقفاً عصيباً يلقاه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جرّاء التغليق للأبواب مما يجعل النفس تترقب ماذا سيحل بيوسف بعد هذا الظلام.

وهكذا نجد كيف أنّ هذا اللفظ على بساطته وإيجازه قد عبر عن هذه المعاني الجسام الّتي أحاطت بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من كلّ صوب، لتدلنا على مدى البلاء، الّذي وقع به النبيّ الكريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1].

- ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣]: هذه أوّل كلمة قالتها ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهي كلمة جاءت على نمط تعددت فيه الأقوال والدلالات وكأنها هي تحكي هذا النمط الغريب الّذي كانت عليه امرأة العزيز في ذلك الموقف.

---

(١) دلالة الألفاظ الّتي انفردت بها سورة يوسف، ص ١٤.

- ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣] هما كلمتان فقط اختصرت بهما المراد، وأوضحت فيهما مقصودها بكلّ صراحة، فالموقف وملابساته ومشاهداته يغني عن الخطاب، فكأنه المقصود هو لفت النظر إلى أنّ الاعتماد لم يكن على الخطاب، بل على الملابسات المحيطة به.

﴿هَيْتَ﴾ [يوسف: ٢٣]: اسم فعل بمعنى هلمّ، وأقبل وأسرع[١]. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣] هو صوت استدعاء لهذا الأمر الّذي يكون بين الرجل والمرأة وقد جاء القرآن الكريم على هذه الصورة الّتي لم تعرفها اللغة في لسانها قبل نزول القرآن؛ لأنّه يحدّث عن حال من شأنه أن يكون سراً بين الرجل والمرأة، ولغة مخصوصة لهما ولا يعرفها غيرهما، وذلك إعجاز من إعجاز القرآن. ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكلمة: (هيت) وخذها على أنّها حكاية صوت لا على أنها كلمة استدعاء وكفى[٢].

وإن هناك من يرى أن هذه الكلمة كانت صريحة واضحة، تحكي حاجة كبيرة وصلت إليها هذه المرأة، لا أنها لغة خاصة، فهي بمعنى: أقبل، وتعال، وأسرع، وهي لم تكن المحاولة الأولى بل سبقها المراودة وتغليق الأبواب. يقول مصطفى صادق الرافعي: وأعجب من هذا كلمة: (راودته) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لون بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن؛ لأنّ الكلمة مأخوذة من رَوَدَان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٢٧.
(٢) تفسير القرآن بالقرآن، (٦/ ١٥٥٣).

في حبها؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها؛ كما يصور كبرياء الأنثى إذ تحتال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها[١].

وبعد هاتين المحاولتين بلغ هذا الأمر مبلغه وهذا ما يصوره الرافعي بقوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣]: ومعناها في هذا الموقف أنّ اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة مصرحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها[٢]. ويؤيد هذا الرأي الدكتور فضل حسن عباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وماذا بعد هاتين المحاولتين؟ لم يبق إلّا تلكم الصراحة المكشوفة الّتي تشبه الجنون إن لم تكنه، وهي قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣] هلمّ فلم يكن هناك مجال بعد الآن وما تشكُّ أنها ما كانت تنتظر من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلّا أن يُقبِل نهِماً، كما يُقبل السبع الجائع على فريسته[٣].

وهذا لا شك راجع إلى نظرتها إلى مثل هذا العمل. وبيئة القصور والترف مختلفة عن غيرها، ويظهر أنها طلبت منه أمراً غير بدع في قصورهم؛ وهو أن تستمتع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته، ولذلك لم تتقدم إليه من قبل بترغيب، بل ابتدأته بالتمكين من نفسها[٤].

إنّ هذه الدّعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أوّل دعوة من المرأة إنّما تكون هي الدعوة الأخيرة[٥]. وقولها: (لك): اللام لزيادة بيان المقصود بالخطاب،

---

(١) وحي القلم، (١/ ٨٦). جماليات النظم القرآني، ص ٢٨.

(٢) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ، (١/ ٨٧).

(٣) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٣٨١.

(٤) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٦٥).

(٥) في ظلال القرآن، (٧/ ١٩٨٠).

كما في قولهم: سقيا لك. وشكراً لك[١]. وعلى كلّ فزيادة اللام والكاف تدلّ على حرصها عليها، سواء بدعوتها له بالإقبال، أم بتهيئها له، فكأنها تقول: (لك) خاصة فأقبل إليّ وامتثل أمري[٢]. وأصوات الكلمتين الموجزتين في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣] صوّرتا شدّة رغبتها وخضوعها أمام يوسف رغم مكانتها وجمالها وسيادتها[٣].

- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٢٣]: في إظهار قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: (قال) عناية بإبراز ما تفوّه به في تلك اللحظة مقابل ما تفوهت به، ليتّضح الفرق بين لغة الشهوة والخيانة، ولغة العفة والوفاء، وذكر القولَ دون أيّ تصرف فعليّ كما في حالها هي، لأنّه السّلوك الأسرع في مثل هذه الحالات، ولأن التصرف الفعلي قد لا يكون محموداً إلّا بعد تؤدة وفي سبق كلمة التعوّذ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٢٣] إلى لسانه دليل على عظم صلته بربه وقربه منه، وإلّا فإنه لا يوفّق لمثل هذا كلّ أحد، كما أنّ في ذلك إشارة إلى عظم هذا السوء في نظره[٤].

- ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٢٣] كلمة مصدر، وفعلها محذوف، أي: أعوذ بالله معاذاً. وتأمل كلمة معاذ الله، لتدرك قوة الداعي الّذي دعاه عَلَيْهِ السَّلَامُ ألّا يجد عاصماً ولا حامياً ولا ملجأ إلّا الله سبحانه، وهو في بيتها ولها عليه سلطان. وراجع كلمة معاذ الله، تجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رمى نفسه وحاله كلّه على باب الله، وكأنه يستغيث

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٦٥).
(٢) نظم الدرر، (١٠/ ٦٠).
(٣) جماليات النظم القرآني، ص ٣١.
(٤) جماليات النظم القرآني، ص ٣٢.

من ويل ألمّ به[١]. إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أجاب دعوة المرأة بالالتجاء إلى الله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٢٣]؛ أعوذ بالله تعالى معاذاً وألتجئ إليه التجاءً أن يحفظني من أن أستجيب لهذا المحذور، وهذا دعاء من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعا به ربّه أن يحفظه من هذا الذنب العظيم وفي هذا الدعاء إعلام بالإباء والترفع عن هذه المعصية الفظيعة بانصرافه التامّ عنها، فكلمة: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٢٣] أعطت مفهومين:

الأول: أنّه أبى إباء تامـًا ولم يوافق.

الثاني: أنّه أقبل على الله تعالى بطلب العون منه، ويستعيذ به من ذلك الأمر الّذي تريده المرأة منه[٢]. إنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأى أن الوقوع في الزنا شقاء ورأى في الزنى بعداً عن الله، ويجلب سخطه وغضبه، ورأى دناءة الزاني، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٢٣]، ولو ملكَ النّاسُ رؤية كرؤية يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأعرضوا عن الزّنى فما من تحرّك للإنسان، إلّا وراءه رؤية؛ فطوبى لمن كانت رؤيته مطابقة للحق[٣].

إنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاذ بمعاذ فانتصر، وعزّ من اعتزّ بالله وانتصر من استنصر بالله، فانتصرت البراءة والطهر على الرذيلة والدناءة والسفاهة[٤].

وفي قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٢٣]: لفتٌ لنظرها إلى أنّ البيت، وإن خلا من الرقباء، فإنّ عليها رقيبـًا لا يغيب، وهو الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الّذي يجب أن تخافه وتخشى غضبه وعقابه، لأنّه هو العليم السميع البصير[٥].

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٨٢.

(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقصته العجيبة، ص ١٥٣.

(٣) تفسير النابلسي، (٦/ ١٦٩).

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٤).

(٥) نظرات في التفسير، عبد الحميد كحيل، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ص ٣٣٨.

- ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]: كيف أعصي ربي الّذي أحسن مثواي؟ أكرمني ورحمني وكان معي في كلّ محنة، ومنّ علي بكل نعمة، وكأنّي بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان في تلك اللحظة الّتي قال فيها هذه الكلمات يعيش حقيقتها، تذكّر حاله عندما ألقاه إخوته في الجبّ، وكيف أدركته رحمة الله تعالى، فآنسه، وبشره وهو في ظلمة قعر الجبّ، وآنس وحشته: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وتذكّر حاله وهو في سوق العبيد معروضـاً للبيع بأيدي النخّاسين، والزّبائن يطوفون به، يتأملونه ويقلّبونه، كما يُقلّب المتاع، ثمّ يعرضون عنه زاهدين به، حجبهم الله بقدرته ومشيئته عن رؤية ملامح الجمال والبهاء في مُحياه، وجعله الله بضاعة كاسدة في نظرهم حتّى جاء عزيز مصر إلى السوق فتفرّس فيه معاني النبل والطهر، وألقى الله محبته في قلبه، وأخذه إلى بيتها معزّزاً مكرماً، وأوصى به زوجته قائلاً: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١]، ولهذا رأى كثير من المفسرين أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٢٣] عزيز مصر؛ لأنّه كان سيده ومالكه، في نظر النّاس، وقد أحسن إليه وأكرمه وأكرم مثواه، وأوصى زوجته به، فلا أقابل إحسانه بالإساءة إليه وخيانته[١].

وفي ذكر الإحسان: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] إيجاز لكلّ صور المعروف الّتي نالها من زوج هذه المرأة[٢]. قال شيخي الدكتور علي القره داغي: في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]: الظاهر أن الضمير راجع إلى الأقرب المذكور وهو لفظ: (الله) أي: رباني، وأبلغني إلى هذه المنزلة وحماني في

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٥).
(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٣٣.

غيابات الجبّ، وأكرم مثواي، فهو الّذي هيأ لي أسباب وجودي في هذا المكان. وذهب جماعة من المفسرين إلى التوقّف عند لفظة الجلالة في: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، وبالتالي تكون الجملة التالية: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٢٣] مستأنفة وحينئذ يعود الضمير إلى زوج المرأة المراودة، وذلك بدليل أنّه هو الّذي قال لها: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وبالتالي فذكّرها بهذا الموقف النبيل، وبناءً على هذا، فإنّ الجملة المستأنفة جوابٌ: كيف اقترف هذه الجريمة، والله عليم بصير شديد العقاب وإن زوجك أكرمني، فكيف أخونه في زوجته وعرضه، وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان؟!

وبناءً على ذلك فالمراد بالرب هنا: عزيز مصر، ومن المعلوم أنّه لا مانع لغة وشرعـًا في إطلاق الربّ على السيّد والكبير[١]. ثمّ ختم ذلك بفقه المآلات الّذي علمه الله تعالى إياه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، كلا المعنيين مقبول أيضـًا ومطلوب، وهذا من خصوصيّة المنهج القرآني العظيم[٢].

قال الشيخ محمّد متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٢٣]: يعود الضمير على الله سبحانه، وقد يعود على عزيز مصر، تلك ميّزة أسلوب القرآن، فهو يأتي بعبارة تتّسع لكلّ مناطات الفهم[٣].

- ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]: وهذه قاعدة ربانيّة ماضيه إلى قيام الساعة ومهما اعتقد الظالم أنّه سيكسب من وراء الظلم منفعة عاجلة أو لذة فانية تافهة، فإن مآله هو الخسران المبين، وما أفلح ظالم أبداً في تاريخ البشريّة

---

(١) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، د. علي القره داغي، ص ٦٥. ذكر ذلك الطبري وابن كثير.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥.

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩١٠).

ويدخل في سلك الظلمة كلّ من سلك سبيلهم لمن أحسن إليه، فما بالك لو جازى من أحسن إليه بأسوأ الإساءة[١]. وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، دليل على أنّ من الظلم هضم حق من أحسن إليك ومقابلة إحسانه بالإساءة والخيانة، فكيف إذا كان ذلك في عرضه؟!

وقد يكون نفي الفلاح مع وصف الظلم ما يصلح أن يكون واعظاً لهذه المرأة الّتي عرضت عليه خيانة زوجها، فكأنه يقول لها بطريق التعريض: أنا امتنع من ذلك وإحسانه إليّ يسيرٌ بالنسبة لإحسانه إليك، فكيف تخونينه؟!

أما علمت أنّ من يفعل ذلك لا يفلح. ومما يلفت النظر في لغة رده عَلَيْهِ السَّلَامُ النصاعة والنظافة والرقيّ، والبعد عن الأذى والمهاجمة والسبّ والقذف، كما هو حال كثير من النّاس لو تعرّض لمثل هذا الموقف، بل على العكس من ذلك لا نجد كلاماً مباشراً ضدهاً، بل تعريضاً لطيفاً يفهم منه الرد[٢].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]: الّذين يضعون الشيء في غير موضعه، فإذا وضعت الخيانة في موضع الأمانة كنت ظالماً، ولا فلاح للظالم ولا نجاح[٣].

وجاءت كلمات يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بغاية التناسق والحسن. ذكر أولاً: حقّ الله تعالى ووجوب رعايته، ثمّ ذكر حقّ الرجل الّذي أحسن إليه، وقبح خيانته، ثمّ ذكر نفسه وأنّ عليه أن يحفظها ويصونها عمّا يشينها ويؤذيها فهذه اللذة القليلة يتبعها ضرر كبير في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، وبهذا يكون ظالماً لنفسه ولا فلاح للظالمين[٤].

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٥٣.
(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٣٣.
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٥).
(٤) التفسير الكبير، (١٨/ ١١٧)

- إنّ مآل الظلم والاعتداء والخيانة وكلّ تصرف غير أخلاقيّ، هو الخسران في الدنيا والآخرة.

- من أدب القرآن العظيم أنّه لم يذكر اسم المرأة الّتي راودته ولا أشار إلى زوجها وهو عزيز مصر، وفي ذلك توجيه للتحلّي بهذا الأدب الرفيع، وألّا يذكر في مثل هذا المقام إلّا ما يظهر الحقيقة فقط دون الخوض في التفاصيل.

- إنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قدوة للشاب في التقوى والخوف من الله وألّا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقدوة في الوفاء والأخلاق العظيمة، وفي التفكير في المآلات، وفي تحمّل النتائج مهما كانت مؤلمة[١].

٢. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤]:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: ٢٤]: أثبتتْ الآية همَّ امرأة العزيز وقصدها الفاحشة، وعزمها عليها، ونفت همّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فما همَّ بالفاحشة، ولا قصد إليها ولا عزم عليها.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾[يوسف: ٢٤]: أكّدت الآية همّ المرأة باللام الموطِّئة للقسم، وبـــ: (قد) الدّالة على التحقيق والتوكيد، وعندما تحدّثت الآية عن يوسف نفت همّه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: ٢٤] فلم يهمّ بها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يقع منه أيّ قصد للفاحشة والمعصية؛ لأنّه رأى برهان ربه، وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حاضر القلب والنفس، مع الله وكان في مرتبة الإحسان الّتي أشرنا سابقاً إليها عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢] والتي وصفها

---

(١) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٦٦.

سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١]. والآية بينت فضله سبحانه على يوسف، وتثبيته له في محنته فلولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. و (لولا) حرف يدلّ على امتناع شيء لوجود غيره، وهمّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقع، ولم يوجد، لوجود برهان الله تعالى، وجواب (لولا): هنا مقدم، أو مقدر محذوف دلّ عليه ما قبلها كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا أن فلانـاً خلّصك. وما زعمه بعض علماء اللغة من أنّ تقدّم جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح، غير صحيح، فالقرآن الكريم هو أفصح كلام عربي، كما مرّ معنا في أوّل السّورة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهو الكلام الّذي يُحتجّ به على غيره، ولا يُحتجُّ بغيره عليه أبداً.

وقد تكرّر مثل هذا في القرآن الكريم في قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، فلولا تثبيت الله لأمّ موسى وربطه على قلبها، لكادت أن تكشف أمره، وكذلك هنا لولا تثبيت الله تعالى ليوسف لهمّ بها، فالأمر خطير والمحنة شديدة، وعناية الله تعالى ورعايته كانت مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تثبّته وتحفظه، فما همَّ وما عزم. ومثله أيضـاً قوله تعالى: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[الفرقان: ٤٢].

والهمّ والعزم من أعمال القلب، وقلب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ممتلئـاً بذكر الله تعالى، فلا يجتمع فيه النقيضان، دلّ عليه ما حكاه سبحانه عنه فيما سبق: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن»[٢]. فلا يلتفت

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ،ح رقم: ٥٧ .

إلى بعض الروايات المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، والتي ذكرها بعض المفسرين، فهي واضحة البطلان، ظاهرة الفساد، بعضها يقول:

- جلس يوسف منها مجلس الرجل من المرأة.

- بعضها شطح بخياله إلى شيء من التفصيل فقال: استلقت وجلس بين جليها، ينزع ثيابه ويحل التُّكة - رباط السروال- كأنهم كانوا حاضرين معهما، وغفلوا عن الكلمة الصريحة المعلنة الّتي هتف بها لسانُ يوسف وقلبه: ﴿قَالَ مَعَاذَ﴾ [يوسف: ٢٣][(١)]. ولقد قامت الأستاذة رحمة بن سعد - بالجزائر في كلية جامعة أبي بكر بقايد بتلمسان في كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - بتقديم رسالة ماجستير في (قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دراسة استقرائيّة نقديّة)، أفادت وأجادت وبيّنت بطلان الكثير من الرّوايات الإسرائيليات الّتي سار خلفها بعض المفسرين والرّواة الّذين تأثروا بالأساطير الملفّقة والموضوعة والمدسوسة والخطيرة؛ المناقضة للشرع في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وما نسب له في الهمّ والبرهان الّذي رآه، فقد كانت اعتداء صريحـًا على عصمته عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٢)].

فالتحذير من تلك الأكاذيب واجب كالتي صوّرت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضّـًا على إصبعه بفمه، وصوّرت له لوحات كتب عليها آيات من القرآن الكريم - أي نعم من القرآن- تنهى عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي حتّى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدي. فجاء فضربه في صدره... إلى آخر هذه التصوّرات الأسطوريّة الّتي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع[(٣)].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٧).

(٢) الروايات الإسرائيلية في قصة يوسف، رحمة سعد، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، ص ١٧.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٨١).

إنّ الرّوايات الإسرائيلية حول البرهان الّذي رآه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والردّ عليها، لا يقل شأنـاً عن مثيلاتها الّتي حكت زوراً وبهتانـاً عن همّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان الردّ عليها من الأوجه التالية:

- الاضطراب الفاحش في هذه الروايات من حيث السند، والتناقض من حيث المتن حيث يتعذر الجمع بينهما فضلاً عن قبولهما، فكيف نوفّق بين نداء جبريل ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتوبيخه له، مع ما رآه من صورة أبيه عاضّـاً على إصبعه؟! وما زعموه من رؤية الآيات القرآنية الناهية عن الزنا، يؤكد أنّ الجمع بين هذه الروايات مستحيلاً.

- بل إنّ الرّواية الواحدة في حدّ ذاتها تفوح كذبـاً واختلاقـاً لما فيها من ركاكة في التعبير فضلاً عن معناها الّذي تحويه، فهل يعقل أن يكون الأنبياء وهم صفوة الخلق الّذين اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للنبوة، هل يعقل أن يسوى بينهم وبين سائر الخلق ويكونوا عرضة للتوبيخ من الملائكة؟ فما فائدة الاصطفاء؟ بل كيف نتوقع امتناع يوسف عن الزنا - على حسب مروياتهم المفتراة - زجراً من أبيه، فأيّ فضل ليوسف إذا وهو النبيّ من سلالة الأنبياء وهم المعصومون بعصمة الله لهم[١].

وذكر صاحب زاد المسير مستنكراً هذه الروايات على أنّها من أعمال القصاص بقوله: وقد أشرت إلى فسادها في كتاب: (المغني في التفسير)، وكيف بنبي كريم أن يخوَّف ويُرعب ويضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مصرّ؟ هذا في غاية القبح[٢].

---

(١) كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، ص ٥٧.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، (٢/ ٢١٠).

وعلّق الماوردي على الأقوال في (البرهان) بأنّ أغلبها من الإسرائيليات، الّتي لم يعرف لها سند ثابت صحيح، ولم يعرف بين الروايات الّتي ذكرت رواية مرفوعة يمكن الركون إليها[١]. بل هذه روايات المنحرفين من علماء بني إسرائيل الّتي فيها مطاعن على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأمّا ما يخصّ ما ذكر من آيات قرآنيّة كانت زاجرة له، فإنّ المسلّم به والمقطوع به أنّ الآيات بذلك اللفظ العربي والأسلوب القرآني لم تنزل على نبي قط قبل النبيّ محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢].

ولقد كان العلامة الرّازي في تفسيره من خير المدافعين عن النبيّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ دفع عنه هذه التهمة الظالمة الّتي لا تليق بكمال الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الّذين اختارهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واصطفاهم ليكونوا الإسوة الحسنة للناس. ننقل من كلامه ما يلي مع بعض التصرف والاختصار:

- فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقال أيضـًا: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾[يوسف: ٢٦]، والمرأة اعترفت وقالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١].

- والنسوة قلن: ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾[يوسف: ٥١].

- وزوج المرأة عرف الحقيقة، فقال لزوجته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨].

- وقال لها أيضـًا: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٢٩].

---

(١) الروايات الإسرائيلية في قصّة يوسف، ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥٨.

- وكذلك أظهر الشاهد من أهلها براءة يوسف.

- وحتى إبليس شهد بطهارتها بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣]، ويوسف منهم وفوق كلّ ذلك شهادة العليم الخبير: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤][1]. وهذه الأدلة كلّها تدل على قوة الرأي الّذي ذهبنا إليه من أقوال العلماء بأنّ يوسف عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ لم يهمّ بها لرؤية برهان ربه، والأدلّة كثيرة، منها شهادة المرأة نفسها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. ومنها جواب يوسف مباشرة لمّا قالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]. بالإضافة إلى الآيات الّتي دلت على أن الله تعالى أوحى إليه، ومنحه العلم والحكم، وأنه من المخلصين والمحسنين، فساحة يوسف عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ نزيهة ولله الحمد[2].

- ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]: والحكمة من ذكر الآية، أنّ الله تعالى يبيّن أنّ عدم همّه بالفاحشة لا يعود إلى إنّه غير قادر، أو غير راغب بطبعه، وإنّما الّذي منعه هو براهين الله في القلب من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن عصمة النبوّة، وحبّه لرضاه ومحبته، وعدم إغضابه بمعصية يمنع من أيّ لذّة محرمة مهما كانت مرغوباً فيها.

ومن الجانب اللغوي فإنّ كلمة: (همّ) أقوى من نوى وقصد وعزم في لغة العرب، لأنها تعني العزم على الشيء مع البدء بمقدماته، وهكذا استعملت في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤]، حيث نوى المشركون وأرادوا قتله وحبسه مع البدء بالتنفيذ ولذلك لا يجوز إثبات الهمّ

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٥٨).

(٢) يوسف عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٦٨، ٦٩.

ليوسف. يقول السيد محمّد رشيد رضا: إنّ الهم لا يكون إلّا بفعل الهام، وهذا لا يتناسب مع نبي كريم للأسباب الّتي ذكرناها هنا، ولا يصحّ بلاغياً أن نحمل همّ المرأة ليوسف على معناه الحقيقي، وهم يوسف على معنى آخر، حيث لا يستقيم مع الإعجاز البياني.

قال ابن قتيبة: لا يجوز في اللغة أن تقول هممت بفلان وهمّ بي، وأنت تريد اختلاف المعنيين. ثمّ قال: وهذا مذهب الأكثر من السلف، والعلماء الأكابر، ولذلك فالصواب هو أن: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] جواب لـ (لولا) حيث يدلّ بوضوح على امتناع الهم وعدم تحققه أصلاً لتحقيق رؤية البرهان وقد جاءت الصيغة فعلاً ماضياً: ﴿رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، للدّلالة على وجوده وتحققه، وحينئذ تكون الحكمة في هذه الصياغة القرآنيّة هي الإشارة إلى أنّ هذا الامتناع لم يكن بسبب عجز يوسف وعدم وجود الشهوة فيه، وإنّما لأجل وجود هذا البرهان، وهو برهان الخوف من الله تعالى، برهان النبوّة، برهان الحكمة، برهان الوفاء: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣] برهان معرفته تأويل الأحاديث، وفقه المآلات: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣][١].

قال العلامة أبو السّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ أي حجّته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كما إيقانه بها ومشاهدته لها واصلة إلى مرتبة عين اليقين[٢]. ونقله الألوسي في روح المعاني وأقرّه[٣].

(١) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٧٠.
(٢) تفسير أبي السّعود، (٢/ ٢٦٦).
(٣) روح المعاني، (١٢/ ٢١٣).

وقال البقاعي: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا﴾ [يوسف: ٢٤] أي بعين قلبه ﴿بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] الّذي آتاه إياه من الحكم والعلم، أي لهمّ بها، لكنّه لما كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين، لم يؤثر به وفور شهوة ولا غلبة هوى[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحاصل أنّه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حقّ سيده الّذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الّذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منّ الله عليه من برهان الإيمان الّذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كلّه أنّ الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنّه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الّذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه[٢].

وقال ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فأخبر إنّه صرف عنه السوء والفحشاء وهذا يدل على أنّه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء. وأما قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: ٢٤]، فالهم اسم جنس تحته «نوعان» كما قال الإمام أحمد: الهمّ همّان: همّ خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ "أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة". ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ همّ همّاً تركه لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنّما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله.

---

(١) نظم الدرر، (١٢/ ١٦٣)

(٢) تفسير السعدي، ص ٥٠٤.

فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يصدر منه إلّا حسنة يثاب عليها؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١]. وأمّا ما ينقل: من أنّه حلّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنّه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده، وأمثال ذلك فكلّه مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنّما هو مأخوذ عن اليهود الّذين هم من أعظم النّاس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم وكلّ من نقله من المسلمين فعنهم نقله؛ لم ينقل من ذلك أحد عن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرفاً واحداً[١].

- ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤]:

بيَّن الله تعالى الحكمة من جعل يوسف يرى برهان ربّه وسياق الكلام بما فيه من التشبيه في الحالة في قوله: (كذلك) يدلّ على أنّ ما قبلها قد صرف عنه السوء فيه بإيجاد البرهان فيكون المعنى مثلما حفظناه من الهم بالسوء، كذلك نصرف عنه السوء، فالمصروف هو السوء والفحشاء، وهذا يعني أنّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يتوجّه إلى السوء ليصرَف عنه وإلا قيل: كذلك لنصرفه عن السوء.

وإذا كانت مادّة الصرف تدلّ على رجع الشيء، فإنّ ذلك يدلّ على وجود مصدر للسّوء هنا، وهو المرأة، ولكن الله ردّ كيدها عليها ولم تؤثر في يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمكرها[٢].

- ﴿ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[يوسف: ٢٤]: والسوء: الضر، من ساءه سَوءاً، مصدر بفتح السين. وأما السُوء بضم السين فاسم للمصدر. الفحشاء: اسم مشتق من فحش إذا تجاوز الحدّ المعروف في فعله أو قوله واختصّ في كلام العرب بما

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٣٧.

تجاوز حدّ الآداب وعظم إنكاره؛ لأنّ وساوس النفس تؤول إلى مضرّة كشرب الخمر والقتل المقتضي للثأر، أو سوأة أو عار كالزنا والكذب، فالعطف هنا عطف لمتغايرين بالمفهوم والذات، لا محالة بشهادة اللغة وإن كانا متحدين في الحكم الشرعي لدخول كليهما تحت وصف الحرام أو الكبيرة، وأما تصادفهما معـًا في بعض الذنوب كالسرقة فلا التفات إليه كسائر الكليات المتصادفة[(١)].

وقال المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والسوء: كلّ ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسيّة والبدنيّة والخارجيّة، من فوات مال، وفقد حميم، وفعل قبيح، وهو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] بمعنى الغم، وفي قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، بمعنى القبيح. فالسوء كلّ عمل قبيح يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس، أو يسوء النّاس. والفحشاء: هي الفحش والفاحشة ألفاظ ثلاثة معناها واحد، وهو كلّ ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، فإذا تقرر هذا فحاصل المعنى لنصرف عنه ما يهمه ويحزنه، وكل أمر قبيح وكل ما يتجاوز الحد في القبح. ولنصرف عنه الصغيرة والكبيرة، أو لنصرف عنه الكبيرة والكبرى، من المعاصي، أو لعله أراد لنصرف عنه ما يسوءه وهو خيانته لسيده. والفحشاء، وهو: قتله لسيدته. أو السوء ما لا حدّ فيه، وهو قتله لسيدته دفاعـًا عن عرضه، والفحشاء ما فيه حد وهو الزنى، أو نصرف عنه السوء، وهو: مقدمات الفاحشة من التقبيل، والضم، ونحو ذلك. والفحشاء، وهي: الزنى أو القتل، أو السوء، وهو: الزنى، والفحشاء هي القتل، وهذا الأخير هو الأقرب عندنا بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أي: زنى. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١] أي: الزنى،

---

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٢٧.

فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاثة في هذه السورة مستعملة في الزنى، فليكن لفظ: (السوء) في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [يوسف: ٢٤] مراداً منه الزنى، وإذا ثبت هذا فالفحشاء هي القتل الّذي كان حاوله يوسف، ثمّ رأى غيره أحسن منه وهو الفرار، ومع كلّ هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الزنى والقتل سوءاً أو فاحشة[1].

- ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]: اختلف القرّاء في قراءة ذلك؛ فقرأ قرّاء المدينة والكوفة (إنّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) بفتح اللام من «المخلصين»، وذلك بتأويل: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوّتنا ورسالتنا وقرأ بعض قرّاء مدينة البصرة: "إنّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ» بكسر اللام = بمعنى: إن يوسف من عبادنا الّذين أخلَصوا توحيدنا وعبادتنا، فلم يشركوا بنا شيئًا، ولم يعبدُوا شيئًا غيرنا وهما متفقتا المعنى. وذلك أن من أخلصه الله لنفسه فاختاره، فهو مُخْلِصٌ لله التوحيدَ والعبادة، ومن أخلص توحيدَ الله وعبادته فلم يشرك بالله شيئًا، فهو ممن أخلصه الله[2].

وإن الجامع لذلك كلّه أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنّه من عباده المخلصين له في عبادتهم الّذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه وأسدى عليهم من النعم وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه[3].

وهذا التعليل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فيه ترغيب في الإخلاص وحثّ عليه ودعوة للإنصاف به وإغراء للدّخول في ركب

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٥١٥- ٥١٧).

(٢) جامع البيان، (١٦/ ٥٠)

(٣) الإخلاص في القرآن الكريم، محمد بن محمد الوهيبي، دار التوحيد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م، ص ٣١٠.

المخلصين لينجو بإذن الله من السوء والفحشاء ويصرف عن الحرام، ويخلص من الفتنة. ولهذا كان من السّبعة الّذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظله: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله(١). فالذي منعه من الانسياق وراء هذا الإغراء والمراودة خوف الله تعالى الناشئ عن الإخلاص لله تعالى، فخلصه الله من هذه الفتنة والتي هي أضر فتنة على الرجال(٢).

وقال السعدي: إنّ من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤](٣)، فما أعظم الإخلاص في الخلاص من الفتن(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى -: وأمّا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنّ الله يصرف عن عبده ما يسوءه من الفحشاء بإخلاصه لله، فقد علّل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صرف السوء والفحشاء بأنه من عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الّذين قال فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فمن كان مخلصاً لله حقّ الإخلاص لم يزْنِ وإنّما يزني لخلوه من ذلك؛ وهذا هو الإيمان الّذي ينزع منه، لم ينزع منه نفس التصديق(٥). إنّ الإخلاص يمنع من تسليط الشّيطان على العبد، فقد

(١) الإخلاص في القرآن الكريم، ص ٣١١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣١١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣١١.
(٤) المصدر السابق نفسه، ٣١١.
(٥) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، (٤/ ٣٤-٣٦).

استثناهم الله من إغوائه في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وفي هذا دليل ظاهر على أثر الإخلاص لله تعالى[١].

والإخلاص: أن يفعل المكلّف الطاعة خالصة لله وحده لا يريد بها تعظيماً من النّاس ولا توقيراً، ولا جلب نفع ديني ولا دفع ضرر دنيوي[٢]. قال سهل بن عبد الله التستري: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خالصة[٣]. وقد جاءت هذه الشهادة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] قبل الاستباق نحو الباب ومواجهة العزيز لتؤسس في النّفوس براءته عَلَيْهِ السَّلَامُ من أي شيء نسب إليه.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٥ - ٢٩].

ثمّ بادر عَلَيْهِ السَّلَامُ ففر من ميدان المعركة، واتجه مسرعاً نحو أوّل الأبواب المغلقة، كذلك تشعر الآية؛ لأن بقاءه معها وراء الأبواب المغلقة والستائر المنسدلة؛ يعرّضه للشبهة والتهمة، والعاقل يسعى لدرء الشبهات عن نفسه، ويتجنب مواطن التهمة والريبة. وهو درس عملي علّمه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لكل

(١) الإخلاص في القرآن الكريم، ص ٣١٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢١.

عاقل يتدبر معاني كلمات الله في تنزيله الحكيم، ورسم لنا عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً في سلوكه هذا أمراً آخر، وهو أنّ على الإنسان في مثل هذه المواقف أن يتّهم نفسه فيفرّ ولا يقرّ مغتراً بنفسه، زاعماً أنّه متمكن منها، ومسيطر عليها، فقد يضعف الإنسان أمام نفسه، ويرمي لها بالزمام، فتقوده إلى المهالك، وما أكثر الّذين انخدعوا بأنفسهم في مثل هذه المواطن فضعفوا وسقطوا. درسان كبيران وعبرتان بليغتان كبيرتان فيما فعله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يحتاج إليهم كلّ فتى وفتاة في هذا العصر، أولهما: اتهام النفس وعدم الركون إليها والثقة بها. ثانيهما: تجنب مواطن الريبة واتقاؤها فإذا ما ابتليت ففر ولا تقر، وتذكر نبيّ الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فأنت معهما كنت لست أقوى منه، ولا أتقى منه، ويجب أن يضم إلى فرار الجسد عن مواطن التهمة والريبة وابتعاده عن مواضع الفتنة، فراراً آخر بالروح والقلب إلى لله تعالى الّذي قال: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقد فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا أيضاً كما سيأتي وهو خلاصة التوجيه الكريم الّذي توجه به نبينا محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قائلاً: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"[(١)].

١. ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٢٥]:

- ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ [يوسف: ٢٥]: الاستباق طلب السبق إلى الشيء، قال العلماء: هذا من اختصار القرآن المعجز الّذي يجتمع فيه المعاني[(٢)]. بادر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ،ح رقم: ٢٥١٦.

(٢) تفسير القرطبي، (٩/ ١٧٠).

كما قلنا إلى ترك موضع الفتنة واتجه مسرعـًا إلى الباب واستبدت الشهوة بالمرأة، وطغت على جميع مشاعرها، واندفعت وراءهـا متهالكة عليه[١].

- ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥]: أي: شقّت قميصه طولاً من جهة ظهرة[٢]. والقد: القطع والشق وأكثر استعماله فيما كان طولًا، والقط: يستعمل فيما كان عرضـًا، والقميص معروف وقد يطلق على الجلباب، ولعله المراد هنا، و﴿مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: من خلف. ومعنى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: جذبته من خلفه من طوقه، فانخرق إلى أسفله[٣].

وجملة: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] جاءت عقب ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]، وكشفت عن السرعة الّتي كان عليها يوسف، وكانت عليها امرأة العزيز، وقد القميص من دبر فيه دلالة واضحة على شدة يوسف، وقوته في عزمه على أن يخرج من الباب، ودلالة واضحة أيضـًا على قوة المرأة وشدة عزمها في ألا يخرج يوسف، وأن يعود إليها، وهذه الصورة يظهر فيها الصراع واستعمال القوة، وهي غير الصورة السّابقة الّتي فيها مراودة، ومخادعة ليوسف في نفسه، حتّى كأنها تريد أن تخطفه لرغبتها الّتي غطت على كلّ شيء فيها، وراجع لتدرك الفرق بين حالة دعائها له بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣] أعني أريدك أنت، كما هو دلالة اللام الّتي هي أخت اللام في: سقيا لك، وأنها كانت تهيأت له قبل أن تقول له هلمّ[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٢).

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٦٢).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٧٩.

(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٨٦.

كان واضحـاً بأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سابقها في الاستباق وواضح أنها لم تتمكن من تخطيه، بل إنها لم يكن بإمكانها أن تلحق بقميصه لولا امتداد يدها، ولولا أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يستغرق بعض الوقت في فتح الأبـواب المغلقة لما استطاعت المرأة أن تلحق به بحال، إذ هو أقوى منها وأسرع بكثير ولكن كان ذلك لحكمة قدرها العليم الحكيم[١].

- ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف: ٢٥]: أي: وجدا زوجها عند الباب، فهو (سيدها) وليس سيداً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن ملكيته ليوسف في الأصل ليست مشروعـًا، والإسلام لا يعترف باستعباد الحرّ ولا يقر كأمر واقع ويبقى الإنسان حراً في شرع الله تعالى، والحرام يبقى حرامـًا، ولا يحل مهما طال عليه الزمن وشاع بين النّاس[٢]. وإطلاق السيد على الزوج، قيل: إن القرآن الكريم حكى به عادة القبط حينئذ، كانوا يدعون الزوج سيداً. والظاهر أن ذلك لم يكن مستعملاً في عادة العرب، فالتعبير هنا من دقائق التاريخ، وإلا إطلاق كلمة: (سيد) على الزوج هي لغة المصريين وشائعة بينهم إلى اليوم، حكاها القرآن الكريم جريـًا على اصطلاحاتهم[٣].

- ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف: ٢٥]: أي حدثت لهما المفاجأة وهي ظهور عزيز مصر أمامهما وصـار المشهد ثلاثيـًا امـرأة العزيز، ويوسف، وزوجها[٤]. وجملة: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف: ٢٥]: تطوي وراءها معنى أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سبق وفتح الباب، وفوجئت المرأة بسيدها لدى الباب الّذي

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٧٩.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٢).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٧٩.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٢١).

كانت قد أغلقته، فتسارعت بذكاء عجيب، وثقة واقتدار؛ فقلبت كلّ الحقائق والمراودة وما تعلق بها. وقول يوسف: معاذ الله.. وهمها به إلى آخره، طوت بذكاء عجيب كلّ هذا وطرحته ولم تتهم يوسف اتهامـًا مباشراً[١]، بل قالت:

- ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]: فبادرت تدفع التهمة عن نفسها، وتتهم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٢]. وقولها هذا من كيدها العظيم الّذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، واستنبط منه أنها لا تحبه، فثمة فرق بين الشهوة الجنسية والحب الشريف فلو أنها أحبته، ما أوقعته في هذه الورطة الكبيرة، فكانت تحبه لشكله ولا تحبه لنفسيته، وهذا حبّ شهواني، لا حبّ روحي، والدليل على أنّه حينما امتنع منها، وكادت تفضح، أرادت أن تسحقه وأن تجعله أمام زوجها خائنـًا[٣].

وهكذا وضعت نفسها في موضع المدعي والقاضي وأصدرت الحكم بسجن المتهم أو بمعاقبته، بعذاب أليم، وهذا يدل على أنها أرادت الانتقام من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتبرئة نفسها أيضـًا[٤]. ومن عادة أكثر النّاس في مثل هذه المواقف أن تستبد بهم الغيرة فتثور ثائرتهم وتغلي مراجل الغضب في صدورهم، ويندفعون دون أدنى تبصّر وروية إلى تصديق التهمة. وكم أدّى مثل هذا الاندفاع والتهور إلى اتهام البراء وحدوث المظالم، وسفك دماء بريئة، ولهذا شرع الله تعالى لإثبات جريمة الزنى شهادة أربعة شهود عدول من ذوي الديانة والأمانة، كما توعد الّذين

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٨٧.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٢).
(٣) تفسير النابلسي، (٦/ ١٧٣).
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٣).

يرمون غيرهم بتهمة الزنى بعقوبة القذف فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

وقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٥]، بأسلوب الاستفهام يدلّ على أنها أرادت استفزاز مشاعر زوجها وإثارة غضبه وغيرته، فتنتقم من يوسف قبل أن يحقق الأمر ويكشف حقيقته، ولكن الله سبحانه أراد أمراً آخر، وهو غالب على أمره أراد جَلَّ وَعَلَا إظهار براءة نبيه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من التهمة الّتي حاولت هذه المرأة إلصاقها به، وهو سبحانه يدافع عن الّذين آمنوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، وهو عَزَّ وَجَلَّ يدافع عن أنبيائه وأصفيائه الّذي اختارهم لحكمته وعلمه، ورفعهم إلى مقام الأسوة الحسنة للناس، فلا يمكّن الفجار والفساق من تشويه سمعتهم وتنفير النّاس عنهم. ولمّا حاول بعض بني إسرائيل أن يفعلوا مثل هذا بنبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأشاعوا عليه قالة السوء، أظهر الله تعالى براءته، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

- ألهم سبحانه زوج المرأة أن يقابل استفزازها له بهدوء وروية، ويبدو أنّه لم يصدق ادعاءها بسبب ما عَلِمَهُ من أخلاق يوسف ونبله وصدقه وأمانته وبادر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الدفاع عن نفسه قائلاً بثبات قلب ورباطة جأش[1]:

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٤).

٢. ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]:

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ [يوسف: ٢٦]: واضطر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يوجه التهمة إليها ليدافع عن نفسه ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها[١]، فالستر أولى في مثل هذه الحالات، وهو ما ندب إليه الإسلام، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة»[٢]. وتدل قرائن الحال كلّها على صدق يوسف وبراءته، فتغليق أبواب القصر لا يتم إلّا بأمرها وإرادتها ووجودها عند الباب، كلّ ذلك يدل على كذبها، ولو كان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ طالباً لها لحاصرها في الداخل لا عند الباب[٣].

- ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ [يوسف: ٢٦] أي: هي الّتي أرادتني. والمراودة من الرود بمعنى الإرادة والطلب باللين[٤]. حيث كان تعبيره صادقاً ودقيقاً، وأنه لم يتهمها أيضاً بفعل الفاحشة[٥]. ومن الملحوظ هنا أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال في رده عن كلامها: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي﴾ [يوسف: ٢٦] ضمير الغائبة، المفردة، ولكنه هنا عبر به عن الحاضر والمقتضي أن يقول: هذه راودتني. فما سرّ ذلك؟

قد يكون هذا الخروج عن المقتضى سببه انصرافه عنها، وعدم اهتمامه بشأنها، لأنها لا تستحق التقدير، بعدما فعلته من خيانة زوجها، ومحاولتها بيع

(١) تفسير النسفي، (٣/ ٣٩٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ح رقم: ٢٦٩٩.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٤).

(٤) يوسف، القره داغي، ص ٧٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٤.

عرضها واتهامها لبريء، ويضاف إلى ذلك سبب آخر هو ما جبل الله عليه الأنبياء من حسن الأدب ولطف القول، فهي لما كنت عن نفسها بذلك. أي: (بأهلك) ولم تقل: (بي) بدل: (بأهلك) كنى هو عنها بضمير الغيبة، فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى﴾ [يوسف: ٢٦]، ولم يخاطبها بـــ: (أنت راودتني)، وكل ذلك على سبيل الأدب في الألفاظ، والاستحياء في الخطاب الّذي يليق بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فأبرز الضمير في صورة ضمير الغائب تأدبًا مع العزيز وحياء منه[١]. وهذا من الأدب والحشمة لأن في المواجهة بالقبيح من السوء ما ليس في الغيبة[٢]. وما ذكره عَلَيْهِ السَّلَامُ كاف في المقصود وكان واضحًا مختصراً دون تطويل، أو زيادة، لأن مقصوده في الخطاب مختلف عن مقصودها، لذا كنى عنها بضمير الغيبة: (هي)، ورد دعواها وكذبها ونسب المراودة إليها، أي أنّه صرح بالسوء الّذي أخفته هو من خطابها لأنّه لا مجال لإخفاء ذلك، وهكذا يختلف نمط الخطاب عندما يختلف هدفه[٣].

لقد وصلت الحقيقة إلى العزيز، وأصبحت واضحة المعالم ولا ينفعها إلّا الشهود ولا شك أن وقع هذه الحادثة كان شديداً على نفس العزيز وكيف لا، وأرادت خيانته مع ألصق النّاس به، ويوسف أحب الخلق إليه، وبعد أن استمع إليهما صمت ولم يتكلم، ولعله تركهما وخلا بنفسه يفكر في أمر هذه القضية، ثمّ اهتدى إلى قرار حكيم مؤداه أنّه لن يستأثر بالحكم في هذه القضية بنفسه، بل سيجعل هذا الأمر لشاهد آخر[٤].

---

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٥١.
(٢) البحر المحيط، (٦/ ٢٦٠). جماليات النظم القرآني، ص ٥١.
(٣) جماليات النظم القرآني، ص ٥١.
(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٨٥.

- ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]: قيض الله ليوسف رجلاً عاقلاً حكيماً مجرباً، لا يقبل الكلام على علاته، بل لا بد أن يزينه بميزان العقل والحكمة، فيعاين ويستنتج ثمّ يحكم بالحق، ومع أنّه كان من أقارب هذه المرأة في صحبة العزيز، إلّا إنّه لم يحاب قريبته، بل كان هدفه هو الوصول إلى الحق من حيث إنّه الحق[١]. واختلف المفسرون في الشاهد، هل كان كبيراً أو صغيراً، فقال بعضهم: كان صبياً في المهد أنطقه الله عَزَّوَجَلَّ[٢]. ورجح الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أن يكون الشاهد رجلاً لا صبياً، وقال: لو كان صبياً تكلم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى استدلال بالقميص ويكون ذلك خرق للعادة، ونوع معجزة[٣]. وكذلك الإمام الرازي رجح أنّه كان رجلًا لوجوه:

الأول: أن الله تعالى لو أنطق الطفل بذلك الكلام، لكان مجرد قوله: إنها كاذبة برهانا على كذبها، أما الاستدلال بما في قوله من المنطق من قدّ القميص من قبل ومن دبر، فلم يكن محتاجاً إليه.

الثاني: قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، فإنها سيقت لتقوية الشهادة، ولا يصار إلى هذه التقوية إلّا حيث كان الشاهد رجلاً، ولو كان صبياً في المهد لكان قوله حجة، ولم يبق لهذا القيد فائدة.

الثالث: أن لفظ الشاهد لا يقع إلّا لمن تقدمت له معرفة بالواقعة، وإحاطة بها، وذلك لا يكون إلّا من رجل. أما الحديث الّذي استدل به القائلون بأن الشاهد كان صبيّاً هو: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف،

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٧٢. قصتا آدم ويوسف، د. عبد الكريم الخطيب، ص ٨٤، ٨٥.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٥).
(٣) تفسير القرطبي، (٩/ ٤٩٦-٤٩٧).

وصاحب جريج، وعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[١]. وصححه الحاكم، وعند المحدثين إذا انفرد به الحاكم لا يوثّق، فإن من عادته أن يتساهل في التصحيح فيصحح الضعيف[٢]. ولقد ذهبت أكثر المفسرين إلى أنّه كان رجلًا من خاصة العزيز، وكان ابن عم لزوجته، وهذا هو الراجح[٣]. قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثمّ إن ظاهر القرآن في قصّة الشاهد أنه كان رجلاً لا صبياً في المهد، إذ لوكان طفلاً لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافيا وبرهانا قاطعا، لأنّه من المعجزات، ولما احتيج أن يقول: «من أهلها»، ولا أن يأتي بدليل حي على براءة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو قوله: (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من الدبر) الآية، وقد روى ابن جرير بإسناد رجاله ثقات عن ابن عباس أن الشاهد كان رجلا ذا لحية، وهذا هو الأرجح، والله أعلم[٤].

- ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]: وللمرّة الثانية يذكر قميص يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القصّة وهو في هذه المرّة غير القميص الّذي حمله إخوانه إلى أبيهم وجاؤوا عليه بدم كذب وقد قدّر تعالى أن يجعل في هذا القميص الدليل القاطع على براءته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصدقه، وأن يجيء ذلك على لسان شاهد من أهل امرأة العزيز الّذي قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] أي: من جهة صدره. ﴿فَصَدَقَتْ﴾ [يوسف: ٢٦] في ادّعائها. ﴿وَهُوَ

(١) أخرجه الحاكم،، كتاب التفسير « بسم الله الرحمن الرحيم قد بدأنا في هذا الكتاب بنزول القرآن، في ما روي في المسند من القراءات، وذكر الصحابة الذين جمعوا القرآن وحفظوه، هذا قبل تفسير. السور "، تفسير سورة التحريم بسم الله الرحمن الرحيم ،ح رقم ٣٨٣٥.

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد المغراوي، (١٦/ ١٢٧).

(٣) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، د. علي القره داغي، ص ٧٥.

(٤) السلسلة الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، (٢/ ٢٧٣).

﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]: لأن تمزيق القميص في هذه الحالة يدل على أنّه هو الطالب لها وأنها كانت تدفعه عنها[١].

٣. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧]:

أيّ: أن قميص يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إن كان قد من الخلف، فيوسف صادق وامرأة العزيز كاذبة. ونلحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأي قبل أن يشاهد القميص، بل وضع في كلماته الأساس الّذي سينظر به الامر وهو إطار دليل الإثبات[٢].

- ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ [يوسف: ٢٧] من جهة ظهره: ﴿فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧] لأنّه يدل على أنها كانت تطلبه وهو معرض عنها[٣].

ثمّ كان الحكم في الآية التالية على القضيّة:

٣. ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨]:

من معاني اسم الله: اللّطيف، الّذي ظهر جليّاً في سورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الّذي ينجي عبده بأخفى الأمور. من كان يظن أنّ قميصاً ممزقاً سينجّي يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من تهمة كبيرة؟ وأنّ انحراف مسير قافلة في الطريق سيكون السبب في خروج يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من البئر؟ وأن رؤيا مناميّة يراها الملك ستكون السبب في خروج يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من السجن، فسبحان اللطيف الخبير.

- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ [يوسف: ٢٨]: من أعظم الكرامات: قميص مشقوق، يستر الله به سمعة يوسف. إذا لبست التقوى أغناك الله بها عن كلّ لباس: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٢٦][٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٦).
(٢) تفسير الشعراوي، (٤/ ١٦٦).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٦).
(٤) يوسفيات، ص ٦٢-٦٣.

ولمّا تأكد زوجها من صدق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمانته وبراءته وعرف كذبها وخيانتها، ومع ذلك لم يفعل شيئًا سوى أن قال - على وجه العموم دون أن يوجه كلامه إليها-: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨]، والكيد: هو الاحتيال لإيقاع السوء بخفاء، ويقوم به من لا يملك القدرة على المواجهة - في الغالب - وكيد المرأة عظيم لأن ضعفها أعظم[١]. قال السيوطي: الكيد: إرادة متضمنة؛ لاستتار ما يراد عمن يراد به[٢]. وقال الجرجاني: الكيد إرادة مضرة الغير بخفية، وهو من الخلق: الحيلة السّيئة. ومن الله: التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق[٣].

وينقسم الكيد إلى محمود وهو ما قصد به الخير، ومذموم وهو ما قصد به الشر[٤]. وأكثر ما يستعمل ذلك في البشر، ومتى قصد به الشر فمذموم، ومتى قصد به خير فمحمود.

وعلى الوجه المحمود قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[يوسف: ٧٦][٥].

- ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨]: إن ما حدث هو من مكركنّ واحتيالكنّ وهو مكر واحتيال كبير، فالمرأة تملك من وسائل المكر والكيد

---

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٢٥).

(٢) معجم تقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ص ٢٠٧.

(٣) التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ص ٢٢٧.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م. ص ٢٥٥.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ٢٥٥.

بالرجل شيئًا كثيراً؛ ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النّساء"[١].

ولقد وصف العزيز أو الشاهد هذا الكيد بأنه عظيم. والضعيف يعوض ضعفه بحيلته وذكائه وكيده حتّى يغدو قويّا وقد ورد في القرآن الكريم أنّ كيد الشيطان ضعيف. قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

ومن هنا يردد على كثير من الألسنة أنّ كيد المرأة أعظم من كيد الشيطان، ظانين أنّ ذلك هو حكم القرآن وتقريره. وليس كذلك؛ فإنّ كيد الشيطان ضعيف نسبيّا، فكيد الشيطان إلى كيد الله وتدبيره وإلى قوة أولياء الله وجنده كيد ضعيف. وكيد المرأة هذه بالنسبة إلى شاب يافع بريء ليس متمرسًا بأساليب الختل والدوران فهذا كيد بالنسبة له عظيم. فكيد الشيطان ولا شكّ أعظم من كيد المرأة، كيف لا وهو الّذي خدعها وزوجها في أوّل الخليقة حتّى ذاقا الشجرة وبدت لهما سوآتهما. ثمّ إن كيده يجري من آدم مجرى الدم، ثمّ إنّه يستغرق البشرية، فأين ذلك من كيد المرأة؟

ولما تيقّن العزيز والشاهد كلّ اليقين من براءة يوسف مما حاولت ظلمًا أن تلصقه به تلك المرأة، صدر هذا الكلام من عزيز مصر، يرد الاعتبار ليوسف، ويطلب منه ستر الأمر وكتمانه وتجاوزه[٢].

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]: بعدما واجه العزيز من امرأته أعلمها بأن ما جرى هو من كيد النّساء، وأن يوسف بريء، التفت إليه وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩]: أي

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة ،ح رقم: ٤٨٠٨.
(٢) سورة يوسف، ص ٣٧٥.

عن هذا الحدث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع واجعله كأن لم يكن، ولا تهتم به ولا تلتفت إليه، وابق في البيت محترماً مكرماً، لم يدخل في قلبنا ريب منك فإنّك عندنا شريف أمين. لقد كان أخشى ما يخشاه العزيز أن يطلع النّاس على هذا الحدث بين يوسف وامرأته؛ ولذلك كان طلبه المباشر والصريح ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يستر هذا الأمر حتّى لا يعلم به أحد من قريب أو بعيد، ذلك أن أصحاب الجاه والسلطان يسيئهم أن يروا أهلهم على خطيئة ويسيئهم أشدّ الإساءة أن يعلم غيرهم أنّ أهلهم على خطيئة، ثمّ إنّ مثل هذه الأمور يجب فيها الستر والتحرز عن إشاعتها درءاً للمفاسد[١].

وذكر العزيز يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ باسمه ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾[يوسف: ٢٩] احتراماً وتقديراً وتكريماً له، ولم يذكر اسم زوجته غضباً منها وبغضاً لفعلها، وضيقاً من تصرفاتها المنحرفة.

- ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾[يوسف: ٢٩]: وهو في قوله هذا يقرّ بأنّ ذنباً قد وقع وهو لن يقر بذلك إلّا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً وهو موقف لا يسعه فيه إلّا أن يطلب منها أن تستغفر[٢]. وهذا القول من العزيز ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾[يوسف: ٢٩] بشير إلى أنّهم كانوا يؤمنون بالربّ أو الأرباب في زعمهم، كما كانوا يؤمنون بالبعث والحساب، كما هو مسجل على آثارهم إلى الآن[٣].

- ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٢٩]: وهذا التعبير في قول العزيز يدلّ على ما يأتي: كثرة التأكيدات في هذه الجملة، تدلّ على قناعة كاملة بأنّها

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٩٤.
(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٢٦).
(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٩٤.

من الخاطئين. وإضافة (كنتِ) يدل على الماضي والاستمرار إشارة إلى أن مثل هذه الجرائم لا تكون آنية بنت وقتها، بل هي متأصلة دبّرت من وقت سابق، وهذا تأكيد لإثبات الكيد لها ولمن عاونتها من نساء القصر. والمقصود بالخاطئين هنا: أي المذنبين من الخطيئة وليس من الخطأ بمعنى الغلط[١]. ولم يقل من: (الخاطئات) مع أنّ هذا هو مقتضى السّياق. قال بعض النحاة: إنّ ما فعلت في القصر لا يليق بحياء النّساء العاديّات، فكيف بالزوجات، بل لا يليق بالرجال المحترمين، وإنّما فعل الرجال العصاة، إذن حوّلتكِ شهوتكِ من جنس النّساء إلى جنس الرجال الفجَرة[٢]. ويستفاد من هذه الآيات جواز صحّة الاعتماد على القرائن الدّالة على الجريمة وأنّها من وسائل الإثبات، وهذا ما اعتمده جمهور الفقهاء[٣].

✧ شخصيّة العزيز:

من أهل التفسير من يرى أنّ عزيز مصر قد تصرّف مع امرأته بعد ثبوت إدانتها ومراودته ليوسف تصرّفاً بارداً لا يتناسب مع فعلتها الآثمة؛ حيث إنّه لم يؤخذها بأكثر من العِظة. وكان عليه أنْ ينزل بها العقاب الرادع، وأن يقوم بإبعاد يوسف عن القصر، ولكنّه لم يفعل هذا ولا ذاك، مما يدل على ضعفه ودناءته وقلة غيرته، حتّى إن بعضه قد وصفهم بـ (الديوث)، الّذي لا يغار على أهله ولا يخجل من ارتكابهم الفاحشة[٤]. وحين ننظر في الآيات الكريمة الّتي تتحدث عن العزيز نجدها تتحدث عنه كشخصية حكيمة وقورة، فالآية الواحدة والعشرين من السّورة تطلعنا على العزيز وهو يقول لامرأته بشأن يوسف ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ

---

(١) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ص ٧٧.

(٢) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٧٧.

أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[يوسف: ٢١]. يقول الدكتور حسن محمّد باجودة: يبدو لنا العزيز من هذه الآية رجلاً نبيلاً طيب القلب رحيماً بعيد النظر ألمعيّاً، فقد تبيّن في الغلام يوسف - بفراسته وألمعيته - أنّه من معدن متميز، ولهذا خصه دون سواه بهذا الاهتمام الفائق، وهو رجل متزن، لذا فهو يقدم فعل الرجاء: (عسى) بين يدي قوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[يوسف: ٢١]، إنّه يرجو أن يكون واقع هذا الغلام مستقبلاً موافقاً لفراسته فيه، وواضح أنّ الرجل منطقيّ في رجائه، ولا ننسى قول أهل التأويل في العزيز "إنه من أصدق النّاس فراسة"، كما مرّ معنا في تفسير الآية الكريم: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾[يوسف: ٢١]، وهنا نجد أنّ العزيز فوجئ بالحادثة المفجعة له بين زوجه ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولا شكّ أنّه اعتبرها نكبة من أفدح النكبات الّتي حلت به وبأسرته وبأسرة زوجه أيضاً، ومع هذا فلم تخرجه هذه الحادثة عن عقله واتّزانه وعدالته ليرتكب حماقة من الحماقات في حق يوسف وامرأته، بل صمت وصبر وتماسك، ثمّ استشار أحد الحكماء الفطناء من أهل المرأة واقتنع ورضي بحكمه، ورأيناه يتحرّى العدالة بكلّ دقّة، حتى إنّه جعل يوسف وامرأته أمامه سواء فلمّا تبيّن له صدق يوسف وبراءته أعلن ذلك وأمر يوسف بكتمان الأمر ونسيانه كأنّه لم يكن، ثمّ عزّر امرأته بما يليق بمكانتها وهي من أرباب البيوتات الكبيرة، فوبّخها وسمّى فعلتها الشنيعة كيداً ومكراً عظيماً، ثمّ زاد فواجهها بالحكم عليها أنها مذنبة ومخطئة وأنّ عليها أن تستغفر الله وتتوب إليه مما فعلت، ولو كان أمر العزيز كما اتهموه لما اهتمّ بموضوع المراودة، ولترك الحبل على الغارب (كما يقولون) وهذا من أقوى الأدلة على عدالته[١]. **وقد أبقى العزيز يوسف** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **في القصر مع وجود المرأة فيه لعدّة أسباب:**

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٩٨.

- ظهور كمال براءته عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ما كان يعتقد فيه دائماً.

- علمه أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ على درجة عالية من الكمال الخلقي فلا تؤثّر فيه دواعي المحرمات، ولا خوف منه أبداً على شرفه وعرضه.

- لا يوجد أفضل منه عَلَيْهِ السَّلَامُ يطمئنّ إليه بغيبته ويأتمنه على أهله.

- الستر على الفضيحة باستمرار بقائه عَلَيْهِ السَّلَامُ في القصر، إذ لو أخرجه منه لأدّى ذلك إلى تساؤلات النّاس عن السبب، وقد يصلون إلى معرفة ما وقع. وهذا أشدّ وأقسى ما يخافه العزيز وهو على ما هو عليه من مكانة عالية، وجاه عريض بين النّاس.

- ليس من السهل على العزيز أن يتخلص من يوسف بهذه البساطة، بعد أن ثبتت براءته، فبين يديه من الأعمال الهامة ما لديه، سواء بالنسبة للدولة، أو العزيز نفسه، يقوم بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بطريقة فريدة غاية في الحكمة والسّداد بتوفيق الله وإلهام منه إليه.

- كان على العزيز أن ينتظر الوقت الكافي حتّى تمرّ تلك الحادثة بسلام، أو تظلّ في الخفاء والكتمان ثمّ يقرر قراره بعد ذلك، في المكان الّذي يجب أنْ يكون فيه يوسف، بعيداً عن زوجه دون أن يبخسه حقّه أو يقلل من شأنه[١].

إلّا أن هناك من العلماء كان نقدهم لشخصية العزيز لاذع وشديد، منهم:

- د. صلاح الدين الخالدي رَحِمَهُ اللَّهُ: لكنّ العزيز المسؤول الأول في مصر، الّذي يمثل ما يسمونه بالطبقة الراقية الحاكمة، تفاعل مع الموضوع بأعصاب متجمدة ودم بارد فلا قيمة عنده للعرض والشرف ولهذا خاطب زوجه

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٠.

بعتاب بارد: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. هذه الجملة الباردة الصادرة عن إنسان بارد ديوث يتأكد من وجود الفاحشة في زوجته، فمنحها ما يشبه الوسام ويقدم لها الثناء، ويشهد لها بأنّها امرأة فاتنة ماكرة، تقدر على الإغواء والفتنة والكيد والتآمر(١).

- وقال الدكتور على محي الدين القره داغي: ولكن تصرف العزيز كان تصرفاً ضعيفاً نابعاً من قلّة الغيرة، وضعفه أمامها، ومن مجتمع الفسق والفجور ورفاهية القصور(٢).

- وقال الشيخ عبد الحميد محمود طهماز: وتعطينا الآيات صورة لما يحدث في المجتمعات الغنية المترفة المنحلّة البعيدة عن الإيمان بالله تعالى، فالانهماك في السرف والترف قد جمّد مشاعرهم البشرية، وأضعف الإحساس الفطري الطبيعي في غيرتهم على أعراضهم وشرفهم وهذا ما نشاهده في القصر الحاضر في المجتمعات المادية الغربية من تبلد في المشاعر، يصل في كثير من الحالات إلى حدّ الدياثة(٣).

ويقول الدكتور عبد السلام المجيدي: إنّ عزيز مصر يغلب على شخصيته الرّياء، وستر الظاهر، وفيه تتمثل كلّ خصائص بيئته المنتكسة الفطرة(٤).

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح بن عبد الفتاح الخالدي، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، (٢/ ١٢٧).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي القره داغي، ص ٧٦.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٧). الدياثة: فقد الغيرة والخجل. والديوث: من يرى الخبث في أهله وخاصته ويقرهم عليه.

(٤) يوسف في بيت العزيز، ص ٩٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وذلك أنّ زوجها كان قليل الغيرة أو عديمها وكان يحبّ امرأته ويطيعها؛ ولهذا لما اطّلع على مراودتها قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، فلم يعاقبها ولم يفرق بينها وبين يوسف حتّى لا تتمكن من مراودته، وأمر يوسف ألّا يذكر ما جرى لأحد محبّة منه لامرأته، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة[١].

وقال الدكتور أحمد نوفل: وقد يجمع إنسان في شخصية واحدة عقلاً واتّزانـًا وحبّـًا للنّاس ورحمة وإكرامـًا للآخرين، ولكن من الضّعف في الشخصية بحيث يعجز عن اتّخاذ الإجراء اللازم والعلاج الحاسم للمشكلات لعدم القدرة على المواجهة والتّحدّي، وهذا الّذي كان من العزيز[٢].

وقال الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا وبعد أن كان المشهد رباعيـًا: فيه يوسف، وامرأة العزيز، والعزيز نفسه، ثمّ الشاهد الّذي فحص القضية وحكم فيها، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع؛ وهو دائرة المجتمع الّذي وقعتْ فيه القضية. يدل على أن القصور لا أسرار لها؛ لأن لأسرار القصور عيونـًا تتعسس عليها، وألسنة تتكلم بها؛ حتّى لا يظن ظان أنّه يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها مهما بلغتْ قدرة صاحبها على التستُّر والكتمان. وقد تلصص البعض من خدم القصر؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النّسوة[٣].

(١) مجموع الفتاوى، (١٥/ ١١٩).
(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٢١٥.
(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٢٩٢٦).

رابعـًا: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٠ - ٣٢].

تفسير الآيات الكريمة:

١. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]:

وهو كلام أشبه ما تقوله النّسوة في كلّ بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون، ولأول مرّة نعرف أنّ المرأة هي امرأة العزيز وأن الرجل الّذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر، أي كبير وزرائها، ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة[1]. وأمّا كيف انتقل خبر حادثة السوء وشاع بين النّسوة؟ فهناك عدّة احتمالات:

- إما أن يكون عن طريق العاملين بالقصر من خدم وحشم وخاصة المتجسسين منهم.

- أو يكون انتقال الخبر عن طريق زوجة الشاهد، فلعله أخبرها بالأمر فأفشته.

- أو أنّ امرأة العزيز نفسها قد أرادت أن تنفّس عن نفسها فباحت بالسرّ إلى المقربات منها فأفشينه[2]. وكما يقال في مثل هذه المواقف: (الحيطان لها آذان)

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٨٣).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٢.

فلا يظن ظان أنّ ما يكتمه يخفى بعد أن يفلته لسانه أو تتحرك به أركانه. وأبلغ من ذلك ما ذكره بعضهم من قول عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا أنشد قول زهير:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مَنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فقال: أحسن زهير وصدق، ولو أنّ رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به النّاس[١]. وهكذا أخبار الفاحشة تنشّط النّفوس المريضة لإذاعتها بل اختلاقها، فلا عجب أن يأتي هذا التعقيب نتيجة متوقعة في واقع الّذين يحبون أن تشيع الفاحشة إذ لا وازع ديني ولا رادع شرعي[٢]. ومن المحال أن ينتقل الخبر عن طريق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن أدبه الرفيع وخلقه الحميد واصطفاءه الرباني لا يتصور معه ذلك[٣].

- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]: الظاهر أنّ هؤلاء النّسوة كنّ من نساء الأمراء أو الوزراء، فقرينة الحال تدلّ على أنّهم من بيوتات كبار الدولة، ومن معارف امرأة العزيز ومثيلاتها، لأن المنافسة والمراقبة إنّما تكون من المثيلات في القدر والمكانة، فمثلهن يصغى لقولهم ولا ريب أنها تتأثر ببلوغ الحادثة لهم ثمّ بانتقادهن.

وتُشعر كلمة (المدينة) أنَّ النّسوة كنّ مدنيّات من سيدات مصر، ويقمن في عاصمة المملكة الهكسوسية آنذاك (صوعى) أو (منفيس) وكنّ متفرقات في المدينة[٤].

---

(١) آيات للسائلين، ص ١٧٥.

(٢) آيات للسائلين، ص ١٧٥.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٣.

وكلمة (نسوة) وكلمة (نساء) تدل على الجماعة، لكن مفرد كلّ منهما ساقط في اللغة، فمفرد نسوة: امرأة. ومفرد نساء أيضـًا هو: امرأة. ومن العجيب أنّ المفرد، هو كلمة: (امـرأة) له مثنى هو: (امرأتان) لكن في صيغة الجمع لا توجد (امـراءات)، وتوجد كلمة (نسوة) اسم لجماعة الإناث. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]: لبيان شيوع القول بين أهل المدينة.

- ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[يوسف: ٣٠]: لم يذكرن اسمها ليرفعنها بذكر منصب زوجها قبل أن يهوِين بها، ثمّ صغّرن من شأنها فقلن: (فتاها) يوبخنها بصغره، وقلّة شأنه، فالفتى تُستعمل للدلالة على الخادم أو العبد. والفتى: هو الّذي بسنّ الشباب، ويكنى به عن المملوك وعن الخادم وقد شاع إطلاقه عرفـًا في المملوك. وهذه التّسمية، من قدماء المصريين بإطلاق لفظ (الفتى) على العبد أدبـًا ومما يلفت النظر حقّـًا أنّ ذلك هو ما أَمر به الإسلام فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي فتاتي»[(١)].

ومعنى: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[يوسف: ٣٠]: أي تطلبه للوصال، وإشارتهن بصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة، كأنها صارت سجية لها[(٢)]. فكأنهن قلن: أهكذا تَنزل السيّدة عن مقامها لتراود خادمها؟ أهذا مما يليق بالحرائر أن تراود سيدة خادمها عن نفسه؟ فضلاً عن أن تكون هذه السيدة امرأة العزيز، ذلك أمر منكر شنيع[(٣)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد، ح رقم: ٢٢٤٩. يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٨).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

- ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] أي: غلبها حبُّه حتّى شق شغاف قلبها وهو حجابه أو وسطه[١]. حتّى وصل إلى الفؤاد وذلك أشدّ أنواع الحبّ[٢]. ومرادهنّ، تأكيد لومها، وذلّها في حبّها له وهي امرأة العزيز، بينما هو فتى من فتيانها ومملوك من مماليكها، فلومهن غير متّجه إلى تقبيح الزّنى، فكأنّهن لا يريْن به شيئاً قبيحاً وإنّما لومهن متّجه إلى كونها لم تراعِ في اختيارها ما يناسبها في مكانتها الاجتماعيّة المرموقة[٣].

- ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [يوسف: ٣٠]: ثمّ انتقلن للمرحلة الثانية من الشّماتة، وهي بيت القصيد المراد لهن، فرفعن من أقدارهنّ وقلن: (إنّا) بالتعظيم (لنراها) فذكرن الرؤية ليُبيّنن أن علمهن ضروري متيّقن. واستعملن لام التوكيد ليفضين على كلامهن مزيد أهميّة. ثمّ ذكرن النتيجة التي تنبني على ما قدمنه من مقدّمات: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ [يوسف: ٣٠] والتنوين للتفخيم. وأردفن: ﴿مُّبِينٖ﴾ [يوسف: ٣٠] زيادة في التشنيع وإبعاداً لتهمة حسدها عنهن[٤].

٢. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١]:

تنصيص على سماعها لكلامهنّ، والتعبير بالفاء يدلّ على أنّ كلامهنّ نقل إليها بسرعة[٥]. وذكْر مادة السماع يشير إلى تناهي ذلك القول إلى أذنها، وأنّها

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٨).
(٢) دعوة الرسل، مصطفى العدوي، ص ١٩٨.
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٨).
(٤) آيات للسائلين، ص ١٧٦.
(٥) نظم الدرر، (١٠/ ١٦٩). جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.

باشرت سماعه، وذلك أوقع في التأثر به(١). وسمي الاغتياب مكراً لأنّه في خفية وحال غيبة يُخفي الماكر مكره، وقيل: استكتمتهنّ سرها فأشينه عليها(٢). وقيل: إنهن قلن ذلك لإغضابها لتريهن يوسف(٣).

- ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١]: وهذا يدلّ على اهتمامها بمقالتهن فقد خصتهن بالدعوة والتعبير بـ: (إليهن) دون (لهن) للإشعار بأنّ الرسالة وصلت إليهن حتّى بلغت الغاية كما تدل عليه: (إلى) وهذه هي أولى خطوات مكرها، فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي وكان هذا من النّساء غاية المكر(٤).

- ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١]: أي يسّرت لهن ما يتكئن عليه من النمارق والمخاد والوسائد وغير ذلك مما يكون في مجلس أُعدّ للكرامة(٥). ويبدو لي، أنّ التعبير بـ: (أعتدت) بدلاً من (أعدّت) التي هي بمعناها، للإشعار بحجم الاستعداد الّذي بذلته لهذه الوليمة لأنّ أمرها يعنيها عناية خاصة فالزيادة في اللفظ، اقتضت زيادة في المعنى، وسعة في المدلول(٦). والمتّكَأ هو الشيء الذي يستند إليه الإنسان حتّى لا يطول به فيملّ من كيفيّة جلسته. والمقصود بالقول هو أنّ الجلسة سيطول وقتها وقد خطّطت لتكشف وقعَ رؤية يوسف عليهنَّ(٧).

وعلى كلّ حال فكلمة: (متكأ) كلمة قرآنية تصوّر لك من الطّعام ذلك النوع الذي لا يقدم إلا ترفـًا وتفكها وتجميلاً للمجلس وتوقيراً لمظاهر المتعة فيه،

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.
(٢) الكافي، (٢/ ٤٩٣). جماليات النص القرآني، ص ٧٢.
(٣) روح المعاني، (١٢/ ٢٢٧).. جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.
(٤) بدائع التفسير، (٢/ ٤٧٢).
(٥) البحر المحيط، (٦/ ٢٦٧).
(٦) جماليات النظم القرآني، ص ٧٣.
(٧) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٣٤).

حتّى إنّ الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتّكاء. إنَّ كلمة (متكأ) تعني للوهلة الأولى تلك النمارق المعدة للجلوس، ولكنّها بعد التمحيص تتكشّف عن ترفّع محقّ لتصوير انبساطهن وكيفية الجلوس، والحديث الفكِه مع الراحة[١].لقد وضعت امرأة العزيز لكلّ واحدة منهنّ متكأ ليأخذنَ راحتهنّ ويجلسن كما يحلو لهنّ، حتّى تتمّ المفاجأة وكأنّها بغير تدبير، فيكون وقعها أعظم في النفوس وأكثر أثراً في القلوب[٢].

- ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١]: أمرت جواريها بإحضار الطّعام بين أيديهن والظاهر أنّه كان طعامها معيناً انتقته، لا يؤكل حتّى يُحمل في يد ويجزّ بالسكين باليد الأخرى جزاً، وأعطت هي بيدها كلّ واحدة من هؤلاء المدعوات سكيناً لتأكل بها، مبالغة في الاحترام، ويحتمل أنّها أمرت الجواري - جرياً على العادة -.

كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكين وهذا يدل على أنّ الحضارة الماديّة في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً وأنّ التّرف في القصور كان عظيماً، فإنّ استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة الماديّة، وإعطاء السّكين لكلّ واحدة من النّسوة تخطيط من جانب المرأة لتستعمله كلّ واحدة في قطع ما يعهد قطعه مما قدم إليهن من طعام.

وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن لإقامة الحجة عليهن، وتبكيتهن. وهذا هو الذي يظهر من النص، وإلا فقد كان يكفي قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٢.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢١١.

لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١] تعبيراً عن مجلس الطعام وما يشمل عليه من أطعمة وفاكهة وأشربة وما يلزم ذلك من سكّين ونحوه[1].

وأخذ النّسوة راحتهن على المتكأ الذي أعدته المضيفة، ووضع الطعام بين أيدهن، فأخذن يأكلن ويشربن ويمرحن ويحكين كعادة النّاس في مثل هذه الجلسات وفي اللحظة التي كان وضع النّسوة فيها هكذا، مشغولات بمعالجة قطْع ما قدم إليهنّ رأت امرأة العزيز أنّ اللحظة المناسبة التي أرادتها وخططت لها قد حانت، فقد كان نجاح خطتها متوقفاً على خروج يوسف على النّسوة في هذه الحالة، فهو أهم ما في الأمر، هنالك أطلقت المرأة سهمها الجمالي اليوسفي الخارق، لتصيب به النّسوة في مقتل، فكان أمرها ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[يوسف: ٣١]: هذا هو خطابها في هذا المقطع: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[يوسف: ٣١]كلمتان فحسب كان الأمر وقت انشغالهن بمعالجة السّكاكين وإعمالها فيما بين أيديهنّ. والتعبير بالفعل: (اخرج) يدلّ على سلطتها عليه فهو فعل أمر، وهذا النمط من الخطاب مختلف عن قولها له من قبل: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. والتعبير بالخروج دون الدخول كما هو متوقع: (ادخل) يقتضي أنّه كان في بيت آخر، وكان لا يدخل عليها إلا بإذنها[2]. وما كان يستطيع مخالفة أمرها، فإنه ما زال يعيش في قصرها[3].

- ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف: ٣١]: الفاء عاطفة على محذوف تقديره (فرأينه)[4]، وهي مشعرة بسرعة النتيجة بعد الفعل وتداخل الحدثين واندماجهما،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٢.

(٢) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٧٤).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٩).

(٤) تفسير أبي السّعود، (٤/ ٢٧٢). روح المعاني، (١٢/ ٢٢٩).

بينما توحي: (لمّا) بعدها بالتوقف والاندهاش والترقب، بما يتناسب مع دهشة الموقف وغرابته ومفاجأته[١].

لقد رأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، جمعَ بين الهيبة والجمال، والنّور والبهاء، والصّفاء الباطنيّ، والحسن الظاهريّ، جمال فائق وحُسن رائع.

- ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]: ولمّا أبهرهن جماله نسينَ أيدهن وسكاكينهن، وصارت السكاكين تتحرك في أيدهن حركة لا إرادية، حيث فقدن السيطرة على الأيدي والسكاكين، وانهمكن في النظر إلى جمال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فعملت السكاكين عملها في أيديهن، وحزتها وقطعتها، ونزفت الدماء لأنهن مخدرات الأعصاب والمشاعر، مشغولات بالجمال الباهر[٢].

يقول ابن عاشور: وأريد بالقطع: الجرح. أطلق عليه القطع مجازاً للمبالغة في شدته حتّى كأنه قطع قطعة من لحم اليد[٣].

- ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]: هذا أوّل خطابهن بعد خروج يوسف عليهن، والملحوظ في هذا الخطاب أنّه يحمل سمة الإعجاب والدهشة والتنزيه من أول كلمة: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا مختلف تماماً عن خطاب الكيد السابق الذي يبرز شدة مكرهن ويوضّحه. وإسناد القول لهن جميعاً: (قلن) دون بعضهن لبيان أنّ التأثير كان عاماً والاندهاش كان جماعياً. فكأنّهن قلن بلسان واحد: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وكأنّه مكنون القلوب لا حديث

---

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٧.

(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقصته العجيبة، ص ٢١٣.

(٣) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٧٤).

اللسان، وهذا يحدث عندما ينفعل النّاس بحديث معيّن يؤثّر فيهم جميعـًا، فتجدهم ربما ينطقون جميعـًا بكلمة واحدة من غير ترتيب سابق بينهن(١).

بدأ النّسوة بكلمة التنزيه: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١]، على اعتبار أنّ الله هو الذي خلق هذا الفتى الجميل، وهو قادر على خلقه بهذا الجمال، حكيم في منْحه هذا الجمال الساحر الباهر الفتّان(٢).

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١]: أي يتنزّه الله خالق هـذا الجمال ومبدعه، فمن قدر على خلق هذا الجمال يتنزّه عن كلّ صفات النقصان ويتصف بكلّ صفات الكمال(٣).

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]: لأنّه فاق البشر بالحسن والجمال، وفاقهم أيضـًا بصفته وأمانته، مع أنّه في غاية شبابه ورجولته.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]: في جماله وأخلاقه. وتنزيه النّسوة الكافرات لله في قولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وتشبيههن يوسف بالملائكة بقولهم: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، دليل على أنّهن كنَّ يعرفن الله، ويعرفن الملائكة ويعرفن جمال الملائكة، رغم كفرهن، وأنّهن عرفن ذلك إمّا بالفطرة، وإما بما وصل إليهنّ من مسائل الإيمان عن طريق رسالة الأنبياء المقيمين في مصر أو المترددين عليها(٤).

---

(١) جماليات النظم القرآني، ص ٧٩.
(٢) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ١٣٣).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٦٩).
(٤) القصص القرآني، (٢/ ١٣٣).

فهنّ في خطابهن هذا يقررن بوجود الله خالق المكونات وبوجود عالم الملائكة، فما من أمّة إلّا أرسل الله تعالى إليها رسولاً كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

والمصريّون من أقدم الأمم حضارة ومدنيّة، ولا بدّ أنّ الله تعالى أرسل إليهم رسلاً وكان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واحداً منهم. وقد يشبّهن النّسوة يوسف بالملائكة في الجمال، لأن الملائكة هي مضرب الأمثال في الجمال، فإذا أريد تشبيه إنسان بآخر في جماله شبهوه بالملائكة[١].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثمّ لما نفين عنه البشريّة لهذه العلة أثبتن له الملكيّة وإن كن لا يعرفن الملائكة لكنّه قد تقرر في الطباع أنّهم على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات، وأنهم فائقون في كلّ شيء، كما تقرر أنّ الشّياطين على العكس من ذلك[٢].

ومن المعلوم أنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان باهر الجمال، وأنّ الله قد خصه من الجمال ما لم يهبه لأحد من قبل. عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «...... فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ "[٣]. ولمّا رأت امرأة العزيز أنّ موقف النّسوة تغير وتبدل بعد رؤية يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وشاهدت الانبهار والاندهاش وظهور الصدمة على وجوههن، قالت:

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٣٣).

(٢) فتح القدير، (٣/ ١٣٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماوات وفرض الصلوات ،ح رقم: ١٦٢.

٣. ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]:

ورأت المرأة أنّها انتصرت على نساء طبقتها وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول فقالت قولة المرأة المنتصرة التي لا تستحي أمام النّساء من بنات جنسها وطبقتها والتي تفتخر عليهن بأنّ هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصى قياده مرة، فهي تملك هذا القياد مرة أخرى.

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]: قالت وهي تشير إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بإشارة التفخيم. ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ [يوسف: ٣٢] تعريف بالإشارة، ويلجأ للتعريف به لبيان حالة المعرف به في القرب أو البعد أو التوسط، وقد يراد من ذلك التحقير أو التعظيم أو غير ذلك[١]. وهي هنا اختارت تعريفه بالإشارة وذلك ربّما يكون لتمييزه أكمل تمييز؛ لأنّ الحديث ما زال حوله[٢].

قال الطاهر بن عاشور: والإشارة بذلك لتمييز يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ كن لم يرينه قبل[٣]. ثمّ إن اسم الإشارة هذا قد يتضمن الأوصاف السّابقة فيه، كأنّه قيل: الذي قطعتن أيديكن بسببه، وأكبرتنّه، وقلتن فيه ما قلتن من نفي البشريّة عنه وإثبات الملكيّة له، هو الذي لمتنني فيه[٤]. وهذا من الاختزال حيث يحمل اسم الإشارة كلّ هذه المعاني دون الحاجة إلى إعادتها مع فضيلة الاختصار[٥].

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، دار الجيل، الطبعة الثالثة، ١٤٣١هـ، (١/ ١١٨).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٨٥.

(٣) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٧٥).

(٤) البحر المحيط، (٦/ ٢٧٢).

(٥) جماليات النظم القرآني، ص ٨٦.

وهناك من العلماء من قال: اسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف. أي: فهو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن وقلتن فيه وفيّ ما قلتن، فليس المقصود طلب إعذارها كما يرى الزمخشري[١]، بل المراد لومهنّ وتبكيتهنّ وتنديمهنّ وغير ذلك[٢]. ولعلّ هذا النّظم يشمل المعنيين جميعـاً وهو من الإعجاز اللائق بالقرآن العظيم، فالإشارة منهنّ تصلح للأمرين جميعـاً؛ الحاضر والغائب. وإنّما قيل ذلك، لأنّه يحتمل أنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا رأى دهشتهن وما أصابهن من التقطيع، ترك المجلس، وابتعد عنهنّ، فأشارت إليه بما يناسب ذلك[٣].

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]: أي في حبه وعشقه ثمّ اعترفت لهنّ بكل صراحة ووقاحة عن شغفها وعن غريزتها وعن حاجتها إليه أمام نسوة علية القوم[٤].

- ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]: تأمل الصراحة الشديدة والاعتراف الصارخ بأهواء هذه النفس[٥].

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولما علمت أنهن عذرنها قالت مؤكدة استلذاذاً بالتهتك في حبّه ﴿وَلَقَدْ﴾ [يوسف: ٣٢]؛ أي أقول هذا والحال أني والله لقد تحققت أني ﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٢] وهكذا جمعت ألوان التوكيد لتُشعر السامعات بأنّها بتأكيدها ذلك لا تخشاهن ولا تخشاه هو، لتبعث في قلبه وقلوبهن الرعب[٦].

(١) الكشاف، (٢/ ٤٦٧).
(٢) جماليات النظم القرآني، ص ٨٦.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٨٧.
(٤) تفسير النابلسي، (٦/ ١٧٩).
(٥) من حديث يوسف وموسى، ص ٩٦.
(٦) جماليات النظم القرآني، ص ٨٩.

من هذا المقطع نجد خطاب القوّة ولغة الفوقيّة والتهتّك الّذي يعكس حياة تلك الطبقة المترفة وواضح أنّها لا تخشى لومهنّ، أو لعلّ هذا النوع جار في خطابهنّ فهي لا تستحي منه، بل تفخر به وتستعلي به عليهن، والقسم يشير إلى ذلك[١].

قال الألوسي: وتأكيد الجملة بالقسم مع أنّ مضمونها من مراودتها له عن نفسه مما تحدّث به النّسوة لإظهار ابتهاجها بذلك[٢].

- ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾[يوسف: ٣٢]: هذا وصف معبّر من امرأة العزيز لحال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند المراودة ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾[يوسف: ٣٢] يقول الزمخشري: الاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنّه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها. ونحوه: استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي، واستفحل الخطب. وهذا بيان لما كان من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنّه بريء[٣].

استمسك يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بحبل الله وامتنع عن الخنا ولازم تقوى الله[٤]. ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾[يوسف: ٣٢]: إنها برهان العظمة، ودليل القوّة، وكان أقوى من كلّ شيء، أقوى من الشهوة العارمة، ولم يعبأ بكلّ مظاهر الأبّهة والسلطان والترف[٥]. وبعد أن تراجعن عن لومها وعذلها، لم تجد غضاضة أن تصارحهنّ بأنّها ما زالت عاشقة له، مشغوفة به، مصمّمة على أن تنال مرادها منه، ولو بالتهديد والوعيد فقالت[٦]:

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٨٩.

(٢) روح المعاني، (١٢/ ٤٦٧).

(٣) الكشاف، (٢/ ٢٣٣).

(٤) جماليات النظم القرآني، ص ٨٩.

(٥) قصص القرآن الكريم، ص ٣٩٧.

(٦) قصص القرآن الكريم، ص ٣٩٧.

- ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهنا كشفت القناع على أنها صاحبة الأمر، وأنّ أمر السجن والتعذيب في يدها وتحت سلطانها، فأقسمت للنسوة إن لم يفعل ما تريده منه، لا بدّ أن يسجن، أو ليكون من الصاغرين. وتحوّل الأمر إلى إكراه بالسجن أو تصغير أمره وشأنه في القصر(١). ويدلّ قولها هذا على أن الفضيحة لم تؤثر في مكانتها ولم تضعف سلطانها وتسلطها، فالمجتمعات التي استشرى فيهن الفساد والاستبداد لا تؤثّر فيها الفضائح بسبب إدمانها عليها وكثرتها فيها، فلا زالت امرأة العزيز تستطيع سجن نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتعريضه لصنوف من الأذى والعذاب(٢).

عرف تاريخ البشريّة وواقعها المعاصر كثيراً من أمثال هذا المجتمع المنحل الهابط، الذي يتحكم بمصير أبنائه من الرجال الضعفاء، المنحلون الّذين سيطرت عليهم شهواتهم ونزواتهم، فأسلموا أمورهم إلى نسائهم وخليلاتهم، حتّى أصبحن الحاكمات الحقيقيّات لهذه المجتمعات، وأصبحت أكبر الشؤون وأخطرها تدار من مخادعهن وأماكن لهوهن وفجورهن، وهذا ما يفسّر لنا بقاء يوسف في قصرها رغم الفضيحة التي حدثت(٣).

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: إنّ المترفين من أهل الفسق، حتّى شهواتهم ينجزونها بالأوامر(٤).

﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: يعتقد الظالم أن السجن يقلل من قدر المظلوم، والله يثبت له عكس ذلك ولكن دون جدوى(٥). وظنّت امرأة العزيز

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٠).
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧١).
(٣) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٧١).
(٤) يوسفيّات، ص ٦٩.
(٥) يوسفيّات، ص ٦٩.

أنّ الثوابت تزعزعها كلمات، كما بيّن موقفها أنّ التهديد بضاعة المتسلطين[١]. وضحّت بيوسف لأنها تريد الشهوة وإشباع غرائزها وهواها[٢].

- ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: جاءت نون التوكيد المثقّلة في: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ [يوسف: ٣٢]، لكن في الحكم عليه بالصغار جاء التنوين بالنون المخفّفة ﴿وَلَيَكُونًا﴾ [يوسف: ٣٢]، ولم تقل ليكونن، والسر - والله أعلم -: أنها تستطيع أن تدخله السجن فلذلك أتت بنون التوكيد المثقّلة لكنها لا تملك مطلقاً أن تجعله ذليلاً أو صاغراً، فلذلك - والله أعلم - جاءت مخففة في: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] فعلا: إنّه لا يذلّ من واليت[٣].

قال الدكتور أحمد نوفل: وغاب عنها أشياء كثيرة وقيم أساسية مهمة: إنّ الصغار والذلّ كلّه في المعصية.

وإنّ العزّة كلّها والحريّة بتمامها في تمام العبودية له سبحانه ولو كان صاحب هذه العبودية ملقى به في قعر سحيق، أو سجن بعيد.

والآية فيها قسمان: (ولقد)، (ولئن)، واجتماعهما في قول امرأة العزيز ينبئ عن تصميمها على ما هي ماضية فيه من نيّة فاسدة ومكر سيّئ[٤]. ولم تستطع هذه المرأة بكلّ سلطانها وجمالها وأنوثتها أن تنتصر على نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي لا يزال يعيش قريباً منها في قصرها وتحت أمرها وسلطانها وانضم إليها جميع من تعرف من المترفات، يعرضن معها كلّ ما يملكن من أسباب الفتنة

(١) أيها الصديق، ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨١.

(٣) المصدر السابق، ص ٨١.

(٤) سورة يوسف دارسة تحليلية، أحمد نوفل، ص ٣٨٢.

والإغراء وأسباب الوعيد والتهديد[١]. فقد التجأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ربّه ومعاذه وملجئه يدعوه متضرعـًا إليه، وهو واقف بينهنّ وهنّ يراودنه عن نفسه، بالقول والحركات واللفتات ويتبارين في عرض فتنتهنّ وجمالهنّ عليه[٢]. وإذا هو يستنجد ربّه أن يصرف عنه محاولاتهنّ لإيقاعه في حبائلهن، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدّائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه ويدعو الله أن ينقذه منه[٣].

خامسـًا: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٥].

أصبح أمام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ طريقان لا ثالث لهما إمّا أن يتجاوب مع رغبات امرأة العزيز، ويستجيب لها، ويقبل إغراءها وإغواءها ويعاشرها ويستمتع بها، وعندها تُفتح له أبواب الدنيا ومتعها وملذّاتها وخيراتها، فيعيش مرّفها منعّمـًا، لأنّها امرأة المسؤول الأول في البلاد، وهي قادرة على تقديم كلّ الخيرات له. وإمّا أن يصرّ على ترفعه، واستعصامه، ويثبت على موقفه ويترفع عن معاشرتها ويحافظ على عفّته وطهارته، وعندها سيدفع الثمن غاليـًا، حيث سيفقد كلّ المزايا والمنافع، وسيحلّ به البلاء والعذاب والذلّ والصغار والهوان، حيث ستأمر بسجنه، وهي قادرة على ذلك وعلى تلفيق أيّة تهمة له. ويبدو هذان الخياران في قول امرأة العزيز للنّساء على مسمع من يوسف: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. ولحظ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ انبهار النّسوة وإعجابهن وفتنتهن به، ورأى انحيازهن إلى جانب امرأة العزيز وإقرارهن على عشقها له،

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧١).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧١).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٨٥).

وموافقتهن على تصميمها على معاشرته، وإلا فالعقاب والسجن والعذاب، ووجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المرّة نفسه أمام مؤامرة كبيرة ليست من امرأة العزيز وحده، بل من نساء المسؤولين الحاكمين في مصر، فكلهن شاركن امرأة العزيز في العشق والافتتان والإغراء والمراودة، وكلهنّ يدعونه إلى المعاشرة وارتكاب الفاحشة، وكلهنّ يهدّدنه بالعقاب والسجن إن رفض دعوتهنّ. فماذا يفعل يوسف؟ وأيّ السبيلين يختار؟ سبيل الشهوات والفواحش والملذات والمتع، أو سبيل العفّة والطهارة فالسجن والعقاب؟ إنّه لن يختار إلا السبيل الثاني وهذا من أسرار عظمته ولهذا دعا ربه قائلاً[(١)]:

١. ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]:

- ﴿ قَالَ رَبِّ﴾ [يوسف: ٣٣]: قوله (ربّ) بحذف حرف النداء (يا) يدلّ ذلك على مزيد قربه من ربه في هذا الموقف الأصعب والأحرج[(٢)]. ومعلوم ما في معاني الربوبية المشتملة عليها كلمة: (ربّ)، من معاني الحماية والعناية والتربية والرحمة[(٣)]. ودعوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: (ربّ)، أراد بذلك اعترافًا بفضله سبحانه؛ لأنّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رباه وتعهده، وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألّا يتركه عنه في هذا الموقف[(٤)].

- ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]: وبدأ بكلمة السجن الذي هددته به لأنّه هو الحاضر في نفسه في هذا الموقف وأنّه أحبّ إليه مما يدعونه إليه، ثمّ قال:

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٣٦).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ٩٨.

(٣) جماليات النظم القرآني، ص ١٠١.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٤٤).

(أحبّ) ولم يقل أهون، ولا أسهل، وإنّما كان فرط بغضه لما تدعوه إليه هو الذي جعل السجن أحبّ إليه، واسم التفضيل في قوله: (أحبّ) على غير بابه، لأنّ المعنى ليس أنّه يحبّ هذا وذاك، ولكن السجن أحبّ. وإنّما المعنى أن الحبّ كلّ الحبّ والحالة هذه للسجن[١].

- ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[يوسف: ٣٣]: بعدما عفّ بدنه بالتّمتّع، لم يقل: ربّ السجن أحبّ إليّ من الزنا، ولكن قال: ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[يوسف: ٣٣]، فعفّ لسانه أيضاً. ولا غرابة من عفّة هذا الطاهر، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الخليل[٢]، لم يجب يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى المنكر الذي دعوه إليه لأنّه عفّ قلبه فعف لسانه[٣]. يقول الدكتور فضل حسن عباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[يوسف: ٣٣]: وكان يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أدرك أنه لن يقف عند امرأة العزيز وحدها، لذلك قال هنا: ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[يوسف: ٣٣]، ولم يقل: (مما تدعوني إليه). و(يدعونني) فعل مضارع لجماعة النّسوة فهو فعل لمضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النّسوة ونون النّسوة فاعل، فيوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أدرك أنّ الدعوة ليست من امرأة العزيز نفسها، بل من النّساء كلهن يشهد لهذا، وهو ما ذكره القرآن الكريم فيما بعد: ﴿خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[يوسف: ٥١].

إنّ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ دعا ربه أن يصرف عنه كيدهن، ولم يسأل الله أن يسجن، وكأنه يقول: إنّ السجن أحبّ إليّ من دعوتهن حينما أرغم على شيء ولا أوده. وأما إذا ترك الأمر لاختياري فأنا لن ألبّي لهن دعوة أبداً[٤].

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٩٨.

(٢) أيها الصديق، ص٨٣.

(٣) يوسفيات، ص٦٩.

(٤) قصص القرآن الكريم، ص٣٩٩.

اختار يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخفّ الضررين، وأهون الشرين، فالسجن فيه إضرار ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرار بدينه وخلقه، وهو أشدّ ضرراً وأعظم من الأول. ورسم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سلوكه هذا، القاعدةَ الشرعيّة الفقهية: (يُختار أهون الشرّين، وأخف الضررين).

والسجن بلاء لا ينبغي لأحد أن يتمناه، ولكنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آثر ما يدعونه إليه فهو معنى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ثم تواضع لله عَزَّوَجَلَّ، وأظهر افتقاره لمعونته سبحانه، فجرّد نفسه عن كل حول وقوة، فلا حول له إلا بالله تعالى ولا ثبات له في محنته إلا بتثبيته سبحانه فأقبل إلى الله يناجيه بضراعة وخشوع[1]:

قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]:

يدعو يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربّه قائلاً: يا رب لا يهمني من هذه الفتنة إلا أنت ولا ينجيني من كيد هؤلاء النّسوة إلا أنت، فإنك إن لم تتداركني بحفظك وإن لم تصرف عني كيدهن وإغراءهن وفتنتهن فإني لن أثبت وسوف أصبو إليهن وأميل إلى فتنتهن وأستجيب لدعوتهن؛ وبذلك أقع في الفاحشة، ويصيبني الرجس، وإن فعلت ذلك سأكون من الجاهلين المنحرفين الساقطين[2].

وفي الآية الكريمة: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، تبرأ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من حوله وقوته. وأخبر أن ذلك ليس إلا

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٢).

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٣٧).

بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه[١]، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته؛ ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان[٢].
وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣] عبرتان:

- إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

- الثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلّا فإذا لم يثبت القلب صبا إلى الذنوب والخطايا، وصار من الجاهلين. ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة[٣].

وقال أيضـًا: ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمـًا وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنـًا و ثبوراً، فيوسف خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات، ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز لنال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، فاختار يوسف الذل والحبس وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة، على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة والمعصية، بل قدم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م، ص٣٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣١.

(٣) مجموع الفتاوى، (١٥/ ١٣٠).

الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه، فزعمت انه راودها ثم حبسته بعد ذلك[1].

- وفي قوله ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ أي: أميل بسبب ضعفي وطبعي إليهن[2]. ويجب أن يكون إيمانك كالجبال في أن الذي يصرف عنك الفتن ويحميك من الوقوع في حمأتها هو الله وحده ليس العلم الذي في قلبك ولا الذكاء الذي في عقلك. وفي الآية: أنه لا تعتدّ بطاعتك ولا بنزاهتك عن المعصية فوالله لولا الله لكنت مثل غيرك في مقارفة الذنوب فاحمده وادع لغيرك[3].

لقد استقبل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الالقاء في البئر بالصبر، واستقبل العبودية بالصبر، واستقبل السجن بالصبر، ولكنه شكا بهذه الدعوة الحارة عندما تعرض لفتنة النّساء[4].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]: الذين لا يعملون بما يعلمون، أو من السفاء الطائشين. فلا يغترّ إنسان بنفسه ويُعرض عن ربه، فلا يمتنع أحد عن معصية الله تعالى إلا بعونه ومدده. ودلّ دعاؤه عَلَيْهِ السَّلَامُ على أن الزنى لا يحلّ بالإكراه مهما كان شديداً، ولو هدد رجل بالسجن على الزنا ما جاز له إجماعـاً[5]. وقد قال الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الجهل بالله تعالى وبأسمائه وصفاته ووعده ووعيده وشرعه هو سبب كل الجرائم في الأرض[6].

(١) مجموع الفتاوى، (١٥/ ١٣٤،١٣٠).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٢).

(٣) يوسفيات، ص٧٠.

(٤) أيها الصديق، ص٨٤.

(٥) تفسير القرطبي، (٩/ ١٨٧).

(٦) أيسر التفاسير (٢/ ٦١٠).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ انتفع بعلمه وكمال عقله، وحكمته فعرف أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فحصل له الإيمان الكامل والتوكل العظيم واليقين المطلق بالله عَزَّوَجَلَّ، فنزلت عليه السكينة والطمأنينة فأوجبت له الثبات في مواقفه ومراحل حياته فكان بالله وحياته لله وفي سبيل الله. وفي هذا الموقف نرصد شدة تضرعه وانكساره واستجابة الله السريعة له قال تعالى:

٢- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]:

أُجيبت استغاثة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سريعـًا، وعبّر عن الاسراع بنجدته بالفاء الدّالة على التعقيب وهذا هو قانون الله تعالى وسنته في أصفيائه؛ أن يسارع في إجابة مطلبهم لأنهم يسارعون في عبادته وطاعته وفعل الخيرات والإحسان. ولا يفهم من السياق القرآني أنّ الاستجابة كانت بإدخال يوسف السجن. ولكن الاستجابة كانت لصرف سوء وكيد ومحاولات الاستمالة؛ ولذلك فإنّ النص الكريم فصل بين هذه الآية وتاليتها ب (ثم) المفيدة للتراخي لا من الزمن فقط وإنما التراخي المهم لسلامة فهمنا للنصوص حتى لا نقع في الخلط[1].

وفي ذكر الاستجابة وكون المجيب هو الرب سبحانه، ما يدل على عناية الله بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحفظه، وذلك من دلالة (الفاء): (فاستجاب) المشعرة بالترتيب والتعقيب، ودخول السين لأن استجاب: مبالغة في أجاب[2]. ومجيئ اللام: (له) المشعرة بالاختصاص، وذكر الربوبية الدالة على الاحتياط والحماية والنفع، مع ما في إضافة (رب) إلى ضميره الهاء من التشريف كما يؤيد ذلك تكرير الفاء مع مطلب يوسف نصـًا وهو الصرف (فصرف) وورود الفعلين: (استجاب

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦١٠).
(٢) جماليات النظم القرآني، ص١٠٤.

وصرف) بصيغةٍ من تأكيد وقوعهما ما لا يخفى حتى لكأنهما وقعا ومضيا، رغم قرب زمن الطلب. ويتناسب مع طلبه وقوع الإجابة كما طلب: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾[يوسف: ٣٤]، وفي هذا من تحقيق مطلبه كما أراد ما لا يخفى[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]: من الفواصل القرآنية التي تُعدّ معانيها ولا تُحدّ، وإن كان القرآن كله كذلك، وراجع التوكيد ب (إن) ثم توكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، ثم تعريف السميع بالألف واللام، وكذلك تعريف العليم، ثم تقديم السميع على العليم، والمقام مقام ألسنة تتحدث ولا شك أن هذه الفاصلة تتجاوز الكلام الذي سبق إلى ما تدل عليه هاتان الكلمتان الجليلتان وأنّه سبحانه عليم بعلم كل ما كان، وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون ويعلم مالم يكن لوكان كيف كان يكون[٢].

- اسم الله (السميع):

قال السعدي- رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: ومن أسمائه الحسنى السميع الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. فالسر عنده علانية والبعيد عنده قريب[٣]. وسمعه نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية وإحاطته بها.

(١) جماليات النظم القرآني، ص١٠٤

(٢) من وحي يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٠٢.

(٣) وضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص١١٨.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهن ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقول المصلي: سمع الله لمن حمده؛ أي: استجاب[١].

واعلم أن اسم الله (السميع) لم يقترن في القرآن الكريم إلا باسمه تعالى: (العليم)، و (البصير)، و(القريب). وقد تقدم عليها جميعـًا وهذا لا يعني التغاير أو التفاضل في أسماء الله وصفاته بأن يكون اسم أولى من اسم أو صفة أولى من صفة، بل هو من أجل المعاني التي تختلف بسياق الكلام فقط، فصفات الله سبحانه قائمة بذاته دون ترتيب وأولويات لأنّه سبحانه هو (المتين)، الذي ليس في كمالات أسمائه وصفاته من تفاوت، إذن هو (سميع عليم) في آن واحد فلا يسبق معه علمه ولا يسبق علمه سمعه. و تقدم السميع على القريب لنفي التشابه بين صفات الله تعالى وصفات المخلوق، فإن القريب هو الذي يسمع عادة أكثر من البعيد لكن الله تعالى قدم السميع على القريب ليُعلم أن سمع الله وقربه واحد سبحانه أو أن سمعه لم يتحقق بسبب قربه، وفي جملة الآيات التي اقترن اسم الله (السميع) بدعاء أو مناجاة أو تهديد أو طاعة للمؤمن أو معاملة من المعاملات بين الناس كالطلاق مثلاً، أو حديث الله عن الكون وآياته في الآفاق أو ابتلائه للمؤمنين أو غير ذلك أقول مجيئ هذا الاسم العظيم عند هذه الأحداث كلها يعني حضور الله عند كل شيء ووجوده بسمعه عند كل حدث، بل هو بصير أيضـًا؛ لا بل هو عليم وخبير بما هو مخفيّ فلا يشغله صوت عن صوت فهو في الوقت الذي يسمع كفر الكافرين وشركهم، يستجيب دعاء الصالحين، والذي

(١) الحق الواضح المبين، السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص٣٥.

يسمع حديث الزوجين، يسمع في الوقت نفسه دبيب النمل في ليلة ظلماء على صخرة صمّاء[١].

وقد اقترن اسمه سبحانه (السميع) باسمه العليم، وجاء هذا الاقتران في القرآن الكريم (٣٢) مرة.

والسميع: المدرك لكل مسموع. فهو اسم ينبئ عن كمال السمع بلا تكييف ولا تشبيه[٢] وفي هذه الآية الكريمة: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]، ورد اقتران هذين الاسمين الكريمين فيها[٣] وهذا الاقتران يمنحها مزيد كمالٍ، فإذا كانت صفة (السميع) تنبئ بإحاطة السمع بكل المسموعات فلا يندر عنه عَزَّوَجَلَّ شيء ولا تعزب عنه كبيرة ولا صغيرة فإن صفة (العلم) تنبئ بتجاوز (السمع).

والملاحظ أن اسم (السميع) حيثما ورد مع اسم (العليم) قدّم عليه فالنسق دائمـًا: السميع العليم، ولا عكس. فلا بد أن يكون من وراء ذلك حكم ذكر منها: أن السمع يتعلق بالأصوات، ومن سمع صوتك فهذا أقرب إليك في العادة ممن يقال لك أنه يعلم مهما بلغت درجة علمه- فذكر السميع أوقع في النفس. وفي مقام الدعاء أثره في انطلاق اللسان بالدعاء فالطلب والشكوى تكون أقوى حين يستشعر الداعي أنه يخاطب من يسمعه ويصغي إلى نجواه[٤].

---

(١) اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمة، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، (١/ ٢٦٨،٢٦٧).

(٢) ولله الأسماء الحسنى، ص٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٥٠.

- اسم الله (العليم):

هو العليم - من غير تعلم - بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون جميع خلقه[١]. وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان وبالواجبات والمستحيلات والممكنات. وبالعالم العلوي والعالم السفلي وبالماضي والحاضر والمستقبل فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٢]. ولقد تعلق يوسف بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه الحسنى وكان على يقين بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سميع لدعاء الملتجئين إليه وعليم بأحوالهم[٣].

إن تعلق العبد بهذا الاسم (العليم) من كمال نعمة الإيمان فقد علمنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن ندعو باسمه العليم، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب"[٤].

وأما عن تخلق العبد به، فهو أن يحرص العبد على أن لا يراه الله حيث لا يريد، ويراقب نفسه في السّر والعلن ماذا يقول وماذا يفعل، ومن جهة أخرى يحرص على العلم الذي ينفع دينه[٥].

---

(١) تفسير الطبري، (١/ ١٧٥)
(٢) ولله الأسماء الحسنى، ص٣٣٣.
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٣)
(٤) رواه البخاري، أبواب التطوع ، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى ،ح رقم ١١٠٩.
(٥) اللوامع البهية في شرح أسما الله الحسنى، (١/ ٢١٤)

هذا وقد نفذت امرأة العزيز تهديدها ووعيدها بعد أن يئست من نيل مرادها ودخل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **السجن:**

٣- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يوسف: ٣٥]:

وتبين هذه الآية أن القوم الظالمين أدخلوا يوسف السجن مظلومـًا. لقد رأى القوم الآيات والأدلة والبراهين على إدانة امرأة العزيز وبراءة يوسف وكان ذلك بالأدلة التالية:

- شهادة الشاهد من أهلها.
- ونتيجة تحقيق زوجها.
- مكان شق القميص.
- واعتراف المرأة أمام النّسوة بصراحة.

وكان حديث امرأة العزيز مع فتاها قد ملأ المدينة وتناقلته ألسنة رجالها ونسائها، وانتشرت فضيحة العزيز مسؤول مصر، ولا بد من إنهاء الموضوع ومعالجة القصة، ولكن على أساس حفظ سمعة بيت العزيز وامرأته، فلا بد من تقديم ضحية، وتحميلها المسؤولية، ولو كانت هذه الضحية ليست مجرمة.

كانت الضحية فتى المرأة؛ لأنّه عبد رقيق، ليست له قوة مادية تحميه، ولا طائفة تتبناه، كما أنّ سجنه لا يؤثر في أوساط الطبقة الحاكمة. إنه بريء وقد ثبت للقوم براءته، لكن هذا لا يهم، فمنذ متى كانت قوانين وأعراف وتشريعات الجاهلية حريصة على العدل؟ وعلى معاقبة المذنب وتبرئة البريء؟ المهم عند تشريعات الجاهلية - في القديم والحديث - حماية (الملأ) المتحكمين. المسألة في قصة يوسف مع امرأة العزيز هكذا: يثبت بالأدلة القاطعة أن امرأة

العزيز هي التي راودته عن نفسه وقامت بإغرائه وفتنته وهي التي اعتدت عليه، وهمت به وهجمت عليه، لإجباره على معاشرتها ولما هرب لحقت به، وقدت قميصه من دبر.

وثبت بالأدلة القاطعة أنّ يوسف لم يراود امرأة العزيز، ولم يعتد عليها ولم يهم بها، وإنما أبي وترفع واستعصم، وحافظ على عفته وطهارته. وكان حكم القوم الجاهلين يتناقض مع هذه القناعة القانونية عندهم: تبرئة امرأة العزيز ومنحها وسام العفة والشرف، وإدانة فتاها، وإثبات المراودة والاعتداء له هو؛ ولذلك لا بد أن يسجن لهذه الجريمة، وهكذا كان، فقد سيق يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ البريء من بيت العزيز الذي أمضى فيه سنوات وسنوات إلى سجنهم المظلم، ليقضي فيه بضع سنين ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥]. وتوحي جملة: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥]، بأن القوم الظالمين لم يصدروا عليه حكما بالسجن مدة محددة. أي: لم يحددوا السنوات التي يسجن فيها وإنما أرادوا وضعه في السجن مدة مفتوحة تنتهي بانتهاء القضية عند الناس، فطالما أن الألسنة تتحدث بقضية امرأة العزيز مع فتاها فلا بد أن يبقى يوسف في السجن، فإذا نسي الناس القضية فلا مانع أن يخرج من السجن بعد ذلك(١).

- ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ [يوسف: ٣٥]: مجتمع ظالم يعرف المظلوم والظالم ثم يكون الحكم نفوذ داعي الشهوة وامتثال أوامر النّساء، والمحافظة على ظاهر وجاهة الوجهاء، ولو على حساب أعراض المظلومين.

- ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥]: عرفوا براءته لكن بدا لهم سجنه إلى أن يروا فيه رأيا. جعلوه كبش فداء لحفظ ماء الوجه وايهام العامة بخلاف الواقع.

---

(١) القصص القرآني (٢/ ١٤٢).

ومن العبر المستفادة:

- مسألة الحبس لمدة غير معلومة من الطاغية هي قضية قديمة وليست وليدة اليوم فلا تبتئس.

- لا أحد يعرف الآن اسم السجان ولكن كلنا نعرف من هو يوسف منذ القدم والصالحون بين مسجون (يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ) ومهدد (موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ): ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩][(١)] في خطاب فرعون له.

- **أين عزيز مصر من تلك الأحداث؟**

رجح الشيخ عليش متولي بدوي: أن العزيز قد توفي بعد حادثة المراودة بزمن قليل، وقبل أن تدعو زوجته النّسوة إلى القصر لمشاهدة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستطرد قليلاً ثم قال: والمؤكد أن العزيز قد غاب إلى الأبد قبل أن تدعو المرأة النّسوة إلى القصر ليشهدن الجمال اليوسفي واستدل بأمور منها:

- لم يرد ذكر العزيز في حادثة المراودة من قريب ولا من بعيد، رغم تعدد الحوادث التي كانت تتطلب ظهوره لو كان حيـًا، خاصة وهو كرئيس وزراء مصر وعزيزها علاوة على أن من اتصلت بهم الأحداث هم أقرب الناس إليه: زوجته ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- ما كانت امرأة العزيز لتتجرأ على دعوة النّسوة في بيتها والتصريح أمامهن بهيامها بفتاها وإصرارها على أن ينفذ مرادها باللين أو بالقوة وهي التي كانت تقول للعزيز عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

---

(١) أيها الصديق، ص٨٦.

- إن العزيز الذي أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كتمان أمر حادثة المراودة حتى لا يعلم بها أحد، ثم عزّر زوجته وحكم عليها بأنها خاطئة، وأمرها بالاستغفار لذنبها؛ ما كان ليسكت أبداً أمام دعوة امرأته للنسوة لتعرض أمامهن جمال يوسف وتفضح زوجها باعترافها أمامهن أنها المراودة ليوسف.

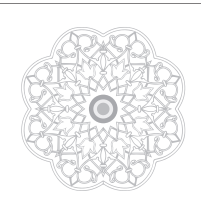
- أن القرآن الكريم أتى بموضوع التهديد بالسجن والصّغار ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إن لم يفعل ما تريده المرأة منه على لسانها هي، ولم يكن على لسان زوجها صاحب النفوذ والسطوة في المملكة الفرعونية الهكسوسية.

- أن العزيز لم يكن من بين الذين بدا لهم سجن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو كان موجوداً بينهم لنُسب إليه ذلك الأمر وحده فهو مالكه وصاحب السلطة العليا في البلاد بعد الملك.

- إن الملك لما ولّى يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من بعدُ وجعله على خزائن الأرض وأصبح هو بجدارة عزيز مصر لم يصدِر أمراً بعزل العزيز وإقامة يوسف مكانه مما يؤكد عدم وجود العزيز.

ومما تقدم يتأكد لنا أن العزيز رحل عن مسرح الأحداث قبل دعوة امرأته النّسوةَ إلى القصر لمشاهدة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن امرأة العزيز هي التي صارت لها السلطة على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعده فقد كانت تقول للعزيز وهو حي ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، أما الآن فهي تملك وتحكم وتهدد وتقول: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وفعلاً، نفذت تهديدها بمساعدة أهل الحل والعقد، وحكم على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسجن رغم براءته من كل سوء. والله أعلم[١].

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٢٤٩.



المبحث الثالث: دخول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن ودعوته لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتفسيره لرؤيا صاحبيه:

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦ - ٤٢].

ودخل نبي الله الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم السجن بعد أن خرج من محنته الكبرى في قصر العزيز تقياً نقياً ليواجه محنة أخرى: ضيق السجن وظلمته ووحشته والشعور بالظلم والاضطهاد، وهو سجن آخر للنفس يزيدهما همّاً وألماً وحسرة. ومن رحمة الله تعالى بيوسف أنه هيأ له سبب خروجه عند دخوله[1].

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٣)

أولاً: قوله تعالى ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ ﴾ [يوسف: ٣٦]:

١ - ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦]:

وهكذا دخل الكريم ابن الكريم ابن الكريم السجن والابتلاءُ سُنّة في عباده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الصالحين وفي الحديث: "أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"[(١)]. وعندما أُدخل يوسف السجن دخل معه فتيان آخران سجينان قادهما قدرهما إلى الانتقال من خدمة الملك مع حاشيته إلى السجن ولعله غضب الملك عليهما في نزوة من نزوات مزاجه المتقلب[(٢)]. وتوحي كلمة (فتيان) بأنهما خادمان من الخدم الذين يعملون في حاشية الملك لأن كلمة (فتى) و(فَتَيان) و(فِتْيان)، وردت في السورة هنا بمعنى الخادم العبد الرقيق. ولم يذكر القرآن الكريم تفاصيل أعمال الفتيين واسمهما ولا وظيفتهما عند الملك قبل سجنهم[(٣)].

وقد ذكر أهل التفسير أن أحدهما: كان طباخ الملك، والمسؤول الأول عن طعامه. وثانيهما: كان ساقي الملك، والمسؤول الأول عن شرابه. وقد نُمي إلى الملك أن مؤامرة تحاك لقتله بواسطة دس السم في طعامه أو شرابه، فأمر بسجن الساقي والطباخ للتحقيق معهما في الأمر[(٤)]. وتعامل يوسف مع صاحبيه السجينين بأخلاقه السمحة النبيلة فأحبّاه وأُعجبا به ونشأ بينه وبينهما صلة وصحبة،

---

(١) صحيح ابن حبان، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض، ذكر البيان بأن البلايا تكون بالأنبياء أكثر ثم الأمثل فالأمثل في الدين ،ح رقم ٢٩٢١.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٩٠).

(٣) المصدر نفسه، (٢/ ١٩١).

(٤) التفسير الموضوعي، (٢١/ ١٧٤).

وأنسا به وصار موضع ثقتهما. وكثيراً ما يجمع السجن بين السجناء وكثيراً ما تنشأ بينهم صلات قوية لأنهم يعيشون معـًا طيلة اليوم منقطعين عن عالم ما وراء السجن ويقضون في ذلك سنوات وسنوات(١) .كما أن للرؤى والأحلام تأثير كبير على المسجونين إذ هي صلتهم الوحيدة بالحرية والحياة خارج أسوار السجن وتمنيهم بالأمانيّ العذبة تبعث آمالهم وتنعش قلوبهم ونفوسهم:

مُنىً إن تكن حقـًا تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنـًا رغـداً

فهي محور حديثهم عندما يستيقظون من نومهم(٢). وقدّر الله أن يرى كل واحد من السجينين رؤيا، فقام يقصها على صاحبه وصديقه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ طالبـًا منه تأويلها(٣).

٢ – ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

– ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٣٦]؛ أي: رأيت. وعبّر بالمضارع لاستحضار صورة الرؤيا.

– ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٣٦]؛ أي: أعصر عنباً. وسماه خمراً باعتبار ما يؤول إليه، فلا يعصرون العنب إلا ليصنعوا من عصيره الخمرَ. ويبدو أن الساقي هو صاحب هذه الرؤيا(٤).

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٤٢).
(٢) التفسير الموضوعي، (٢/ ١٤٣).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ١٤٣).
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٤).

- ﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾[يوسف: ٣٦]: إني رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراه في اليقظة الآن؛ وهي أني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل منه الطير، يعني من الخبز[١]. ويبدو أنها رؤيا الطباخ، فرؤيا كل واحد منهما متعلقة بطبيعة عمله في قصر الملك[٢].

- ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾[يوسف: ٣٦]؛ أي: أخبرنا بتعبير ما رأينا وبيّن لنا مآلها، فأول ما يهجس في خاطر السجين إذا رأى رؤيا أنها رؤيا تنبّئه وأنه يمكن أن يرى من خلال تعبيرها مصيره ومستقبله[٣].

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]: شهد الفتيان ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالإحسان، وهذه الشهادة لها وزن وقيمة لاعتبارات عدة منها:

- أنهما ملازمان له، يعيشان معه ليلاً ونهاراً مما يعني أن الشهادة لم تكن نتيجة موقف عارض، أو انطباع عاجل، فهما مصاحبان له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في كل أحواله.

- أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان في حال من الضيق والمعاناة إذ فقد والده وأهله، وابتلى في عرضه الشريف واجتمع عليه كيد إخوته وامرأة العزيز والنسوة وأخيراً السجن ظلماً، فحين تظهر عليه سجية الإحسان في هذه الحال فكيف في سائر أحواله.

- أنهما لم يكونا على ملته ودينه فإذا كان هذا حاله مع هؤلاء فكيف بإخوة الدين والإيمان؟

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٢٥٦.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٤).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٤).

والشهادة ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالإحسان ليس مصدرها الوحيد صاحباه في السجن بل شهد له إخوته، كما سيأتي بإذن الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨].

وأعظم من تلك الشهادات، شهادة الله عَزَّوَجَلَّ فقد وصفه بالإحسان عند بلوغه الأشدّ، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]. كما وصفه سبحانه بالإحسان بعد خروجه من السجن وتمكينه في الأرض، قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦].

لزم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الإحسان في شتى شؤونه في سرائه وضرائه في خاصّة نفسه ومع والديه ومع إخوته وفي حال الفتنة وفي حال الانتصار وفي حال عبادته لربه وليس بعد هذه الشهادة والتزكية الربانية شهادة أو وصف وأي قلم بشري يمكنه وصف إحسان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد هذا الوصف الرباني؟[١]

كان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعبّر للسجناء رؤاهم وأحلامهم، وكان يحسن إليهم في معاملته؛ يواسيهم ويساعدهم، فهو من المحسنين حقـًا، وأحسن في طاعة الله تعالى وعبادته كما مرّ معنا، وأحسن في معاملته مع الناس في سعة القصور وضيق السجون، بقي محافظـًا على جوهره الأصيل المضيء، ثابتـًا في مقام الإحسان رغم ما طرأ على حياته من تغيير وتبديل. ولم ينسى مهمته التي كلفه الله تعالى بها، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فهو نبي مرسل

(١) أخلاق الأنبياء، د. محمد درويش، ص٤٢،٤١.

كريم بحمل دعوة ورسالة، وعليه أن يبلغها للناس في كل مكان في القصور أو في السجون وفي أي زمان.

وما علَّمَه اللهُ تعالى علم تأويل الرؤيا إلا ليسخّره في دعوته وتبليغ رسالته فهو وسيلة ليجذب الناس إليه والتفافهم عليه، وهو أيضـاً وسيلة لتعريف الناس بصدقه وصحة نبوته وتقريب معنى الوحي وحقيقته من قلوبهم وعقولهم.

قام يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذلك خير قيام؛ عرض على الفتيين أولاً الأمر المعجز الخارق لعادات الناس الذي أجراه الله تعالى على يده كدليل على صدقه وصحة نبوته، وهو قدرته على رؤية الحوادث المستقبلية القريبة الحدوث فذكر لهم أمثلة عملية على ذلك[1].

ثانيـًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]:

١ - ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٧]:

المقصود من خـارج السجن بواسطة الـزائـريـن مـن الأهـل والأقـارب والأصحاب. وما أراد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طعام السجن الذي يقدم عادة للسجناء والذي ألفوه واعتادوا عليه، وعلموا أنواعه وأوقاته، فنفوس السجناء تنتظر بشوق ولهفة زيارة صديق أو قريب وتفرح كثيراً بما يحمله الزائرون لهم من هدايا أو طعام.

إن الزيارة تنعش آمالهم وتبعث فيهم الحيوية والنشاط وتجعلهم يشعرون أنـه يوجد في العالم الثاني خـارج أسـوار السجن من يهتم بهم ويشاركهم همومهم وحزنهم.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٥).

وإخبار السجين بزيارة قريبة الوقوع وبما يحمل الزائر معه من طعام، بشرى سارة له تنزل على قلبه نزول المطر على الأرض العطشى التي طال عطشها واشتد ظمؤها. وعُرف عَلَيْهِ السَّلَامُ بين السجناء بهذا الأمر ولهذا ذكرهم به وحدثهم عنه حديث الواثق من نفسه[١]. وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام - لما قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً - إلا نبأتكما بتأويله في اليقظة قبل أن يأتيكما الطعام. وهذا قول أكثر المفسرين، وهو الصّواب[٢].

٢- ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]:

أي: أخبرتكما بحقيقته قبل أن يصل إليكما[٣].

والتأويل هنا: معرفة حقيقة الطعام ومآله. وقال ليس ذلك بإعلام أحد إنما هو تعليم الله تعالى[٤].

٣- ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧]:

بالغيب بتعليم الله تعالى وليس من ذاته. وإنه لا يعلم الغيب إلا الله وما يعطيه الله تعالى كما أعطى عيسى ابن مريم إذ كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكان ذلك بعد يوسف بعشرات القرون[٥]. فهو علم لدنّيّ من الله تعالى، الذي هو مصدر كل علم يلقيه إلى من يشاء من عباده بواسطة الوحي،

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).
(٢) اختيارات ابن تيمية، (٢/ ٨٠٩).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).
(٤) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٢٨٣).
(٥) المصدر نفسه، (٧/ ٣٢٨٣).

وعلوم الوحي حق وصدق لا يلحقها أي خطأ. وبهذا تمكن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أن يدخل إلى نفسيهما بلطف وذكاء وأن يشدّ انتباههما إلى الله تعالى، فعرض عليهما عقيدة التوحيد من خلال حديثه معهما عن نفسه فقد كانا يثقان به ثقة كبيرة[١].

٤- ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ [يوسف: ٣٧]:

الذين كان يعيش معهم خارج السجن، فهم قوم الفتيين الذين يتحدث إليهما فهو أسلوب لطيف بيّن فيه خطأ ما كانا فيه من ملة واعتقاد[٢].

٥- ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]:

حق الإيمان لأنهم لا يعبدونه سبحانه وحده ولا ينزّهونه عن صفات النقص فمعرفة وجود الله تعالى غير كافية للإيمان به، وقد كانوا - كما مرّ معنا - يعرفون بوجود الله تعالى ويجري على ألسنتهم ذكره، ولكنهم ما كانوا يتجهون إليه وحده بالعبادة والطاعة.

ثم وصفهم بصفة أخرى تجعلهم غير مؤمنين بالله تعالى:

- ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]؛ أي: لا يصدقون بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء وهو ركن هام من أركان الإيمان يدل على كمال قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته[٣]. وقال الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد وصفهم بحالتين سلبيتين إحداهما: أنهم لا يؤمنون بالله بل يعبدون الأوثان، والثانية: أنهم يكفرون بالبعث وأكد كفرهم بالبعث بتقديم (الآخرة) على الكفر وذلك لمزيد

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٦).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١١٧٧).

الاهتمام بالآخرة. وكان التأكيد لغرابته عند أهل العقول المدركة فالعقل يوجب الإيمان بالآخرة لأن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى ولأن فيه سلوان لمن لا يدرك حظه في الدنيا ولأنه يتفق مع العلو الإنساني[١].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]:

بعد أن عرّف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الفتيين – في الآية السابقة – أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب؛ ذكر في هذه الآية آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله[٢].

١- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]:

أي: أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيده الخالص. وبيّن أسماءهم بقوله ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا وبيّن أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقيناً فكانت يقيناً له ولهم.

٢- ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]:

أيّ: ما كان من شأننا معشر الأنبياء ولا مما يقع منا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، نتخذه رباً أو إلهاً معبوداً معه، لا من الملائكة ولا من البشر فضلاً عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس)، أو من الشمس والقمر، أو ما يتخذ لها من التماثيل والصور[٣].

---

(١) زهرة التفاسير، (٣٨٢٤).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص٢٦٤.

(٣) تفسير المنار، (١٢/ ٣٠٤-٣٠٧).

٣- ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]:

الإشارة إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غير الله تعالى أيا كان، فهو فضل الله إذ هداهم إلى عبادة المنعم وحده(١).

- ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٣٨]: بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته وخلقه.

- ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]: بإرسالنا إليهم ننشر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حجته ونبيّن لهم هدايته(٢).

نرى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يبيّن لصاحبيه في السجن معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه، فهي ملة التوحيد الخالص، فضل من الله على المهتدي، وهو فضل في متناول الناس جميعًا لو اتجهوا إليه وأرادوه، ففي فطرتهم أصوله، وفي الوجود من حولهم موجباته ودلائله، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره، ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه(٣).

- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]: تلك هي النتيجة الطبيعية للغفلة عن معنى الحياة، لأن قضية الشكر هي قضية وعي وانفتاح وإيمان لتعرف أن الله لم يخلقك عبثًا ولم يخلق الحياة دون هدف ولم يترك الإنسان دون نظام(٤).

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٥).

(٢) تفسير المنار، (١/ ٣٠٤-٣٠٧).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٨٩).

(٤) تفسير من وحي القرآن، فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨هـ، (٧/ ٣٠).

والشكر: هو صرف العبد كلَّ ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله[١]، من نعم ظاهرة وباطنة في النفس والمال فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما يليق به جارية على الوجه الأكمل، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه وأدى واجب شكرها[٢]. ويعتبر الشكر من أجلّ الأخلاق السلوكية الإيمانية التي يجب على المؤمن أن يتجلى بها في كل أحواله، لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها، ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية آمراً به، وحثّاً عليه، وثناء على أهله ووعداً لهم بحسن جزائه، ونهياً عن ضده مما يدل على أنّ أمر هذا الخلق عظيم الشأن[٣].

قال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]؛ أي: لا يشكرون فضل الله ولا ينتبهون. وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٣٨]؛ لأنّه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدل بها، وقد نصب مثل ذلك لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يشكرون اتباعاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين[٤].

وقال ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]؛ أي: لا يوحدون. فإن التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عَزَّوَجَلَّ على النعمة وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾[يوسف: ٣٨] لزيادة توضيح وبيان، ولقطع توهّم رجوعه إلى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير

(١) المرجع السابق، (٧/ ٣٠).

(٢) أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ، (١/ ١٨٥).

(٣) المرجع السابق، (١/ ١٨٦).

(٤) البحر المحيط، ص٢٧٧-٢٧٨.

الشاكرين بالناس. وقيل: ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضـاً ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها، اتباعـاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين، ولك أن تقول: ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي معهدها في الأنفس والآفاق، وقد أعطى سائر الناس -أيضا- مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أي: لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملوها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعملية والنقلية[(١)].

وبعد هذه المقدمة اليوسفية - على صاحبها السلام - أشعرهما أنه لم يُرد بذكر آبائه التفاخر وإن كانوا أنبياء وإن كان أحدهم خليل الله، فذكر لهما أن ما به وآبائه من نعمة فمن الله وحده وهذه النعمة - أي نعمة التوحيد - هي أسبغ النعم عليّ وعلى آبائي وعلى الناس كافة كذلك.

وإن الفرق بيننا وبين الناس أن الناس لا يشكرونها، وشكر نعمة الهداية للتوحيد يكون بالقيام بحق كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها وما من شك أن الأنبياء هم أكثر الناس قياماً بحقها وعملاً بمقتضاها وكل ذلك خرج على سبيل الترغيب لهم فيها وتأكيد الدعوة بالفعل فإن رد النعمة إلى مُوليها والأفضال إلى مُسديها - سبحانه - من جملة توحيد الربوبية ومقتضاه.

والمقصود، أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استهل بتلك المقدمة قبل تأويل الرؤيا ليخلص منها إلى دعوتهما[(٢)]، فقد استطاع أن يدخل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى نفسيهما هذا

---

(١) تفسير أبي مسعود، (٤/ ٢٧٨).

(٢) آيات للسائلين، ص٢٠٢.

المدخل اللطيف وأخذ يتوغل أكثر وأكثر في حذر ولين حتى أفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحـًا كاملاً وصارحهما بفساد عقيدتهما وبطلانها بأسلوب يقوم على التفكر والموازنة العقلية المؤدبة إلى ظهور الحقيقة ورجحان كفته[1].

رابعـًا: قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]:

لقد رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات القليلة الناصحة الحاسمة المنيرة كلّ معالم هذا الدين وكل مقومات هذه العقيدة كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفـًا.

١- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ٣٩]:

أن يتخذ منهما صاحبين ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجوهر العقيدة.

٢- ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]:

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً. إن الفطرة تعرف لها إلهـًا واحداً ففيم إذاً تعدد الأرباب؟

إنّ الذي يستحق أن يكون ربـًا يُعبد ويطاع أمره، ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار ومتى توحد الإله وتقرر سلطان القهر في حياة الناس وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد وأنه هو القاهر ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ويتخذوا من دون الله ربـًا.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٧).

إنّ الرب لا بد أن يكون إلهـًا يملك أمر الكون ويسيّره ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تيسير أمر هذا الكون كله ربـًا للناس يقهرهم بحكمته وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره.

إن الله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته، من أن يدينوا للأرباب المتفرقة والأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء – المنظور القريب – كالشأن في كل الأرباب إلا الله.

وما شقيت البشرية بشيء قط ما شقيت شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم فهذه الأرباب الأرضية التي تغتصب سلطان الله وربوبيته أو يعطيها الجاهلون هذه السلطان، هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرغبة الملحة في استبقاء سلطانها وتقويته، وفي تدمير كل القوى التي تهدد السلطان من قريب أو من بعيد وفي تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطبل حولها والزمر والنفخ فيها كي لا تذبل.

وإن الإله الواحد القهار في غنى عن العالمين فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة وفق منهجه، فيُعد هذا كله عبادةً، وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريدها لإصلاح قلوبهم ومشاعرهم ولإصلاح حياتهم وواقعهم... وإلا فما أغناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن عباده أجمعين[(١)].

اسم الله (الواحد):

ورد اسم الله الواحد في أكثر من عشرين موضعـًا في القرآن ومن ذلك:

– قوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩٠).

-وقوله تعالى ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وإن في الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى يأتي الحديث عن أسماء الله (الواحد) (الأحد). ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الواحد الأحد) هو الذي توحّد بجميع الكمالات وتفرد بكل كمال وجلال وجمال وحمد وحكمة ورحمة وغيرها من صفات الكمال، فليس له فيها مثيل ولا نظير ولا مناسب بوجه من الوجوه فهو الأحد في حياته وقيوميته وعلمه وقدرته وعظمته وجلاله وجماله وحمده وحكمته وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته من كل صفة من هذه الصفات فيجب على كل العبيد توحيده عقلاً وقولاً وعملاً بأن يعترفوا بكماله المطلق وتفرده بالوحدانية وبفروده بأنواع العبادة[١].

- **اسم الله (القهار):**

ورد ذكر اسم الله (القهار) في القرآن الكريم ست مرات اقترن فيها باسمه (الواحد) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وغيرها من الآيات..

وقال الخطابي: (القهار) هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة وقهر الخلق بالموت[٢].

والقهار: اسم مبالغة (للقاهر) وهو الذي خضع له كل شيء وذل لعظمته وقوته كل شيء لا يخرج شيء عن قدرته وتدبيره وملكه. وقهر كل الخلق بالموت، وهذا يفسر - والله أعلم - شيئاً من سر اقتران اسمه (الواحد) باسمه (القهار)

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز، ص١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤١٥.

حيث إن من موجبات اسمه الواحد في ربوبيته وملكه وألوهيته وأسمائه وصفاته أن يكون قاهراً قهاراً غالباً لكل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وما من دابة إلا هو سبحانه آخذ بناصيتها ماض فيها حكمة عدل فيها قضاؤه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

وكونه تعالى (الواحد) يقتضي كونه (القهار). ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشرك من كل وجه[١]. إن القهر ملازم للوحدة فلا يكون اثنان قهارين، متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده كما كان قاهراً وحده[٢]، كما يشير هذا الاقتران إلى معنى بديع، وهو أن الغلبة والإذلال من ملوك الدنيا إنما يكون بأعوانهم وجندهم وعددهم، والله تعالى يقهر كل الخلق وهو واحد أحد فرد صمد مستغنٍ عن الظهير والمعين، فاقتران الاسمين يشير إلى كماله سبحانه في تفرده وكماله في قهره[٣].

إن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يدعو إلى توحيد الله من خلال التعريف بأسمائه الحسنى وفي دعوته لصاحبيه في السجن كان حديثه عن (الواحد القهار) سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

خامساً قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]:

---

(١) تفسير السعدي، (٤/ ٣٠٨).

(٢) تفسير السعدي، (٤/ ١٩٩).

(٣) مطابقة أسماء الله الحسنى مقتضى المقام، نجلاء الكردي، ص ٤٩٢.

رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة كما هزّ بها كل قوائد الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً[١].

١ - ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: ما تعبدون إلا أسماء لا مسميات لها، لأنها في الأصل لا تستحق أن تعبد وتعظم، فكأنها معدومة غير موجودة[٢].

٢ - ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: ما أنزل الله حجة ولا برهانا على عبادتها[٣]، ولا عقل يسلم بذلك. إن العبادة لا تكون إلا بسند شرعي، فلا يعبد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلا بما شرعه وبينه ونزل به الوحي، فمعبوداتكم ليس لها في عالم الحق مكان، فلم تأتكم بها دعوة من رسول من رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولم يحملها إليكم كتاب من كتب الله تعال، إنها نابعة ومولدة من الوهم والضلال[٤].

كان يوسف صريحاً في بيان ما هم عليه من شرك بالله، ليعرفهما حقيقة ما هما عليه ويميزا بين الحق والباطل؛ ليكون هذا دافعاً لهما إلى ترك الباطل الذي عليه القوم واتباع الحق الذي هو عليه[٥]. وقد بين يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لمن ينبغي أن تكون الطاعة، أو بمعنى آخر لمن ينبغي أن تكون العبادة[٦].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩).
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٨).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤١٧٨).
(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٧٧.
(٥) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ١٤٧).
(٦) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩٠).

٣- ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: ما الحكم الحق في الربوبية، والعقائد والعبادات الدينية؛ إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، ولا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

٤- ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أي: بل إياه وحده فادعوه واعبدوه وله وحده فاركعوا واسجدوا، وإليه وحده فتهجدوا، حنفاء لله غير مشركين به، ملكا من الملائكة الروحانيين، ولا ملكا من الملوك الحاكمين، ولا كاهناً من المتعبدين، ولا شمساً ولا قمراً، ولا نجماً، ولا شجراً ولا نهراً مقدساً كالكنج والنيل، ولا حيوانا كالعجل أبيس. فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره، إلا بإيمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء وأن كل ما عداه خاضع لإرادته وسننه في أسباب المنافع والمضار، ولا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام حسنة، ومادة حياة شخصية: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب وإليه المصير للجزاء على الأعمال يوم الحساب[١]. ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعلل القول بأن الحكم لله وحده، فيقول: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وإن العبادة لا تكون إلا لله، والعبادة بمفهومها الواسع الشامل التي تعني الخضوع المطلق وإفراد الله بالحكم صورة من صور إفراده بالعبادة[٢].

---

(١) تفسير المنار، (١٢/ ٣٠٧-٣١١).

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٤٧).

والخضوع له وحده، واتباع أمره وحده، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية، أو تعلق بتوجيه أخلاقي، أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العادة التي خص الله سبحانه بها نفسه، ولم يجعلها لأحد من خلقه. وهذا الفهم في مفهوم العبادة يبين لنا تعليلاً لاختصاصه بالحكم. فالعبادة - أي: الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود، وحكمه الشرعي الإداري في حياة الناس خاصة، فكله حكم تتحقق به الدينونة.

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقرر لصاحبيه في السجن، ولكل الناس - أن اختصاص الله سبحانه - بالحكم - تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة - هو وحده الدين القيم[١].

٥- ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]:

الإسلام وحده هو الدين القيم، الدين المستقيم الصحيح المقبول عند الله. الدين الذي يقوم على معادلة ذات طرفين: إفراد الله بالعبادة يعني إفراده وحده بالحكم، وهذه يعني أن من فعل ذلك كان على دين قيّم، ومن لم يفعله فليس على دين قيم، فهو جاهل غير عالم. والمقصود أن الدين الموصل لرضوان الله هو الدين الذي لا يعبد فيه إلا الله ويكون فيه الحكم لله. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠] أي: الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين، الذي دعا إليه جميع رسل الله أقوامهم، ومنهم آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[٢].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩١).

(٢) تفسير المنار، (١٢/ ٣٠٧- ٣١١).

٦- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أيّ: ليس لهم علم بالحقائق، بل تسيطر عليهم الأوهام الباطلة، التي تخدع العقول فلا تعلم، والمصريون القدماء كانوا خاضعين للأوهام ولا تزال بقية منهم خاضعة للأوهام وهم الذي لم يدخلوا في دين التوحيد، دين الله القيم.

وهكذا نرى نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتدأ بإثبات معجزته ثم نهى عن الشرك، ووجههم إلى الاقتداء بشخصه وقد صاروا له صاحبين ثم وازن بين الوحدانية وتعدد الآلهة، ثم بين لهم أنه لا وجود لما يسمونه آلهة، وأن الدين القويم الحق الذي يوافق قضية العقل البديهية هو الوحدانية[1]. وإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وضع سلسلة من الحقائق المنطقية المتسلسلة المتتابعة بتناسق موضوعي متدرج وصل به إلى هدفه المنشود في دعوة صاحبيه إلى دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد يقال: إن دعوته إلى الوحدانية، كانت بين اثنين. وإنّ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتدأ دعوته بين زوجه وصديقه أبي بكر وابن عمه علي ومولاه زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا، وبقي مستخفياً بالدعوة بضع سنين، فليست العبرة بكثرة العدد ولكن بقوة الإيمان[2]. وبعد أن وجه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوته الصريحة إلى دين التوحيد وعبادة الله وحده عبّر لكل واحد منهما رؤياه التي يخبر عن كل واحد منهم مصيره ومستقبله[3].

سادسًا: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٦).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٦).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٨).

وبعد أن أنهى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بيانه الدعوة، وقبل موعد حلول تقديم الطعام لهما، عبر لكل منهما رؤياه، كما وعدهما من قبل(١).

١ - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ٤١]:

خاطبهما يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ٤١] مرتين عندما أراد دعوتهما إلى التوحيد، في حين لم يذكر هذا الأسلوب في البداية عندما تحدث عن نفسه وعن دينه وأسرته لما يأتي:

- أن الحديث عن النفس وعن الأسرة ونحوها لا يحتاج إلى مزيد من محاولة صيغ التحبيب والتشويق لأنها لا تحمل طلباً ولا تكليفاً، وإنما مجرد عرض وبيان وأما الحديث عن دعوة الآخر للتوحيد والإيمان فهذا هو الذي يحتاج إلى مزيد من السعي ببذل الجهد الفكري لاختيار كلمات مناسبة جميلة وصيغ مؤثرة وأساليب مشوّقة. واستعمل حرف النداء البعيد: (يا) لاسترعاء الانتباه وللتعظيم والوقار، ثم استعمل لفظ: (صاحب) للدلالة على القرب والصحبة والمحبة وجعله مثنّى للإشارة إلى الرعاية لكل واحد منهما، وأن كل واحد منهما صاحبه على الاستقلال، وهذا أسلوب رائع في التشويق لدعوة التوحيد التي دعا إليها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢).

٢ - ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ [يوسف: ٤١]:

أي: سيصبح ساقي الملك وصاحب شرابه وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولم يعيّنه لئلا يدخل الحزن على الآخر.

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٤٨).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، ص ٨٣.

- و ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٤١] أي: يقتل ويصلب وتأكل الطير من لحم رأسه[١]. وقد كان الأول ساقياً للملك بعد ذلك وروي أنه كان من قبل كان ساقياً، فاستمر في عمله بعد أن اتهم بأنه دس في الشراب سماً فتبين بطلان التهمة، فعاد إلى عمله بعد أن سجن. والثاني اتهم بأنه دس في الطعام سماً وثبتت التهمة فقتل وصلب. والله أعلم[٢].

٣- ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

قضي الأمر: أي تم وانتهى حكمه. والاستفتاء: الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة. وبعد أن أوّل يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رؤيا الفتيين، أخبرهما عن غيب علمه من قبل الله تعالى، أن الأمر قد قضي ووافق قضاء الله تعالى[٣].

كما أن الآية تدل على ثقة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بربه، فهو ينظر بعين النبوة التي لا تخطئ أبداً لأنها تنظر بوحي الله تعالى علام الغيوب. ولم يترك عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الأخذ بأسباب السلامة والخروج من السجن مع توكله على الله تعالى وتفويض أمره إليه.

ولما أمر الملك بإخراج الساقي من السجن، وجاء يودّع يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ويعرض عليه مساعدته طلب منه أن يَذكُرَ أمره للملك، لعله أن ينصفه ويخرجه من سجنه:

سابعاً- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٧٨).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٦).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٨٤.

١ - ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

التفت يوسف إلى السجين الذي سيفرج عنه وسيعود إلى خدمة ربه الملك ويعمل في حاشيته فطلب منه أن يذكره عند الملك[١].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ أي: علِم وتيقن، فالظن يأتي بمعنى اليقين والعلم كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠][٢]. وهذه الالتفاتة من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ طبيعية منطقية فهو مسجون ظلماً وقد لفّق له الملأ تهمة كاذبة وتآمروا عليه مؤامرة خبيثة وأُدخل السجن دون محاكمة أو محكمة أو حكم وها هو الآن في السجن ولا يدري كم سيمرّ عليه من السنوات وهو موقوف ظلماً ويخشى أن ينساه المتآمرون في السجن وأن يتركوه فيه سنوات وسنوات.

ولعل الملك لم يكن يعلم تفاصيل قصة يوسف، ولعله لم تصله الحقيقة ولعل الملأ المتنفذين المتآمرين أخفوا الحقيقة عنه فصوّروا يوسف بأنه هو المعتدي على امرأة العزيز وهي العزيزة الشريفة المعتدى عليها، فأراد يوسف أن يوصل الحقيقة إلى الملك وأن يطلعه على تفاصيل القضية كما وقعت فعلاً، وأن يبين له أنه مظلوم وأنه سجن ظلماً وأن المعتدية هي امرأة العزيز.

ومن هو الذي سيصل إلى الملك؟ إنه صاحبه السجين الذي سيفرج عنه، والذي عرف عنه تفاصيل القضية كما حصلت ومعلوم أنّ ساقي الملك سيكون أقرب الناس إليه لأنّه صاحب خمره وشرابه، يقدمه له متى يشاء وبهذا يكون قادراً على مناجاته وعلى الكلام معه ومحادثته بما يريد، لهذه الأسباب والاعتبارات

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٤٩).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٩).

طلب يوسف من صاحبه أن يذكره عند الملك[١]: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: سيدك ومتولي أمرك[٢].

وطلبه من الذي ظن أنه ناجٍ أن يذكره عند ربه نوع من الأخذ بالأسباب. وقد أخطأ بعض المفسرين في تخطئة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في طلبه هذا وقالوا: إن الله تعالى عاقبه على ذلك فأنسى الساقي ذكره عند الملك، فلبث يوسف في السجن بضع سنين ومثل هذا الكلام قدح في توحيد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واتهام له بعدم التوكل على الله حق التوكل، وهذا لا يليق بنبيّ من أنبياء الله، تعالى بل فعله هذا عدم تسليم بالظلم وهو من جملة إنكاره وترك إقراره وهذا مقتضى كمال التوحيد كما أنه طلب من الساقي أمراً يجب عليه وتذكيره بواجبه من جملة الدعوة، ثم إن تبرئة النفس من التهمة ودفعها عنها مطلب شرعي، وبالأخص إذا تعلق الأمر بمقام النبوة، وبهذا نعلم أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذل ما في وسعه من الأسباب التي تجعل تلك المحنة منحة تحمد عاقبتها ومن كان هذا شأنه حريّ به أن يتم له مقصوده وأن تكون العاقبة له[٣].

٢- ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

أي: ولكن الساقي بعد خروجه من السجن وعودته إلى العمل في القصر انشغل بما فيه من زخرف ومتاع وأنساه الشيطان قضية يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى مرت سنوات ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السجن[٤].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٠).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٩).

(٣) آيات للسائلين، ص٢١١.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٥).

قال الدكتور القره داغي: والضمير في (فأنساه) راجع إلى الفتى الذي ظن أنه ناجٍ وبالتالي فيكون معناه: أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر قصة يوسف عند الملك وهذا من قدر الله تعالى، ويتّسق نسيانه مع الجو الذي يعيشه، وهو تقديم الخمور التي يسقيها للملك وضيوفه. وذهب بعضهم إلى أن الضمير راجع إلى يوسف أي: أن الشيطان أنسى يوسف من أن يذكر ربه - هو الله - أي: أنه لم يطلب ذلك من الله تعالى وإنما طلبه من الملك. وهذا القول من الإسرائيليات الكاذبة التي تمس عقيدة يوسف. حتى إن هؤلاء ذكروا في ذلك حديثاً قدسياً موضوعاً، وهو أن الله تعالى قال ليوسف: أما استحييت حيث استعنت بغيري[١].

إن هذا القول متعارض تماماً لكل الآيات التي تتحدث على نبوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخلاصه لله وتوحيده وقوله للفتيين نفسهما، فعلمهما التوحيد الخالص وأكد على أن الأمر (التشريع والحكم) (القضاء والقدر) جميعها لله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، كما علمهما خطورة الشرك وبين لهما أنه اتبع ملة آبائه في التوحيد الخالص فهل يعقل أن يعلمهما يوسف التوحيد الخالص وتفويض الحكم والأمر لله وحده، ثم يستعين هو بغير الله؟ بالإضافة إلى سياق الآية ومقتضيات اللغة وذلك لأنّه لو كان المقصود غير ما ذكرنا لاقتضى الكلام أن تكون الصياغة (فأنساه الشيطان ذكره لربه)، وقد وردت بعض الآثار لكنها لم تثبت صحتها أو حُسنها والحمد لله بل كلها ضعيفة واهية[٢].

لكنّ الشيخ الألباني صحح حديث ابن عباس، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عَزَّوَجَلَّ"[٣]،

---

(١) حديث موضوع ليس له أصل، علي القره داغي، ص٨٥.

(٢) يوسف، للقرداغي، ص٨٦.

(٣) صحيح الجامع، حرف العين، رقم الحديث: ٣٩٨٤.

غير أن في تصحيحه نظراً لدى أهل الحديث أنفسهم حيث إن في إسناده إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك -كما قال علماء الجرح والتعديل-(١). وقال ابن كثير: إن آخر الحديث (هو الذي ذكرته فقط أعلاه)؛ منكر جداً(٢). وقال أيضـاً: وفيه سفيان بن وكيع الذي رواه عنه ابن جرير ضعيف وإبراهيم بن يزيد أضعف منه أيضـاً(٣). وبالإضافة إلى ذلك فكيف بالشيطان أن يسيطر عليه فينسيه ذكر الله تعالى ويجعله يستعين بغيره؟ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، ودلت الآيات القرآنية نفسها بأن الشيطان ليس له هيمنة على عباد الله المخلصين حيث استُثنوا في القرآن الكريم في أربعة مواضع من هيمنة الشيطان عليهم فقال تعالى حكاية عن الشيطان في إغواءاته: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

إذن: فإن طلب يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الفتى أن يذكره عند ملكه في مظلمة طلب مقبول، وليس فيه أي مخالفة شرعية، فهو من الأخذ بالأسباب المشروعة، فلا يحتاج إلى تبرير ولا تأويل(٥).

٣- ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

والبضع: من ثلاث إلى تسع سنين، والتعبير بالسنة يشعر بتلك الأعوام، وأقوال العلماء في المسألة متباينة فمنهم من قال: كانت مدة سجنه كلها سبع سنوات،

(١) مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي، مكتبة القدسي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، (٧/ ٤٢).

(٢) جامع المسانيد والسنن، ابن كثير، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ، (٨/ ٣٣٩).

(٣) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، للقره داغي، ص٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ص٨٧.

وبعضهم قال: بل مكث فيه سبع سنوات بعد خروج الساقي منه وخمس سنوات قبل ذلك؛ أي أنه قضى في السجن اثني عشرة سنة، لكن لا دليل على صحة أي من القولين. والقول الوحيد الذي يمكن أن نقطع به هو أنه لبث فيه بضع سنين ولو كان في التفصيل فائدة لفصّل القرآن الكريم، ولو لم يكن في السجن إلا الحبس والوحشة والغربة لكفى به ابتلاءً[١]، كما أن نسيان الساقي أن يبلغ الملك وصية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ابتلاء آخر لأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أدخل السجن ونُسي أمره فلم يكن ينتظر محاكمة تحدد مدة بقائه ولم يكن له أهل يتابعون قضيته، وضياع مثل هذه الفرصة بمقاييس أهل الأرض المقطوعين عن أسباب السماء تقطع حبل الأمل الذي تعلق به وتوصد أمامه باباً كان يرجو أن يخرج منه لكن لعل ربه تعالى بعلمه وحكمته لم يشأ أن يجعل لعبد من عبيد الملك على عبد من عباده تعالى فضلاً.

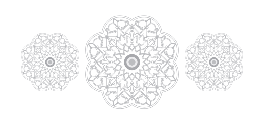
إن هذا النبي الكريم وإن اتخذ ما بين يديه من أسباب - لأن الله تعالى تعبده بذلك - ما تعلق قلبه بالسبب قط لأنّه يوقن بأن الأمر كله بيدي ربه، ربه الذي نجاه من عمق الجب، وسخَّر له قلب العزيز واجتباه وعلمه من تأويل الأحاديث.

كان يوقن أن الذي برّأه في بيت العزيز لما كان محل التهمة سيظهر براءته وقد اعترفت بها من كانت سبباً في سجنه وأن الذي أنقذه وقد أحاطت به الفتنة وحاصرته النّسوة سينقذه من بين هذه الجدران، أليس هو ربه ورب آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب - رب العالمين -ألم يغير ناموس الكون ويجعل النار برداً وسلامـاً على أبيه من قبل؟ إذاً فليطمئن قلبه ولتقر عينه وليمض في تعريف هؤلاء المسجونين من حوله بهذا الرب العظيم فلعلها فرصة لا تتكرر، لعله يستطيع أن

(١) آيات للسائلين، ص٢١١.

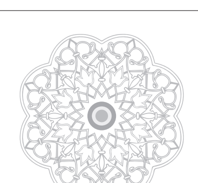
يخرج ولو واحداً من هؤلاء المساكين الذين يضيقون بمثل هذه الجدران من ضيق الدنيا كلها إلى سعة الدنيا والآخرة. أما متى؟ وإلى أين تذهب؟ فيكفي لتطمئن نفسه إدراكه أن كل ذلك سيكون بتقدير ربه تعالى ربه الذي يحس بلطفه في كل ما قدره عليه، ويجد أثر علمه وحكمته في عاقبة كل بلاء ابتلي به[١].

لا عليه إن نسيه هذا الساقي فربه لا ينساه أبداً ولا عليه إن حاول بعض الطغاة إذلاله فحبسوه مع المجرمين، فإن عند ربه لمكانة وإذا صح له الود مع الكبير المتعال، فأمر من سواه يهون، وقد أبى الله تعالى اللطيف الخبير العليم الحكيم أن يجعل فكاك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن بالتماس يقدمه أحد السقاة للملك. كلا لن يخرج صفيّه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بالتماس من الملك نفسه يُقدمه له بعد أن ينفذ كل شروطه ثم يمكنه من خزائن الأرض يفعل بها ما يشاء، وفق مقتضى حفظه وعلمه، ويمكنه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وتلك عاجل بشراه أما في أخراه فلا تدري نفس ما أخفي له من قرّة أعين جزاء إحسانه وتقواه. هذه سنة الله تعالى التي لا تتبدل وهذا وعده للمؤمنين الصادقين الذي لا يُخلف[٢].



(١) آيات للسائلين، ص٢١٦.

(٢) آيات للسائلين، ص٢١٧.



المبحث الرابع: رؤية الملك وتفسير يوسف لها

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ - ٤٩]

بقي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السجن حتى جاء الفرج من الله تعالى مباشرة وكان ذلك بسبب ما قدر سبحانه لملك مصر أن يرى في نومه رؤيا تنبّئه، كانت بتقدير العليم الحكيم سبباً لخروج يوسف من السجن، ونهاية لمحنته وآلامه[1].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]:

إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه وأراد الله أن يخرج يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من السجن معززاً مكرماً فكانت رؤيا الملك بداية الفرج الرباني.

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٩).

١ - ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ [يوسف: ٤٣]:

إن المراد بالملك هنا وبما بعده هو غير العزيز الذي كان بمثابة رئيس الوزراء، والمْلك يبدو أنه كان دستورياً. والقرآن الكريم من خلال مصطلح الملك والعزيز في سورة يوسف يشير إلى ذلك العصر لم يكن عصر الفراعنة الذين ذكرهم القرآن الكريم في قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وإنما عصر الهكسوس وقد أثبت التاريخ ذلك[١].

قال الطاهر عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتعريف في (الملك) للعهد أي: ملك مصر. وسماه القرآن ملكاً لمصر أيام حكمها (الهكسوس) وهم العمالقة وهم من الكنعانيين أو من العرب. ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة أي: البدو وقد ملكوا بمصر عام ١٩٠٠ إلى ١٥٢٥ قبل ميلاد المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط؛ إذ كانت عائلات القبط قد بقيت في حكم في مصر العليا في مدينة (طيبة) كما تقدر عند قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٢١]، وكان ملكهم في تلك المدة ضعيفاً لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى.

ويقدر المؤرخون أن ملك مصر السفلي في زمن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان في مدة العائلة السابعة عشرة فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر في زمن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي. وقد وقع في التوراة إذا عبر فيها عن ملك مصر في زمن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بفرعون وما هو بفرعون فأمته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنما

---

(١) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، للقره داغي، ص٨٨.

كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية فيكون زمن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر أزمان ملوك الرعاة على اختلاف شديد في ذلك[1].

٢- ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾[يوسف: ٤٣]:

هذه الرؤيا خلد الله ذكرها في كتابه العزيز وذكر تفاصيلها لأنها من أعظم الرؤى التي عرفتها البشرية لقد تعلقت بها حياة شعوب بأكملها، لقد رآها ملك مصر[2].

وعبر عنها بصيغة التأكيد (إني) والفعل المضارع (أرى) ولم يقل (رأيت) والفعل المضارع يفيد الدوام والاستمرار فكأنها لكثرة تكرارها يراها الآن ماثلة أو لأنها أقلقته حتى إنه لم يستطع نسيانها أو إزالتها من مخيلته وربما أنه أيقن أن لا سبيل لزوالها إلا بتعبيرها والله أعلم[3].

لقد كانت الرؤيا عجيبة لسبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف مهازيل ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾[يوسف: ٤٣]، وقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليهن، فحالهن كحال البقرات.

اهتم الملك لهذه الرؤيا التي يظهر منها أنّ الضعيف يغلب القوي. ولعله خشي أن يكون له صلة بحكمه وسلطانه ولذلك اهتم بها[4]. إن عدد السبع في البقرات السمان والبقرات العجاف والسنبلات الخضر والأخر اليابسات مما يشغل لأن العدد السبع فيه عبق من الغيب وهو موغل في تاريخ البشر، ونحن نطوف حول

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، (٥/ ٦٨٦).

(٢) آيات للسائلين، ص٢١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٢١.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٠).

البيت سبعـًا ونرمي الجمار سبعـًا ونسعى بين الصفا والمروة سبعـًا وجهنم لها سبعة أبواب إلى آخره... ثم إن العجب أن السبع العجاف، أي المهزولات يأكلن السبع السمان يعني المريضة تأكل القوية، ثم بجانب هذا سبع سنبلات خضر وأخرى يابسات يعني الرؤية فيها الضّرع والزرع، وتردّدت على الملك الذي ينام ويصحو بهمّ البلاد والعباد(١).

وعلقت الأستاذ علي جابر الفيفي على الرؤيا فقال: هنا رمزان منفصلان في الرؤيا.. متشابهان ومختلفان، فاستفاد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منهما في التأويل: فالتشابه هو في العدد فعلم أن العدد مقصود في الرؤيا، والتشابه في كون السِّمن والعجف يشبه الخضرة واليبس فاستنبط حالين أحدهما يسر والآخر عسر، ولتشابههما في البداءة باليسر كان التفسير وفق ذلك. ثم هناك اختلاف في كون الأولى (بقر يأكل بقر)، بعدها السنابل المذكورة، فاستفاد من الأكل في رؤيا البقر كون التأويل يدل على مجاعة بدلالة العكس، واستنبط في السنابل كون فرج تلك المجاعة مخبوءً في كيفية زرع وتحصين سنابل القمح والله أعلم(٢).

٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]:

والملأ هم القوم الحاكمون، وهم رجال النظام من الموظفين والإداريين والسياسيين والإعلاميين والكهنة والسحرة. وسُمّوا بـ (الملأ) لأنهم يشاركون في القيادة والقرار والحكم، ولأنهم يملؤون عيون الجماهير مهابة وإجلالاً بسبب مراكزهم ووظائفهم العليا، ونعلم أن ظاهرة (الملأ) ظاهرة بارزة ملحوظة في القصص القرآني موجودة عند كل قوم من أصحاب الباطل يواجهون أصحاب الحق.

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١١٨.

(٢) يوسفيات، ص٨٤.

قال الملك للملأ: أفتوني أيها الملأ في رؤياي الخطيرة وعبروها لي واذكروا بُعدها الواقعي وتأويلها العملي إن كنتم تقدرون على تعبير الرؤيا، وتعبرون صورتها المنامية إلى نهايتها العملية الواقعية الحسية. وسمي تأويل الرؤيا عبوراً لأن المؤول عندما يؤولها فإنه يعبر المنام إلى الواقع الذي يشير إليه وبذلك يصل ما بين الإشارة المنامية وما بين النهاية الواقعية لها، وكأنه ينتقل من المنام إلى الواقع في المستقبل ليحدده[١]. وكلمة (تعبرون) مأخوذة من (عبر النهر) أي: انتقل من شاطئ إلى شاطئ وكأنه يطلب منهن المراد المطوى في الرؤيا.

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة (العِبرة) وهي التجربة التي نستفيد منها ومنه أيضاً (العِبارة) وهو أن يكون هناك شيء مكتوم في النفس وتؤديه وتظهره بالعبارة ومنه (العَبرة): وهي الدمعة التي تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما سواء كانت مشاعر حزن أو مشاعر فرح. والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم وهكذا يفعل مفسر الرؤيا حين يعبر - من خلال رموزها- من الخيال إلى الحقيقة.

ولم يعرف الملأ الذين حول الملك تفسيراً للرؤيا التي رآها الملك في منامه. قال تعالى ما جاء عن ألسنتهم:

ثانيـاً: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٤ - ٤٦]:

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٤).

تفسير الآيات الكريمة:

١ – قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]:

أ- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ [يوسف: ٤٤]:

رد الملأ ورجال الحاشية على تأويل رؤيا الملك الخطيرة، أو لم يريدوا تأويلها لأنها مزعجة وتتحدث عن خطر قادم وسوف يقود تأويلها إلى انزعاج الملك وهم لا يريدون إقلاقه وإزعاجه ولو كان فيه الحق، والحل عندهم أن يُخفوا الحقائق عنه ولو كان فيها مصلحة البلاد.

أليست هذه طريقة البطانة والحاشية التي عند الحكام في إخفاء الحقائق عنهم حتى لا يُزعجوهم. وصف الملأ رؤيا الملك بأنها أضغاث أحلام ولا علم لهم بتأويل الأحلام ولهذا لا تأويل لها عندهم والأضغاث جمع ضغث وأساس معنى الضغث هو مجموعة من العيدان والحطب مع بعضها البعض كما قال الله لأيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ٤٤] أيّ: خذ بيدك غصن شجر فيه مجموعة من الأوراق والأغصان الصغيرة فاضرب امرأتك به ضربة خفيفة كي تبرّ بيمينك ولا تحنث فيه.

وأضغاث الأحلام هي الأحلام المتداخلة المتجمعة التي تجاوزت واختلطت فيها بعض الحقائق ببعض الأباطيل ودخلت فيها بعض الأوهام على بعض الرؤى فاختلطت بها وامتزجت معها وألفت ما فيها من حقائق. وسموا رؤيا الملك (أضغاث أحلام) لأن الأحلام تطلق على ما يراه النائم في منامه من منامات وأوهام وأضغاث وكوابيس مما لا رصيد له في عالم الواقع ولا دلالة له

على مستقبل ما يحدث له، وهم بهذا يدعون الملك على أن يصرف النظر عن هذه الأحلام فلا دلالة لها ولا تعبير أو تأويل لها[١].

ب- ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]:

لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان أو من حديث النفس فإنا لا نعبرها فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس بحيث إنهم لم يقولوا لا نعلم تأويلها وهذه من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنه لو عبرها ابتداءً قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب وكان الملك مهتماً لها غاية الاهتمام فعبرها يوسف وقعت عندهم موقعاً عظيماً. وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء فحصل بذلك زيادة فضله وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القيامة أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فيعتذرون عنها ثم يأتون محمداً فيقول: «أنا لها أنا لها»[٢] فيشفع في جميع الخلق ويسأل ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فسبحان من خفيت ألطافه ودقت في إيصاله البر والإحسان إلى خواص أصفيائه وأوليائه[٣]، كما أننا نلاحظ من خلال الآية الكريمة أن الملك شكك منذ البداية في قدرتهم على تعبير الرؤيا فقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، حيث عبر بكلمة (إنْ) الدالة على التردد والشك[٤].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٥).

(٢) تفسير السعدي، ص٥٠٩.

(٣) تفسير السعدي، ص٥٠٩.

(٤) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، للقره داغي، ص٨٩.

كان الفتى الساقي صاحب يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السجن حاضراً مجلس الملك فعند سماع رؤيا الملك ورأى عجز المعبرين والمنجمين والسحرة عن تأويلها تذكر صاحب سجنه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(١).

٢- وقال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]:

عندما أذن الله بالفرج هيأ الأسباب حيث حركت رؤيا الملك ذاكرة الساقي وما كان لموضوع مثل هذا الموضوع ولا لحادثة مثل حادثة الساقي مع يوسف ما كان لها أن تنسى لولا الحكمة العظيمة، وإذا كان نسي والعهد قريب أفيذكر الآن والعهد بعيد أيضاً؟.. إنها الحكمة! لقد أثارت الرؤيا ما كان دفن من عهد بيوسف فهتف الساقي كمن دبّت فيه حياة بعد موت: أنا أنبئكم بتأوليه. وتأمل الثقة: أنا أنبئكم، فهو قاطع جازم بأنه سيعود بالتفسير، فقط أرسلوه ويطوى السياق بالزمن والمسافة وإذ بنا من بلاط الملك ننتقل إلى حيث يوسف يقبع في السجن كل هذه السنين وما نالت السنون من معنوياته شيئاً(٢).

أ- ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]:

معنى (ادكر): تذكر بعد نسيان، تذكر يوسف في السجن، وعلمه الصادق بتأويل الرؤى ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، بعد مجموعة من السنين وسميت مجموعة السنين أمة لأنها مجتمعة بعضها مع بعض، يجمع بينهما نسيان ذاك السجين لقضية يوسف، كما تجتمع مجموعة من الأفراد على أمور مشتركة بينها لتكون أمة موحدة فأمة السنوات التي يجمعها جامع واحد - هو النسيان هنا -

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨١).

(٢) تفسير يوسف، أحمد نوفل، ص٤٠٦.

كأمة الناس التي تجمعها قواسم مشتركة فيما بينها[١]، فالأمة يراد بها فترة من الزمن ويراد بها الجماعة من الناس ويراد بها الرجل الجامع لكل صفات الخير كما قال سبحانه في وصف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أيّ: كل خصال الخير مجموعة في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلى نبينا الصلاة والسلام[٢].

ب- ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]:

وبذلك استأذن ليذهب إلى من يؤول رؤيا الملك.

- وقوله ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]: يعني أن التأويل ليس من عنده بل هو يعرف من يستطيع تأويل الرؤى، ونلحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل إلى من سوف يذهب؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا، نحن الذين نقرأ السورة. وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقي الملك[٣]:

٣- قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]:

ويهتف به الساقي لهفـًا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، ولاحظ أولاً أنه سماه باسمه وفي الرؤيا الأولى لم يصرح باسمه لقد غدا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعلمه وتأويله اسم في المجتمع ثم لاحظ وصف الصديق وما يحمل من مبالغة في

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٥٥).
(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٧١).
(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٧٢).

وصفه بالصدق هو لها أهل، ثم يعرض عليه حاجته بعد هذا المدخل الموفق، والأدب الرفيع في الخطاب، وحسن التأني: أفتنا في سبع بقرات، ويعيد عليه الرؤيا بحروفها وحذافيرها وترتيبها مما يدلك أنه كان يعطيها اهتماماً وعناية ويتوقع شأناً وخطراً. ثم لاحظ مشاعره ونفسيته من خلال تذييل الآية: لعلي أرجع إلى الناس، ثم أداة الترجي لعل فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]، وترداد الترجي منه ينبئك عن حالته النفسية وتعلقه بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ووضع الآمال عليه في تعبير هذه الرؤيا. ولم يكن الساقي يتوقع من يوسف المحسن أن ينتقم لنفسه فيكتم علماً أكرمه الله به، أو يرد ملهوفاً وقت حاجة انتقاماً للذات أو تفضية حسابات.

إن الأمر يتعلق بحياة شعب، ولا يجوز أن تطغى الأمور الشخصية على القضايا التي تمس المصالح العامة[1]، والساقي يلقب يوسف (بالصديق) أي الصادق الكثير الصدق وهذا ما جربه في شأنه من قبل. ونقل الساقي ألفاظ الملك التي قالها كاملة، لأنّه يطلب تأويلها فكان دقيقاً في نقلها، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولاً، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها[2].

وعندما نتأمل في الآية الكريمة نلاحظ:

- ذكر يوسف باسمه هنا، ولم يذكر في المرة الأولى باسمه عندما طلب منه السجينان تفسير رؤييهما أول مرة وفي هذا لفتة أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد شق لنفسه بذلك التأويل، وبعقله السديد ورأيه الراجح، شق له طريقاً إلى قلوب الناس واحترامهم[3].

---

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص٤٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٠٧.

(٣) الصدر نفسه، ص٤٠٧.

- وصف يوسف بالصديق الذي انطلق من لسان الساقي صار من الأوصاف اللازمة لاسم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلا يترجم له في الغالب إلا مقترنا الاسم والوصف: يوسف الصديق. وإنما جاز هذا الوصف من صدقه البالغ وتأويله الصحيح لرؤيا السجينين.

- عبر الساقي هنا بقوله: ﴿أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦]، وأول مرة قال له الفتيان: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، وفي قوله ﴿أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦] مزيد من التكريم والاحترام ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ فيه نعت له بوصف الافتاء الذي هو يتضمن الإنباء وزيادة نعت للمتصف به بالكرم، إذ مادة الفتيا والفتوة تلتقيان، والفتوة النجدة والكرم، ووصف في المرة الأولى بمجرد الإنباء دون الإفتاء، لأنهم ظنوا فيه العلم وتوسموه فيه الصدق، وصدق ما توسموه وزيادة، فزادوا على وصفه بالإنباء فوصفوه بالإفتاء.

- قوله ﴿أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦] وفي آخر الطلب ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٤٦]، ولم يقل أفت الملك، ولعلي أرجع إلى الملك، يحتمل أكثر من تفسير، فهي تحتمل أن قضية الرؤيا التي قصها على يوسف أكبر من أن تكون مسألة شخصية، تخص الملك وإنما هي كما تنبأ الساقي تعمّ الشعب، وتتعلق بمستقبله ومصالحه، ولذلك عمم فقال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٤٦]، وعلى تقدير أن الساقي يخطط لمآربه الخاصة، أي على عدم إحسان الظن فإن إخفاء شخصية الرائي يتعلق بنية الساقي أن ينال الخطوة عند الملك حين يكون هو الذي يفسر الرؤيا أو ينقل تفسيرها إلى الملك دون سواه ومن هنا قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٤٥].

- تبدو الرؤيا سهلة واضحة لا تحتاج إلى شديد إعمال ذهن ولكن الله عَزَّوَجَلَّ ادخر تفهيمها لعبده يوسف حتى تكون هذه المسألة ظاهراً في خروج يوسف(١).

- ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]؛ أي: يعلمون تأويلها، ويعلمون أيضـاً فضلك وعلمك ومكانتك، وكأنه بهذا أراد أن يعتذر ليوسف عن تقصيره في حقه ونسيانه لقضيته ودون أن يستفسر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عن الرائي وصفاته وأحواله ومهنته واسمه وكنيته والوقت الذي رأى فيه الرؤيا كما يفعل المعبرون، قالها عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بلسان الواثق من نفسه وعلمه، لأنّه نبي يرى بعين الوحي والنبوة، ولا يحتاج إلى تفكير ومقارنة واستنباط واستدلال بالأسماء والأفعال والأوقات والإرشادات لمعرفة تأويلها(٢).

ثالثـاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ - ٤٩]:

ونلاحظ أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يطلب لقاء الملك ليخبره بالتأويل وهذا يدل على نبل نفسه وترفعه رغم السجن وهو يعلم أنهم لم يأتوا إليه إلا لما عجز غيره عن تعبيرها، يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]، ومع ذلك لم يطلب مقابلاً لتعبيره، ولو كان هذا المقابل رفع ظلم حل به، أو خلع ثوب التهمة الذي ألبسوه إياه ولو أراد مجرد التزلف للسلطان لاستغل هذه الفرصة واحتال مقابلة الملك، فقد كان بإمكانه أن يدعي ضرورة سؤال الملك بعض الأسئلة ليتمكن من تعبير رؤياه، أو ليثق أنها على ما حكاه

---

(١) سورة يوسف، ص٤٠٨.

(٢) التفسير وضوعي، (٤/ ١٨٢).

الساقي، لكنه لم يكُ ينتظر الفرج إلا ممن بيده الأمر كله، ربه ورب هذا الملك. وأما وصيته الأولى فمن باب قول الناصح أبلغ الملك أن في سجنك أناساً محبوسين جوراً.

ولا شك أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علم في استشارة الملك له فرصة ذهبية يجب استثمارها، ولكنه لم يفكر في مصالحه الشخصية، وفكر فيما يكفل مقام النبوة العزة والكرامة. ولعل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أدرك جهل المستشارين وذلك الملأ وقدر أنهم لم يحسنوا إدارة الأزمة القادمة لذلك كان لابد من تقديم تقرير واف ليتضمن الرد على السؤال، والتدبير التي ينبغي اتخاذها لمنع الكارثة الاقتصادية من الوقوع فلم يعبر الرؤيا بأن قال: تأتيكم سنوات شديدة تتلوها سنوات رخاء، بل أخبرهم كيف السبيل للنجاة من تلك السنوات المهلكات ريثما تتغير الحال، فيها للأحسن. لقد استحوذ هذا الخلق الكريم على نبي الله يوسف، فلم يطق إلا أن يكون محسناً، لم يكن يملك أحد ممن رآه إلا أن يصفه بذلك، وفي هذا الموقف دليل على أن الإحسان إلى عامة الخلق مندوب.

إن حال نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذلك الموقف أفصحت عن إحسانه وأفصحت أيضاً عن خلق كريم آخر، ألا وهو العزة بالله... وإلا فمتى كان الملوك يسعون إلى السجناء سعياً ويلتمسون عندهم المشورة التماساً ولكن حقيق على العزيز الجبار أن يعز عبده الذي فوض إليه أمره، وألجأ إليه ظهره، واكتفى به حسيباً[١].

---

(١) آيات للسائلين، ص٢٢٧.

١ - قوله تعالى ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]:

بادر يوسف ليس ليفسر الرؤيا وحسب، ولكن ليرسم خطة عملية تستغرق القطر كله ﴿تَزْرَعُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، وتستغرق الشعب المصري كله وتستغرق سنين بطولها: ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٧].

والسؤال الذي قد ينشأ عند سماع كلامه: أليس الشعب المصري يزرع، فما الجديد في كلام يوسف؟

إن الجديد في مقدار التعبئة وتجنيد الطاقات وحشد القوى، ثم فرق آخر في تشغيل طاقة كل فرد[١].

أ- ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧]:

- ﴿تَزْرَعُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] يعني التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة وهذا الذي كان يخطط له يوسف وعبر عنه بكلمة تزرعون[٢].

- ﴿دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧] معناه: المواظبة: فكأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأب وبدون كسل[٣].

ب- ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧]؛ فعندما تجنون ما زرعتم وتحصدون الحبوب ذوات السنابل كالقمح والشعير، فلا تدرسوها ولا تخرجوا الحب من السنابل بل أبقوه فيها: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧].

---

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ٤٠٩.

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٦٩٧٦).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقدم من هذه الجملة معلومة عملية رائعة ويرشد إلى أحسن طريقة لحفظ الحبوب، وهي إبقاء الحبوب في السنابل لحين الحاجة إليها، فهذا ليحفظها من التسوس، لأن السوس لا يكون في الحب الذي في السنابل اليابسة، فكل حبة محفوظة في وعائها من السنبلة لوحدها، وهذا الوعاء في السنبلة يحفظها من باقي المؤثرات الجوية كالرطوبة والحرارة والرياح، وكأن يوسف في هذه النصيحة التخزينية يقدم لنا خطة بما يسمى الآن بصوامع الغلال في المستودعات التموينية(١).

ج- ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] أيّ: لا تخرجوا من السنابل المخزونة في المستودعات إلا مقدار حاجتكم للأكل، فتدرسون هذه السنابل بالتقسيط على شكل دفعات(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]:

أ- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨]:

أي: سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس.

ب- ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ [يوسف: ٤٨]: تستهلكون فيهن كل ما ادخرتم في سنوات الخصب السابقة.

ج- ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨] أي: قليلاً تحفظونه لزراعته وبذره(٣).

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٦١).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ١٦١).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٢).

- قال القرطبي: في هذه الآية أصل صحة رؤيا الكافر وأنها تخرج على حسب ما رأى، لاسيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول وتصديقاً لمصطفى للتبليغ، وحجة للواسطة بين الله جَلَّجَلَالُهُ وبين العباد[١].

- قال أبو بكر الجزائري: وفي هذا دليل على رؤيا الكافر وأنه قد يرى ما هو الحق، وذلك بتدبير الله تعالى[٢].

- وقال العلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجابهم يوسف على الفور ولم يشترط أن يخرجوه لقاء ذلك، لأنّه كريم وشأن الكريم عدم الإبطاء، والإخلاص في الإعطاء. أفتاه يوسف مع أنه كان عهد إليه بتوسطه عند ملك مصر ولم يفعل، وإنما بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي ستحل بالمصريين، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلماً، لأن النصيحة من الإيمان وكاتم العلم ملعون، ولأن الذي سجنه إنما أفراد، وكذلك الذي نسي أن يذكر حال يوسف ومظلمته عند الملك إنما هو أيضاً واحد منهم فكيف، يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير بذنب رجل أو رجلين[٣].

٣- قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]:

أ- ﴿ثُمَّ﴾ [يوسف: ٤٩]: كسابقتها أفادت التراخي في الزمن أي: بعد تلك السنين الشداد. وأفادت الانتقال الشاسع من حال إلى حال.

ب- ﴿يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [يوسف: ٤٩]: أي من بعد الأمر الذي كان وما فيه من الشدة والمعاناة والتقنين والحرمان الذي أتى على المخزن والمدّخر وما أبقى غير محصّن لخصب مأمول وفرج موعود وغيث مرحوم.

---

(١) تفسير القرطبي، (٩/ ٢٠٤).

(٢) أيسر التفاسير، (٢/ ٦١٩).

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (٢/ ٨١٩-٨٢٠).

ج- ﴿عَامٌ﴾ [يوسف: ٤٩] يعم حدثه العظيم في زمانه فرداً وجماعة (طولاً وعرضـًا) وتأثيره الكبير من الأشياء والعمق من الأحوال (كمـًا وكيفـًا)[(١)]. والفرق بين (سنة وعام) أن السنة يغلب استخدامها في الأزمة والقحط والجدب. والعام يغلب استخدامه في الرخاء والعطاء والخصب[(٢)].

فلفظ السنين يستعمل لسنوات الجدب والقحط، ولفظ (الأعوام) يستعمل في أعوام الخصب والخير[(٣)].

هـ- ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ [يوسف: ٤٩]: جاء باللفظ للدلالة على وجود مستغيث استغاث فأغيث من مُغيث[(٤)] المطر؛ إذ الغيث غالبـًا ما يدل في اللغة على المطر ومن ثم جريان الأنهار وتفجر الينابيع وإحياء الأرض بالزرع والمرعى وإمداد الأحياء بالغذاء والرزق.

- ﴿يُغَاثُ﴾ [يوسف: ٤٩] جاءت بصيغة مالم يُسمّ فاعله، ذلك لأنّه لا أحد من الخلق يدّعي بأنه هو الذي أغاث الناس بل هو الرّب القدير الرحيم[(٥)].

و- ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] وجاء بلفظ العصر إيجازاً بليغـًا دل على كل ما قبله من فعل الحرث والبذر والسقي والزرع والحصاد والدّرس...الخ.

وأخيراً العصر، ولا يكون العصر إلا من بعد إشباع الجائع وإطعام الطعام وفيض الأرزاق، فهو يحمل ويدل على الرفاهية في المطعم واللذة في المشرب

(١) يوسف أيها الصديق، محمد السقا، ص٢٥٨.

(٢) غرر البيان من سورة يوسف، أحمد الشوابكة، دار الفاروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، ص١٠٩.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص٣١٢.

(٤) يوسف أيها الصديق، محمد السقا، ص٢٥٨.

(٥) يوسف أيها الصديق، محمد السقا، ص٢٥٨.

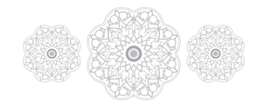
والاستفادة مما زاد على الحاجة وفاض عن الخزانة أي: لم يُغاثوا على قدر حاجتهم وطعامهم، بل على قدر المغيث الكريم الغني الوهاب وفي هذا دليل على أن فرج الله إذا جاء وغيثه إذا أغاث لا يُعطي الناس على قدر كفايتهم فقط، بل ويفيض عليهم من خيره وكرمه وخزائن رحمته التي لا تنفد[١].

إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكتف بتعبير الرؤيا، بل بادر فوضع لهم خطة عمل لمواجهة سنوات القحط والجفاف، خطة اقتصادية تتناول الحياة الزراعية والتنموية للأمة خلال خمس عشر سنة مقبلة، وخطط التنمية في مختلف مجالات حياة الأمم والشعوب من تعليم وزراعة وصناعة وعمران، والتي عرفها الناس في العصور الحديثة، ليست حديثة ولا مبتكرة، إنها قديمة ذكرها القرآن الكريم ووضع أصولها وطبقها النبي الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٢].

إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسم هذه الخطة لأحوال الشعب المصري المعيشية لمستقبل يمتد خمسة عشر عاماً وهو نبي كريم مؤمن بقضاء الله وقدره، ويعلم أن كل شيء خلقه الله بقدر سبق به علمه سبحانه وتعلقت به مشيئته في الأزل، ويعلم أيضاً أن الإنسان لا يستطيع أن يخترق أسوار القدر، ولكن القدر غيب عن الإنسان وقد أمر بأن يسعى في تحصيل أسباب ما يراه نافعاً، واجتناب أسباب ما يراه ضاراً ثم يرضى بما قدر الله تعالى له. ولم يكتف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتعبير رؤيا الملك، بل قدم لهم نُصحه وإرشاده وخيرته وعلمه في شؤون الزراعة والادخار والتموين، وهذا يدل على أن العلوم التي علمها الله تعالى يوسف لم تكن محصورة في علوم العقيدة والعبادة وتعبير الرؤيا، فقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

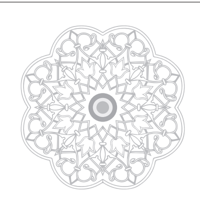
(١) لمصدر نفسه، ص٢٥٨.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٣).

يعلم علوماً كثيرة تتعلق بشؤون الزراعة والادخار والتموين ،تعلمها دون أن يدخل مدرسة وجامعة، علمه الله إياها بواسطة الوحي الذي كما مر معنا في قوله ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي﴾ [يوسف: ٣٧] ولم يبخل عليه بعلومه وخبرته، كما يفعل الآن الخبراء الذين تستقدمهم الدول المختلفة من الدول المتقدمة في مجال العلوم، فلا يقدمون مشورتهم وخبرتهم للمحتاجين إليها حتى يأخذوا عليها ثمناً باهظاً وامتيازات كبيرة. قدمها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للمحتاجين إليها قبل أن تُطلب منه قدمها لمن أساؤوا إليه وظلموه وأدخلوه السجن بسبب عفته وأمانه، قدمها لهم، وهو لا يزال في سجنهم قبل أن يخرجوه منه، وعرف الملك فضل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلمه، فأمر بإخراجه من السجن وإحضاره إليه، ولكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أبى أن يخرج من السجن حتى تثبت براءته، فقد رأى أن دخوله السجن عرّضه للشبهة ولهذا أصر أن ينفيها عنه قبل خروجه[1].



(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٤-١٨٥).





المبحث الخامس: مطالبة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتحقيق وثبوت براءته

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣]:

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]:

١ - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]:

بعد أن رجع الساقي وقص تفسير الرؤيا على الملك تتابعت الأحداث، وكأني بالملك قال من فوره مخاطباً جملة من الملأ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، وهذا الانفعال السريع مع الحدث بعد التعبير يشعر بأن حدس الملك كان يميل إلى نحو قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو أن نفسه انشرحت له، وإلا فما تبين الناس صواب

التعبير بعد، فلما وافق هذا شيئاً مما في نفس الملك مع ما رآه من سرعة فهمه وكريم أخلاقه، لم يملك الملك أن يتريث في طلب يوسف[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[يوسف: ٥٠]؛ في هذه الجملة كم غني من المعاني:

- فالملوك يخاطبون الناس على قدر ما يُعطونهم من الأهمية والقدر، وهم يتحسّسون سلطتهم ويستعملون بدرايتهم في أساليب الحكم:

- فإذا ما خاطبوا الوزراء والمقربين مثلاً، خاطبوهم بلين ورفق.

- وإذا ما خاطبوا الأنداد، خاطبوهم بسياسة وحنكة.

- وإذا ما خاطبوا العصاة، خاطبوهم بقسوة وشدة.

- وإذا ما خاطبوا الخدم، خاطبوهم بعلو وترف.

أما في هذه الحال فإن المعنيّ بالخطاب هو إنسان مجهول لديه، سجين في أحد سجونه لا يعرف له جاهاً ولا عزاً ولا يعرف لماذا هو مسجون، إلا أنه في المقابل أنجده وفرّج كربه وأعطاه ما استعصى على الجميع إعطاؤه وأرسله له مع الساقي، لم يستطيع الملك أن يصمد أمام إلحاح داخله بالتعرف إلى هذا الرجل المليء بالعلم المنسي في غياهب السجن فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[يوسف: ٥٠][(٢)].

٢- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ [يوسف: ٥٠]:

لم يذكر اسم الرسول ولكن الظاهر هو الفتى الذي ذهب إليه لتفسير الرؤيا بدليل أنه ذكر معرفاً ب (ال) أي: الرسول الذي أرسل من قبل وهو الفتى الذي

---

(١) آيات للسائلين، ص٢٣١.

(٢) قصة يوسف مدرسة أخلاقية، ص٣١٩.

نجا من السجن، ولا يستبعد أيضـًا أن يكون الشخص المسؤول عن مهمة توصيل رسائل الملك إلى الآخرين، وحينئذ أدّى الفتى الساقي مهمته، ثم حول المهمة إلى الشخص المسؤول(١).

٣- ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠]:

- ﴿ٱرۡجِعۡ﴾ [يوسف: ٥٠] ولم يقل عُد، فلفظ (ارجع) دلّ على المعنى الخاص الدقيق به، أي: لا تعد إليه خالي الوفاض بل بما سأحمّلك به، وليبقى احتمال تكرار الرّجع بيني وبين الملك غير مغلق.

- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]: وجاء بلفظ الرب للدلالة على أن الرسول كان من فتيان الملك وللدلالة على جواز استعمال اللفظ بين الناس على معانيه المتعارفة بينهم، فالربّ هو السيد المالك لعبيده في المجتمع المنتشر فيه الرق، ورب البيت هو صاحبه وراعي من فيه.

- ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ [يوسف: ٥٠] أي: ارجع إلى الملك برسالة مني جوابـًا لطلبه. وهذا من حكمة يوسف وحسن سياسته وعزة نفسه(٢).

- ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠] أي: ما خبرهن في هذا الأمر؟ واختار عَلَيْهِ السَّلَامُ واقعة تقطيع الأيدي من بين وقائع القصة لأنها أعجب الوقائع وأغربها وأكثرها إثارة للسامع فسيتقصى لزومـًا الحوادث المتصلة بها والأسباب المؤدية إليها(٣). وتقييد الصورة بالموصول وصلته ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠]، لأجل تحديد أدق حتى تقصر المسألة عليهن وحدهن ومن أجل

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص٩٤.
(٢) يوسف أيها الصيق، السقا، ص٢٦٥.
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٦).

الإشعار بشيوع هذه الصفة فيهن حتى أصبحن يعرفن بها. ولم يذكر امرأة العزيز لأن لها وللعزيز عليه فضلاً فما ذكر كلاماً يخصصها ولم يطلق للسانه العنان بكلمات يجرح فيها العزيز وامرأته رغم أنه صاحب حق ومظلوم(١).

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن(٢)، إضافة إلى سؤاله عن النّسوة وعن تلك الحادثة خصوصاً، سيؤول إلى الكشف عن علاقتها بالقضية، دون تصريح بعلاقتها بها(٣). وجاءت ﴿ٱلنِّسۡوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠]: بصيغة (ال) التعريف القلّة أي: أنهنّ مجموعة قليلة من النّساء المعرفات؟ وبهذا حدد السؤال بعض الشيء فلم يسأل عن جمع كثير من (نساء) مجهولات نكرة.

- ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠] وهذا تحديد وتعريف آخر لهن يمكن تمييزهن به، أي: بآثار التقطيع وندب الجراح في أيديهن(٤).

٤- ﴿رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠]:

فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيّاً عن التصريح(٥).

وأنت أيها المؤمن إذا كان هناك من يدبر لك كيداً كفاك طمأنينة وثقة أن الله عليم بهذا الكيد مهما كاد لك ومهما دبر لك، فإن الكيد بعلم الله وسوف يحبطه الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦].

(١) جماليات النظم القرآني، ص١٠٨.
(٢) الكشاف، (٢/ ٤٧٨).
(٣) جماليات النظم القرآني، ص١٠٨.
(٤) يوسف أيها الصق، السقا، ص٢٦٦.
(٥) فتح القدير، (٣/ ٤٧-٤٨).

إذ في هذه الكلمة التي قالها هذا النبي الكريم حكمة ما بعدها حكمة وسداد ما بعده سداد وهذا شأن الأنبياء: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩][1]. إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رد على رسول الملك بكلمات حكيمة ليست رعناء ولا هوجاء، فلم يجب بما لا يناسب مقام المخاطب، ولم يقدح في المدّعى عليهن، بل عمد إلى تبرئة جانبه بأعف عبارة، فلم تكن عفّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تقتصر على ابتعاده على المنكرات، بل بلغت عفّة لسانه حداً يجعله لا يشير إلى المرأة التي حاولت فتنته، ثم سجنته هذا السجن الطويل، بل يذكر قرينة تشير إلى القضية دون أن يصرح باتهام أحد، والذي يتجنب الفحش في الكلام لا يمكن أن يقع في فاحش الأفعال[2].

رفض يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الاستجابة لدعوة الملك بالخروج من السجن بعفو ملكي، ولم يتعجل الاستجابة لدعوة الملك، مع أنه مسجون ظلماً، ومضى على سجنه بضع سنين ومن كان مثله متلهفاً للخروج، فما أن تبدو أول إشارة للخروج حتى يتعجل، هذا وإن لم يَرجُ ويتوسط ويشفع، لماذا وقف يوسف هذا الموقف؟ ولماذا لم يُسارع بالخروج ثم يطلب إعادة المحاكمة وهو حر يعيش حريته؟

من إشارة الملك وأمره بالإفراج عنه، والمجيء به عنده، أن الملك معجب به وأنه يسند إليه بعض المراكز الإدارية العليا، وأنه ينتظره عهد جديد من التمكين، فهم يوسف كل هذا، لكن ما هو كلام الناس عنه؟ وما هو (ملفه) عندهم؟ وما هي سمعته بينهم؟

إن الناس لا يعرفون حقيقة قضية يوسف، وقصته مع امرأة العزيز، ومع نسوة المدينة، لقد شوّه (الإعلام الرسمي) الذي يشرف عليه المتنفذون سمعة يوسف

---

(١) تفسير النابلسي، (٦/ ١٨٩).

(٢) آيات للسائلين، ص١٣٦.

وقدّمه للناس بصورة الظالم المجرم الذي لم يحسن إلى العزيز الذي أحسن إليه، وفتح له بيته، فقام بمراودة امرأته وأراد انتهاك عرضها والاعتداء عليها، ولو لم تدفعه هي وتدافع عن عرضها لنال منها، فعل ذلك وهو عبدُها ورقيقها، وقد عوقب لهذه الجريمة الأخلاقية البشعة بالسجن جزاءً على سوء فعله وهذا قد مضى عليه في السجن بضع سنين.

هذه هي صورة يوسف وسمعته في الخارج، كما صورها الإعلام الرسمي الجاهلي ولعل الملك عرفه بهذه الصورة المشوهة، كما قدمها له الملأ الجاهلون، فهل يخرج للناس بهذه الصورة والسمعة؟ وهل يرضى أن يمن عليه الملك بعفوه وتجاوزه عن جريمته؟ وهل يقبل أن يعرف عند الناس بأنه (طليق الملك) إذ لولا إفراجه عنه لأمضى في السجن سنين أخرى[١]، وهل من المناسب أن يلي المراكز الإدارية العليا، وهو بهذا الماضي الأسود كما يبدو عند الناس؟ مع أنه في الحقيقة عفيف نزيه طاهر شريف، وهو المعتدى عليه وهو المظلوم والبريء، وهو الذي سجنوه ظلماً وعدواناً. إذن لا بدّ من إعادة بحث القضية من جديد، والذي يبحثها ويحقق فيها هو الملك نفسه هذه المرة: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠][٢].

٥- لا تناقض بين يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **هذا وقوله ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾** [يوسف: ٤٢]:

إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال للساقي المفرج عنه من قبل: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] هو يوسف نفسه الذي يرد دعوة الملك للخروج بعد بضع سنوات، فلا يخرج إلا بعد إظهار براءته ولا أرى تعارض بين الموقفين.

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٦٦).

(٢) (٢) القصص القرآني، (٢/ ١٦٧).

فلما قال قبل بضع سنين للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، لم يرد أن يخرج بعفو الملك ولا أن يخرج وسمعته مشوهة عند الناس إنما أراد أن يعرف الملك قصته وأن يطلع على (ملف) قضيته وأن يحقق في الأمر، فإنه إن فعل ذلك فسوف يقف على براءة يوسف وإدانة امرأة العزيز، ولكن الساقي نسي، والملك لم يطلع على القضية والقوم نسوا يوسف موقوفًا في السجن ومضى عليه بضع سنين والآن جاءت فرصة أخرى لإعادة البحث في قضيته من جديد، فكيف يخرج يوسف دون إعادة التحقيق وإظهار البراءة؟

وهب أن الساقي قبل بضع سنين تذكّر يوسف وذكر قضيته للملك، وطلب الملك إحضاره وأمر بالإفراج عنه، فهل سيسارع يوسف بالخروج ممتنًا للملك بعفوه؟ وهل يرضى أن تبقى سمعته مشوهة عند الناس؟

ما أظن أنه كان سيرضى بذلك وأعتقد أنه كان سيتريّث ويتأنى وسيطلب إعادة التحقيق في المسألة.

إنه لا تناقض بين الموقفين، ولا تعارض بين القولين، لأن يوسف الذي قال ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] هو يوسف الذي يقول الآن للرسول ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠][(١)].

٦- أثنى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على موقف يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلوّه وقدره، ففي الصحيحين: عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "نحن أحقّ بالشك من إبراهيم إذ قال: ربّ أرني كيف تحيي الموتى"[(٢)].

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٦٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ح رقم ١٥١.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: نحن أحق بالشك من إبراهيم معناه: لا تظنوا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يشك في قدرته تعالى على إحياء الموتى، فلو كان يشك لكنا نحن أحق بالشك منه، هذا من تواضعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحرصه على تبرئة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من كل سوء.

وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: "ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي" مدح يوسف والثناء عليه بسبب صبره وقوته على تحمل آلام السجن، وفي الوقت نفسه أظهر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تواضعه وضعفه وافتقاره إلى الله تعالى، وما أراد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ انتقاد يوسف والطعن عليه، كما فهم صاحب كتاب (مؤتمر تفسير سورة يوسف) حتى دعا إلى الإعراض عن الحديث الشريف ورفضه[١].

وحمل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ الأمر على اختلاف وجهات النظر في أمر له أكثر من وجهة جيدة، فقال: كيف مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح فيها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة[٢].

فالمبادرة إلى الخروج عند نبيينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى لأن فيها مسارعة إلى التخلص من بلاء السجن، ويمكنه بعدها المطالبة بإظهار براءته وكشف الحقيقة وقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكره تمني البلاء ويقول: "لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"[٣]، ولا ننسى: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثني على

---

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ١٨٥).

(٢) تفسير القرطبي، (٩/ ٢٠٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء ،ح رقم ١٧٤٢.

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لصبره، وأخبرنا أنه لو كان مكانه وسجن لأجابه وخرج فوراً وبعد ذلك يطالب بإعادة التحقيق والمحاكمة[١].

ولهذا قال في رواية أخرى، فيها مزيد من التوضيح أخرجها الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له، حيث أرسل إليه يُستفتى في الرؤيا ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج. وعجبت لصبره، وكرمه، والله يغفر له، أُتيَ ليخرج، فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب[٢]، أي: لسارعت بالخروج من السجن، عندما أتتني دعوة الملك.

تريث يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قلناه سابقا ولم يخرج إلا بعد إعلان براءته وبذلك اختار الأسمى والأكمل والأفضل[٣]، ونجح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحقيق مراده، وبادر الملك إلى التحقيق وباشر بنفسه وأظهرت نتيجة التحقيق براءة يوسف وعفته وأمانته وأنه سجن ظلماً، فأمر بإحضار النّسوة، وسألهن سؤال المتهم لهن[٤]:

ثانيًا: قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]:

يطوي القرآن الكريم الزمن والتفصيلات لنجد أننا في محضر تحقيق يديره الملك بنفسه وقد جمع فيه امرأة العزيز والنسوة وهذا قطعاً اقتضى منه تحريات

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٦٨).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين عكرمة عن ابن عباس، ح رقم ١١٦٤٠ ، الأحاديث الصحيحة، رقم ١٨٨
(٣) القصص القرآني، (٢/ ١٦٨).
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٨٦).

واستفساراً وجهداً حتى أمسك بخيوط القضية كلها ثم حضرت النّسوة بين يديه للمحاكمة ويبدو الملك مقتنعـًا ببراءة يوسف، ويبدو أنه درس الملف وفهم الحيثيات، فهو يلقي بالتهمة مباشرة فأفضل طريقة تجعل فيها المجرم يستسلم ويعترف أن تواجهه بالحقائق الدامغة وأن تحاصره بالتهمة حتى لا يزوغ ولا يروغ ومن هنا يقول(١):

١ - ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[يوسف: ٥١]:

وإن الخطب لا يستعمل إلا في الأمر الجلل: والشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث، ومن هنا قال موسى للفتاتين لما رآهما مُزورّتين عن السقيا(٢): ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾[القصص: ٢٣]، وقال تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢]، وهو سؤال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للملائكة أي: أن الملائكة طمأنت إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ؛ فهي في مهمة لعقاب قوم مجرمين.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين عاد إلى قومه ووجد السامري قد وضع لهم عجلاً من الذهب الذي أخذوه من قوم فرعون نجده يقول: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ [طه: ٩٥].

وقول الملك هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[يوسف: ٥١]؛ يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفصيلها فاهتز لها واعتبرها خطبـًا؛ مما يوضح لنا أن القيم هي في كل زمان ومكان(٣).

---

(١) سورة يوسف، ص٤٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣٥.

(٣) تفسير الشعراي، (١١/ ٦٩٨٩).

٢- ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١]:

ولم يكن ثمة مجال لمراوغةٍ، وقد ابتدأت النّسوة بالكلام لأنهن أقوى موقفاً من امرأة العزيز لأنهن لم يفعلن شيئاً يجرّم مثلها. ولقد كنا نجد امرأة العزيز متقدمة في كل أمر، ولكنها الآن تأخرت! لقد خفضت المعصية رأسها، ونكست جبينها وهامتها وأخرتها. وتعيد النّساء نفس الكلمة التي قيلت قبل سنوات أمام امرأة العزيز فيقلن:

- ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١]؛ قال أبو حيان: حاشا لله تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيءٍ من الريبة ومن نزاهته عنها(١). وهذه الكلمة قيلت من قبل: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١]، ولكن كان في سياق موقف الإعجاب والانبهار لجماله، وفي هذه الحالة استعملتها للجمال المعنوي الأخلاقي(٢). وفي جوابهن ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١] أجبن الملك: معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء. وهو تعبير أريد به تبرئته والتعجب من نزاهته وعفته، أي حاشا لله أن يكون يوسف متهماً. والله ما علمنا من سوء في تاريخه الطويل(٣).

٣- ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١]:

وكلمة (علمنا) لها دلالة أوسع من لو قلنا ما رأينا منه من سوء، لأنها تعني ما رأينا ولا سمعنا ولا علمنا (من سوء) من قليل ولا كثير ولا صغير ولا كبير. ولاحظ ذكاء النّسوة اللائي قطعن أيديهن، وأنهن ضربن صفحاً عن المراودة

---

(١) البحر المحيط، (٦،٢٨٨).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص٩٧.

(٣) التفسير المنير فيا لعقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (٦/ ٦٢٠).

التي ذكرها الملك في السؤال وأجبن إجابة تتضمن نفيها ونفي أي شائبة وتهمة وأي شائبة سوء تمس يوسف، وهذا مما زاد به الملك حرصاً عليه واقتناعاً به[١]. وفي اختيار الفعل (علمنا) ونفيه ب (ما) اشعار ببراءة يوسف على أكمل وجه، لأن ما ذكر من تهمة يوسف هو بالنسبة لهن خبر، فهو من قبيل المعلوم. فاعترافهن بعدم علم السوء مع أنهن سمعن ذلك من قبل، دليل منهن بأن ذلك المعلوم لم يكن صحيحاً على الوجه الذي عُلم، فهو عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بريء مما نسب إليه وأن الخطأ من امرأة العزيز[٢].

ودخول (من) على كلمة (سوء) النكرة أدى إلى نفي جنس السوء كله وذلك أنها تعني نفي كل أجزائه وأبعاضه، وهذا لا شك آكد في تبرئة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ولا شك أنهن أردن تبرئة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بهذا الأسلوب الدال على نفي السوء عنه جنساً وأبعاضاً قناعةً منهن ببراءته وتبرئة لأنفسهن لأنهن متهمات به كما يظهر من سؤال الملك لهن، لذا لا عجب أن يكون نفيهن للسوء عنه على هذا المستوى من العناية والتوكيد، لأنّه لو عُلم على يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ شيء من السوء ولو جزء يسير لكنّ المتهمات بذلك[٣].

٤ - ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]:

يظهر من سياق الآيات أن امرأة العزيز صحا ضميرها تماماً، فلم ترد أن تظلمه مرتين، مرة بسجنه، ومرة بقول الباطل والافتراء، بالإضافة إلى أن براءة يوسف كانت واضحة من خلال شهادة الشاهد من أهلها، بالإضافة إلى أنها أدركت بأن

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٢٦.
(٢) جماليات النظم القرآني، ص١١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١١٥.

يوسف لم يذكر اسمها صراحة على الرغم مما فعلت به من السجن ومحاولة الغواية، رعاية لحقها، وتعظيماً لجانبها وحماية لها؛ لذلك كانت جريئة وفيّة فكشفت عن غطاء الحقيقة للجميع فأصبح الأمر جلياً وأسندت المراودة كلها إلى نفسها وشهدت له بأنه من الصادقين[1]. ولا شك أن امرأة العزيز وجدت نفسها بيم مطرقة الملك وهجومه الصاعق ومعرفته بتفاصيل القضية، وسندات النّسوة اللاتي شهدن وجهرن ببراءة يوسف فلم تجد مخرجاً ولا مناصاً فقد آن الحق من الخروج من تأنيب الضمير والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ وكشف الحقيقة.

- ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]: ها هي امرأة العزيز تستخرج من نفسها معنى ولفظاً سار في الناس مسير المثل وهو قولها ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١][2].

- ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [يوسف: ٥١]: وذكر هذا الظرف يوحي بأن هذه اللحظة كانت منتظرة ولابد أن تأتي يوم تكشف فيه الحقائق، فلما كان هذا الموقف عند الملك، وما كان من تجمع النّسوة وسؤاله لهن، رأت أن هذا هو الموقف المناسب لإظهار الحق، وخصوصاً أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لقد كان كريماً معها حافظاً لحق الأسرة التي رعته فلم يذكرها صراحة، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن، فلا جرم أزالت الغطاء واعترفت بالذنب كله من جانبها وأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مبرأ عن كل ذلك[3].

- ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [يوسف: ٥١] أي: أن هذا الظرف، وقد حان الوقت للاعتراف بخطئها في حق يوسف خصوصاً بعد دخوله السجن، وانعزاله عنها وفتور الشهوة عندها،

---

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص١٠٠.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص١٢٧.

(٣) مفاتيح الغيب، (١٨/ ١٢٣).

فكأنها كانت تنتظر الفرصة المناسبة للإدلاء بشهادتها، فلما كان هذا التجمع الذي رعى فيه يوسف مكانتها قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [يوسف: ٥١]؛ أيّ: حانت الفرصة التي كنت أنتظرها. وقد يكون في هذا الاعتراف على هذه الصورة لون آخر من حب يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو حب التقدير والتوقير، فلما حان الوقت لتبرئة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بادرت بتقديم ما كانت مشغولة به[1].

- ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]: تعود مادة (حصّ) إلى الوضوح والانكشاف أو القطع والإزالة[2]، يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأصل الحص استئصال الشيء، يقال فيه: حص شعره إذا استأصله جزّاً وإنما أريد في هذا الموضع بقوله: ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] ذهب الباطل والكذب فانقطع، وتبين الحق فظهر[3]. وأشار الزمخشري: حصحص أي: ثبت واستقر... وهو حصحص البعير إذ ألقى ثفناته للإناخة[4]. وقد ظهر مما تقدم أن معاني هذه الكلمة تدور حول الثبوت والاستقرار والاستئصال والقطع، والوضوح والانكشاف، ومما لا شك فيه أن هذه الكلمة قد صورت المراد أكمل تصوير، ووفت بالمعنى المراد، إذا قد انكشف الحق ووضح وهو براءة يوسف، وانقطع الباطل، وأزيل، وثبتت البراءة واستقرت.

وأما من جهة دلالة صيغتها، قد جاءت على صيغة الزيادة بتكرار بعض الحروف، فأصلها: (حص) ولكن قيل (حصحص) كما قيل: فكبكبوا، في كبوا.

---

(١) جماليات النظم القرآني، ١١٧.

(٢) المفردات، ص٢٣٧.

(٣) تفسير الطبري، (١٣/ ٢٠٧).

(٤) الكشاف: (٢/ ٤٧٩).

وقيل: كفكف في كف[1]. وعلى قاعدة: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فإن (حصحص) آكد من (حص) فيما ذكر من معاني. وهذه الكلمة لم تأت في القرآن إلا في هذا الموضوع لذا فهي بلا شك قد جمعت أطراف المعنى المراد، وذلك أن الطريقة التي ثبتت بها براءة يوسف كانت غاية في العلو والعظمة، إذا المعترف ببراءة يوسف هو مجموع النّسوة لا بعضهن، وكان ذلك أمام الملك ومن ضمنهن امرأة العزيز، فليس هناك أطراف أخرى لها تعلق بالقضية إلا يوجد من يمثلها في هذا المجلس أعلى تمثيل، لذا فقد تجمع الحق، وثبت وظهر وبان على أكمل وجه، كما تعبر عن ذلك هذه الكلمة: (حصحص).

٥- ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]:

بُدئت الجملة هنا بضمير المتكلم (أنا) وهو في هذا الموضوع من أكثر أساليب التعريف دلالة على المراد، لأن الموقف موقف اعتراف، فهو أقوى من: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ [يوسف: ٣٢].

- ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]: جاءت هذه الجملة من خطابها حاسمة في الموضوع، ناصّة على الحدث المقصود وهو تبرئة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]: إن هذا القول كان مهمـاً في إبراء يوسف، لأن إبراءه يحتاج إلى ثبوت قضيتين مهمتين، المراودة كانت ممن؟ وتصديق يوسف في تلك المواقف المتتالية التي حاولت امرأة العزيز أن تلصق به تهمة الكذب تغطية على فعلتها الشنيعة فجاء الاعتراف الأول: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، هادئـاً دون مؤكدات لأن أمرها فيه ظاهر، فهو إبراز للحق الذي حاولت طمسه.

---

(١) تفسير الطبري، (١٣/ ٢٠٦).

(٢) جماليات النظم القرآني، ص١٢٠.

وأما الجملة الثانية ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]: فجاءت لبيان الأمر المهم في جانب يوسف الذي يشمل ما سبق. وزيادة (وإنه) تقر بأن يوسف على هذه الدرجة العالية من الصدق، وإنما وصلت الجملة بالواو ولم تفصل، للإشعار بأن وصف الصدق وصف عريق فيه غير مرتبط بحادثة معينة[١].

إن امرأة العزيز لم تكتفِ بإثبات التهمة عليها، بل وأضافت تبرئة يوسف منها، ولم تكتف بمجرد تبرئته بل عمّمت الثناء عليه، وبصفة الصدق وَصَفَتْهُ، والصدق عنوان ورأس للفضائل الحميدة.

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ﴾ [يوسف: ٥١]: (إن) و(من) للتأكيد وكذلك اللام، وضمير الغائب عائد على يوسف. ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]: في قوله وعمله وصفاته وفي الحاضر والماضي. والصادق حين قال لها وهي تراوده" ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

- والصادق حين قال للعزيز ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

- والصادق حين دعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

- والصادق حين أجاب رسول الملك: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠].

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]: شهادة أخرى من الغريم أضيفت إلى الشهادة السابقة من صاحبه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، فاجتمع له شهادة الغريم والصديق[٢].

---

(١) جماليات النظم القرآني، د. عويض العطوي، مركز تدبر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص١٢٢.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص٢٦٩.

إن امرأة العزيز تعرض لنا صورة يوسف في نفسها بعد ما كان معها ما كان، وكيف حشدت أدوات التوكيد لا لتؤكد لنا، لأننا نعرف صدقه من غيرها، وإنما لتؤكد لنا إحساسه بصدقه. والتعريف بالألف واللام في كلمة (الصادقين)، يعني أنها من هذه الجماعة التي عرفت بالصدق واشتهرت به، ليس صدق اللسان فحسب، وإنما صدق السلوك، وصدق الأدب، وصدق العفاف، وصدق الرجولة، وصدق المروءة، وكل صدق يحمد به أهل الصدق، فإذا أردت أن تعرف الصدق في شموله وعمومه، ونبله وكرمه، وشموخه، فإنك سترى ذلك وأكثر من ذلك في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

ثالثًا: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]:

ذلك الاعتراف مني ليعلم يوسف حين يصله موقفي هذا، وتبلغه شهادتي هذه ليعلم، أني لم أخنه، ولم أشوّه سمعته ظلماً وزوراً وهو غائب، كما فعلت ذلك وهو حاضر، لن أكرر خطيئتي في حقه مرة أخرى. إن هذا الشيء عجيب إن العادة أن الناس تسيء في الغياب وتحسن في الحضور أما هذه المرأة التي طهر الله سريرتها ونور بصيرتها بعد كثافة الظلمات التي كانت غارقة فيها، فإنها قلبت الموازين وعكست الآية وضربت الرقم القياسي في شهادة الحق والقول بالحق والاعتراف بالحق. عجيب حال الإنسان وكم هي قابلياته واسعة، وقابلة للزيادة والنقص، وللتزكية والتدسية[٢].

وقد أخطأ بعض المفسرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ حينما نسبوا ليوسف قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ

(١) سورة يوسف، ص٤٤١.

(٢) سورة يوسف، ص٤٤١.

بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٢ - ٥٣]، فالصواب أنه تتمة قول امرأة العزيز، كما ذكر ابن تيمية وابن كثير وغيرهم - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جميعـًا- فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما يزال في السجن وهي ربما تقصد زوجها أي أنها لم تخنه بالفعل، لكنها راودت فتاه مجرد مراودة وحسب. وقال بعض المفسرين بأن الضمير يعود إلى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما في قولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، فإن الضمير يعود إلى يوسف والكلام متصل، فيكون المعنى: قالت امرأة العزيز: ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته، فإني وإن أدخلت الذنب عليه عند حضوره، فما أدخلته حال مغيبة، وهذا الوجه أولى لاستقامته مع التركيب ولأن الضمائر قبل عائدة على يوسف[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا من تمام كلامها، والضمائر كلها في نسق واحد مما يشهد بأنه من كلامها، فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١] ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] .... الخ، ومن ثم اتصل بها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ [يوسف: ٥٢]، فلا شيء يفصل الكلام من نظمه، ويضمر فيه قول لا دليل عليه، فإن قيل: فما معنى قولها هذا؟ قيل: هذا تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت له ذلك أي: قولي هذا وإقراري ببراءته: ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: وما أبرئ نفسي، ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق فاعتذرت عن محبوبها وختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته[٢].

---

(١) آيات للسائلين، ص٢٤٠.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم، دار عطاءات العلم، ط٤(٢٠١٩م)، ص٣١٩.

١ - ﴿ذَٰلِكَ﴾ [يوسف: ٥٢]: هذه إشارة فيها معنى البعد المدلول عليه باللام وكأنها تلوح بأهمية هذا المشار إليه، ولا شك في أنه مهم، لأن المراد توبتي وإقراري واعترافي ليعلم أني لم أخنه[١]. إذن هي تشير إلى ما سبق من اعترافها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، وفي التعبير باسم الإشارة (ذلك) استحضار لذلك المعترف به سابقاً مع الإشعار بأهميته وقيمته عندها وعند من يسمع، كما تدل عليه لام البعد. وهنا قبل هذه الإشارة كلام محذوف، يقول المنتجب الهمداني: (ذلك) في موضع نصب بفعل مضمر، أي فعل الله ذلك[٢].

ولعل سرّ هذا الحذف أن يذهب الذهن كل مذهب مع حذف لأن الكلام السابق دال عليه، فجاء اسم الإشارة لربط الكلامين مع فضيلة الإنجاز.

٢ - ﴿لِيَعْلَمَ﴾ [يوسف: ٥٢]: يوحي هذا الفعل مع لام التعليل، بأن ما يهمها هو أن يعلم يوسف بأنها لم تخنه حال غيبته وكأنها تكفر عن أذاها له من قبل.

٣- ﴿أَنِّى﴾ [يوسف: ٥٢]: جاءت ب (أن) وبعدها ياء المتكلم لتأكيد نسبة ذلك إليها.

٤ - ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: ٥٢] أي: ليعلم يوسف أني لم أخنه بالكذب عليه حال غيبته، أو ليعلم زوجي أنني لم أخنه في حقيقة الأمر ولا وقع المحذور الأكبر وإنما هي مراودة ولم يتم معها الفعل[٣].

والذي يظهر لي أنّ الأول أنسب للسياق، لأن خيانة الزوج وقعت بمجرد المراودة، كما أن سياق الحديث كله عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والتعبير بالخيانة

(١) المحرر الوجيز، (٥/ ١٠٥).
(٢) جماليات النظم القرآني، ص١٢٤.
(٣) محسن التأويل، (٩/ ٢٣٧).

دون الكذب، لأن هذا هو اللائق برفع تلك التهمة التي عرفت عنها، فكل سوابقها تشير بذلك إليها، أو لتدفع ما كان يتوقع من مثلها في هذا الموقف مع بعد يوسف في السجن، إذ المتوقع أن تكذب في غيبته عليه لتخلص نفسها من تلك الخيانة، لذا عبرت بنفيها عن نفسها وإنما لجأت إلى نفي الخيانة دون إثبات الأمانة بأن تقول مثلاً: (ذلك ليعلم أني أمينة) لأن ثبوت الخيانة في حقها هو الأصل، فاحتاجت هنا أن تنفي ذلك عنها ولو كانت الأمانة هي صفتها المعروفة لكان الإثبات أولى من النفي.

٥- ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: ٥٢]: الجار والمجرور حال من الفاعل، بمعنى غائبة عنه أو من المفعول غائباً عني، أو يكون ظرفاً، أي بمكان الغيب؛ أي: وراء الأبواب والأستار، وحتى القول بالظرف يؤول إلى الحالية بمعنى لم أخنه مختفية أو مستترة أو ما شابه ذلك، وعلى هذا نسأل عن مجيء هذا القيد على هذا النمط (جار ومجرور)؟ أما سر تقييد نفي الخيانة بحال الغيبة فهذا يشعر بأن ذلك هو مظنة هذا الفعل لكنها لن تفعل ذلك، بل ستقول الحق حتى لو كان غائباً، ولا عجب في ذلك فقد تحولت في موقفها تماماً بعد ظهور الحق وسطوعه، فلا عجب أن تتحول في كل شأنها فإذا كانت قد جحدت الحق بوجوده، فهي الآن تقول الحق في غيابه، وهذا التقابل في الموقف هو المصور لحال رجوعها وإصرارها على تبرئة يوسف.

وأما سر مجيئه بالجار والمجرور، فلعلّ ذلك هو أن المراد هنا هو تصوير كل حالات الغيبة، غيبته عنها، وغيبتها عنه، وكونه أو كونها وراء أستار وحجب، كل ذلك لن يحول دون إدلائها بالحقيقة، وهذا كله لا يتم لو عُبّر بغير الجار والمجرور، لأنّه لن يصور إلا مجالاً واحداً من مجالات الغيبة ولعل هذا ما يفيده

قول البقاعي في تفسيره: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: ٥٢]؛ أي: والحال أن كلامنا غائب عن صاحبه[١]. وهي بذلك تثبت إصرارها على قول الحق.

يقول ابن عاشور: تمدحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه، إذ نفت الخيانة في المغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه وحالة المغيب أمكن لمزيد الخيانة أن يخون فيها من حال الحضرة، لأن الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجة[٢].

٦- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]:

والذي دفعني إلى عدم خيانة يوسف بالغيب والشهادة لصالحه مع أنه غائب عني في السجن؛ هو علمي ويقيني بأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وكأنها تقول: لقد خنت يوسف من قبل بالغيب والشهادة وقد تآمرت عليه، وكدت ضده، وسجنته ولكني لم أنجح في ذلك لأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ولا أريد أن أكرر الخطأ مرة ثانية[٣]. إنها تريد أن يعرف يوسف هذا منها، ليقوده هذا إلى احترامها وتقدير موقعها، فلئن كرهها من قبل لإغرائها وشهوانيتها فقد حق له ذلك، لكنها الآن تغيرت، ولا بد أنها تغيرت، وأنها ناضجة متزنة موضوعية منصفة وذلك ليحترمها.

ونفهم من كلامها هذا أن حبها ليوسف بقي، لم يتغير ولم يُمحَ من قلبها، لكن الذي تغير هو نوع هذا الحب. لقد كان حبها له في الماضي حباً شهوانياً جسدياً، أعجبت بجمال جسده وأرادت مخالطته ومعاشرته، وأما الآن وبعد

(١) نظم الدرر، (١٠/ ١٢٨).
(٢) التحرير والتنوير، (١٢/ ٢٩٣).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ١٧٤).

هذه السنوات العديدة، فقد نضجت ونضج حبها ليوسف معها، وتحول من حبٍّ شهواني جسدي إلى حب موضوعي فكري، أحبته الآن لعفّته وطهارته وأحبته لدينه وإيمانه، وتأثرت لمواقفه. ونلحظ أن حبها الموضوعي لدين يوسف قد أثر فيها، فآمنت بالله ربه، ودخلت في دينه وصارت مؤمنة صالحة، كما يبدو من كلامها[(١)]: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] أي: لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه، فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره، ولا بد أن يقيم لله تعالى سبباً لظهور الخيانة وإن اجتهد الخائن في التعمية[(٢)]. وتختتم امرأة العزيز اعتراضها أمام الملك بالتفاتها إلى نفسها وتسجيل إدانة جديدة إلى نفسها وبرأت يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من التهمة، ولم تبرئ نفسها، وهذه موضوعية كبيرة منها وتفسير ما جرى منها فيما مضى من أنه (نزوة) من نزوات نفسها، حيث تحكمت فيها نفسها، وسيطرت عليها فأمرتها بالسوء والفحشاء وإن النفس تأمر بالسوء، إلا إذا كانت نفساً مؤمنة صالحة ناضجة، فأنضجها بالتربية، فتتوجه إلى الله بالاستغفار عن كل ما جرى منها في قضية يوسف، وتندم عن كل ما فعلت من مراودات وإغراءات: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، ونلحظ المنطق الإيماني لهذه المرأة المؤمنة، التي بدأت أمامنا شهوانية شبقة متآمرة فاتنة، وانتهت مؤمنة منصفة موضوعية صالحة وهذا التغيير الإيجابي في شخصية هذه المرأة، صورة من صور توفيق الله عَزَّوَجَلَّ ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونجاحه في الدعوة، حيث نجح في الانتقال بهذه المرأة من سفح الشهوات الهابط، إلى قمة الإيمان والتوبة والرجوع إلى الرب الغفور الرحيم[(٣)].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٧٥).
(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٣٥.
(٣) القصص القرآني، (٢/ ١٧٦).

رابعـًا: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]:

كان في الكلام السابق نوع تزكية لنفسها وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استدركت فقالت[١]:

١- ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أي: ولست أُبـرّئ نفسي من الخطأ والهم بذلك الإثم والقيام والمكائد والحيل[٢]. والآية أصل في التواضع وكسر النفس وهضمها[٣].

٢- ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أي: لا ادّعي براءة نفسي، لأن نفوس العباد كثيراً ما تأمرهم بما تهواه من المعاصي، إلا من رحم الله فعصمهم[٤]. وفي هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، دليل على أن هذا وصف النفس من حيث هي وأنها لا تخرج عن هذا الوصف ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ أي: برحمة من الله وعناية منه، لأن النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلا كل شر فإن رحم الله العبد ومنّ عليه بالعلم النافع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف وصارت مطمئنة إلى طاعته وذكره ولم تأمر صاحبها إلا بالخير، ويكون مآلها إلى فضل الله وثوابه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

---

(١) التفسير المحرر لقرآن الكريم، (١١/ ١٨٣).
(٢) المصدر نفسه، (١١/ ١٨٤).
(٣) تفسير ابن عاشور، (٦/ ٦).
(٤) تفسير السعدي، ص٥١٠.

فعلى العبد أن يسعى في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم وهو أنها أمّارة بالسوء وذلك بالاجتهاد وتخلقها بأحسن الأخلاق وسؤال الله على الدوام على ذلك، وأن يكثر من الدعاء المأثور: "اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت"(١). والآية الكريمة تدل على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء، بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء.

وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال: تكون أمارة بالسوء، ثم تكون لوّامة، أي: تفعل الذنب، ثم تلوم عليه، أو تتلوّم فتتردّد بين الذنب والتوبة ثم تصير مطمئنة(٢).

٣- ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

فنجّاه من نفسه الأمّارة حتى صارت مطمئنة إلى ربها منقادة لداعي الهدى مستعصية عن داعي الرَّدى، فذلك ليس من النفس، بل فضل الله ورحمته بعباده(٣).

٤- ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أي: أن من شأنه تعالى كثرة المغفرة لعباه والرحمة لهم، فربي (غفور)، أرجو أن يغفر لي ما ارتكبته، فهو سبحانه غفور لمن أذنب وعفى ثم تاب وأناب. وربي (رحيم) يقبل التوبة(٤) من عباده ويعفو عن السيئات ويوفق للأعمال الصالحة.

---

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ص٤٣.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٥/ ١٤٣).

(٣) تفسير السعدي، ص٥١٠.

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٣٦.

وجملة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، تدل دلالة أكيدة على أنها مؤمنة بالرب الغفور الرحيم.

كانت تصرفات امرأة العزيز الأخيرة تدل دلالة كبيرة على أنها قد علمت بحقيقة رسالة يوسف ونبوته عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأسلمت وحسن إسلامها، فقد كان الاعتراف بالحق أمام مجلس القضاء الملكي الأعلى، فكانت شهادتها صيحة حق مدوية، مبرئة ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من كل تهمة، ومثبتة له كل كرامة وطهر ونبل وشرف، وفي نفس الوقت معلنة عن ذلك الإيمان العظيم في قلبها المشرق الوضيء، وما كان لأنثى مثلها أن تصدع بما صدعت به من الحق أمام الملأ العظيم لولا الإيمان، فكان يكفيها أقل منه بكثير لو لم تكن قد آمنت وصدّقت.

وإذا تأملنا ما جاء على لسانها تعقيباً على اعترافها من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فمن نور هاتين الآيتين الكريمتين نرى دلائل إيمانها تتلألأ نوراً على لسانها واضحة مشرقة، ألم تقل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]؛ وهي قاعدة إلهية وسنة مطردة في كون الله تعالى، فالخائنون محرومون من هداية الله مبعدون عن رحمته مقطوعون عن فضله وكرمه، ألم تُنبئنا بحقيقة النفس وميلها إلى الشهوات ودوام أمرها بها إلا نفساً رحمها خالقها فعصمها من كل سوء كنفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والأنبياء عليم الصلاة والسلام، والصالحون من عباد الله. ألم ترجُ الله ربها بعد أن تابت وأنابت ورجعت إليه أن يغفر لها ويرحمها: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فأي دلالة على صحة إيمانها بعد كل هذا[1].

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٢٤٢.

٥- هل تزوجت امرأة العزيز بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؟

إن بعض كتب التفسير قد ذكرت أن زليخا امرأة العزيز تزوجت بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كذلك فإن كثير من مؤرخي تراثنا يذهبون إلى ذلك.

أخرج الطبري عن ابن إسحاق أن الملك زوّجه منها، فلما دخلت عليه عروساً قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت أردت، فقالت له: أيها الصديق، كنت في غاية الجمال وكنت شابة عذراء وكان زوجي لا يطأ، فغلبتني نفسي في حبك فدخل يوسف بها فوجدها بكراً، وولدت له ولدين، إقرام، ومنشي. وقال المطهر القدسي: وكان يوسف تزوج زليخا فولدت له اثنين، إفرايم بن يوسف جد يوشع بن نون، وكان ولي عهد موسى من بعده، ومنشي بن يوسف أبو موسى صاحب الخضر - كما يزعم أهل الكتاب - وجاء في قصص الأنبياء المنسوب إلى الكسائي أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما اجتمع بأهله أخبرهم بما جرى له في مصر، وحدثهم بحديث (زليخا) وأن أولاده منها. وقال الكسائي في موضع آخر: وكانت (زليخا) ماتت قبل يوسف فحزن عليها ولم يتزوج بعدها.

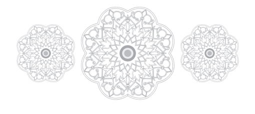
والحق أن أمر البتِّ في زواج امرأة العزيز من يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والحكم بصحته لم يرد في أي مصدر يُعوَّل عليه؛ يقول الإمام ابن عطية الأندلسي: وروي في نحو هذا من القصص ما لا يُوقف على صحته، وقد أشار قبل ذلك إلى ما رُوي عن زواجها من يوسف.

وقال الإمام الألوسي البغدادي: وخبر تزوجها أيضاً مما لا يُعوّل عليه عند المحدثين.

هذا، ويمكن الرد على من ادّعى بأن الله أعادها شابة ليتزوجها يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأن ذلك لو حدث لكان معجزة له، ولأخبر عنها القرآن الكريم، كما أخبر عن

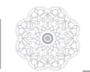
معجزة رد البصر ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ولكنّ ذلك لم يقع، فبطل هذا الادعاء[1].
لقد أكرم الله (زليخا) بما هو أعظم من الزواج بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكرمها بالإيمان العظيم. إن هداية الله تعالى لامرأة العزيز، وشرح صدرها للإيمان بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته، هي قمة العطاء الإلهي وهي النعمة فوق كل نعمة وكفى بها نعمة، وإن مجرد زواجها من يوسف الذي يتعلق به البعض، ويود لو كان صحيحاً لا يساوي شيئاً، فقد حكى القرآن الكريم عن المرأتين اللتين تزوجت كل واحدة منهما برسول من رسل الله ولم ينفعها هذا الزوج شيئاً عند الله رب العالمين واستحقت كل واحدة منها النار لكفرهما حتى ضرب الله بهما المثل للذين كفروا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

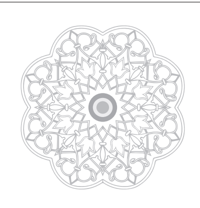
فعطاء الإيمان العظيم لزليخا والذي جرى على لسانها فياضاً بالنور والرضا واليقين في الآيتين (٥٢-٥٣) [من سورة يوسف] السابقتين، هو العطاء الأكرم والأسمى والأبقى والمقبول عند رب العالمين، فهذا هو ما يجب أن تتعلق به القلوب وتهتم به العقول المؤمنة المخلصة[2].



(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٤٣.
(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٤٤.







المبحث السادس: يوسف عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ في سدة الحكم والسلطان والتمكين

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

أعجب الملك بأمانة يوسف عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ وصدقه وعفته وأعجب أيضـًا بعلومه وخبرته فأحبه واشتاق لرؤيته[١].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤]:

لا تزال أسهم يوسف ترتفع في نظر الملك مرة بعد مرة، وفي موقف بعد موقف، أولاً بتفسير الرؤيا، ثانيـًا برفضه الخروج، وثالثـًا بهذه الشهادة التي أدانت بها النّسوة أنفسهن وشهدت له شهادة ما قيلت في أحد من العالمين. والآن موقف رابع جديد أهم من كل ما سبق، أن يجلس إلى يوسف مباشرة ويستمع إلى هذا المنطق السديد، والفكر الثاقب الخصيب[٢].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٢).

(٢) سورة يوسف، القره داغي، ص٤٤٦.

١ - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[يوسف: ٥٤]:

لقد قال الملك ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٤] مرتين:

المرة الأولى: بعد ما عبر له رؤياه، ونحسُّ هناك رغبته في الإنعام عليه، بالإفراج والعفو مع الاهتمام بهذا العالم الذي حل لغز الرؤية.

المرة الثانية: في هذ الموقف الكبير ذكر الملك أنه يريد يوسف ليستخلصه لنفسه، فهو الآن لا يريده للعفو عنه فقط ولكن لشيء أكبر من ذلك بكثير[١] يقولها بكل جدية وصراحة واعتراف[٢].

تبينت للملك براءة يوسف وتبين له علمه في تفسير الرؤيا وحكمته في طلب تمحيص أمر النّسوة، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ولا يتهافت على لقاء الملك وأي ملك؟ ملك مصر.

ولكن يقف أمامه الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته، قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله، قبل أن يطلب الحظوة عند الملك، كل ذلك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل، وحبه فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[يوسف: ٥٤].

- ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[يوسف: ٥٤]: السين والتاء في أستخلصه للمبالغة والمعنى أجعله خالصاً لنفسي، أي خاصاً بي لا يشاركني فيه أحد، وهذا كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه[٣]. والذي جعل الملك يتقدم هذه الخطوة نحو يوسف:

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٧٧٨).

(٢) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص٤٢٨.

(٣) سورة يوسف، ص٤٤٨.

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤] هو معرفة أمانته وكرم نفسه وصدق معدنه وعمق فهمه للطبيعة الإنسانية وأن استقامتها لا تكون إلا بمدد من الذي خلقها وأن المقصود ليس أن يعمل عملاً خاصـاً بالملك، وإنما يعمل لمصلحة العباد والبلاد، وأن استخلاص الملك له لنفسه هو العمل لمصلحة العباد والبلاد[١]، وهذا ظاهر في أن الملك يسعى لإنقاذ بلاده من الأزمان الاقتصادية القادمة وأنه لن يجد مثل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي توفرت في شخصيته الصفات القيادية والأخلاقية، والمعرفة الإداريـة والاقتصادية لإنقاذ البلاد والعباد، ويذهب الرسول مرة ثانية وفي هذه المرة يأتي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ متسربلاً بثوب العز مرفوعَ الرأس مطمئن النفس، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقد تكون ثياب يوسف ثياب لا تليق كثيراً بلقاء الملك فهي ثياب من قضى في السجن سنينـاً عدداً، ولكن ماذا يضيره ونفسه تتألق طهراً وذكره ينتشر أريحـاً وعبيراً يجد فيه الملك عرفـاً فواحـاً، وما الثياب إذاً تسربلت النفوس سربال العلو والسمو؟ ورضي الله عن الشافعي إذ قال:

عليَّ ثياب لو تباع وتشترى بفلس

لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تُقاس بمثلها

نفوس الورى كانت أعزّ وأكبرا[٢].

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٣٥.

(٢) قصص القرآن، د.فضل حسن عباس، ص٤٢٩.

٢- ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤]:

- ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ [يوسف: ٥٤]: فلما كلمه الملك ورأى فضله وخصاله الحميدة زادت مكانته لديه[١] ورأى فيه الملك مالم يره في أحد قط، فزاد حبه وتقديره واحترامه في قلبه وكشف ملكاته وقدرته العقلية والفكرية الإدارية والأخلاقية بتلك المقابلة العظيمة فقال له الملك:

- ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤]: وهذا القرار الملكي جاء بعدما اكتملت صورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في مرأى الملك من كل نواحيها وتطابقت في الغيب والشهادة وعظمت في قلبه بعد أن خاطبه وكلمه، فرأى فيه ما رأى من آيات الكمال النبوي والاصطفاء الإلهي ففرح بلقائه ونوال قربه، وفتح له الباب على مصرعيه ليتولى أي منصب يختاره لنفسه من مناصب الدولة العالية، فهذا هو المفهوم من قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤]؛ أي فاختر ما تحب لنفسك من مناصب الدولة العالية. لقد أصبح لك عندنا مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة وأصبحت مؤتمناً على كل شيء[٢].

إن خطاب الملك ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (إنك) بهذا التأكيد القوي لإعلام يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بمكانته لديه ثم قال: (اليوم)، وهذه الكلمة تعني أنك قبل اليوم لم تكن بهذه المكانة وإنما كانت اليوم بعد ما عرفناك وبلوناك، وعرفنا أمانتك، وعرفنا قدرتك. وكلمة (لدينا) معناه نحن المسؤولون عن هذه البلاد وأنك مكين أمين عندنا في صلاحيتك لأن تتولى مسؤولية من هذه المسؤوليات التي نحن مسؤولون عنها، ولا نختار لها إلا ما عرفناه وبلوناه، ولم نكتف في معرفتك

---

(١) التفسير المحرر، (١١/ ١٩٦).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٣).

بالذي كان منك في شأن الرؤيا ولا بما شهده لك النّسوة وإنما لما كلمناك وعرفنا قدرتك وعقلك وبصيرتك، صرت عندنا موضوعـاً لهاتين الصفتين التي لا نحتار أحداً لولاية شأن من شؤون البلاد إلا إذ توفرت هاتان الصفتان فيه، أن يكون مكيناً قويـاً، نافذ الرأي وان يكون أميناً، وأنك اليوم لدينا مكين أمين[١]. وكلمة مكين أي قادر متمكن وصاحب المنزلة في قلوب الناس[٢].

وإن المراد بقول الملك أمين: أننا نعول على أمانتك في الشيء الذي تباشره، فلا تنابعك، ولا نراقبك، ثم إن الملك لم يتخير له موقعـاً بشغله وإنما ترك ذلك ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنه أعرف بالذي يحسن ويتقن. وفهم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا فاختار عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خزائن الأرض لكونه حفيظ عليم[٣].

وإن هذا الموقف من الملك ليدل على خلق نبيل عند الملك أيضـاً، فإنه لا يعجب بالأمانة إلا أمين، ولا بالرجولة إلا رجل، ولا بالشجاعة إلا شجاع ولو كان ذا نفس أنانية صغيرة لحسد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولخشي أن تطغى شخصيته على شخصيته، ولكان أبعده وخسر طاقة ضخمة تستطيع أن تقود سفينة أمة إلى بر السلامة، ولكن هذا الموقف بجوار أنه شهادة ليوسف فهو شهادة للملك نفسه[٤].

إن قول الملك هذا: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، يدل على علوّ مداركه وحسن فراسته، وحبه للأخلاق الكريمة وإنصافه وعدله مع أنه من ملوك (الهكسوس) وهم البدو الرّحل الذين استولوا على الحكم في مصر، واستأثروا به

(١) من حديث يوسف وموسى، ص١٣٩.
(٢) قصص القرآن، د. فضل حسن عباس، ص٤٢٩.
(٣) من حديث يوسف وموسى، ص١٣٩.
(٤) سورة يوسف، ص٤٤٧.

دون الأسرة المعربة الحاكمة التي تنتمي إليها الفراعنة ولهذا ذكره الله تعالى بالملك، ولم يذكره بفرعون كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ(١) وكما بيننا سابقًا.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]:

إنّ السياق القرآني يبين أن الملك عرض على يوسف الـوزارة، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عين الحقيبة الوزارية فقط، والذي أشرف عليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يمكن أن يوازي اليوم هذه الوزارات: التخطيط، التموين، الزراعة، المالية، الاقتصاد، العمل، الثروة الحيوانية، وزارة القوى البشرية والتعليم، الإعلام؛ وهذا يستخرج من قوله ﴿خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٥](٢).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يقوم بعمل كبير مفيد، ويتحمل مسؤوليته، فرشّح نفسه لأخطر المناصب أعلاها وأكبرها عملاً وجهداً ودأباً وسهراً، وأكثرها نفعاً لعامة الناس وضعفائهم وفقرائهم، والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزمات اقتصادية خانقة تبعة كبيرة ومسؤولية جسيمة، يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تكلفهم رؤوسهم(٣).

١ - ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٥]:

أي: اجعل أمر إدارة خزائن المال والطعام في أرض مصر إليّ، فإني أمين عليها، خبير بتدبير شؤونها ووجوه مصالحها(٤). طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك، خيراً مما

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٢).
(٢) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص٤٥١.
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٠٥).
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٤).

ينهض بها أحد في البلاد، وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحاً من الموت وبلاداً من الخراب ومجتمعاً من الموقف الفتنة - فتنة الجوع - فكان قوياً في إدراكه لحاجة الموقف إلى معرفته بخبرته وكفايته وأمانته(١).

٢- ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]:

ذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤهلاته على خزائن الأرض وهي:

-الحفظ والعلم، وقد علمنا أن الحفظ يقابل الأمانة، والعلم يقابل القوة كما في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. والعلم قوة قطعاً والغربيون يقولون: إن المعرفة قوة. ونحن أحق بهذه الكلمة منهم، أما الحفظ أو الأمانة فصفة وهبية نفسية وأخلاقية توفيقية وكسبية(٢).

- ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ [يوسف: ٥٥] على وزن فعيل، مبالغة: من حفظ؛ أي: شديد الحفظ لما يرد من الأرزاق والأقوات والأموال، فكأنه يقول: ليست أمانتي قاصرة فكثير من الناس أمين في نفسه ولكنه سيء التدبير، فهو مع أمانته لا يطيق حفظ ما اؤتمن عليه، لا ضعفاً في الأمانة، ولكن عدم قدرة على الحفظ والصيانة(٣).

- ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] على وزن فعيل مبالغة من: علم، والمعنى: عظيم العلم أعرف كيف تصرف الأموال في مصارفها وأعلم كيف تُنمّى وتُصان وتلك صفة تستحق صاحبها المكانة.

وهذه الكلمات تشعر بأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استفاد من السنوات التي قضاها في بيت العزيز خبرة في أمور التدبير(٤)، فقد كان يوسف قد خبر شؤون البلاد

(١) سورة يوسف، ص٤٥٠.

(٢) سورة يوسف، ص٤٥١.

(٣) آيات للسائلين، ص٢٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٧.

ونُظمها وطرائف عيشها وأساليب أهلها فيها وذلك بحكم إقامته بها في خدمة العزيز مدبراً أمور بيته محتملاً ما يسند إليه من وظائف وأعباء وكان في أثناء ذلك، - وهو الغريب النازح - يدرس ما يجري أمام عينيه فاحصاً متأملاً مستقصياً أمور البلاد والعباد متعرفاً ما يتبعون من عادة، مستمعاً إلى ما يروون من عيون الأخبار، ومن تاريخهم، وتاريخ ملوكهم وحكامهم، وكانوا بالرواية والتاريخ شغوفين[١].

إنّ عزيز مصر تبنّى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصدقت فيه فراسته، فقد كان يؤمل فيه النفع؛ ولذلك اهتم بإعداده إعداداً مستقبلياً في صقل شخصيته، حتى يعينه على أمور الدولة ويساعده. وبهذا يعلم أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أقدم على ما أقدم عليه لمعرفته بواجبات الوقت، ولعلك تلحظ في تعليل يوسف أحقيته بالمنصب أسباباً خصها دون غيرها، فلم يقل إني حسيب كريم، فليس الحسب والكرم الأصل مؤهلاً للولاية. ولم يقل إني مليح جميل، فليس ذلك معتبراً هنا. ولم يقل بما أنني صرت قريباً منك، أو في حاشيتك لذلك عليك أن توليني، فليس ذلك مؤهلاً من مؤهلات ولاية العامة. ولم يقل كذلك: ولِّني لفصاحتي ولباقتي ونحو ذلك مما حباه الله إياه وفاق فيه غيره، لأنّه لا يناسب الطلب، بل ذكر الحفظ والعلم، وهنا مربط الفرس[٢]، وقد يرد سؤال هنا: لِمَ اختار يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خزائن الأرض تحديداً؟

فيقال أولاً: لأنها من أرفع الولايات، وقيل: هو المنصب الذي كان يتولاه العزيز، ويوسف من خلاله يستطيع أن يحكّم شيئاً من شريعة ربه. ثانياً: لأنها

---

(١) مصر في القرآن والسنة، د. أحمد يوسف، ص٦٢-٦٤.

(٢) آيات للسائلين، ص٢٤٧.

تتناسب مع خبراته السابقة المستفادة من نشأته في بيت العزيز السابق. ثالثـاً: لارتباطها بمصالح الناس، وبذلك يكون قريبـاً منهن يمكنه أن ينفذ إلى قلوبهم ويرغبهم في توحيد الله والإيمان به وإفراد العبودية، ويعرفهم بالدين القيم. رابعـاً: معرفته بواقع البلد وبالأزمة المقبلة عليها وبحاجتها للحفيظ العليم الأمين. فلعل هذه الأمور مجتمعة وربما غيرها اقتضت تعيين تلك الولاية على وجه الخصوص[١].

وقد استدل أهل العلم بخبر يوسف هذا على جواز طلب الولاية إذا علم الطالب أنه لن يقوم بها على وجهها غيره، أو غلب على ظنّه أو احتاج الناس له بعينه فيها، بل قال بعضهم بوجوب طلبها في هذه الحال، ونقل بعضهم الاتفاق على جواز طلبها[٢]، وأما حديث عبد الرحمن بن سمرة في الصحيحين قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: "يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكلت إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها"[٣]. فلا يرد على هذا لأنّه لم يكن عبد الرحمن بن سمرة منفرداً بالفضل على سائر الصحابة فيما طلب[٤]. إن طلب الولاية إذا كان لحفظ النفس كتحصيل مكسب يراه حلالًا أو يشتمل على تقديم غير الكفء فلا يجوز، بل على الوالي إذا جاءه من يطلب الولاية وهو يعرف أن في البلد من هو مثله أو من هو أكثر كفاءة فلا يوليه لأن طلبه للولاية نقص، ومخالفة لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وهديه. أما إن طلب إنسان الولاية لمصلحة الأمة، فلا حرج عليه، بل قد يجب عليه ذلك إذا لم يسد

---

(١) المصدر نفسه،٢٤٨.

(٢) آيات للسائلين، ص٢٤٩.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، ح رقم ٦٢٤٨

(٤) آيات للسائلين، ص٢٥٠.

غيره مسده[١]، ودل قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للملك: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، على جواز قبول العمل والوظيفة من الحاكم الكافر، وخاصة إذا كان في العمل مصلحة لبني آدم ورعاية لشؤون الإنسان بما يرجع بالنفع عليهم في دينهم ودنياهم ودلالتهم على الخير وهدى الأنبياء والمرسلين.

إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعية الضخمة في أشد أوقات الأزمة، وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل[٢]. ويرى ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذا المجتمع الكافر لابد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته ورعيته ولا تكون جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكنه فعل الممكن من العدل والإحسان ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته مالم يمكن أن يناله بدون ذلك وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولقد اعترض المانعون على المجيزين في استدلالهم بقبول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للوزارة وقالوا: إن شرعنا لا يجيز تولي الوزارة في ظل حاكم غير مسلم، وأما تولي يوسف للوزارة فهو شرع لمن قبلنا، وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا إذا جاء في شرعنا ما ينقضه، ورد المجيزون على هذا الاعتراض بوجوه:

الوجه الأول: أن شرعنا وشرع يوسف، بل شرائع الأنبياء جميعاً متفقة في تقرير حاكمية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقرر مخاطبته للفتيين الذين دخلا

(١) المصدر نفسه، ص٢٥١.
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٠٥).

معه السجن أن الحكم لله وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠][١] إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، ومن ادعى الحق فيها فقد نازع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أول خصائص الألوهية[٢]. ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يعلم هذا الحكم المقرر في جميع الأديان هو الذي يتولى منصب عزيز مصر، ويقول للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، فيتولى هذا المنصب وهو يعلم أن للملك نظاماً وشريعة لا يستطيع أن يزجها بين عيشة وضحاها: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، إن هذا النص يحدد مدلول كلمة الدين في هذا الموضوع تحديداً دقيقاً، إنه يعني نظام الملك وشرعه، فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته[٣] فإذا كان فقه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للحاكمية هو الفقه نفسه المقرر في شريعتنا ومع ذلك تولى الوزارة فإننا نجزم في هذا المقام بأمرين:

أ- أن توليه للوزارة لم يناقض عقيدته في كون الحاكمية لله وحده.

ب- وأنه لم يكن مخطئاً عندما تسلم الوزارة، لأنّه نبي معصوم.

الوجه الثاني: ومما يدل على نفي هذه الشبهة وإبطالها إخبار الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن استلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الوزارة كان رحمة ونعمة ولم يكن عذاباً ونقمة: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٥ - ٥٦]:

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، (٢٠/ ٥٦-٥٧).

(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩٠).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٠).

فالله يقرر أن استلام يوسف للوزارة هو باب التمكين له في الأرض وأنه رحمة أصابه بها وإنه أجر دنيوي عاجل وما ينتظره من الله من الثواب الآجل أعظم وأكبر: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]، ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يصرح بأن استلامه للحكم كان من نعم الله عليه ولم يكن نقمة: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الوجه الثالث: والنصوص التي ذكرت تدل على أن هذا الحكم ليس خاصاً بنبي الله يوسف، دون سواه، ذلك أن النص صيغ صياغة عامة: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، ثم من ادعى أن هذا الحكم خاص بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دون سواه عليه أن يأتي بالدليل، لأن الأصل في سير الأنبياء والمرسلين يراد به التآسي والاقتداء فكيف إذا جاءت النصوص القرآنية الخصوصية مشيرة إلى العموم[١].

لقد تحدث المفسرون في هذه القضية:

- نقل القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن بعض أهل العلم إباحة طلب الرجل الفاضل بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك، ونقل القرطبي عن قوم أن هذا كان ليوسف خاصة دون غيره، ولكنه رجح القول الأول[٢].

---

(١) حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ص٢٩-٣٢.

(٢) تفسير القرطبي، (٧/ ١٥١٢).

- استدل الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطلب يوسف الولاية على جواز ذلك لغيره إذا كان الطالب قادراً على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر، بل ذهب الألوسي إلى أنه قد يجب الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلاً، وكان متعيناً لذلك(١).

- وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر، بل الكافر، لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق(٢).

هذا وقد وجد الملك في يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأمانة والخبرة فوافق على طلبه وسلمه مسؤولية إدارة الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مملكته كلها وأصبح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الوزير الأول في مصر وعزيزها وصاحب الكلمة النافذة فيها بعد الملك، وجمع الله له بهذا النبوة والحكم فقد كان نبياً وحاكماً وفي هذا ردٌّ على أولئك الذين يحصرون مهمة الأنبياء في بيان شؤون العقيدة، والعبادة فقط ويحاولون عزل الدين على الشؤون المتعلقة بالحكم والسياسة والاقتصاد وغير ذلك من الأمور العامة(٣).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

بين الله تعالى فضله على نبيه يوسف ونعمته عليه، فقال:

---

(١) تفسير الألوسي، (١٣/ ٥).
(٢) فتح القدير، (٣/ ٣٥).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٦).

١ - ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]:

أي: مثل هذا الذي كان له التمكين عند الملك. (كذلك) مركبة من كاف التشبيه. و (ذا) الإشارة، ولام البعد وكاف الخطاب، وهذا يُشعر بنفوذ أمر يوسف في الأرض، بل بنفوذه عند من تمكن عنده أولاً وهو الملك، فقول من قال من المفسرين: لم يكن الملك يخالف له أمراً، ليس ببعيد، وتلك حال كل من تمكن عنده إنسان ثم ائتمنه(١).

- ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦] ترسيخ وتثبيت الوجود والحضور في الزمان والمكان مادياً ومعنوياً(٢). ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] أي: أرض مصر والحدود التابعة للمملكة الهكسوسية.

- والتمكين: السلطان والملْك(٣). إن القرآن الكريم تحدث عن مادة التمكين وقد كتبت فيها رسالة الدكتوراه (فقه التمكين في القرآن الكريم)، وأشار القرآن الكريم إلى أنواع التمكين وشروطه وأسبابه ومراحله وأهدافه:

ومن أنواع التمكين:

- تبليغ الرسالة وأداء الأمانة وهذا واضح في دعوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لصاحبيه في السجن إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة وترك الشرك وبيان خطورته.

- المشاركة في الحكم، حيث مكنّ الله ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في السلطة والحكم بمرسوم ملكي ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤].

---

(١) آيات للسائلين، ص٢٥٦.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص١١١.

(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، د. علي الصلابي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص١٧.

ومن أنواع التمكين الكلي، تمكين الله تعالى لذي القرنين وداود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة بعد فتح مكة. ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾ [يوسف: ٥٦]، بأن الله تعالى أسند التمكين على ذاته العليّة بصيغة: (نا)، للدلالة على كون الأمر مهمـاً، وأنه لولا تمكينه لما تحقق ليوسف شيء[١]. وهذا حق بارز وواضح من القصة، فمن غلام مهدد بالموت في الجب أو الضبيع إلى عزيز مصر يحكم مصر، يتبوأ منها حيث يشاء، فتبارك الله العليم الحكيم القادر القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[٢].

والآية الكريمة هنا تذكر التمكين في الأرض وهو أعم من التمكين السابق في بيت العزيز، لقد صارت صلاحياته الآن تستغرق القطر المصري كله، وتشمل الديار المصرية برمتها والمقدرات المصرية جميعـاً، وإن يوسف لما لم يجعل للشهوات على نفسه تمكنـاً مكنه الله من ملك مصر[٣].

٢- ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]:

فيُشير إلى تقلبه فيها معززاً، ويشير إلى متابعته الأحوال المصرية على الطبيعة والزيارات الميدانية للأقاليم، لأنه بالتجربة البشرية يرى وبالمشاهدة يدرك، أنه لا تنفع خطة ليس وراءها متابعة. ثم هذه الإشارة إلى أن الذي يضع الأحداث في الحقيقة هو الله عَزَّوَجَلَّ. والتبوء: اتخاذ المكان للبوء، أي الرجوع، فمعنى التبوء النزول والإقامة، وقوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر[٤].

---

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للقره داغي ص١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٣) سورة يوسف، ص٤٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٥٨.

أي: ينزل منها حيث أراد، وكأنه يتصرف في أرض مصر كما بتصرف الرجل في منزله ليضع فيه ما يشاء، وهذا التمكين قدري قضى الله تعالى له به لا ينزع منه[(١)].

٣- ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾[يوسف: ٥٦]:

وهذا هو التفسير الإيماني للأحداث، قال تعالى: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[آل عمران: ٢٦]. وجملة ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ**﴾[يوسف: ٥٦] تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطى من النعم جزاء لها ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى[(٢)]. وتدل الآية أن هذا التمكين في هذه الأحداث أمر إلهي وأن تصاريف قصة يوسف من أولها إلى آخرها هي تصاريف رحمة الله، وأن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هؤلاء الداخلين في قوله ﴿**مَن نَّشَآءُ**﴾[يوسف: ٥٦] ونلاحظ أن جملة: ﴿**مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾[يوسف: ٥٦] كأنها تنادي جملة ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ**﴾[يوسف: ٥٦]، ثم راجع لترى الأمر الإلهي الذي تنطق به جملة ﴿**مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ [يوسف: ٥٦] وجملة ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ**﴾[يوسف: ٥٦]، وأنه ليس هناك من يقول مكنا ليوسف في الأرض إلا الله ولا يقول ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ**﴾[يوسف: ٥٦] إلا الله[(٣)].

- ﴿ **يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ**﴾[يوسف: ٥٦]: يتخذ منها المنزل الذي يريد والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد، في مقابل الجب وما فيه من مخاوف والسجن وما فيه من قيود.

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٥٤.

(٢) سورة يوسف، ص٣٥٨.

(٣) من حديث يوسف وموسى، ص١٤١

- ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]: فنبدله من العسر يسراً، ومن الضيق فرجًا، ومن الخوف أمنًا، ومن القيد حرية، ومن الهوان على الناس عزاً ومقامًا عليًا[١].

٤- ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

الذين يحسنون الإيمان بالله والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس[٢]. والإحسان يشمل معناه اللغوي الشامل للإخلاص والتقوى والرحمة، وعمل الخير، والجودة، والإتقان، والإبداع، وكل هذه المعاني مطلوبة، وبمقدار الرقي فيها يكون مقدار الثواب والجزاء بإذن الله تعالى، بل إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل امتحان الأمم في الدنيا في النصر والتمكين بسنة الإحسان بمعانيه الشاملة، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]؛ أي: يمتحنكم أيكم - فرداً أو جماعة أو أمة - أحسن عملاً، وأتقن عملاً وأكثر إبداعًا وتأثيراً[٣]. وقد عقّب الله عَزَّوَجَلَّ على التمكين من أرض مصر والسلطة والملك بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، مما يدل بوضوح أن التمكين بالملك والقوة والسلطة رحمة من عند الله، وبركة من عنده، وأنه جزء من جزاء المحسنين المتقنين الخيرين المبدعين، وهذا يدل على أن السلطة العادلة ليست شراً بل هي خير وبركة، ولكن بشرط استعمال السلطة والقوة والملك في الخير وخدمة الناس وانقاذهم والرحمة بهم[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠١٤).

(٢) المصدر نفسه، (٤/ ٢٠١٤).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص١٠٤.

(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٤١.

إن قول الله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، ومن تمام جملة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، والمعنى نصيب برحمتنا من نشاء، والحال أننا لا نضيع أجر المحسنين، وتعلق جملة ولا نضيع أجر المحسنين بالجملة قبلها تشرح لنا أن رحمة الله - سبحانه - التي يصيب بها من يشاء. إنما نصيب المحسنين أي الذين يعملون عملاً - أي عمل - ويحسنون فيه، لأنه لا يجوز لأحد أن يتكئ على أريكته وأن ينتظر إصابة رحمة الله له، ولو تصورت أن الجملة التي هي ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، ليس لها بقية وإنما انتهى الكلام بها لفتحت باب التواكل وانتظار الرحمة، ومن المهم جداً في فهم الدين والدنيا معـاً أن نعلم أن رحمة الله التي هي توفيقيه، وتسديده، وإنجاحه، وهدايته لعباده، إنما هي مقترنة بالإحسان الذي هو الإتقان والتدقيق، وأنها أصابت يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لأن الإحسان كان ديدنه ودأبه. وراجع قصته من أول ما عاش في بيت العزيز، وقد بلغ أشده، ثم في السجن وإتقانه لكل ما هو بسبيله، ومن المهم جداً أن ترجع بهذه الصفة صفة (المحسنين) إلى الوراء تجدها مع يوسف في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، وتجدها في هذه الآية وصفـاً ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأن رحمة الله أصابته ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦][(١)].

إنّ صفات الإحسان في الأعمال مهمة جداً في عمارة الأرض وسعادة الإنسان وبني آدم عمومـاً، وإن الله عَزَّوَجَلَّ يحب الإحسان في الأمور كلها، فإن كنت كاتبـاً فعليك بالإحسان، وإن كنت عاملاً في مصنعك فعليك بالإحسان واعلم أيها العامل في المصنع أو في ميدان من ميادين الحياة أنه يمكنك أن تكون من المحسنين الذين تصيبهم رحمة الله، والذين يحبهم الله لأنّه يحب

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٤١.

المحسنين، ليس باللازم أن تكون فقيهاً أو مفسراً فإذا كنت عامل نظافة، وأنت محسن فأنت خير من رئيس الحي الذي لا يحسن، وخير من الفقيه والمفسر الذي لا يحسن، وقد قال أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قيمة كل امرئ ما يتقنه"، ولم يقل ما يعمله، فجعل قيمة المرء في الإتقان[١].

كما أن الإحسان لا يكون ولا يمكن أن يكون إلا بالعلم فالجاهل لا يُحسن ولو كنت معلماً لن تحسن إلا بمزيد من العلم، وبمقدار زيادة العلم تكون زيادة الإحسان، ولن يحسن الطبيب في طبه إلا بزيادة العلم، وكذلك الصانع في صنعته، وكذلك في الأمور كلها، وهذا يعني أن توفر الإحسان في حياة الشعب لن يكون إلا بتوفر العلم والعناية الفائقة بالتعليم، والبحث، ونشر ذلك في الناس. وإذا كان الإحسان الذي هو الإتقان هو السبيل الذي لا سبيل للناس سواه في التقدم والرقي، وتحصيل الحياة الكريمة والعيش الكريم، والقوة الكريمة، فإنه لا يمكن أن يوجد شيء من ذلك إلا بالعلم، فإذا قال لنا ربنا: إن المحسنين لا يضيع أجرهم في الدنيا ولأجرهم خير في الآخرة، فلا بد أن نبحث في شروط الإحسان وأن نعرف ما لا يكون الإحسان إلا به، وأن ما لا يكون الإحسان إلا به فهو إحسان، وإذا كان لا يكون إلا بالعلم فالواجب أن نحسن العلم، حتى يُفضي إحسان العلم إلى الإحسان في الأمر كله[٢]. إن الإحسان يقتضي استقامة العقول، وإخلاص القلوب والقول الطيب والعمل الصالح[٣].

ثم انتقلت الآيات الكريمة بعد ما بينت بأن الله سبحانه يجازي المحسنين بكمال وتمام الأجر وأنه قد كافأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتمكين مع محبة من تولى

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٥.

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٣٥).

أمرهم، وأنه سبحانه لا يجزي المحسنين في الدنيا فقط ولكن يجازيهم بخير أبقى في الآخرة[١]:

رابعـًا: قوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]:

إن الآية الكريمة تدل بوضوح على أن النجاحات في الدنيا مهما كانت عظيمة وكبيرة مفيدة، لكن أجر الآخرة أكبر وأفضل وأبقى وأصلح للمتقين، والآية الكريمة فيها:

- توجيه المؤمنين إلى ربط قلوبهم بالله تعالى وبالعمل للآخرة وفي ذلك تربية وتوجيه عظيم.

- أن الدنيا ليست شراً من حيث الأصل، بل هي حسنة وجيدة، لأن لفظ (خير) اسم تفضيل، أي: أنه أفضل ولكن الدنيا التي يستثمرها المؤمن المتقي لخدمة دينه وأمته ولخدمة الإنسانية جميعـًا، هي طيبة، بل إن الدنيا مزرعة الآخرة وأن ما يحصده الإنسان في الدنيا هو الذي يجنيه في الآخرة.

- أن المسلم يستطيع أن يجعل أعماله في الدنيا وقوته وماله وغناه لتحقيق حسنتي الدنيا والآخرة، فلو التزم المؤمن بالنية الصادقة، والعمل الصالح، فإن جميع أعماله من الإصلاح والملك وتحقيق العدالة وتوفير الخير للناس أجمعين فهو لله تعالى، وينال جزاءه في الآخرة -كما فعل سيدنا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- فليس هناك تناقض بينهما[٢].

يقول العلامة محمد أبو زهرة في تفسيره لهذه الآية ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]: اللام لام التوكيد والآية الكريمة تبين أن أجر

---

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٠٢).

(٢) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، للقره داغي، ص١٠٥.

الآخرة خير من هذا الذي رأيناه ليوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ وإنما يستحقه من كان فيه وصفان:

الوصف الأول: الإيمان: فقال ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [يوسف: ٥٧] وقد أطلق الإيمان ليشمل الإيمان بالله تعالى وهو رأس الإيمان، والإيمان بالحق والإيمان بالفضائل والإيمان بحقوق الناس وحماية هذه الحقوق ويصح أن تقول إنّ الإيمان بالله تعالى يتضمن هذا كله.

الوصف الثاني: التقوى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]؛ أي: استمروا على التقوى. والتقوى استشعار خشية الله تعالى، وأن يجعلوا بينهم وبين المفاسد أيـًا كانت وقاية من الانحدار في مخازي الشيطان[1].

إنّ الآية الكريمة ذكرت الإيمان والتقوى وأثرها في رفع المقامات عند الله يوم القيامة من أمثال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن سار على نهج الأنبياء والمرسلين.

١- قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره للآية: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يوسف: ٥٧] أي: أجرهم في الآخرة. وأضيف الأجر إلى الآخرة للملابسة، وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها، وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها، ولا تنقضي مدتها: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]، يتقون الوقوع فيما حرمه عليهم، والمراد بهم المحسنون المتقدم ذكرهم وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى[2].

٢- قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله لا يضيع أجر المحسنين ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ولهذا قال تعالى:

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٣٦).

(٢) فتح القدير، (٣/ ٥٠-٥١).

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧] – من أجر الدنيا – ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧] أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات(١). إن الآية السابقة بينت أن إحسان العبد لا يضيع عند الله تعالى ولابد من حسن عاقبته في الدنيا. ثم عقبت الآية بذلك بأن حال الآخرة أعظم وأجل، فقال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٥٧] أي: ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين. إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يُدَّخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يُخوَّلون به في الدنيا من التمكين في الأرض والحياة والثروة والملك، والمؤمن التقي في الآخرة هو أسعد حظاً وأرقى نعيماً من حاله في الدنيا، فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي هو موضوع الحديث لئن كان قد تبوأ في مصر حيث شاء فلا شك أن مقامه في الآخرة أعظم وأعلى وأكرم حيث في منازل الأنبياء والمرسلين(٢).

خامساً: خطة يوسف الاستراتيجية لإنقاذ شعب مصر وما حولها:

ضرب القرآن الكريم مثلاً للتخطيط السليم الذي قام على أسس منطقية، فأمكن بذلك تلاقي مجاعة كانت تهدد الناس في مصر ومن حولها بسبب التخطيط السليم الذي قام به يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو أمين على الخزائن وذلك حين فسر الرؤيا التي جاءت على لسان ملك مصر -كما مر معنا-. إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسر الرؤيا وزاد عليها بأن قدم خطة عمل تستغرق القطر كله والشعب المصري كله، أي أن خطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت،

---

(١) تفسير السعدي، ص٥١١.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٥٦.

ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة وهذا الذي أراده يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وعبر عنه بقوله ﴿تَزْرَعُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، إن الذي يخطط له يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي ولأن سلوك الناس في الأزمات غير سلوكهم في الظروف العادية – استرخاء وبطالة – فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير[١].

إنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قسم خطته إلى ثلاث مراحل:

- ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧].
- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨].
- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩].

وتظهر ملامح هذه الخطة في الآتي:

١- الطابع الغالب على المرحلة الأولى وهو الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حدد خطط الإنتاج بالزراعة، وحدد استمرار الإنتاج الزراعي سبع سنين العمل فيها دائب لا ينقطع ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك، يبدو في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧].

٢- فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الأقوات

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص٤٠٩.

سبع سنين عجاف، وبعبارة أخرى: بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى سيأتي تحمل أيضـاً في المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم.

٣- ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق، ينبغي ألا تأتي هذه السنوات العجاف على كل المدخرات وإنما كان يوسف واضحـاً في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]، فكان هذ الجزء المدخر هو (الخميرة) التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف، أي إعادة استثمار المدخرات، ومن طبيعة التطور أن تختلف: (تفاصيل الصورة)، ولكن أساسها سيظل قائمـاً عميقـاً في ديننا وتراثنا[١]، وتظهر معالم التخطيط والإدارة في كلمات يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث إن التخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على داعمتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان، فهما التنبؤ والأهداف وأما العناصر فهي السياسات، والوسائل، والأدوات، والموارد البشرية والمادية، والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التقديرية التخطيطية[٢]. إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: أنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق، وهذا عين الذي زاوله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي والزراعي، كل ذلك في ذهنه قد أعد إعداداً دقيقـاً[٣].

(١) مواقف إسلامية، د. عبد العزيز كامل، دار المعارف الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص٨٣-٨٦.

(٢) سورة يوسف، ص٤١٥-٤١٦.

(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص٢٧٩.

✧ دعامتا التخطيط: التنبؤ والأهداف:

أما التنبؤ: فاستشرف المستقبل واستشفاف الآتي، وهذا عين ما كان يوسف بما علمه الله - تعالى - ثم نجده أيضاً قد حدد الأهداف في مضاعفة الإنتاج وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام وهذا يقتضي خطة تفصيلية، لأن الهدف العام الكبير ليس شيئاً إن لم يقترن بخططه التفصيلية، وهنا يأتي دور السياسات والوسائل، والأدوات والموارد البشرية والإجراءات والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية. هذا هو ما فعله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ضوء علم الإدارة الحديث وإن كان القرآن الكريم حصر كلام يوسف في جمل جامعة وجيزة ولم يشر إلى تنمية الإنسان، لكنها متضمنة قطعاً ضمن الخطة، لأن القرآن الكريم علمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه، ومحتواه، وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيراً. لقد وضع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العنصر البشري في خطته لعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذي ينفذها. وأما منهجه في التعامل مع الإنسان فقد ظهر في دعوته للسجينين لتوحيد الله وإفراد العبادة له وبذلك يكون منهجه في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع ودعوته للتوحيد وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة. إن فائدة التعبير الخارجي تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير الخارجي، صحته وصدقه وأمانته، وإن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان في المحتوى النفسي، فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل ثم يجسد محتواه النفسي تغييراً خارجياً ويحول إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق، لأن أحوال الناس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تتغير إلا إذا تغير محتوى الإنسان وما هو عليه من الحق أو الباطل، هذا هو منطق القرآن الكريم، والحياة لكي ترسي نظاماً لابد أن تهيئ له إنساناً أولاً.

إذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الإنسان ومفاهيمه فسرعان ما يتسرب الفساد من الإنسان إلى النظام، فيقيضه أكثر مما يتسرب الإصلاح من النظام إلى الإنسان فيصلحه، لأن الأنانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والأنظمة مالم تهذبها التربية الداخلية العميقة والأخلاق الكريمة المبنية على معرفة الله وحبه والخوف منه[١].

إن الآيات القرآنية الكريمة أشارت إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطاً مباشراً، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطة:

١- استعداد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على أن يشرف على تنفيذ هذه الخطة وكان هذا الاستعداد بعد أن بدد ظلال الشك وأوهام التهم عن نفسه وبذلك حدث التكامل القوي بين الخطة والمخططين، بين حساب الأرقام وحساب الأخلاق بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع بين الدين والحياة[٢].

٢- الجانب الثاني: يتجلى في اختيار المعاونين الذين ساعدوه في عمله فكان من رجال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المعين الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء[٣].

كما أشارت الآيات القرآنية إلى المعلومات اليقينية التي بنى عليها يوسف خطته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨].

إنّ من معالم الخطة السياسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مبنية على معلومات تقنية صادقة حقيقية لا على الخيال الشعري المجنح الذي لا يرتبط

(١) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤١٨-٤١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٠.

(٣) مواقف إسلامية، ص٨٦-٨٩.

بالواقع ومن هنا صارح يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الشعب بالشدائد التي تنتظره لكنها ليست المصارحة التي تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التي تدفع للعمل وتزيد الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة. إن السبع التي تلي الرخاء ستكون مجدبة لا تعطي بل تأخذ وتأكل فهي تقتضي حرصاً واحتياطاً(١).

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨] لا زرع فيهن يأكلن ما قدمتم لهن وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما قدمتم لها لشدة نهمها وجوعها ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨] أي: إلا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدية، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم في سنوات الخصب، وتنقضي وبعدها عام رخاء، يغاث الناس فيه بالزرع والماء وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً وسمسمهم وخسهم فيعصرونه زيتاً، وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخيّ رغيد(٢). ونلاحظ في الآيات القرآنية الكريمة التي تكلمت عن خطة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عنصر الأمل والتفاؤل وهذا الأمر مهم في الخطة الناجحة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]؛ إن بعد الشدة التي أشار إليها يوسف انفراجاً ورخاء وستعود الأمور بإذن الله تعالى إلى مسيرتها الأولى، ولكن بداية العودة تكون عاماً مباركاً غير معهود العطاء وفرة وكثرة، وكأن الخير فيه سيفيض بغير جهد، فهو غانم ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]

---

(١) سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص٤٢٧.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩٤).

أي: يسقون الغيث، أو يغاثون: ينجدون، من الغوث، وكل ذلك متلازم؛ ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ الناس إلى العصر للثمار إلى بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الأساسية وهي الأكل. ولابد من الأمل والتفاؤل في أي خطة وإلا فإن انعدم الأمل فما الداعي إلى العمل؟ ولقد حرّك يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ دوافع العمل عندهم بتحذيرهم من شدة سنوات القحط ثم حركها ثانية بفتح نافذة الأمل(١).

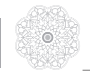
إن يوسف كان مظلوماً مضطهداً في سجن الملك وهو يملك المعلومات والخطط ما يجعله في محل قوة عند المفاوضة إلا أنه لم يشترط لنفسه شيئًا، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح، والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلماً لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان مستوعباً لفقه الخلاف حيث إن الملك والشعب بعيدون عن منهج، منغمسون في مناهج الجاهلية، ومع هذا التقى معهم في الخير المحض والسعي نحو إنقاذ البلاد والعباد في محنة المجاعة والقحط. وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة الناس ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض.

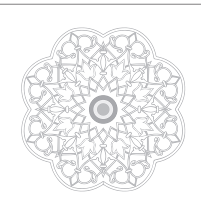
وقد كان من ثمار تدبير يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء وفي هذا القصص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي، لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها(٢).

---

(١) سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص٤٢٨.

(٢) فقه النصر والتمكين، للصلابي، ص٢٨٢.





المبحث السابع: مجيءُ إخوة يوسف إلى مصر وإكرامه لهم وطلبه حضور أخيهم من أبيهم

قال تعالى ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ [يوسف: ٥٨ - ٦٥]:

يشمل القحط والجفاف مصر وما حولها من البلاد وتسامع الناس في كل مكان أخبار التوزيع للمؤن والطعام في مصر وأخبار العزيز الصالح فشدوا الرحال إليه من كل حدب وصوب، يمتارون في هذه السنوات العجاف[1].

أولا: قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف: ٥٨]:

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٩).

جاء ذكر خبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مباشرة بعد قصة توليه خزائن الأرض رغم أن الفاصل الزمني بين الحدثين بضع سنين، فإخوته ما جاؤوا إلا بعد انقضاء سنوات الرخاء وبداية سنين الشدة، فطوى القرآن أمر امرأة العزيز، وحلول سنين الخصب والادخار ثم اعتراء سنين القحط لقلة جدوى ذلك كله في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء في طريق دعوتهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى ولأنه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصة إلى ما فيه العبرة من مصير إخوة يوسف، وقصص القرآن الكريم جميعها تقتصر على مواطن العبر والعظات ولا تعبأ بسرد فضول الأحداث، وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى ولما كانت السنة وحياً كان في كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء من ذلك، فقد اختصر له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكلام اختصاراً وهذا مما فضل به نبينا على سائر الأنبياء[1].

وكما ضُرب الذكر عن بعض تفصيل الأحداث ضرب الذكر عن بيان سبب انقطاع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه، وهذا السؤال يرد على فرض أنه كان بوسع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأتي بأبويه مباشرة بعد توليه وزارة مصر، ولكنه مع عظيم شوقه لأبيه وذويه لم يفعل ذلك والجزم بهذا الغرض فيه نظر، فمن أين لنا أن الملك كان يأذن للوزراء في مغادرة المملكة وحال البلد مخوفة، ولاسيما من تمس الحاجة إلى وجوده، وربما كان السبب أمر الله تعالى له بذلك وهذا يفهم من إمكان طلبهم ولا سيما بعدما مجيء إخوته مع عدم فعله، فقال بعضهم: لا يكون تركه لهذا إلا بتوقيف فصبر على بعدهم حتى أذن الله تعالى له باستقدامهم. وقيل: بل ربما كان سببه الانشغال بالأعباء الواجبة من إصلاح الفساد الإداري

---

(١) آيات للسائلين، ص٢٥٩.

مع العمل الدؤوب والإعداد المتواصل لسبع سنوات حسوم مقبلة، فضلاً عن أعباء وظيفته الربانية المكلف بها إلا وهي دعوة من ضل إلى الهدى. وربما اجتمع أكثر من سبب وهذا الأخير لعله أظهر، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم أن أباه نبي مؤيد بالوحي مسدد، ومن كان هذا شأنه فهو في خير حال، فلم يكن شوقه لرؤيته والاجتماع به وبأمه وإخوته، مقدماً عنده على الحقوق الواجبة، سواء كانت دعوة أو أعباء دولة، ومع ذلك ربما توقع وفدهم عليه بأرض مصر لسابق رؤياه في صغره التي يعلم أنها حق ولعلمه بواقع الناس واضطرارهم للمجيء[١].

١ - ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٨]:

دونما حاجة إلى الشرح ومقدمات عن أحوال البلاد المجاورة لمصر، علمنا فور رؤيتنا لهؤلاء الإخوة أن فاقة أتت بهم وجائحة نزلت ببلادهم وأرزاقهم في فلسطين، وإن جلوس يوسف للناس ليعني أكثر من مسألة، منها أنه يتابع في مصر كل الأمور، وخاصة ما يتعلق بضرورات الناس الحياتية وعدالة توزيع معايشهم. وثانياً: فتح أبوابه للناس حتى يتمكن كل أحد من الوصول إليه والدخول عليه. ثالثاً: لعله لتعليم الله له، علم أن إخوته سيبحثون عن الطعام، فهو جالس يتفقد كل قافلة ينتظر أن يرى إخوانه، ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر البيع بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة[٢].

ونلاحظ أن الفاء في قوله: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٨] تعني أن دخولهم عليه كان عقب مجيئهم بلا مُهلة، وأن آخر المجيء موصول بأول الدخول[٣]،

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٦٠.

(٢) سورة يوسف، ص٤٦٠.

(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٤٧.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٥٨] نسبتهم الآية إلى يوسف وعرّفتهم به، فلولاه لكانوا نكرات لا يذكرهم أحد ولا يعرفهم[١].

٢- ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]:

- ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ [يوسف: ٥٨] : وكانت لحظة رؤيته عَلَيْهِ السَّلَامُ لحظة فاصلة بين ماضي ولّى وحاضر أتى، ولعله عَلَيْهِ السَّلَامُ تذكر آخر مشهد معهم وهم يجعلونه في الجب ويتركونه لمصيره المجهول، ثم رأى كيف أفاض الله تعالى عليه من نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فأكرمه بالمكان العالي والمكانة الشامخة وبالنبوة والرسالة، وجعله الوحيد الذي يتوجهون إليه مضطرين ويقصدون عطاءه ومَددَه لهم، بعد أن ولوا ظهورهم له في الماضي، وكانوا له كارهين وللعيش معه مبغضين، ولم تتأثر نفسه العالية الكريمة بكل ما وقع منهن تجاهه فلم يكن منه إلا الحنان الصادق والعاطفة الرحيمة نحو إخوته الذين قدموا من بعيد بحثاً عن الطعام لهم ولأهلهم، بعد أن دار عليهم الزمان وتحكم فيهم القحط والجدب، ولم تغن عنهم قوتهم وعصبتهم التي كانوا يتفاخرون بها في إبعاد شبح الجوع عنهم. وشاء الله بحكمته وقدرته أن يعيذهم من شر المجاعة على يديه الكريمتين، ولا شك أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ برؤيته لهم قد شعر بحنان جارف نحو أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الرحيم به والحبيب له، الأب المبتلى بفقد أحب أولاده إليه والذي أثقلته الهموم وهدّته الأحزان وأضناه فراق حبيبه يوسف الذي انقطع أثره وخبره عنه وتذكر أخاه الشقيق، فهو الوحيد من الإخوة الذي غاب عن المجيء إلى مصر وود لو كان معهم لينعم بطيب رؤيته ونعيم قربه[٢].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٩).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٦٢.

- ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ [يوسف: ٥٨]: ودلت الفاء على سرعة معرفة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لهم أي: ما إن دخلوا على يوسف حتى عرفهم وربما كان ذلك بسبب يقظته أولاً، وثانيـًا أن الصور والوجوه، لا تتغير كثيراً في سن الرجولة على عكس مراحل الطفولة والانتقال منها إلى الرجولة[1].

- ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] هم لم يعرفوه، بل أنكروه: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]؛ كل ما يعرفونه أن الشخص الذي أمامهم الآن هو عزيز مصر، وهم لا يعرفون اسمه ولا أصله ولا هويته، هل من الممكن أن يتوقعوا أن عزيز مصر الذي أمامهم الآن هو أخوهم يوسف الصغير، الذي ألقوه في البئر قبل سنوات وسنوات؟

ونقف هنا على مظهر من حصافة يوسف وكياسته عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حيث لم يكشف لإخوته عن هويته ولم يُعرفهم على نفسه، ولم يذكرهم بجريمتهم ضده، ولم يقل لهم: أنتم الذين تآمرتم عليّ، وفعلتم بي كذا وكذا وجاء الآن دور الانتقام والثأر والقصاص ولم يأمر بالقبض عليهم، وسجنهم فقد استعلى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على آلامه وأحزانه وجراحه، وتخلص من الحقد والتشفي والانتقام، وأحسن إلى من أساؤوا له. وتفاعل يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع إخوته بأخلاق النبوة، والأصل أن يكون قد استقبلهم وأكرمهم دون أن يعرفهم على نفسه، والأصل أنه جلس معهم وحدثهم، وسألهم عن أنفسهم وأهلهم وبلادهم وأنهن أَنِسوا إليه وحدثوه وأخبروه عن أوضاع أهلهم وعرف منهم أن لهم أخـًا صغيراً، وهو أخ من أبيهم، غير شقيق لهم وأنه أثير عند أبيه وأنه لا يدعه يخرج معهم، خوفـًا عليه[2]

(١) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص٢٩٨.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٨٨).

كان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قمة الحكمة حيث لم يصدر منه أي شيء يؤذن بأنه يعرفهم، وحتى معرفته بأن لهم أخـاً من أبيهم جاءت من خلال أسئلته لهم التي تقتضي معرفة العائلة. وفي نظري أن يوسف أعد شيئـاً، أو ورقة خاصة بالتموين تتضمن أسئلة مهمة حول المستفيدين، حتى يعرف كم عدد العائلة ومدى الحاجة ونحو ذلك مما تقتضيه العدالة[١].

ثانيـاً: قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]:

ومما يظهر أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أكرم وِفادتهم، وجهزهم بجهازهم، ولعل ذلك كان بدينه شأنه شأن الداعية الكريم فهذا سبيل قد هُيِّئ له من أجل دعوة الوفود فحري به أنه يسلكه ولهذا لم يستغرب ذلك منه تجاه إخوته، ولم يستغرب منه لما شاع من خبر كرمه، ويظهر كذلك أن في بعض تلك المحاورات ذكروا أن لهم أخـاً، وقد كان يفرض للرجل حِمل بعير، ولعلهم أرادوا الاستزادة من الميرة بذكر أخيهم له وإخبارهم بشأنه لما رأوا إحسانه، فأبى وأظهر الصرامة والجزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة[٢]، وطلب منهن إحضار أخيهم معهم المرة القادمة إن كانوا صادقين.

١ – ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ [يوسف: ٥٩]:

أيّ: أعطاهم ما جاؤوا لأجله وما يحتاجون إليه في سفرهم، وكان يعطي كفاية عام واحد[٣]. وقد قام يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بنفسه بتجهيزهم بحصصهم وهذا يدل

---

(١) يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، للقره داغي، ص١١٦.

(٢) آيات للسائلين، ص٢٦١.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠١).

على الإشراف الفعلي الشخصي على عملية التوزيع وفي هذا دليل على حسن إدارته ونجاحه، لأن التوزيع في مثل هذه الحالات يحتاج إلى الحسم والعدل وعدم المجاملة فيه، وهذا يقتضي الإشراف الفعلي منه[١]. وفي هذا إشارة إلى أن الأعمال التي يمكن أن يحدث فيها ظلم أو فساد يجب على المسؤول أن لا يتركها للآخرين[٢].

٢- ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]:

ترك يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إخوته في ضيافته حتى أَنِسوا إليه، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفضيل، ثم طلب منهم بعد أن جهزهم بجهازهم إحضار أخيهم من أبيهم ليتأكد من صدقهم فيما أخبروه به، وجعل هذا كشرط لقدومهم إلى مصر مرة أخرى للحصول على الميرة، ولم يكن بمقدوره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يطلب من الإخوة أن يأتوا بأخ من أبيهم، لو لم يكن حصل على هذه المعلومات منهن، وكان هذا الاستدراج أول الخيط في تدبير الخطة التي وضعها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والتي انتهت بجمع شمل الأسرة كلها.

٣- ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]:

والآية الكريمة تبين أن إكرام يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليس وقفـًا على إخوته النازلين به، بل كان شاملاً لكل قاصد له، إلا أن المرجح أن نصيب الإخوة كان أكثر من نصيب سؤالهم فقد واجههم بسؤاله: ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]، مما يؤكد أنهم تمتعوا بثلاثة أنواع من الإكرام:

---

(١) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، للقره داغي، ص١١٦.

(٢) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، للقره داغي، ص١١٧.

حسن الاستقبال ووفاء الكيل والنزول في ضيافته[١]، ثم بعد الترغيب توعّدهم بالحرمان والمنع من دخول البلاد إذا لم يحضروا أخاهم معهم[٢].

ثالثًا: قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠]:

اشترط يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيء أخيه، فإن لم يأت فلا كيل لكم حين تأتون مصر ثانية، بل ولا تقربوها مرة أخرى، فأنتم مخيرون بين الميرة ودخول بلادي وبين عدم ذلك، ولا تنسوا شرطي عليكم[٣].

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قدّم في الآية السابقة الترغيب ثم استخدم بعد ذلك الترهيب، لأن أمر إحضار الأخ ليس بالشيء اليسير عليهم، وهو يعلم ذلك كل العلم بل هو أمر ثقيل عليهم كل الثقل، فكيف يمكن لهم أن يسألوا أباهم مرة أخرى أن يرسل معهم (أخاهم) وقد سألوه إرسال شقيقه يوسف من قبل بل ووعدوه بالمحافظة عليه، ولكنهم نقضوا عهدهم معه، ولم يرجع له يوسف حتى الآن، كما أن الأخ المطلوب هو الشقيق الوحيد ليوسف وهو الأحب إلى قلب أبيه بعد يوسف، فكيف يتسنى لهم طلبه من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

من أجل ذلك عاجلهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب قوي ليبرر طلبه أخاهم من أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى يعلموا أن هذا الأمر ملزم لهم ولا رجعة فيه، فيأخذونه مأخذ الجد، ويبذلون أقصى جهدهم في إقناع أبيهم بهذا الخصوص[٤]، وفي هذا الأسلوب

---

(١) يوسف وقصة العجيبة، ص ٣٦٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠١).

(٣) اتحاف الألف، سليم الهلالي، (٢/ ٦٣٥).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٦٩.

اليوسفي ترغيب ثم ترهيب، واللطف والترغيب مع الحزم والترهيب من أركان القيادة الناجحة لأن القائد الناجح هو الذي يقدر على قيادة القلوب والأبدان[١].

رابعـًا: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٦١]:

لما كان الإخوة يعلمون كيف يضن أبوهم بأخيهم الأصغر وبخاصة بعد ذهاب يوسف، فقد أظهروا ليوسف أن الأمر ليس ميسوراً وإنما طريقه عقبات من ممانعة أبيهم وأنهم سيحاولون إقناعه ولهذا قالوا:

١- ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١]:

المراودة تشعر بصعوبة ذلك؛ إذ هي تدل على المجهود العظيم الذي كان على الإخوة أن يبذلوه في مفاتحة يعقوب في هذا الموضوع أولاً، ثم المجهود الذي عليهم أن يبذلوه بعد ذلك حتى نجاحهم في أخذ الشقيق ليوسف معهم. ومعنى: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١] أي: سنحايله ونستميله في رفق إلى أن يتركه يأتي معنا.

٢- ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٦١]:

تأكد ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة لا يفرّطون فيه ولا يتوانون، وأنهم سيبذلون قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم[٢]. وإن الآية تبين أنهم سيبذلون غاية الوسع لفعل ما يطلبه منهم وخصوصـًا لشدة حاجة آل يعقوب في المستقبل أيضـًا إلى الطعام لاستمرار القحط والمجاعة[٣]. وكي يضمن رجوعهم، أمر

(١) آيات للسائلين، ص٢٦٢.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٧١.

(٣) المصدر نفسه، ٣٧٢.

بعض أتباعه ومعاونيه أن يردوا إليهم ثمن الطعام الذي أحضروه معهم دون أن يشعروهم بذلك، ليعرفوا كرمه وإحسانه فيرجعوا إليه[١].

خامساً: قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]:

هذا تدبير من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -سيكون له- إن شاء الله أثر كبير، فكما وضع خطة طويلة لإنقاذ مصر من المجاعة رسم أخرى لاستنقاذ أخيه من المأساة ونفذها على مراحل مما يدل على بعد نظره واستشرافه للمستقبل وصبره الفاتح لما أغلق، إنه يعرف كيف يتحرك ويأخذ الأسباب ويضع الأهداف القريبة والبعيدة بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ[٢].

١- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]:

- (الفتى) من كان في مبدأ الشباب ويطلق على الخدم تلطفاً.

- (البضاعة) المال أو المتاع المعد للتجارة[٣]، والتعبير بالبضاعة هنا يدل على أنهم لم يتمكنوا من الإتيان بالنقود الذهبية أو الفضية. وهل هذا يدل على أن التعامل كان يتم بالمقايضة؟ أو أن نقودهم من كثرة ما فيها من نحاس سميت بضاعة؟[٤].

قال بعض العلماء: البضاعة هنا هي الورق: الدراهم الفضية المضروبة نقوداً، التي ابتاعوا بها الطعام[٥].

---

(١) إتحاف الألف، (٢/ ٦٣٨).
(٢) إتحاف الألف، (٢/ ٦٣٨).
(٣) سورة يوسف، ص٣٦٨.
(٤) يوسف علي السلام، للقره داغي، ص١١٨.
(٥) تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، =

- ﴿رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]: الرحال: جمع رحل، وكلاهما الجمع والمفرد ورد في السورة، والرحل: ما يوضع على ظهر البعير من وعاء أو متاع ومنه سُمي البعير: رحالة، وقيل الرحل كل شيء معد للرحيل، من دابة ووعاء ومتاع ورسن وغيره(١).

٢- ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]:

والهدف من ذلك هو أن يعرفوا عند تفريغ أحمال الجمال أنهم لم يدفعوا ثمن الحبوب التي أخذوها من العزيز، فها هو العزيز يعيد لهم بضاعتهم ويعطيهم الحبوب مجاناً وهذا يدعوهم إلى العودة إلى مصر، لأخذ أحمال أخرى ويبدو أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دفع ثمن الجمال العشرة التي حملها لهم من حسابه، بعد أن أعاد لهم بضاعتهم من ضمن الحبوب وأراد إكرام أهله بذلك(٢).

٣- ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]:

أي: ليكون حالهم حال من يرجع إلينا إذا عرفوها لردها أو للميرة بها إن لم يكن عندهم غيرها، أو طمعاً في مثلها. وإنما لم يبادروا إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور لأن ذلك غير ممكن عادة، لما يأتي من الحكم البالغة والتدبير المتين(٣).

- ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]: قيل لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه وقيل ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام، وقيل: ليروا فضله ويرغبوا

= الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، (٢/ ٢٨٥)، التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، ص١٣٧.

(١) التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، ص١٣٧.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٩٠).

(٣) نظم الدرر، (٤/ ٦٨).

في الرجوع إليه[1]، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب التي جعلته يجعل بضاعتهم في رحالهم منها:

- أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء محضاً فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

- خاف أنه لا يكون عند أبيه من الورِق ما يرجعون به مرة أخرى.

- أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط.

- رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

- قال الفراء: إنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو، وهم أنبياء وأولاد أنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

- أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

- مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا يطلب زيادة في الثمن.

- أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

- أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى محصنة إلى أن تصلوا إلى أبيهم.

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص٣٠٤.

- أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم[١]، وتدور هذه الأقوال والتعليقات في فعل يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على معنيين:

الأول: الإحسان لوالده عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأهله.

الثاني: اضطرار إخوته للعود إليه إما طمعاً في كرمه أو لإعادة ما تركه لهم.

ونلاحظ أن هذا الإحسان من يوسف لأبيه وإخوته في غاية اللطف واللباقة وإحسان دون منّة ولا تكثّر..، والإحسان دون منّة من أكبر الدلائل على صدق صاحبه وعلى صفاء خلقه[٢]، وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بما حدث لهم، وبادروا إلى مطالبته أن يرسل أخاهم معهم في المرة القادمة[٣]:

سادساً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:

تطوي الآية الزمن والمسافة وتسقط التفصيلات التي ليس وراءها فائدة وتنقلنا من مصر إلى فلسطين، ومن مواجهة يوسف إلى مواجهة يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

١- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ [يوسف: ٦٣]:

- ﴿فَلَمَّا﴾ [يوسف: ٦٣]: جاء بالفاء ليدل على التعقيب السريع، أي: ما إن وصلوا من السفر حتى رجعوا إلى أبيهم دون إبطاء

- ﴿رَجَعُوٓاْ﴾ [يوسف: ٦٣]: ليدل على التكرار في تلك الرحلة المكوكية بين يوسف وأبيهم.

---

(١) مفاتيح الغيب، (١٨/ ٤٧٩).

(٢) أخلاق الأنبياء، محمد درويش، ص١٢٠.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٢).

- ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ﴾ [يوسف: ٦٣]: قاصدين إليه مباشرة.

- ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا﴾ [يوسف: ٦٣]: قدموا لطلبهم بلفظ النداء التحبُّبي[١].

- ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ [يوسف: ٦٣]: حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل، لأن رجوعهم بالطعام المعبر عنه بالجهاز قرينته أن المنع من الكيل يقع في المستقبل أي منع منا ذلك، إلا إذا وفينا بما وعدنا من إحضار أخينا ولذلك صح تفريع: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٣] عليه، فصار تقدير الكلام: منعنا من أن نطلب الكيل إلا إذا حضر معنا أخونا. وجملة إنا له لحافظون عطف على جملة فأرسل. وأكدوا حفظه بالجملة الإسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.

٢- ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:

- ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ [يوسف: ٦٣]: الفاء للتعقيب السريع، أي: بادر وللسببية، أي: إن إرساله سبب في إزالة المنع، وجاؤوا بطلبهم على صيغة فعل الأمر أرسل للجزم والتأكيد.

- ﴿مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ [يوسف: ٦٣] أي: إن أرسلته معنا نكتل وإلا فلا، وإن إرسال أخيهم للكيل فحسب لا لسبب آخر وقدموا (معنا) على (أخانا) للحصر والتأكيد على صيغة المعيّة الدائمة.

- ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]: وإن اللام وصيغة الجمع واسم الفاعل كلها تفيد التأكيد وقدموا له المفعول على الفاعل؛ للحصر والاهتمام وزيادة التأكيد في الحفظ[٢].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٦.

وهنا يسأل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفسه ويسأل من حوله من أبنائه وما العلاقة بين منع الكيل وإرسال أخيهم معهم؟ أهو مطلوب لعزيز مصر؟ وهل يعرف العزيز أخاهم هنا؟ ومن دله عليه؟ تساؤلات كثيرة عرف يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جوابها فيما قصه عليه أبناؤه مما كان بين العزيز وبينهم وذكروا له كذلك ما أكرمهم به من حسن استقبال وطيب ضيافة... الخ

ولكن كيف يقابلهم العزيز بكل هذا الإحسان والإكرام ثم يتشرط عليهم إحضار أخ لهم من أبيهم ليحصلوا على الميرة في المستقبل، ويحكم عليهم ألا يقربوا مصر ولا يقربوه إلا ومعهم (أخوهم من أبيهم) من يكون هذا العزيز الذي يصرّ على رؤية أخ لهم من أبيهم ليعرف صدقهم فيما أخبروه به؟

لعل كل هذه التساؤلات وغيرها قد تواردت على فكر النبي يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يتلقى الخبر المزعج الذي تلقاه من أبنائه، وأنه لن يكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم ويلاحظ في كلام إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الصدق هذه المرة وهم يطلبون اصطحاب أخاهم معهم إلى مصر[١]. وكانوا حريصين جادين في حفظه إلا أن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يرفض طلبهم ويذكرهم بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما فعلوه فيه.

سابعـًا: قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

ومع أن إخوة يوسف أكدوا لأبيهم حفظهم لأخيهم فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣] وأكدوا حفظهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبلام التوكيد إلا أن الكلمة فيما يبدو هيجت أشجان يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأعادت له ذكريات قديمة

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٧٧.

مريرة إنها الكلمة نفسها التي قالوها يوم قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[يوسف: ١٢] لقد أعادت إلى ذهن الأب الشفيق الشغوف صورة ابنه الحبيب يوسف، وعندها لم يمتلك يعقوب إلا أن قال:

١ - ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ٦٤]:

كان جواب أبيهم حاضراً وفورياً إذ ما جرى منهن في أمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قبل لا يُنسى وألمه لا يخف والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، فرد عليهم باستفهام إنكاري تقريعي، أي: هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على يوسف من قبل وقد أكدتم كما تؤكدون الآن أنكم إن أرسلته معكم فأنتم له حافظون فضيعتموه وما حفظتموه البتة فكيف أعيد الكرة(١).

٢ - ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤]:

- ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾[يوسف: ٦٤]: فإنه لا ثقة أبدا في حفظ أي مخلوق، ولكن الثقة كلها في حفظ الله القادر الحفيظ العليم.

- ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤] بخلقه من كل مخلوق(٢).

وهذه من الحقائق الإيمانية القرآنية الراسخة، ذكرها يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأكد عليها ويجب على كل مؤمن من أن يغرسها في قلبه، وتكون عقيدة راسخة وثوابت حقة، وأن يجعلها نصب عينيه في كل أمر وشأن(٣).

- ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾[يوسف: ٦٤]: قال ابن عاشور: أي خير حفظاً منكم، فإن حفظه الله سلم، وإن لم يحفظه لم يسلم، كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه(٤).

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٠٧.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

(٤) التحرير والتنوير، (٦/ ١٣).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كِبَري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملي به، إن أرحم الراحمين[١].

وواضح من الآية الكريمة أن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يعيش وحفظ الله ليوسف بين جنبيه، وأن تأويله لرؤيا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ساكن في قلبه، وأن الله اجتباه وعلمه من تأويل الأحاديث، وسيتم نعمته عليه إلى أخره، لقد عاش يعقوب مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وظهر أثر ذلك في حياته: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

٣- اسم الله (الحافظ):

ورد اسمه الحافظ في القرآن الكريم مرة واحدة بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وورد مرتين بصيغة الجمع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]. وأما اسمه سبحانه ﴿الحفيظ﴾ فقد ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك:

- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: ٥٧].

- وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سبأ: ٢١].

- وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الشورى: ٦].

---

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٣٩٩).

وقال البيهقي: قال الحليمي: الحافظ هو الصائن عبده من أسباب التهلكة في أمور دينه ودنياه[١].

- ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ [يوسف: ٦٤]: أي: إن الله حافظ لأبناء سيدنا يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. ومن فوائد اسم الفاعل أنه حاضر الفعل الآن فإنه قد جاء اسم الله: (الحافظ) على لسان نبي الله يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ معبراً عن وثوقه المطلق بحفظ الله لولديه يوسف وأخيه حفظاً حاضراً، فإذا خوطب المؤمن باسم الله (الحافظ) فكأنه يعاين الحفظ ويشاهده ولا يقدر على ذلك إلا المؤمن[٢].

ومن آثار إيمان يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ باسم الله (الحافظ) والحفيظ، صدق التوكل على الله وحده والأخذ بأسباب حفظ الله وأعظمها توحيد الله سبحانه وإفراده بالعبادة وفعل ما يحبه الله واجتناب ما يسخطه، وحفظ الله تعالى في حرماته ودينه وشرعه[٣].

٤- ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

يعني أن رحمته سبحانه تتميّز تميزا ظاهراً عن رحمة كل الراحمين، فالله رحيم وفي الناس رحيم: والأب رحيم ولكنه سبحانه أرحم الراحمين[٤].

إن اتصاف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق لمخلوق[٥].

---

(١) الأسماء والصفات، ص ٦٩.

(٢) اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمة، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، (٢/ ٦٣٥).

(٣) ولله الأسماء الحسنى، ص ٤٥٦.

(٤) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٧.

(٥) ولله الأسماء الحسنى، ص ١٢٤.

إن صفة الرحمة من الصفات الثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة وهي صفة كمال لائقة بذاته سبحانه كسائر الصفات لا يجوز أن تنفيها أو تؤولها أو تحرفها أو تفوض معناها أو تكيّفها كما هو مقرر في مذهب أهل السنة والجماعة.

بعد أن واجه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أبناءه بقوله: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، تبين لإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن مواصلتهم الكلام مع أبيهم الآن بخصوص إرسال أخيهم معهن لن تأتي إلا بالرفض، خاصة بعد أن واجههم صراحة لأول مرة واتهمهم بكيدهم لأخيهم يوسف من قبل، وأنهم يريدون أن يعيدوا الكرة مع أخيه الشقيق مما أفحمهم وأبهتهم، فما كان منهم إلا أن يؤجّلوا الحديث معه بهذا الخصوص حتى تأتي مناسبة أخرى تهيئ لهم العودة إليه[١].

وبعد أن فتحوا أوعيتهم وفوجئوا بوجود ثمن الطعام فيها، عادوا يطالبون أباهم بإرسال أخيهم معهم محتجين بما وجدوا في أوعيتهم[٢].

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]:

١ - ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥]:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]: هذا يؤكد أن حديثهم السابق مع أبيهم وطلبهم أن يرسل معهم أخاهم كان قبل إنزال وفتح رحالهم. والمتاع هنا يقصد به حوائجهم التي جعلوها في رحالهم من طعام ولباس وغيره.

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٣).

- ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ﴾[يوسف: ٦٥]: أي ووجدوا ما أخذوه معهم إلى مصر ثمنا للطعام والميرة قد رد إليهم كاملاً وجعل في رحالهم.

٢- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾[يوسف: ٦٥]: لما ردت بضاعتهم إليهم تجددت عندهم الرغبة والحماس في تكرار طلبهم وكان هذه المرة ترغيبا خالصا وابتدروه أيضـًا بالنداء الجميل: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾[يوسف: ٦٥] وباستفهام تحريضي لحث أبيهم على إرسال أخيهم معهم، فقالوا ما نبغي؟[١].

وقيل في ﴿مَا﴾[يوسف: ٦٥] إنها استفهامية تعجبية، وقيل نافية. ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى (الذي) فإذا كانت استفهامية فالمراد بيان كرم يوسف، أي: ما نريد فوق هذا الإحسان؟

وإن كانت نافية، فالمعنى: لا نريد شيئـًا فوق هذا الإحسان. وإن كانت موصولة كان المعنى: يا أبانا هذا الذي نريد؛ أي: الأثمان المردودة. وعليه يكون الموصول مستأنفا لكلام بعد النداء جديد وكل ذلك محتمل[٢].

٣- ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾[يوسف: ٦٥]: أي هذا دليل مادي ملموس أمامك في أن الطلب ليس فيه أدنى شر أو منفعة للعزيز؛ إذ لو كان كذلك لآثر أن يؤذينا ونحن بين يديه على أمر غائب غير مؤكد ولأنقصنا الكيل، بدل أن يوفينا إياه ويرد إلينا الثمن[٣].

٤- ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾[يوسف: ٦٥]: أي: نحضر لهم ميرة وهي الطعام الذي يجلب إلى بلد[٤].

---

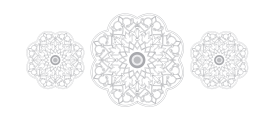
(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.
(٢) آيات للسائلين، ص ٢٦٩.
(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.
(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٣).

٥- ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]: من المخاطر والمكاره.

٦- ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: ٦٥]: أي زيادة حصة أخيهم الذي سيذهب معهم، وهذا دليل على أن الحصة كانت حمل بعير لك شخص حاضر(١).

٧- ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ [يوسف: ٦٥]: أي سهل على هذا العزيز المحسن لسخائه، أو المعنى قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير. أو المعنى: ذلك الذي يكال لنا دون أخينا شيء يسير قليل، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله(٢).

وافق أخيراً نبي الله يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على إرسال ولده الشقيق الأصغر ليوسف مع إخوته، بعد أن أخذ منهم ميثاقاً مؤكداً بالأيمان المغلظة على حمايته وحفظه(٣).



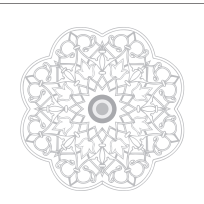
---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨، (٩/ ٢٤٨- ٢٤٩).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٢).





المبحث الثامن: أخذ يعقوب الميثاق على أبنائه وتوجيههم للتعامل مع سنة الأخذ بالأسباب وحيلة يوسف في بقاء أخيه معه وفقد يعقوب لأبنائه الثلاثة

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٦٦ – ٨٢].

تفسير الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]:

١ – ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]:

أي قال لهم أبوهم وابتدأ الكلام بصيغة النص، ليدل على أن الأصل هو المنع، وأن هذا المنع يتخلى ويتنازل عنه إذا ما استجابوا إلى شرطه. وفي هذا قوة في خطابه بعكس ما ابتدأه بالموافقة كأنه يقول: أرسله معكم إذا آتيتموني الميثاق.

٢ – ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]:

حتى: أي إلى أن؛ وهي تحمل معنى الشرط.

– ﴿تُؤْتُونِ﴾ [يوسف: ٦٦]: أي تعطوني، ولفظ الإتيان أقوى وآكد الألفاظ الدالة على الحضور والمجيء والإعطاء: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي: حصل وأتى معه كل ما وعد به من عطاء للكافرين بالعذاب وللمؤمنين بالسرور والنعيم(١).

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٤.

- ﴿مَوۡثِقٗا﴾ [يوسف: ٦٦]: وهو العهد المؤكد.

- ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]: أي الملك الأعظم بأيمان عظيمة(١).

وكل ذلك زيادة في التوثيق لما حصل له من المصيبة بيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وإن كان الاعتماد في حفظه إنما هو على الله وهذا من باب (أعقلها وتوكل) فأجابوه إلى جميع ما سأل(٢).

- ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٦٦]: أكد على طلبه باللام للقسم، أو للتأكيد وبلفظ الإتيان نفسه، وبصيغة التشديد في الفعل، وجاء بصيغة الجمع ليكون، المطلب منهم أجمعين يتعاونوا عليه ولا يستثنى ولا يتخلف منهم أحد، وقال به لحصر الطلب فيه وحسب(٣).

٣- ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾[يوسف: ٦٦]:

فيها ادب مع الله عَزَّوَجَلَّ وفيها معنى التواضع والتوحيد والعبودية ورغم حرصه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على اتخاذ الأسباب لئلا يسوّل الشيطان لأبنائه أن يكيدوا بأخيهم كما فعلو بيوسف، إلا أنه ما نسى أن الأمر بيد الله تعالى أولاً وآخراً(٤).

- ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾[يوسف: ٦٦]: أي إلا أن تغلبوا وتهلكون، فلا تقدروا على رده. وأصله من إحاطة العدو، فإن من أحاط به العدو فقد هلك غالبـاً(٥).

---

(١) نظم الدرر، (٤/ ٧٠).

(٢) المصدر السابق، (٤/ ٧٠).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٤.

(٤) آيات للسائلين، ص ٢٧٠.

(٥) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥)، روح المعاني، (٥/ ١٤).

والإحاطة: هي أن يكون الشيء محاطاً به من جميع الجهات لا ثغرة فيه أبداً وهو استثناء منقطع. وقد استثنى لهم أبوهم هذا رحمة ورأفة لهم؛ إذ لو لم يستثن للزمهم من العهد المؤكد والميثاق المغلظ أن يهلكوا جميعاً دون أخيهم إن أحيط بهم بأمر غالب قاهر لا يستطيعون فيه حيلة. وهو أيضاً من التعاليم الإيمانية التي يؤمن بها ويريد أن يربي أبناءه عليها إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولاحظ حرص يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ولده رغم أنه الآن صار رجلاً، ولاحظ أيضاً أن خوف يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من إخوته لا يزال قائماً وأنه مع هذا وذاك يعلم أن العهد والميثاق لا يزال هل في قلوب أولاده حرمة، وأن العهد من الله والموثق من الله لا يزال في قلوبهم قادراً على كف وكبح أهوائهم ونوازع الشر فيهم ثم لاحظ توكيد ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٦٦]﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾[يوسف: ٦٦]، وأنها جواب القسم الذي هو الموثق من الله. ومعنى ﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾[يوسف: ٦٦] من أحاط به العدو إذا غلبه وأهلكه أو كاد. وهذه هي الحالة الوحيدة التي تكونون في حل من الميثاق إذا لم تأتوا به[1].

٤- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]:

وهم لصدقهم وصحة قصدهم آتوه ميثاق الله على ذلك. وإنما عبر بالإتيان المشعر بأخذ ورد؛ لأنّه من جنس التوثيقات العينية التي تؤخذ وترد، بل هو عند أهل الإيمان أبلغ[2].

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٧.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٧٠.

- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]: وكأن الذي يعاهدك ويواثقك إنما أتاك بيده عهد الله، وميثاق الله، فإن غدر فهو لم يغدر بك، وإنما غدر بعهد الله الذي أعطاه بيده، وبميثاق الله الذي أعطاه بيده، ومن غدر بعهد الله وميثاقه لا ينتظر منه خيراً إلا جاهل غبي أحمق، لأن من غدر بعهد الله وميثاقه لم يبق في نفسه شيء من الخير(١).

- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ أي: على قوة في الاستجابة نابعة عن عزم صادق في تلك اللحظة(٢).

- ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]: أي رقيب وحاضر وشاهد على العهد والميثاق، وناهيك عن عهد شهد الله عليه(٣).

﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]: الله شاهد على ما نقول وحفيظ عليه، وهو الذي سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو العذر(٤).

٥- اسم الله (الوكيل):

يأتي اسمه سبحانه (الوكيل) بمعنى الوكيل العام على جميع خلقه، وذلك لأنّه خالقهم ومدبر أمرهم والمتكفل بأرزاقهم وحاجاتهم ومحياهم ومماتهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٥.

(٣) من حديث الرسل، ص ١٣٨.

(٤) دعوة الرسل، العدوي، ص ١٣٩.

وورد اسمه الوكيل في القرى، الكريم أربع عشرة مرة، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

- وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن اسم الله الوكيل: هو المتولي بتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته على تدبيرها وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها(١).

ولم ينس يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أن يزود أولاده بوصاياه عندما أرادوا السفر(٢)فقال لهم:

ثانيًا: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]:

١- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ﴾ [يوسف: ٦٧]: ناداهم بنداء التحبب والقرب جذبًا لآذانهم ليسمعوا، وقوة في التأثير على أفئدتهم لينصتوا(٣).

- ﴿يَٰبَنِىَّ﴾ [يوسف: ٦٧] تدل على الحنان الفائق لكل بنيه.

- ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧]: أي وأنتم ذاهبون لمقابلة العزيز، أخذاً في الأسباب والحيطة والحذر ودفع الضرر، فهو يريد أن يدفع عنهم حسد الحاسدين وكيد الكائدين وظنون الظالمين(٤).

وقال ابن عاشور: وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد، خشية أن يسترعي

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، ص ٤٧٧.
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥).
(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٧.
(٤) سورة يوسف، القره داغي، ص ١٦٦.

عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها، وأزياؤهم بأزياء الغرباء عن أهل المدينة أن يوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم فيكون ذلك ضرراً لهم وحائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودون قضاء حاجتهم. وقد قيل في الحكمة: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان(١).

٢- ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف: ٦٧]:

أي: توزعوا على الأبواب بحيث تدخل كل مجموعة من باب، فكأنه خشي عليهم من أعين الحساد ومكرهم بسبب ما كان لهم من الهيئات الحسنة والأبهة والجمال فحذرهم ألا يدخلوا جميعًا من باب واحد عند وصولهم إلى مركز التوزيع، وأوصاهم أن يدخلوا أفرادا من أبواب متفرقة(٢).

٣- ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾[يوسف: ٦٧]:

لما أوصيتكم بهذه الوصية وطلبت منكم الدخول من أبواب متفرقة، فلا يعني هذا أنني أدفع قدر الله وأمره، وإنما أخذت بالأسباب المادية وقمت بالحذر المطلوب لكن أخذي بالأسباب لا يوقف قدر الله، فإن الله إن قدّر وقوع الأذى ولضرر بكم فلا بد أن يقع رغم تحذيركم واحتياطكم ودخولكم من أبواب متفرقة(٣).

(١) التحرير والتنوير، (٦/ ١٦).
(٢) التفسير الموضوعي، ص (٤/ ٢٠٥).
(٣) القصص القرآني، (٢/ ١٩٦).

إنّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بين لأولاده بأن وصيته لهم لا تدفع عنهم شيئًا أراده الله وإنما وصيته لهم على مقدار ما تهتدى إليه العقول السليمة والفطر المستقيمة وأنه يفعل ذلك وهو واثق أن الحكم لله وأنه متوكل عليه.

وهذا فهم عظيم لعقيدة القضاء والقدر، فعلى المؤمن أن يأخذ كل طريق للسلامة، والغنيمة والإياب ثم يترك الأمر لله، وإن كل الاحتياطات لا تتنافى مع أي شيء من التوكل. وإن التوكل لا يعني إلغاء شيء أي شيء من الاحتياطات وإن المسلم يأخذ حذره وكأنه غير متوكل ثم يتوكل وكأنه لم يأخذ حذره[١].

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾[يوسف: ٦٧]: إشارة إلى عدم الالتفاف إلى الأسباب بل إلى التوحيد المحض والبراء من كل شيء سوى الله تعالى.

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم أولاده الاعتماد على توفيق الله تعالى ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبًا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين؛ لأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله تعالى في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها ويبقى في النهاية أمر الله نافذ على عباده.

وبعد أن نفى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يغني عنهم شيئًا يعني بوصيته علل ذلك بقوله[٢]:

٤ - ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف: ٦٧]:

أي أنه لا يتم إلا ما أراده الله تعالى فما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه فإنه يحكم في خلقه بما يشاء فينفذ فيهم حكمه ولا يرد قضاؤه.

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص١٥٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٨٨.

فالحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة وبعد ذلك السعي البليغ والجهد الجهيد، فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود لا بد وأن يكون بقضاء الله ومشيئته وسابق حكمته[١]

لقد وردت عبارة (إن الحكم إلا لله) مرتين في قصة يوسف وهي في كل مرة واردة في سياق خاص.

المرة الأولى: قالها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للسجينين معه في السجن لما دعاهم إلى توحيد الله والإيمان به وإفراده بالعبادة: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]؛ لقد وردت هذه العبارة في سياق الخضوع لحكم الله وأمره وشريعته أي أنه لا حاكم إلا الله وهو الذي يحكم ويشرع ويحلل ويحرم وما على العباد إلا تنفيذ حكم الله والالتزام بشريعته ليحققوا العبادة والعبودية لله ويكونوا على الدين القيّم والحق.

أما المرة الثانية: قالها يعقوب لأبنائه وهو يطالبهم بالحذر والأخذ بالأسباب ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ وردت هذه العبارة هنا في سياق الرضا بقدر الله والاستسلام لقضائه والإيمان بأن كل ما يصيب الإنسان فهو من الله سواء كان هذا ضراً أو نفعاً إن ما أراده الله فهو كائن وما قدره فهو واقع ومهما أخذ الإنسان من أسباب الحيطة والحذر فلن يدفع عنه قدر الله فالأمر أمر الله والقضاء قضاؤه والحكم حكمه، وكأن يعقوب يقول لأبنائه: أنا مؤمن بقدر الله راض بقضائه مستسلم لحكمه متوكل عليه.

- الحكم التشريعي لله كما قرره يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٨٩.

- الحكم القدري لله كما قرره أبوه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[١].

٥- ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]:

فيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعطينا درساً بأن التوكل على الله يجب أن يصاحبه الأخذ بالأسباب والحيطة والحذر من الأضرار[٢] فالتوكل لا يمنع الأخذ بالأسباب والوقاية والحذر[٣]

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]: في موضع البيان لجملة ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[يوسف: ٦٧]؛ ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله، هو معنى التوكل الذي يضل في فهمه كثير من الناس اقتصاراً وانكاراً ولذلك أتى بجملة: (وعليه فليتوكل المتوكلون) أمراً لهم ولغيرهم على معنى إنه واجب كل مؤمن كامل الإيمان لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات[٤].

وقال محمد العدوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذلك معنى التوكل وهو أن تأخذ في الأسباب بقدر استطاعتك ثم ترجع إليه وتفوض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التي تعلمها وليس التوكل كما يفهمه العامة هو التواكل وهو أن تدع الأسباب ثم ترجع إلى الله تعالى ليوصلك إلى المسببات، فإن ذلك حمق وسفه. فالذي يدع العمل للرزق ثم يطلبه من الله ويزعم أنه متوكل عليه، كاذب في دعواه، والذي لا يطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلم، ثم يطلبه من الله لأنّه متوكل عليه، كاذب

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٩٧).

(٢) سورة يوسف، ص١٦٧.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٧).

(٤) التحرير والتقرير، (٦/ ١٨).

كذلك في توكله، لأن طريق العلم هو التعليم والذي يرمي بنفسه في أحضان المرضى بدون أن يأخذ لنفسه الحيطة والوقاية من العدوى زاعمـاً أنه متوكل على الله هو جاهل معنى التوكل. والمرأة التي تدع طعامها مكشوفاً معرضاً للأفاعي والحشرات ثم تدعي أنها متوكلة على الله كاذبة في دعواها. والأمثلة في ذلك كثيرة وهي كلها ترجع إلى الطمع في النتائج بدون مقدمات والغايات بدون وسائل، وهو طمع مذموم، وتصلح كاذب وإنما الصلاح الصحيح هو الذي يتفق وسنة الله في ربط الأسباب بمسبباتها[١].

٦- العين والحسد:

فلعين الحاسد تأثير سلبيّ ضارّ بالمحسود بتقدير الله، أثبتته النصوص القطعية وشواهد الواقع الكثيرة المحسوسة، قال الله تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ - ٥٢].

وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: العين حق[٢] وقال أيضـاً: العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا[٣].

وقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه العين[٤].

وقالت أيضـاً: كان إذا اشتكى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رقاه جبريل قال: بسم الله يبريك من كل داء يشفيك ومن حاسد إذا حسد ومن شر كل ذي عين[٥].

---

(١) دعوة الرسل، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥)، البخاري رقم ٥٧٤٠.

(٣) رواه مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى ،ح رقم ٢١٨٨.

(٤) رواه أبو داوود، كتاب الطب باب ما جاء في العين، ح رقم ٣٨٨٠، حسنه الألباني.

(٥) رواه مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى ،ح رقم ٢١٨٦.

فثمة جانب خفي في الإنسان يتأثر ويؤثر، دأبت سورة يوسف على إثباته، فالرؤيا تدل على وجوده، كما مر معنا فهي تدل على تأثره بما يُلقى إليه من خارج الإنسان، والوحي وعلومه يؤكده ويجعله حقيقة ملموسة، والعين الحاسدة تدل أيضاً على امكانية تأثر الإنسان في غيره بمشيئة الله تعالى وتقديره(١).

وقد علمنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نستعيذ به سبحانه من الحسد لأنّه سبحانه قد علم أزلاً أن الحسد أمر فوق طاقة دفع البشر له وهو القائل: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ - ٥].

قال الشيخ الشعراوي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيذ بواحد مساوٍ لك؛ لأن الحسد يأتي من مجهول غير مدرك، فالشعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحقد على كل ذي نعمة، وإذا كان عصرنا وهو عصر الارتقاءات المادية قد توصل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت الأشياء إذن: فمن الممكن أن يكون الحسد مثل تلك الإشعاعات والتي قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه وتكون النظرة مثل السهم النافذ، أو الرصاصة الفتاكة(٢). ويمكن للعبد أن يستعيذ بالله خالق البشر وخالق الأسرار ويتحصن بقوله تعالى ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

وأن تقول كلمات رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حين كان يعوّذ الحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا ويقول: أُعيذكما بكلمات الله التامة ومن كل شيطان وهامة(٣)

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٦).

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠١٨).

(٣) الهامة: مفرد هوام وهي الحيات والعقارب.

ومن كل عين لامة[١] وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كان أبوكما -إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - يعوذ بها إسماعيل ويعقوب عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ[٢]. كما أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كان إذا حزبه أمر قام وصلى.

وهنا على الإنسان أن يأوي إلى الله فهو الركن الشديد بعد أن أخذت أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المضطر لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب، والحق سبحانه تعالى يقول ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

والمضطر هو من استنفذ كل أسبابه ولم يدع ربه إلا بعد أن أخذ بكل الأسباب الممدودة فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك - بيده سبحانه - من أسباب[٣].

وهنا في الآية: تجد يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقد أوصى أبناءه ألا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب متفرقة خشية الحسد وتنبهت قيضة الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧] أي: لست أغني عنكم بحذري هذا من قدر الله فهو مجرد حرص أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو أمر الله فكل الخلق أمرهم راجع إلى الله وعليه يعتمد يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعليه يعتمد كل مؤمن[٤].

---

(١) اللامة: ما تخاف من مسّن أو زع: العين التي تيب الإنسان

(٢) سنن الترمذي، أبواب الطب، باب، رقم ٢٠٦٠، حسن صحيح، تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠١٨).

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠١٨).

(٤) المصدر نفسه، (١١/ ٧-١٨).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واجب على كل مسلم أعجبه شيء.. أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه[1]. وهذا، وقد نفذ أبناء يعقوب ما أمرهم به أبوهم، يقول سبحانه:

ثالثاً: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

ولما وصاهم أبوهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الآية السابقة بما وصاهم به فكأنه قيل: فهل نفذوا وصية أبيهم؟ فقيل: نعم لقوله تعالى

١- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ [يوسف: ٦٨]:

أول ما تراه في الآية تنفيذ الأبناء لوصية أبيهم وكلمة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ [يوسف: ٦٨] كلمة جليلة وكأنهم بحثوا في المداخل عن المداخل التي إذا دخلوا منها كانوا داخلين من المكان الذي أمرهم أبوهم بالدخول منه، ويعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يحدد مكاناً بعينه وإنما ذكر أوصافاً واجتهد أبناؤه في أن يكون المكان الذي يدخلون منه أقرب إلى ما وصف[2].

٢- ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٨]:

لما قال يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧] صدقه الله تعالى في ذلك جل شأنه فقال: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٨]:[3] أي: أن هذا الفعل لم يكن ليكفيهم أي شيء أمام أمر الله النافذ[4].

---

(١) التدبر والبيان في تفسير القرآن، (١٦/ ٢٦٠).
(٢) من حديث يوسف وموسى، ص١٦٠.
(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٩٠.
(٤) يوسف أيها الصديق، د. السقا، ص٣٢٣.

٣- ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾[يوسف: ٦٨]:

وهي شفقته عليهم والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى[١]، قال الدكتور محمد محمد أبو موسى: قال حاجة في نفس يعقوب ولم يبين لنا ما هي. وقوله قضاها تعني الوصية التي أوصى بها بنيه وليست الحاجة، وإنما الحاجة هي الشيء الذي جعله يوصي أبناءه بهذه الوصية. ثم بين سبحانه أن يعقوب ذو علم للذي علمناه؛ وهذا يدل على أن هذه الحاجة هي من العلم الذي علمه الله. وقوله سبحانه ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾[يوسف: ٦٨] سار في الناس سير المثل كما سار قول يوسف لصاحبيه: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف: ٤١]، سار أيضا سير المثل. ولما لم يبين لنا القرآن هذه الحاجة وإنما فتح لنا باب معرفتها لما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾[يوسف: ٦٨] اجتهد أهل العلم في بيانها فذكروا أن قوله لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف: ٦٧]،كان لخوفه عليهم من الحسد وأوصاهم بذلك ثم قال لهم: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[يوسف: ٦٧]، وأن العلم الذي علمه الله يعقوب من هذا الباب أن تحافظ وتحتاط في كل وجه ولا تبقي شيئًا يمكن أن يدخل عليك منه من الضرر، ثم تتوكل التوكل الذي ليس فوقه توكل وهذا هو الذي لخصه علماؤنا في كلمتين ليس وراءهما شيء وهو قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اعقلها وتوكل) تتناقلها ألسنتنا من لسان سيدنا صلوات الله وسلامه عليه[٢]؟

إن الحاجة التي كانت في نفس يعقوب هي درس تعليمي تربوي تطبيقي لأبنائه بحقيقة التوكل بالقيام باتخاذ الأسباب السليمة اللازمة مع الاعتقاد الجازم بأن

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٣٩٠.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص١٦١.

الفاعلية المطلقة هي لله وحده بهذا السبب أو ذاك أو بلا سبب البتة: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

هذه الحكمة في هذا العلم هي الحاجة التي كانت في نفس يعقوب قضاها لأبنائه بأن علمهم وبلغهم إياها كما تبلغها وحياً من الله سبحانه وهي حقيقة إيمانية ثابتة جاء بها كل نبي وأساس من أسس الدين والتكليف والحساب وسنة من سنن الله العامة والأمثلة عليها كثيرة لا تحصى. وقصة نبي الله نوح ببناء الفلك سبب، والركون إلى الرحمن الرحيم فاعلاً في السبب ومنجياً من الغرق خير دليل على ذلك. ورحلة هجرة المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شاهد تطبيقي عملي ودليل وأسوة حسنة على هذا[١]. ومن حقائق التوكل الحق، الدعاء الحق الذي يأتي بعد القيام بالعمل واتخاذ الأسباب المستطاعة، فالدعاء من غير أن يُرفق بعمل مستطاع هو نوع من التواكل أيضاً. وفي بدر قام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ربه بعد أن أقام خطة الحرب وأقام المقاتلين في أماكنهم، إذ هو على يقين بأن الله هو الفاعل المختار وهو الحي القيوم وهو الفعال لما يريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[٢].

٤ – ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]:

أي: إن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لصاحب علم بسبب تعليم الله له ومن علمه الذي علمه له أن يأخذ في الأسباب ويعتقد بعد ذلك أن احتياط العبد لا يغير شيئاً في قضاء الله تعالى، إذا كان قد سبق في علمه شيء وراء ما قدر العبد ودبر وذلك هو التوكل الصحيح[٣].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢١.

(٣) دعوة الرسل، ص١٤٠-١٤١.

٥- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

كُرِّرت هنا مع يعقوب كما ذكرت من قبل مع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للتأكيد على معانيها العامة، وجاءت هنا في هذه المناسبة لتخصّ معنى علم حقيقة التوكل في أن كثيراً من الناس لا يعلمون علم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن حقيقة التوكل الحق فهُم:

أ- إما غارقون في الأسباب مؤلِّهون لها معتقدون بالفاعلية في ذاتها غافلون عن قيومية الله المطلقة في الوجود وعلى كل نفس بما كسبت.

- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

- ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرعد: ٣٣].

ب- وإما الغافلون عنها تاركون أمر الله لهم باتخاذ أحسنها، وهؤلاء هم المتواكلون وكل منهم لا يعلم التوكل الحق وهم مع الأسف أكثرية الناس.

- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

لأن أكثرهم لا يؤمنون ولأن أكثرهم لا يشكرون والعكس صحيح فالعلم والشكر والإيمان سلسلة وحلقة دائرية كاملة كل حلقة تؤدي إلى الأخرى في جميع الاتجاهات ومن أي منها انطلقت فالإيمان يدعو إلى العلم والعكس صحيح: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد: ١٩]، فالتوحيد رأس وذروة سنام الإيمان يتقدمه العلم والعلم يثمر الشكر وهكذا فإن (أكثر الناس لا يعلمون): كسلاً أو تقصيراً (غفلة) أو توجّهـاً خاطئـاً (جحوداً وعدم شكر) أو صداً (كفراً) عن تعلم العلم الحق النافع وعلى رأسه العلم الذي علمه الله لآدم ولأنبيائه وأمرهم بتعليمه وتبليغه للناس فبلغوه كما تبلغوه وجعل الله العلماء ورثة الأنبياء جيلاً بعد جيل فالعلم

الحق هو الموصول بالله الحق والمستمد منه فإن لم يكن كذلك فهو إما علم غير نافع أو علم ضار (علم شيطاني)[١].

رابعًا- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَاْ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٩ - ٧٥]:

١- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَاْ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]:

هذا المشهد الثاني من مجيء إخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ودخولهم عليه:

أ- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾[يوسف: ٦٩]:

-(ولما) حرف شرط وفعل الشرط هو: (دخلوا على يوسف) وجواب الشرط هو ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾[يوسف: ٦٩][٢].

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٦٩] أي: من بعد أن دخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وكالعادة بكل إيجاز ودقة بليغة وإشراك السامع في فهم ما انتهى إليه الكلام[٣].

---

(١) يوسف الصديق، ص٣٢٥.

(٢) القصص القرآن، (٢/ ٢٠٠).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص٣٢٦.

ب- (آوى إليه أخاه) استطاع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن ينفرد بأخيه ويضمه إليه وينزله عنده ويصرّح له بسرّه وأمره وترك ذكر تفاصيل الكيفية لأنها غير أساسية[١]

ج- (قال إني أنا أخوك): كان أول كلامه إليه أن ابتدر بتعريف نفسه وتبيانه لأمره، كي يطمئن له وتسكن إليه نفسه ويتصرف بعد ذلك فيما سيفعله يوسف عن رضا وقبول من غير فزع ولا جزع بلفظ (إني) للتأكيد و (أنا) للاختصاص والاهتمام و(أخوك) لما للفظ من معاني الأخوة التي تحمل المودة والقربى والعطف والمحبة ولم يقل أنا يوسف بل جاء بأجمل وأرق لفظ مع كاف الخطاب لتنفيذ الالتصاق والاختصاص والتسمية تحصيل حاصر لأن بنيامين يعلم أن لا أخ له غائب غير يوسف الذي افتقد منذ نعومة أظفاره والذي لا يفتأ أبوه يذكره بالأسى واللوعة على فراقه وأمل لقائه[٢]

وإسرار يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأخيه بأنه أخوه دليل على جواز التناجي للمصلحة وقد كان غرض يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تهيئة أخيه لما سيحدث فيستعد لذلك نفسياً ولئلا يتأذى بتوجيه التهمة له وهو يعلم أنه بريء وكل ذلك دليل على لطف يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحكمته ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

د- ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]: جملة جليلة في معناها وجليلة في موقعها:

أما جلال معناها فإنه لم يقل له فلا تحزن مثلاً وإنما قال تبتئس من البؤس وهو الشدة والحسرة والألم والحزن ثم هو على صيغة الافتعال الدال على كثرة

(١) المصدر نفسه، ص٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

البؤس وشدة الشدة وحسرة الحسرة ثم إنه لم يقل فلا تبتئس بما عملوا إنما قال بما كانوا يعملون فأشار بالمضارع إلى تجدد هذا العمل المفضي بك إلى الابتئاس[١] فهذا جلالها في مبناها ومعناها أما جلالها في موقعها فهو فيض التسامح الذي تفيض به نفس يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنه لما لقي أخاه المبتئس من سلوك إخوته بعد عقدين من الزمن أو أكثر كانت أول جملة قالها له بعد ما عرفه أنه أخوه هو اغسل قلبك ونفسك من كل سوء فعلوه بك وبي حتى كأنك لم تلق من أحد من أهلك سوءاً[٢]، بالله ما أكرم هذا الإنسان المخلص المجتبى وما أحسن إحسانه حقـًا لقد أوتى شطر الحسن في الخُلق والخِلقة وما كان في الخُلق خير وأبقى.

أجمل القرآن الكريم في هذه الآية بعضـًا من محاسن أخلاق يوسف فقد آوى إليه أخاه وعرفه بنفسه ونصح له وتجاوز عن ذكر ما دار بينهما من حديث ومكاشفة ومشاعر وذكريات وأسى وأحزان أدبـًا رفيعـًا بعدم ذكر الإخوة - رغم ما فعلوه - بسوء وعدم رغبة يوسف بالتصريح بذلك والتشهير بهم[٣].

هذا وقد رسم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **خطة لإبقاء شقيقه عنده وشرع في تنفيذها**[٤]:

٢- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

أ- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: كما فعل في الأولى وجاء بالفاء للتعقيب القريب ليدل على سرعته ومبادرته في ذلك اهتمامـًا بأمرهم وتيسيراً لهم وأيضـًا للتعجيل بتنفيذ خطته والوصول إلى غايته[٥].

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٧.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٨).

(٥) يوسف أيها الصديق، ص٣٢٩.

وقولـه: ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسـف: ٧٠]: أي الجهـاز الـذي ابتغـوه وأرادوه غير منقوص[١].

ب- ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]:

- (السقاية): أي وعاء الكيل وأهميته لا تكمن في قيمته فقد قيل إنه مصنوع من الذهب، والذهب إضافة إلى ارتفاع قيمته فهو أصلح المعادن لكيل المواد الغذائية وخصوصاً السائلة. و(السقاية) منها فهو لا يتغير بما يُكال فيه ولا يغير ما يخالطه بل أداة الكيل ووحدة القياس الرسمية فإذا فُقد، يتعطل الكيل والتوزيع وتعطلت مصالح العباد[٢].

والسقاية هي المشربة التي يشربون منها وسميت هنا سقاية، وسميت من بعد بالصواع لأنها استخدمت للكيل ولا مانع للمقتصد من أن يستخدم أمراً واحداً في حاجتين مختلفتين وخصوصاً إذا كانت غالية في ذاتها فقد قيل أنها كانت من الذهب كما مر معنا. وقيل من الفضة أو نحو ذلك والصواع لغة في الصاع[٣].

- ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: مخزن متاعه فوق بعيره.

ج- ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

-(ثم) للتراخي الزمني أيّ: بعد مدة من الزمن ذهب فيها الجاعل بعيداً حتى لا يُكتشف أمره أو لانتقال التصعيدي في الأمر[٤].

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٤٤).
(٢) يوسف أيها الصديق، ص٣٢٩.
(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٤٤).
(٤) يوسف أيها الصديق، ص٣٢٩.

- ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [يوسف: ٧٠]: نادى مناد وأعلم بأعلى صوته ومكرراً وموصولاً نداءه وصوته في آذانهم[١] وأعلى اتهامه الصريح على الركب المغادرين وفاجأوهم بالاتهام.

- ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٧٠]: العير: هي الإبل التي عليها الأحمال وتحمل البضائع والناس في الأسفار أي: يا أهل العير ويا أصحابها وجاء بصيغة (أيتها العير) إضافة إلى جمالها البلاغي اللغوي ودقتها في الحصر والتخصيص إذ استثنى الأشخاص من موظفيه وفتيانه عن السرقة ثقة منه بهم كما أن الناس عمومـًا من المستحيل أن يسرقوا ويُخفوا الصواع ويحملوه في ثيابهم دون أن يُكشف أمرهم وأدبـًا مع الناس فكنّى بالعير عن الناس حتى لا يتهمهم مباشرة بالسرة فيؤذي مشاعرهم وصيغة الاستفهام في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، تناسب هذا المعنى الآخر.

- ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]: إنكم كذلك. واللام للتأكيد لتكون التهمة من القوة بمكان لا مجال فيه للشك. والسرقة أخذ ما للغير من غير وجه حق خفية، فإذا كان علنـًا صار غصبـًا وسلبـًا.

قام يوسف بهذه الحيلة لكي يأخذ أخاه دون أن يشعرهم بأنه يوسف كما أنه لا يريد أن يأخذه قسراً وظلمـًا، وقد لاحظنا في هذا المثال: أن الدليل فيه صادق ملموس وأن المتهم بريء وهكذا فليس كل دليل بالضرورة ولو كان صادقـًا دامغـًا على أن المتهم مذنب فعلاً.

والمتأمل بالآية الكريمة: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]، لم يذكر أنه أرسل فتيانه أو غيرهم وهذا مشعر بانعدام الواسطة وليس للازم ولكن إذا

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص٣٣٠.

روعي أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يشرف ويباشر على أمر التمويل مع مراعاة أن الأصل في مثل هذه الأعمال الإخفاء لأن إذاعة أسرار التدابير التي حقها أن تكتم أمر لا تُحمد عقباه وهذه المعلومة الحساسة لا ينبغي أن تذاع ولو لأهل الثقة والقاعدة فيها أن لا يخبر بها غير المحتاج إلى إخباره وإن كان الآخرون أوثق ولهذا أسر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأسماء المنافقين مع أن الصحابة كلهم ثقات ورغم وجود الخلفاء المهديين وهم أفضل منه اتفاقاً ولكن اقتضت الحاجة أن يخبر حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دون سواه فإذا روعي ذلك لم يستبعد أن يكون هو نفسه من جعل الصواع في الرحل، هذا هو الأظهر[(١)]

ويبدو أنه ما إن تم وضع السقاية حتى أعلم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعض جنده بفقد الصواع وأمرهم بالبحث عنه ويبدو أن قرائن الأحوال أشارت إلى أنه لا يمكن أن يكون الآخذ غير هذه العير إما لعدم وجود غيرهم أو لأن يوسف أومأ إليهم والحاصل أنه قام منادٍ يكرر النداء معلماً: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، وتأكيده للأمر يشعر بأنه لم يكن في المكان غيرهم والمؤذن رغم اتهامه لهم لما احتفّ بالموقف من قرائن فإنه لم يحدد أحداً بعينه وفي ذلك نوع من الحكمة[(٢)]، فلما سمع إخوة يوسف هذا الاتهام فوجئوا به واهتموا به وانزعجوا منه فقالوا:

٣- قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ [يوسف: ٧١]:

فوجئ الإخوة الأبرياء بهذا الاتهام الصريح فما كانوا يتوقعون أن يُتهموا بالسرقة، سرقة عزيز مصر الذي أكرمهم وأحسن إليهم وهم من هم: إنهم أولاد نبي فكيف يتهمون بالسرقة؟

---

(١) آيات للسائلين، ص٢٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٦.

التفتوا نحو غلمان العزيز التفاتة تملؤها الدهشة والصدمة والاستغراب: ﴿ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴾ [يوسف: ٧١]؛ إن الجملة المعترضة في الآية ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾ [يوسف: ٧١] تصور لنا تصويراً حيـاً مؤثراً كلّ علامات ومعاني الانفعال والمفاجأة والاستغراب.

لقد كان الركب سائرين للخروج من المدينة فلما سمعوا الاتهام من قبل المؤذن عادوا مسرعين إلى الغلمان وسألوهم ماذا تفقدون؟ ما الذي تتهموننا بسرقته؟ أجابهم الغلمان قائلين(١)

٤- **قوله تعالى:** ﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴾ [يوسف: ٧٢]:

أ- ﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]:

- ﴿ قَالُواْ ﴾ [يوسف: ٧٢]: بصيغة الجمع أي: المؤذنون أو فتيان يوسف عمومـاً.

- ﴿ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: نطلب صواع الملك أي: وعاء الكيل وأداة المقياس الرسمية الملكية ويسمى صاعـاً أو صُواعـاً: لأنّه يدور ويمر بالكيل على مختلف الناس ليكتالوا به (وحدة القياس والتوزيع) أو لأنّه يـدور ويمر على مختلف المواد التي تكتال به من حب وزيـت وخلافه، أو لأنّه يدور ويمر على ما بداخله ولفظ الصّواع يعم ويحتمل كل مكيال فارغـاً كان أو مملوءاً ومن أي مادة كان مصنوعـاً ذهبـاً أو نحاسـاً ويكال به أي شيء صلبـاً كان أو سائلاً ولذا إذا أردت التخصيص أضفت إليه الوصف المضاف؛ فتقول: صاعٌ من شعير أو صاعٌ من تمر على حسب المادة المكالة به وتقول:

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٢).

صُواع الملك أو الوزير على حسب مالكه والشخص المضاف إليه وأضاف هنا الملك (صُواع الملك) ليدل على ملكيته وقيمته الثمينة وأهميته كوحدة القياس الرسمية وأما لفظ (السقاية) فيخص المكيال الذي يكال به المواد السائلة فقط كالزيت والسمن والعسل وجاء بلفظ: (السقاية) في الأولى (ليدل على أنه كال لهم أطعمة سائلة أيضـًا) وأن السائلة كانت هي الأخيرة حتى لا تختلط بالمواد الصلبة وأنها جعلت في رحل أخيه بدليل قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]، أي: بعد أن أتم تجهيزهم وتموينهم جعل السقاية في رحل أخيه (المكيال الذي يكال به السوائل) في رحل أخيه وهذا من بلاغة وفصاحة ودقة القرآن في استعمال لفظين مختلفين لشيء واحد ولكل واحد معنى خاص حسب مناسبته في البيان[١].

ب- ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢]:

وفي هذا الموضع قال: ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: حمولة كاملة للجمل أي: زيادة عن مقدار الحصة المحدودة لكل بعير وذلك من باب التطميع والترغيب.

ج- ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]:

انتقل من صيغة الجمع إلى المفرد ولم يقل ونحن به زعماء ليدل على فرديّة المتكلم الزعيم واختلافه عن المتكلمين من قبل من فتيان العزيز وفي إشارة هنا إلى أن الزعيم الكفيل هو نفسه الزعيم الرئيس أي: العزيز صاحب الشأن والأمر والحل والعقد وذلك تأكيداً للأمر والمكافأة إذ هو الذي يملك أداءها على الحقيقة وليس نائبه فضمانته أقوى وأسلم وآكد من ضمانة نائبه ويكون التقدير:

(١) يوسف أيها الصديق، ص٣٣٢.

(وأنا الزعيم بما قد صرح به فتياني). زعيم (كفيل) أي: بأداة المكافأة ويتضمن الكلام أيضـاً إسقاط تهمة السرقة وعدم ملاحظة من جاء بالصواع ولوكان هو الذي أخذه وعدم متابعته أو اتهامه أو تجريمه أو معاقبته ويتضمن أيضـاً الإشارة إلى عظم أهمية المفقود (الصواع) وأنه أرجح في الكفة من الفعل نفسه (السرقة) مما نتج عنه ليس مجرد العفو عن السارق بل وتقديم المكافأة لمن جاء بالصواع أيـاً كان وفي هذه الآية حكم بجواز العفو عن السارق وإسقاط الحق الخاص والعام عنه وذلك قبل أن يُقدر عليه ويُعلم ودلالة فقهية في رجوعه من صيغة الجمع (فتيان العزيز) إلى المفرد (العزيز نفسه) ليعلن الأمر بنفسه إذ هو صاحب الحق الخاص والعام بوصفه عزيز مصر ونائب الملك والمفوّض باسمه بإدارة خزائن الأرض والتصرف في شؤونها.

وقد جمعت هذه الآية عدة حوافز وتطميعات لإعادة الصواع منها قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ [يوسف: ٧٢] ليعمّ أيـاً كان فلم يقل: لمن أخذه أو لمن كان عنده أو لمن وجده أو لمن دل عليه وليدل بصورة ضمنية غير مباشرة على الصفح عن آخذه ولم يقل لمن سرقه، لطفـاً منه وترغيبـاً وقوله ﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: ٧٢]؛ أي: حمولة كاملة غير محددة وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٢]؛ العزيز نفسه القادر على ذلك والغني جاهـاً وسلطانـاً ومالاً وأخلاقـاً هو الكفيل الضمين[1].

٥- قوله تعالى ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]:

لـم يجـد إخـوة يوسـف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بُـداً مـن مجابهـة التهمـة بالنفـي الموثّـق باليمين فقالوا:

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص٣٣٣.

أ- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٧٣]:

- ﴿تَٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٧٣]: بيان أن التاء في (تالله) من حروف القسم وهي خاصة بلفظ الجلالة سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ[١] وعادة تدخل (التاء) على لفظ الجلالة عند القسم المقصود به التعجب أي: إن إخوة يوسف أقسموا مندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا وأن الكل قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك[٢] لقد تكلموا بما يعلمون من أنفسهم من براءة فجاءت كلماتهم واثقة فيها نبرة التحدي فما قالوا: لسنا سارقين لا وإنما قالوا: (تالله) ولقد كثر القسم بهذه الصورة في السورة ثم قالوا بعد القسم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ [يوسف: ٧٣]؛ أي: أنكم أنتم في قرارة أنفسكم من خلال ما رأيتم من أمانتنا عبر أكثر من موقف أنتم بأنفسكم موقنون أنا برآء.

وهذا أبلغ في اعتقاد البراءة وفي تأكيدها من أن تنفي عن نفسك التهمة فقط. ولكن بأن تقول لمن يتهم: أنا لن أرد عليك، أنت في قرارة نفسك تعلم فساد الدعوى التي تدعي. إن نبرة إخوة يوسف الواثقة جعلتهم يستعملون هذه المؤكدات ويخرجون كلامهم هذا الإخراج ولقد نفوا عن أنفسهم بالإضافة إلى ما قلناه لامجرد السرقة وإنما -أيضًا- أي فساد في الأرض[٣].

ب- ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]: ثم أقسموا أنهم ما كانوا سارقين في يوم من أيام الدهر عبر الماضي (كنا). والمتأمل يلحظ أنهم فرقوا بين نفي الإفساد ونفي السرقة فأما الإفساد فلم ينفوه عنهم مطلقًا بخلاف السرقة وذلك لأنهم

---

(١) إتحاف الألف، (٢/ ٧٠٣).

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٢٥).

(٣) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤٩٧.

يعلمون أن أخذهم يوسف من قبيل الإفساد لا السرقة فالسرقة لا تطلق على مثل هذا إلا على سبيل التجوّز خلافاً لأصل مادتها في اللغة الدال على أخذ في خفاء وستر وحرز[١].

ثم إن السرقة إفساد وزيادة ولهذا بالغوا في نفيها مالم يبالغوا في نفي مطلق الإفساد وخاصة أن التهمة الموجهة هي السرقة ولهذا تضمنت عبارتهم تلك نفي السرقة مرتين بصيغتين مختلفتين فالسرقة نوع من الفساد في الأرض لأنها تجمع بين خصلتين ذميمتين: أخذ الشيء بغير حق، وأخذه خفية وهذا نوع من الخيانة ولذلك لما قال أحدهم معترضاً على حكم الله تعالى في السارق بقطع يده:

يدٌ بخمس مئين عسجد

وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

رد عليه بعضهم بقوله:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها

ذل الخيانة فافهم حكمة الباري.

وتلحظ في هذا الحوار من الأساليب المهمة في التربية وفي التعامل مع الناس إعطاء المخطئ فرصة ليعود عن خطئه، فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يعدهم بالعفو فقط عن الجاني إذا رد الصواع بل وعدهم بإعطائهم حمل بعير بدلاً منه وأكد لهم الوعد وفي هذا دليل على أن الغرض ليس اعتراف الجاني لكن المهم إصلاح ما أفسده وتشجيعه على التخلص من الذنب[٢] ويبدو أن في شريعة أهل مصر

---

(١) آيات للسائلين، ص٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٨.

كان المسروق يؤخذ ويعاقب السارق أما في شريعة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهي شريعة إلهية فكان يؤخذ السارق ولو عمل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشريعة أهل مصر لما تم مراده وهو بقاء أخيه (بنيامين) معه ولذلك حاول إخوانه وأنزل السارق على حكمهم؛ توطئة لأخذه بإقرارهم[1].

٦- قوله تعالى ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]:

لم ينفع أسلوب الحث والترغيب مع القوم ولهذا لجأ الغلمان الفتيان إلى الأسلوب الآخر أسلوب التفتيش والمحاكمة والعقوبة والقضاء فأوعز يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى فتيانه ليسألوا الرجال: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]؛ أي: أنتم أبناء نبي ولا نعاقب السارق إلا على حسب شريعة أبيكم النبي فما هي عقوبة السارق عندكم؟ كما علمكم أبوكم النبي وإن كنتم كاذبين في دعواكم في عدم السرقة وثبتت السرقة عند أحدكم فسوف نعاقبه وفق شريعتكم لا وفق قوانيننا[2].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]:

أ- قال السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان الحكم في أرض مصر للسارق الضرب والتخمين وكان الحكم بأرض كنعان أنهم يأخذون السارق ويسترقونه ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم[3].

ب- وقال القرطبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا وكان هذا من دين يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحكمة قولهم هذا قول من لم

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٨.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٤).

(٣) مختصر تفسير السمرقندي، (٢/ ١٧١).

يسترب نفسه لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ(١).

ج- قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]؛ أي: فالسارق جزاؤه أن يسلم السارق بسرقته إلى المسروق من فيسترقيه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعف قيمة المسروق فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم(٢).

د- قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبت عليه السرقة كان ملكـًا لصاحب المال المسروق(٣).

هـ- قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]؛ أي: هـذه سنتنا وديننا في أهـل السرقة: أن تملك السـارق كما تملّك هو الشيء المسروق(٤).

ولقد كان تحكيم إخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في تحديد الجزاء على السرقة آية من آيات الله تمكن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من استبقاء أخيه فلو حكم على أخيه (بنيامين) بالقانون الوضعي المصري لما تمكن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الاحتفاظ به ولرُد إلى إخوته بعد ثبوت السرقة عليه بعد أن يُضرب. ويدفعون غرامته ببيع بعض ما معهم من أحمال البعير وحينئذ يجد الإخوة سببـًا قويـًا للنيل من بنيامين والإساءة

---

(١) تفسير القرطبي، (٩/ ٢٣٤).

(٢) تفسير السعدي، ص٥١٤.

(٣) المحرر الوجيز، (٣/ ٢٦٤).

(٤) المحرر الوجيز، (٣/ ٢٦٤).

الشديدة له[١] ولما أجاب الإخوة بما هو المطلوب من تحكيم شريعتهم في السارق باسترقاقه فحينئذ بدأ التفتيش:

خامسًا: قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

١- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]:

- ﴿فَبَدَأَ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي: يوسف ورجع الكلام إليه ليدل على قيامه بهذا الأمر ومباشرته له بنفسه لأهميته وخطورته. وجاء بالفاء ليدل على أنه ما إن سمع حكمهم حتى بادر من فوره بتنفيذ خطته قبل أن ينتبهوا أو يتراجعوا.

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي: تسبق التفتيش في أوعيتهم قبل وعاء أخيه تمويهًا منه حتى لا يُظن أنه يعلم مسبقًا بوجودها فيه.

٢- ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]:

- ﴿ثُمَّ﴾ [يوسف: ٧٦]: عطف على التراخي الزمني أي: بعد أن أخذ وقتًا في التفتيش بدقة في أوعيتهم أو على الانتقال التصعيدي في نتيجة الاستخراج أي كان: سلبيًا في أوعيتهم ثم صار إيجابيًا في وعاء أخيه.

- ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي: ليدل على أنه طلب وقام بالجهد في إخراجها زيادة في الكيد والحيلة ولم يقل: أخرجها أي: من البداية وبسهولة. وأنّث الضمير هنا ليدل على لفظ السقاية الذي ذكره في الأول؛ ليشير إلى أنه استعمله في كيل المواد السائلة التي كانت من نصيب رحل أخيه.

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص٤٠٨).

- ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾[يوسف: ٧٦]؛ ولم يقل في هذه الآية: (رحل)؛ وهذا من الفصاحة فالرّحل مخزن متاع المسافر فوق البعير (حقيبة السفر) توضع فيه الأشياء فاستعمل اللفظ في وضع السقاية فيه وبعد أن ضُمت فيه الأشياء وأوعاها صار وعاء قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]، فعند الوضع والإدخال جاء بلفظ (الرحل) وبعد ضم الأشياء فيه جاء بلفظ (وعاء) أي: أنه فتش فيما ضمته رحالهم من أشياء وأوعت وبالطبع لم يفتش الرحال الخاوية -إن وجدت- كونها لا تحمل صفة الوعاء[١].

ويبدو أن بنيامين لتواطئه مع يوسف لم يدافع عن نفسه أو يحاول دفع التهمة عنه وكان بإمكانه أن يقول: ليس هذا دليلاً! أثبتوا أني وضعتها؟ ربما وضعها من يريد أن يكيد لي أو يريد أخذ حمل البعير وأنا أقسم على ذلك ولم يكن لهم حينها أن يأخذوه من غير بينة ولأنه سكت وهذا دليل على أنه كان مهيأ للموقف وأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أسرّ له بذلك وبين له ما سيفعله فلعل هذا ما جعل إخوته يسلمون ويقولون قولتهم: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾[يوسف: ٨١] ومن هنا ينبغي أن نلحظ أن المتهم قد يراعي بعض المصالح أو يحاول دفع بعض المفاسد فيسكت ولا يدافع عن نفسه لذلك ليس بالضرورة أن يكون كل من لم يبرئ نفسه مقراً على نفسه بالتهمة ولو عظمت[٢].

٣- ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[يوسف: ٧٦]:

وتترك الآيات الإخوة وسط الدهشة والصدمة والانفعال لتقدر لنا تقريراً وتعقيباً عن حكمة الله من تقدير هذه الحادثة المثيرة ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا

(١) يوسف أيها الصديق، ص٣٤٠.
(٢) آيات للسائلين، ص٢٨١.

لِيُوسُفَ﴾[يوسف: ٧٦]: إن الله هو الذي كاد ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرشده إلى هذا التدبير الحكيم ليتم قدر الله في النهاية.

إن قول الله عن ترتيب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾[يوسف: ٧٦] ثناء من الله على يوسف ومدح له لفعلته وإشارة إلى أنه فعلها بإلهام من الله وهذا دليل أنه فعلها بعد النبوة وأنه كان على صواب في فعلها فقد وضع السقاية في رحل أخيه دون أن يعلم به أحد حتى من رجاله وفتيانه وبعد ذلك وقف متفرجاً يرقب تتابع لقطات المشهد المثير المفاجئ دون أن يتدخل هو فتيانه هم الذين فقدوا صواع الملك وأحد فتيانه هو الذي أذن ونادى واتهم الرجال بالسرقة وأحد فتيانه هو الذي وعد بجائزة حمل بعير لمن يعيد الصواع المسروق وتكفل بذلك وأحد فتيانه هو الذي اتفق مع الرجال على أن يعاقب السارق وفق شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كل هذا ويوسف ينظر ويراقب ويتابع دون أن يتدخل أو يتهم أو يحاكم أو يدين وفي آخر لقطة في المشهد المثير تقدم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليفتش أمتعة القوم ويستخرج السقاية من رحل أخيه لقد كان يوسف على صواب فيما فعل ويكفيه أن الله أثنى عليه بقوله ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾[يوسف: ٧٦]، ونقف لحظة أمام تقدير الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأخذ أخاه رفيقاً وفق شريعة أبيه لا وفق شريعة الملك[1].

٤- ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ﴾ [يوسف: ٧٦]: والمراد بكلمة ﴿دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾[يوسف: ٧٦] هنا هو: نظام ملك مصر وشرعه وقانونه الذي يحكم الشعب المصري على أساسه فيخضع الشعب المصري لهذا القانون

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٧).

ويدينون لهذا النظام ويلتزمون ذلك الشرع ولهذا سمي ﴿دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] لأن أساس معنى (دين) هو الانقياد والخضوع والدينونة لنظام أو شرع أو قانون أو حكم وهناك (دينان) أي: هناك نظامان وشرعان وقانونان (دين الملك) أي: نظامه وشرعه ومنهاجه وقانونه الذي يحكم به الناس سواء كان هذا الحاكم ملكاً أو رئيساً أو زعيماً طالما نظامه وشرعه يناقض حكم الله والخاضعون لهذا النظام يدينون له، يقال عنهم: إنهم في دين الملك.

- و(دين الله): هو نظامه وشرعه ومنهاجه وحكمه الذي أنزله على رسله وأمر الناس أن يدينوا ويخضعوا له ويعبدوا الله من خلال التزامه والخاضعون لمنهاج الله وشرعه يقال عنهم: إنهم في دين الله[١] إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يرضى ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يعاقب أخاه وفق نظام الملك وشرعه ومنهاجه أي: وفق دينه الذي يخضع الناس له به ولذلك ألهم الله فتيان يوسف أن يسألوا الإخوة عن عقوبة السارق في شرع يعقوب النبي أي: عقوبة السارق في (دين الله) الذي أنزله على يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وذلك ليعاقب يوسف أخاه وفق دين الله وشرعه، وهذا يدلنا على أن يوسف لما كان في منصب (عزيز مصر) معيناً من قبل الملك لم يكن مجرد تابع للملك ولا منفذاً لنظام الملك ولا حاكماً بشرعه وقانونه وإنما كان يحكم بشرع الله ويطبق على الناس حكم الله وكان صاحب الكلمة والقرار في البلاد[٢].

- ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]: أي: ما فعله يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع أخيه إلا بإذن الله ومشيئته ووحيه لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة[٣].

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٧).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٢٠٧).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص٤١٣.

٥- ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦]:

أي: نرفع درجات ومنازل في العلو من نشاء وقد رفعنا يوسف فوق إخوته حتى احتاجوا إليه ومدوا أيديهم طالبين منه المبرة والعون وأعطيناه الملك والعز والحلم وتدبير شؤون الدولة حتى صارت تمد غيرها[١].

قال الرازي في تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأنّه -تعالى- لما هدى يوسف إلى هذه الفكرة مدحه لأجل ذلك فقال: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾[يوسف: ٧٦]، و -أيضـًا- وصف إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بقوله ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾[يوسف: ٧٦] عند إيراد دلائل التوحيد[٢].

- ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾[يوسف: ٧٦] أي: بالعلم الذي نوحيه إليه ونخصه به كيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فقد أعزه الله تعالى ورفع مقامه بالعلوم التي علمه سبحانه إياها في الدين والعبادة وتعبير الرؤيا والزراعة والادخار والتوزيع، قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١][٣].

٦- ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦]:

أي: وفوق كل ذي علم من الخلق عليم وهو الخالق العظيم الذي وسع علمه كل شيء[٤] وهذه حقيقة إيمانية حول علم الله الشامل المحيط لكل شيء فمهما أوتي يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من العلم -أو غيره من الأنبياء والمرسلين والناس أجمعين- فعلمهم محدود قاصر لأنّه من البشر والله أعلم من كل البشر[٥].

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٤٦).

(٢) تفسير الرازي، (١٨/ ١٨٢).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٠).

(٤) المصدر نفسه، (٤/ ٢١٠).

(٥) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٨).

فعلى العالم ألا يغترّ بعلمه ويتواضع للناس ويسخّر علمه لفائدتهم كما فعل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعليه أيضـاً أن يسعى دائمـاً في طلب العلم والاستزادة منه قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وعليه أن يخلص في طلبه للعلم لوجه الله عَزَّوَجَلَّ حتى يتقبل الله علمه وعمله، وما فعله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدل على جواز الكيد لإحقاق الحق وإزهاق الباطل "فإن الحرب خدعة"(١)

وقال أيضـاً لنُعيم بن مسعود الغطفاني عندما جاءه مسلمـاً في أثناء غزوة الخندق: "إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة"(٢).

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينئذ محصوراً مع أصحابه في المدينة المنورة من قبل القبائل المشركة المتحزّبة على المسلمين وقد انضمّ إليهم يهود بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحتال نعيم بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على الأحزاب ومن كان معهم من اليهود حتى تمكن من إشاعة الفرقة بينهم وتوهين صفهم وتفشيلهم(٣).

وبعدما عرضت الآيات الكريمة كيفية تفتيش يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للأمتعة انتقلت لتسجيل وتصوير أثر الدهشة على الإخوة، فبعدما فوجئوا بسرقة أخيهم لصواع الملك لم يعرفوا ماذا يقولون لعزيز مصر فاتهموا أخا لهم آخر بالسرقة وفوجئ يوسف بهذا الاتهام ومع هذا ضبط أعصابه أمامهم(٤):

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، عنوان الباب الحرب خدعة، ح رقم ٢٨٦٣.
(٢) سيرة ابن هشام، (٢/ ١٣٧).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١١).
(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢٠٩).

سادسًا: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]:

لقد كانوا قبل قليل في حالة معنوية عالية وفي ثقة كاملة وعزة نفس، حتى اكتشفت السقاية في رحل الأخ فأصبحوا كأنهم فقدوا التركيز والاتزان ويتكلمون بغير وعي ولا روية[١]. فكان ردهم يدل على دهشهم وعلى ذهولهم وصدمتهم، فخرجت على ألسنتهم المشاعر الدفينة والأمور المخبأة ودلّ هذا على أن السنين الطويلة لم تنسيهم كرههم ليوسف مع أنهم نجحوا في كيدهم له بإلقائه في الجب وإبعاده عن أبيهم وكانوا له ظالمين كما أن يوسف لم يرد ذكره من قريب ولا بعيد فلماذا أقحموه من غير داع ولا مناسبة، ثم إنهم كانوا يعلمون يقينًا أن يوسف الطفل الصغير لم يسرق ولم يسيء، وهكذا ألقوه في الجب في الأولى كيداً، ورموه بالسرقة هاهنا بهتانًا، فقابل يوسف فريتهم حلمًا وكتم حقه صبراً وقوة إيمانية في كظم غيظه: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

١ - ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ٧٧]:

وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في حكايات وأساطير، كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعًا للتهمة التي تحرجهم، وتبرؤا من يوسف وأخيه السارق، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه[٢].

(١) سورة يوسف، ص ٥٠٢.
(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٢).

ولقد أولعت بعض التفاسير بنقل الإسرائيليات التي لا يقبلها نقل ولا عقل، وسارعت هي الأخرى تبحث في الملفات عن سرقة يوسف ارتكبها يوسف، ثم جاءتنا بعد التنبيش في الإسرائيليات بأخبار ما أنزل الله بها من سلطان من مثل أن يوسف كان وهو صغير قد سرق صنما كانت تعبده عمته، أو نحو ذلك من الروايات التي لا نحب ان نذكرها حتى ولو من باب الرد عليها. وتكلف البعض فقالوا إنه سرق قلب أبيه. ولماذا التكلف؟ إن الأمر جد يسير، إنها المفاجأة تنطق الإنسان بأي كلام والسلام، ولا حاجة إلى البحث عن تفسير هذه الكلمة وكأنها حقيقة ثابتة. إنها بقايا الحسد، ما زالت عالقة في أغوار النفس حتى إذا هبت أي ريح ثوّرتها[١]. قال الرازي: ظاهر الآية يقتضي أنهم قالو إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً. وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهم من أم أخرى. وأما عن رد فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إزاء موقف إخوته العجيب هذه، فقد واجهه بالضبط والربط والحلم والأناة، والهدوء والسيطرة على النفس[٢].

٢- ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[يوسف: ٧٧]:

لم يظهر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ انفعاله أو تأثره بما قالوا، وقال في نفسه: أنتم أسوأ مما تفترون على يوسف حتى لو كان كما تقولون، والله هو الذي يعلم حقيقة الحال[٣].

- ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[يوسف: ٧٧]؛ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون ولم يؤاخذهم به لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً وحلماً وكظم غيظه وأسرّ الأمر. وكان بإمكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يرد على التهمة وأن يبرئ

(١) سورة يوسف، ص ٥٠٣.
(٢) سورة يوسف، ص ٥٠٣.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٥٠٣.

نفسه منها، وأن يكذبهم فيما قالوا، وعندها سيعرفون أنهم واقفون أمام يوسف، ولو فعل ذلك لفسد كل ترتيبه وتدبيره وتخطيطه.

إذن عليه أن يتحمل وأن يصبر على التهمة وأن يضبط أعصابه وأن يتصرف مع المسالة بكياسته وحصافته المعهودة ولذلك لم يعقب على كلامهم.

﴿فَأَسَرَّهَا...﴾ [يوسف: ٧٧]. وكم من مرة استعلى فيها يوسف على آلامه وأحزانه؟ وكم من مرة أوذي واتهم فصبر واحتسب[١]؟

٣- قال تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾[يوسف: ٧٧]:

أ. ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾[يوسف: ٧٧]: قالها في نفسه: أنتم إخوة شر ومكانكم شر وموقفكم هو الشر[٢].

- ثم إن عبارة: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾[يوسف: ٧٧] ليس فيها حقد عليهم وإنما هو وصف لهم.

- ﴿أَنتُمْ شَرٌّ﴾[يوسف: ٧٧] مبتدأ وخبر. ﴿مَّكَانًا﴾[يوسف: ٧٧]: تمييز.

وأنكم بسبب شركم جعلتم المكان الذي أنتم فيه شراً.

- قلتم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾[يوسف: ٧٧] من قبل والله يعلم أني لم أكن سارقًا.

- وقلتم: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾[يوسف: ٧٧]. وأنتم تريدون أخي فالله يعلم أنه لم يسرق.

- وإنما أريد أن أبعده عنكم لأنكم شر مكانا[٣].

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢١٠)

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٢١٠).

(٣) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٤.

- ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]؛ أي: عالم علما بالغًا إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا[١]. ومن العلماء من يرى أن قول يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا...﴾[يوسف: ٧٧] خاطب بذلك إخوانه. وقالوا: إن من الحزم والعدل أن تقرر الحقائق بحكمة ويوقف المجرم عند حدّه وإلا تمادى المخطئ في خطئه وصدق نفسه وأقنعها بأنه على حق، وبرر خطأه واعتبره مباحًا أو فضيلة، فكان هذا التصريح من يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ليضع النقاط على الحروف وينزع القناع عن الوجوه ويردهم إلى حقيقتهم، ثم أنتم شر مكانا، فأنتم الإخوة الكبار القدوة والأسوة ولو كان فيكم خير وكان ما تقولون صدقًا لكان عليكم مسؤولية المشاركة في النصح والإصلاح والتربية والتزكية خاصة وأن أخويكم كانا أطفالاً صغاراً[٢].

﴿مَّكَانٗا﴾[يوسف: ٧٧] أي: مكانكم ومكانتكم التي أنتم فيها، وكينونتكم التي أنتم عليها؛ شر كلها[٣].

- ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧] أي: إن ما وصفتم فيه أخويكم من سوء، الله أعلم بأمره وفي الكلام أسلوب حكيم لطيف في رد الحقائق إلى علم الله وفي تضمين مبطن بعدم الاقتناع بقولهم، فإن كان ما ذكرتموه حقًا، فقد اهتم طفلاً غير مكلف غائبًا غير حاضر، ولا علاقة له بالأمر ولا تزر وازرة وزر أخرى، ومن غير دليل ولا برهان، المتهم بريء حتى تثبت إدانته. وإن كان غير ما تقولون فهو الكذب والبهتان فرد العلم الأوسع والأعظم إلى الله، بالإضافة إلى بيان الحق تشكيكا بصدق قولهم، ولا يخفى على لبيب ما في هذه الآية من

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤١٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٨.

إرشاد وموعظة حسنة وتذكير وهز للنفوس والضمائر(١). وبهذا انتهى المشهد المثير وعرف الحاضرون أن الأخ الصغير قد سرق صواع الملك، وعرف الحاضرون حكمه، والعقوبة التي ستقع عليه؛ سيأخذه عزيز مصر عبداً عنده مقابل ذلك المتاع وبهذا عرف الإخوة العشرة أن أخاهم الصغير سيتحول إلى عبد رقيق عند عزيز مصر، وعندها تذكروا ما جرى بينهم وبين أبيهم والموثق الذي أعطوه على أن يعودوا به، واستحضروا مقدار ما سيصيب أباهم من حزن وألم، عندما يعلم ما جرى، وبأنه فقد ابنه الثاني. تذكروا كل هذا فحالوا محاولة أخيرة مع عزيز مصر(٢):

سابعًا: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨ - ٨٠].

تفسير الآيات الكريمة:

١ - ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨]: لما تنبه الإخوة إلى ضخامة المشكلة التي وقعوا فيها، أرادوا أن يستعطفوا العزيز ليطلق لهم أخاهم ويأخذ أحدهم مكانه فيرجعوا به إلى أبيهم؛ لأنّه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه فاتجهوا إلى العزيز في ذل وانكسار واستعطاف قائلين(٣):

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢١١).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٢٠.

أ. ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ [يوسف: ٧٨]: ولا يخفى ما في هذا القول من فخامة التقدير وعظيم الإكبار للعزيز في الوقت الذي صاروا فيه أمامه ضعفاء ولا حول لهم ولا قوة بسبب ما احتواهم من هذا الحدث الذي هزّ كيانهم، وزلزلهم بسبب موقفهم من أبيهم(١).

- ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ [يوسف: ٧٨]: فنادوه بحرف النداء الذي للبعيد وهم في حضرته وذلك للإشارة إلى علو منزلته(٢). نادوه بالمنصب مهابة وإجلالًا وتقربـًا(٣). ولأول مرة ينادى يوسف بهذا الاسم تعظيمـًا واستعطافا، ومنه علمنا أن يوسف صار عزيز مصر(٤).

ب. ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾ [يوسف: ٧٨]: إن واللام للتأكيد والضمير عائد إلى أخيهم الصغير، أضافوه للأب بالإفراد، ولم يقولوا أبانا، لما فيه من دلالة على تعلق زائد لأبيهم به وعلى التمييز بينهم كأبرياء وبينه كمذنب وكأخ غير شقيق(٥).

ج. ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: ٧٨]: أضافوا نعت الكبر للشيخ زيادة في التأكيد، أي هرمـًا. وفيها أيضـًا أنه كبير في القدر والمنزلة والمكانة، فوصفوا أباهم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي حنان الأبوة وصفة الشيخوخة واستحقاق جبر خاطره، لأنّه كبير قومه(٦)، وبعد هذه التوطئة قالوا:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٤.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

(٦) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٥٧.

د. ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾[يوسف:٧٨]: ولم يحددوا واحداً منهم وإنما تركوا له الاختيار، وصار كل واحد منهم عرضة لأن يختاره العزيز، ويصير عنده رقيقاً خادماً عبداً يباع في الأسواق، كل واحد منهم على استعداد لأن يكون كذلك، حتى يرجع أخوهم إلى أبيه الشيخ الكبير، لأنه لا يتحمل الفجعة فيه، ويتحمل الفجيعة في أي واحد منا. والفاء في قولهم: ﴿فَخُذۡ﴾[يوسف: ٧٨] تفيد معنى أننا نعلم ما يصيب هذا الشيخ الكبير من فقد أخينا الذي سرق، وترتب على ما نعلم دعاءنا لك، ورجاؤنا لك أن نأخذ من تشاء منا مكانه، ثم أكدوا دعاءهم، ورجاءهم الذي في قولهم: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾[يوسف: ٧٨] وبقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٧٨]: أي من أهل المعروف والخير والعطاء، وبصيغة المبالغة في كمال الصفة، والمحسن بعلو فوق درجة العدل إلى درجة الإحسان والمحسن بعد العفو يحسن لمن أساء إليه[١].

وجملة: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٧٨]؛ تعليل للإجابة والتقدير: فلا ترد سؤالنا لأنا نراك من المحسنين، فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أبا شيخاً كبيراً[٢].

ووصف الإحسان ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يجري في حياته ومصاحباً له في كل مراحله وكانت ملامح الإحسان ظاهرة في وجهه، وقد وصفه ربنا بذلك لما قال: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[يوسف: ٢٢]. وقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٥٦]. ورفض يوسف استعطافهم ورجاءهم، وسفّه اقتراحهم فهو أمر يخالف دين الله تعالى وشرعه، فلا يجوز ترك الجاني وأخذ البريء[٣]، فقال:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٠.
(٢) سورة يوسف، ص ٥٠٦.
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٢).

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩]:

لكل شخصية قاموس من الألفاظ كما رأينا في هذه القصة العجيبة العظيمة: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٧٩] تتردد مرة ثانية على لسان يوسف كما ترددت ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١] مرتين على لسان النّسوة كما تردد ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ [يوسف: ٥١] مرتين على لسان امرأة العزيز، كما ترددت ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ [يوسف: ١٨] مرتين على لسان يعقوب، كما ترددت ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠] مرتين على لسان الملك[١]. المهم أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رد طلبهم بأدب وحزم، وعن علم وحكمة، مؤكداً حقيقة إيمانية خالدة وتشريعاً ربانياً حكيماً، فلا يؤخذ المرء بجريرة غيره ولا يؤخذ الكل بجريرة البعض، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

١- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٧٩]: تكررت على لسان سيدنا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومعناها: أعوذ بالله معاذاً، أعني أعوذ بالله وألجأ إليه، ليحميني من فعل هذا، لأنّه ذنب عظيم[٢].

٢- ﴿أَن نَّأۡخُذَ﴾ [يوسف: ٧٩]: أي من أن نأخذ أبداً، لأن الإنسان في الأصل بريء حتى تثبت إدانته.

٣- ﴿إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩]: استثناء منقطع، أي: يستثنى من هذه القاعدة الكلية من يقام الدليل عليه.

- ﴿مَن وَجَدۡنَا﴾ [يوسف: ٧٩]: عمم ولم يخصص ﴿الصواع﴾ ليعمم الحكم.

---

(١) سورة يوسف، ص ٥٠٦.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥١.

وجمع ولم يفرد؛ ليدل على أن الأمر فيه مصلحة وحق عام، وليس حقـاً شخصيـاً فيتنازل عنه.

- وقال: ﴿مَتَٰعَنَا﴾ [يوسف: ٧٩] ليشير إلى شيء له نفع ومصلحة ممتدة الوقت وليست آنية عابرة.

- ﴿عِندَهُۥ﴾ [يوسف: ٧٩]: لتخصيص المسؤولية عليه وحده[١].

٤- ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩]:

بصيغ الجمع للتعميم. وإن واللام للتأكيد و ﴿إِذًا﴾ [يوسف: ٧٩] لتفيد الصيرورة والمآل، وصيغة اسم الفاعل للتخصيص، والاقتران في الصيغة والمعنى: لو فعلنا ذلك لكنا يقينا صائرين إلى الاتصاف بالظلم وما كنا كذلك من قبل. ومن الملاحظ أن يوسف في كل كلامه تحرى الصدق في ألفاظه وأحكامه.

فقال: ﴿نَّأۡخُذَ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل: نستعبد أو نسجن، والأخذ قد يكون إلى القصر أو إلى القبر. وقال: ﴿وَجَدۡنَا﴾ [يوسف: ٧٩] ووجد الشيء لا تعني لفظـاً ولا مضمونـاً السرقة. وقال: ﴿عِندَهُۥ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل معه. والعندية جوار قد يكون بعيداً أو قريبـاً، معلومـاً له أو مجهولاً، سهواً أو قصداً. وهكذا لخص يوسف المبادئ الأساسية التي يجب على الحاكم أن يحكم بها:

- الاستعاذة بالله: كي يوفقه إلى الحكم بالحق على الوجه الحق وإن اجتهد فأخطأ أن يغفر له ويتجاوز عنه ويصلح عاقبة أمره.

- أن الناس في الأصل أحرار أبرياء لا يُؤخذون بغير دليل.

- أن الحكم يقع على المدان وحده.

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥١.

- أن الحاكم لا يمكنه أن يتنازل عن الحق العام بعد الإدانة وثبوت التهمة[(١)].

- أن الحكم مهما تحرى المرء المحق فيه يظل محتملاً الخطأ والحكم الحق هو حكم الحق علام الغيوب.

ولذلك نجد أن الإسلام حرم الشفاعة لمنع إقامة حد من حدود الله تعالى، كحد السرقة وحد الزنى بعد رفعه إلى الحاكم، فعندما كلم أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتُكَلِّمُنِي في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللهِ؟! قالَ أُسامَةُ: اسْتَغْفِرْ لي يا رَسولَ اللهِ، فَلَمَّا كانَ العَشِيُّ قامَ رَسولُ اللهِ خَطِيبًا، فأثْنَى علَى اللهِ بما هو أهْلُهُ، ثُمَّ قالَ: أمَّا بَعْدُ؛ فإنَّما أهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أنَّهُمْ كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا"[(٢)].

وحرم أيضاً معاقبة عير الجاني في العقوبات البدنية كالجلد والسجن والقصاص، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]. وهكذا نجد الفرق الواضح والشاسع بين تسرع الإخوة في الحكم على أخيهم، وتوسعهم في الحكم ليشمل يوسف بغير دليل ولا برهان وبين دقة وصدق وإحسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٣)].

لقد فشل إخوة يوسف في الاسترحام والرجاء، وأصر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على أخذ الآخذ الذي وجد المتاع عنده، وعندما يئس الإخوة من استرجاع أخيهم،

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: من شهد الفتح، ح رقم: ٤٠٥٣.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٣).

تركوا العزيز وغادروا قصره، وعقدوا لهم اجتماعاً مغلقاً وتشاوراً ماذا يفعلون واتفقوا على خطة للعمل[١]:

ثامناً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]:

لقد كان رد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قاطعاً حاسماً آيسهم من أن يظفروا منه بطائل. ولقد ذكرهم ببعض الحقائق السماوية الحاكمة عليهم وعلى كل مؤمن، فقطعوا ما بينهم وبينه واعتزلوا الناس يتشاورون فيما بينهم فيما حصل وفيما هم فاعلون[٢].

١ - ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]:

يدل على أنهم بذلوا جهوداً كبيرة في سبيل تخليص أخيهم ولكنهم لم ينجحوا فوصلوا إلى مرحلة اليأس، وحينئذ تركوا الأمر، كما أن صيغة الجمع تدل على أن الجهد كان من الجميع وأن اليأس أصابهم جميعاً[٣].

لقد بلغوا حد اليأس والتعبير بـ: ﴿ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ [يوسف: ٨٠] أي يئسوا يأساً لا زيادة فيه لمستزيد، ولا مجال فيه لمزيد[٤]. والسين والتاء في: ﴿ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ [يوسف: ٨٠] للتأكيد ومثلها: ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ [يوسف: ٣٤] و ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢][٥]. وهذه العبارة: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ [يوسف: ٨٠] تعني أنهم ألحّوا وطال إلحاحهم واستعداد كل واحد منهم أن يكون رقيقاً ليدخل السرور على هذا الشيخ الكبير[٦].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٣.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢١٣).

(٣) يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، القره داغي، ص ١٢٨.

(٤) سورة يوسف، ص ٥٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٠٨.

(٦) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧.

- ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾[يوسف: ٨٠]: ذهبوا إلى لقاء خاص واجتماع مغلق لهم، انزووا فيه عن الآخرين، فكان لقاؤهم خالصاً لهم، لم يشاركهم فيه أحد غيرهم وجلسوا يتناجون ويتشاورون ويتحدثون ويفكرون في ماذا سيفعلون.

و﴿نَجِيّٗا﴾[يوسف: ٨٠] حال منصوب بمعنى متناجين[١]. وقال الدكتور محمد أبو موسى -حفظه الله-: وكلمة ﴿نَجِيّٗا﴾[يوسف: ٨٠] تمييز، أي: خلصوا نجوى. وهذا أرفع من لو أعربتها حالاً وقلت خلصوا متناجين، لأنهم لم يخلصوا متناجين، وإنما خلصوا نجوى. والنجوى مصدر[٢].

قال الثعالبي: في كتاب: (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول: من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاعة الإيماء ويفطن بكفاية الإيجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام، ثم قال: فمن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ في إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾[يوسف: ٨٠] وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه، وما يقدرون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة[٣].

ويحكى أن أعرابياً سمع رجلا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾[يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. فهنا فخامة تروع القلب، وجلال يمس الشغاف، وشيء يصعب التعبير عنه، هنا طبقة فاخرة من الكلام[٤].

---

(١) القصص القرآن، (٤/ ٢١٤).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٧.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨، (٦/ ٢٦٣).

(٤) أيها الصديق، محمد خيري، ص ١٤٩.

- ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾[يوسف: ٨٠] ينبغي لمن أراد البحث في أمر مهم، أو التشاور أن يختار موضعـاً هادئـاً، لا تشويش فيه، ليجمع فكره ويتبين أمره[١].

٢- ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾[يوسف: ٨٠]:

أكبرهم سنا أو قدراً أو كلاهما، ومن أسلوب القرآن كما ذكرنا أنه لا يأتي بالأسماء إلا لضرورة في أداء المعنى وفي هذه المناسبة لا يزيد تسمية أخيهم القائل إن كان يهوذا أو روبيا فائدة تذكر، ووصفه بالكبير أثرى المعنى ودلّ عليه[٢].

- ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ [يوسف: ٨٠]: عرف البدء بالأكبر من أفضل الأعراف البشرية، التي فيها احترام الكبير، وفيها الأخذ بالخبرة، وفيها كبح جموح الآراء غير الناضجة[٣].

٣- ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٠]:

استفهام استنكاري ذكرهم فيه فيما قطعوه لأبيهم من عهد وميثاق ومنكراً على نفسه وعليهم النكوث فيه[٤].

وقال: ﴿أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٠]: قال أخذ عليكم، ولم يقل أخذ منكم؛ لأن عهد الله يعلو، ولا يعلى عليه وأنك إذا عاهدت بعهد الله وواثقت بميثاق الله، فقد جعلت عهد الله عليك مالكـاً لزمامك، فلا تفريط ولا تساهل، فإن نكثت وخنت وغدرت، وجب عليك أهل الحق أن ينبذوك، لأن من غدر بعهد الله لن يفي لغيره بشيء.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٩.
(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٥.
(٣) يوسفيات، ص ١١٣.
(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٥.

ثم قال: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠]: وإنما أخذ أبوهم العهد والموثق منهم ولكن هذا الكبير يوقن إن ما كان مأخوذا باسم الله فهو مأخوذ من الله، وإذا أعطيتك يمين الله فكأنما الله هو الذي أعطاك اليمين، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وهذا الاستفهام: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ...﴾ [يوسف: ٨٠] فيه إشارة غضب وتهييج[١]، فكيف يعودون إلى أبيهم بدون أخيهم؟ وماذا سيقولون له عندما يسألهم عليه؟[٢]. ومن ثم راجع قوله على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما قال:

٤- ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠]:

وهذا القول من الأخ الكبير لإخوته يعني أن الأمر لو كان أخذ بنيامين وحده الآن ولا شيء قبل ذلك لهان الأمر، ولكن السابقة المروعة التي أوقعتموها بيوسف حيث فرطتم فيه من قبل، وقصرتم في شأنه وأسلمتموه للهلاك، ولم تحفظوا وعدكم لأبيكم إذ قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] و ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، هي التي تكسر ظهورنا وتجعل موقفنا الآن أمام أبينا موقف المتهمين غير المصدقين ولوكنا حقيقة صادقين[٣].

أما أنا فلا أقدر على مواجهة أبي بعد هذا الكرب والمصاب العظيم، ولذلك:

٥- ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٨٠]:

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٧٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤١٧.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤١٧.

- ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠]: أي فلن أرجع معكم وأغادر أرض مصر. وعبر بأداة النفي: (لن) وكأنه سيظل على هذه الأرض التي هو واقف عليها لن يتحرك، ولن يغادرها أبداً. وواضح من هذا القرار الذي اتخذه الأخ الكبير في هذه الحال وحكم به على نفسه، أن هذا الحدث أصابه بهمّ بالغ، فقد حان عليه أن يظل في مصر وحيداً غير عابئ بأهله وأولاده ووطنه، كل هذا يَقْدِر عليه. أما لقاؤه أبيه بعد ما حدث فليس له بها طاقة[1]. إن كلماته تتفجر غضباً ووجعاً وألماً وحسرة وغماً وحزنا وتوبة ورجوعاً إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وحرصاً على بر والده الشيخ الكبير والنبي العظيم.

- ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: ٨٠]: أي إلى أن يأذن لي أبي أو شريطة أن يأذن لي أبي؛ لأن العهد كان معه، ولأنه ولي أمرهم وصاحب الشأن. وقال: ﴿أَبِيٓ﴾ [يوسف: ٨٠] ولم يقل: ﴿أَبَانَا﴾ [يوسف: ٨] لأنّه يتحدث عن اسمه الشخصي، ومعبراً عن مشاعره الخاصة وعن ضمير استيقظ في وجدانه.

- ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾[يوسف: ٨٠]: بما قضاه وقده عليّ، إما بالخلاص وإما بالهلاك، وإما بأمر قدر قدّره الله مما ليس في حسباني، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

- ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]: لي ولكم ولأخي ولعباده أجمعين. خيرية مطلقة شاملة، خيرية في الحاكمية: تشريعاً قضاء، إنفاذاً. وهذه من الحقائق الإيمانية الأساسية صرح بها الأخ الكبير، وختم به مقدمته الخيرة في المحافظة على العهد والميثاق وجاءت تتويجاً لتذكره الله وأوبته إليه وسلوكه الملتزم

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٢٧.

بالصدق والوفاء وإنكار الباطل، وإحقاق الحق والإقرار بالذنب والشعور بالندم وإظهار اللوم وإصلاح العمل، هي في الحقيقة مقدمات التوبة، وأساسها(١).

وبعد هذا الحديث الصادق من الأخ الكبير أمر إخوانه التسع بأخذ أحمالهم وجمالهم والعودة إلى أبيهم وإخباره بتفاصيل ما جرى:

تاسعًا: قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨١ - ٨٢]:

تفسير الآيات الكريمة:

١- قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]:

أ. ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]: طلب الأخ الكبير من إخوانه الرجوع إلى أبيهم وإخباره بما وقع وحدث. وواضح أن رجوعهم إلى أبيهم لم يكن لهم سبيل سواه. والفاء في قوله: ﴿فَقُولُوا۟﴾ [يوسف: ٨١] دلالتها على مبادرة أبيكم بهذا القول فور رجوعكم وقبل أن يسألكم عن أخيكم، ثم مبادرة يعقوب الكريم ابن الكريم ابن الكريم بأن ابنه الذي ربّاه وكانت رعايته له بعد فقد يوسف بأنه سرق وأن هذا الخبر ما كان يمكن أن يرد في نفس يعقوب، الذي هو أعلم الناس بأدب ولده وبخلقه وسموه الذي رباه عليه، ثم بتهيئتهم بهذا الخبر الصادم لقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾ [يوسف: ٨١] وندائهم له بأداة النداء الذي ينادى بها البعيد وهم في حضرته لمزيد إيقاظه وتنبيهه. ثم ذكر أبوته

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٧.

لهم، وأنه أبوهم وأنه رباهم ورعاهم وبعد هذا التمهيد فاجأوا أباهم بقولهم: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]. وأننا نقول لك ذلك أثر هذا الخبر على نفسك، ولاحظ أن الأخ الكبير معتقدا اعتقادا صارماً أن أخاه سرق؛ لأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أحكم خطته وأن يأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله[١].

ب. ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: ٨١]؛ أي: شهدنا بذلك في حدود علمنا الظاهري المرئي ونفوا عن أنفسهم علم الغيب الخفيّ وهذا بديهيّ يتساوى فيه كل مخلوق والاختلاف بين الخلق في درجة علمهم ومبلغه، فالأخوة هنا أكدوا بقولهم هذا على ضعف علمهم، وضآلته وخلوّه من الحكمة وإلا لقالوا: إن السقاية أخرجت من رحل أخينا، والقولان علم شهادة ورؤية ولكن شتان بين العلمين والشهادتين. وعلى مثل هذا التحري والدقة والازدياد في العلم والتعلم تقع المسؤولية الإنسانية في صفة العلم، فالتزكية والتعلم والاجتهاد وتحري الدقة وطلب الحكمة صفة إنسانية مسؤولة:

- ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].
- ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

ج. ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]: إننا لم نكن نعلم الغيب عندما أعطيناك الموثق والعهد على أن نعيده سالما ولم نكن نعلم أنه سيؤخذ رغما عنا بجريرة السرقة، وهو الآن عندهم سارق، والحقيقة لا نجزم بها، فهل سرق فعلاً أم أن في الأمر لغزاً مثيراً؟ لا ندري. فما كنا للغيب حافظين[٢].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٥٧.

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٨٢.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف(١).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] احتراس من تحقيق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطيف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه(٢).

ولما كانوا يعلمون أن أباهم لا يثق بهم بسبب ما رآه من كذبهم عندما جاؤوا عشاء يبكون وأخبروه بأن الذئب قد أكل يوسف، طلبوا منه أن يتحقق بنفسه من صدقهم(٣)، فقالوا:

٢- ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]:

ولا ندري هذا الكلام من تمام الوصية التي قالها الكبير للإخوة أم هو من كلام الأولاد لأبيهم مباشرة، المهم أن السياق يطوي الزمان والمكان ليوقفنا أمام يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهذه الجملة تدوي في مجلسه تنتظر جوابه.

أ. ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]: القرية في اللغة العربية هي مجتمع الناس، لكن الاصطلاح اليوم يجعلها بمفهوم معيّن هو ما دون المدينة، والقرآن اعتبر كل مجتمع قرية ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) الكشاف، (٢/ ٢٧٠).

(٢) التحرير والتنوير، (٦/ ١٣٠).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٤).

- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣] وهي في الاستعمال القرآني مرادفًا للمدينة[١].

قالوا لأبيهم إن كنت مذبا لنا، فاسأل القرية التي كنا فيها، فكل أهل المدينة، عاصمة مصر مقرّ العزيز عرفوا بالقصة، ولو سألت أهلها لأجابوك بأن ابنك استرقّ لأنّه سرق[٢].

ب. ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾[يوسف: ٨٢] أي: واسأل أهل العير (القافلة) الذين رافقوهم في سفرهم وفي رجوعهم من مصر من خدم وساسة وأذلاء وغيرهم. ويشير إلى هذا المعنى إتيانه بلفظ: ﴿وَٱلۡعِيرَ﴾ [يوسف: ٨٢] الذي يشمل العير وأهلها وخدمها والمشرفين عليها.

- ﴿أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾[يوسف: ٨٢] دقة في الأداء اللفظي، فالإقبال بمعنى مقابلة ومواجهة الشيء للشيء أو الأشياء، فجاء اللفظ، ليدل على المعية بينهم وبين العير وأهلها ومقابلتهم لها من اللحظة الأولى للحدث وإلى لحظة الإقبال على أبيهم والحضور بين يديه[٣].

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمراد بالعير التي كانوا فيها رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من أرض كنعان، فأما سؤال العير فسهل، وأما سؤال القرية فيكون بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب بنفسه إن أراد الاستثبات[٤].

---

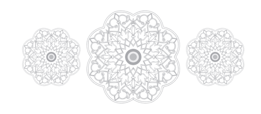
(١) سورة يوسف، ص ٥١٣.

(٢) أيها الصديق، ص ٢٦١.

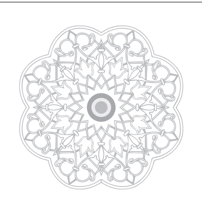
(٣) سورة يوسف، ص ٥١٣.

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢١٦).

ج. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] ثم أكدوا صدقهم ب (إن) وبالجملة الإسمية وباللام[1] وأرادوا هنا أن يثبتوا صدقهم وحين يسأل أبوهم يعقوب، سيجد أنهم صادقون فعلاً وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة.



(١) آيات للسائلين، ص ٣١٤.



المبحث التاسع: اشتداد البلاء على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصبره العظيم وثقته المطلقة بالله تعالى وعفو يوسف على إخوته

قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٨٣ – ٩٣]:

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]:

استمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه بإنصاف ولم يقاطعهم ولم يرفع صوته، بل انتظر فراغهم، ثم قال كلمة هادئة تنم عن صبر جميل، وعقل رجيح يحسن وزن الأمور وتقديرها، يرى الحق حقاً بادياً ساطعاً، وإن التبس على كثير من الناس[1].

١ - ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٨٣]:

فقوله: ﴿بَلۡ﴾ [يوسف: ٨٣] إضراب عن كلامه تقديره: ليس الحق كما ذكرتم، ولا يلزم ذلك رميهم بصريح كذب وتهمة، فلو كان ذلك كذلك لما أمرهم - وهم الكاذبون عنده المتهمون بالجرم - أن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه، فلعل مراده: جانبتم الحقيقة وقد زينت لكم أنفسكم حمل أخيكم نحو أرض مصر، أو صواب ما ذكرتم، وعلى كلا التقديرين فقد أصاب ذلك كبد الحقيقة، فأنفسهم تمكن سوء الظن منها فظنت سوءاً بالأخ دون تريث أو محاولة للدفاع ورد التهمة، بل أثبتت التهمة أولاً، وإن اجتهدوا في خلاصه منها فيما بعد، مع تقريرهم لوقوعه فيها، فترتب على ذلك الظن الفاسد الذي قبلته أنفسهم ما اعتقدوه من الذي قالوه[2].

وذهب آخرون من العلماء إلى أن هذا تكذيب لهم وتهمة بالتآمر على أخيهم، حتى قال بعض أهل العلم: ينبغي لأهل الرأي أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو نبي حين قال له بنوه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

---

(١) آيات للسائلين، ص ٣١٤.

(٢) آيات للسائلين، ص ٣١٤.

قال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] فلم يصب(١). والأظهر أنه أصاب، فهل سرق بنيامين؟ لا بل زينت لهم أنفسهم ذلك الأمر فقبلوه، بدليل قوله لهم بعد ذلك: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وليست تلك وصية يكلف بها المكذبون المتهمون فالأولى هو ما ذكرناه(٢).

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]: ليس الأمر كما تقولون فإن ابني لم يسرق، بل زينت لكم أنفسكم أمراً، وهواكم الفاسد غير ذلك، كما زينته لكم من قبل إذ قلتم في يوسف: إن الذئب قد أكله وجئتم على قميصه بدم كذب(٣).

٢- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]:

ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مدرسة كبيرة في الصبر الجميل وهو الصبر الذي ليس معه تأفف، وقد ذكر الله الصبر الجميل والصفح الجميل، والهجر الجميل.

فالصبر الجميل الذي ليس فيه جزع ولا شكوى إلى المخلوق.

والهجر الجميل: الذي ليس فيه أذى(٤).

والصفح الجميل: الذي ليس فيه عتاب(٥).

---

(١) تفسير القرطبي، (٩/ ١٢٩).

(٢) آيات للسائلين، ص ٣١٥.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

وفي البلاء الأول عند كيدهم ليوسف عقب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وفي هذا قال:

٣- ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]:

لما فيه من بلوغ الشدة مداها ورجائه بفرجها. ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦]؛ وواضح من الآية الكريمة حسن ظنه بالله وإحسانه وفراسته بقرب وعد الله باللقاء[١].

- ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٨٣]: عسى إذا كانت من الله فهي مؤكدة محققة وإذا كانت إلى الله من عبد مخلص صادق فهي رجاء التحقيق بإذن الله تعالى.

- ﴿أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ [يوسف: ٨٣]: أي ثلاثتهم. ﴿جَمِيعًا﴾[يوسف: ٨٣] ليس على معنى الجمع العددي فقد دل عليه ﴿بِهِمْ﴾ [يوسف: ٨٣] ولكن على معنى الجمع الصفاتي في الزمان والمكان أي: مجتمعين مع بعض غير متفرقين. وهذا من دقة الأداء القرآني في البيان والتنبؤ بما يكون عليه الحال[٢].

- ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[يوسف: ٨٣]: يوسف وأخوه وكبيرهم، فتلك عاقبة الصبر الجميل، والله تعالى عليم بالأمور على حقائقها، حكيم فيها يقضي ويقدر على العباد[٣].

٤- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]:

- إن: للتأكيد.

---

(١) آيات للسائلين، ص ٣١٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.

- والهاء: ضمير الغائب المتصل عائد على الله. أي: إن الله.

- هو: ضمير الغائب المفرد المنفصل، وكرر الضمير، للتنبيه والتأكيد والاختصاص والشأن(١).

- العليم: على أصالة كمال الصفة وإحاطتها وعلة وزن فعيل للمبالغة في الصفة، فهو العليم بالسر، والنجوى، والعالم بالغيب والشهادة، ولا تخفى عليه خافية(٢). فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاطب أبناءه ويبين لهم أن الله عَزَّوَجَلَّ، هو العليم الذي يعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات.

- ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]: فيما يقضي ويدبر ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج(٣).

وقد ناسب ذكر هاتين الصفتين: جواب يعقوب لأبنائه، فالله سبحانه عليم بما كان وما جرى معهم ومع أخيهم وحقيقة أمر تهمة السرقة التي أخذ بها، عليم بصدق أو كذب ادعائهم عليم بحقائق أنفسهم، وخفايا الأمور كلها، عليم بما علمه الناس وما لم يعلموه، وهو حكيم فيما كان من أمرهم، حكيم كل ما علم. حكيم في كل أمر(٤).

وبعد إجابة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأولاده أعرض عنهم وانصرف إلى آلامه وأحزانه:

ثانيـًا: قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]:

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٥).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٥)

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢١٩).

وهذه صورة مؤثرة للوالد المفجوع، يحس أنه المنفرد بهمه وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل متذكراً فجيعته في ولده الحبيب (يوسف) الذي لم ينسه ولم تهون من مصيبته السنون(١).

١ - قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ [يوسف: ٨٤]: قام يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من عند أبنائه وأسرته وتولى عنهم، وتذكر يوسف وما جرى مع يوسف سابقًا وأيقظت المصيبة الجديدة كوامن حزنه على يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأطلقها زفرة حرة، ونفثة مكبوتة من صدره(٢).

- ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]: ويا لها من كلمة تقطر حزنـًا ومرارة وحرقة ولهفة. وهذه الكلمة في اللغة العربية مثل: يا حسرتي ويا ويلتي. ولا يقصد بها حقيقة النداء، وإنما هو مجاز كأنه ينادي الأسف أن يسعفه(٣).

والأسف، أشد الحزن والحسرة على ما فات. ومن العجيب أن الأسف لم يأت في القرآن إلا مرة واحدة على لسان يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكأنه أُختص به وحده(٤) فحياته كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة في التاريخ مما لا يطيق مثله إلا مثله(٥).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم.

---

(١) سورة يوسف، ص ٥١٧.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، (٩/ ٣٥٨٢).

(٣) سورة يوسف، ص ٥١٩.

(٤) تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، أبو الليث نصر السمرقندي، (٢/ ١٧٣).

(٥) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٧.

أما المقام الأول: وهو أنه أعرض عنهم، وفر منهم فهو قوله: وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف.

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: وقال يا أسفى على يوسف وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع وقال متمم بن نويرة:

وقد لامني عند القبور على البكا   رفيقي لتذرف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته   لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى   فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنّه إذا رأى قبرا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى. وقال آخر:

فلم تنسني أوفي المصيبات بعده   ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

– أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفا على الكل.

- الآن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها(١) أضف إلى أن مكان من فقد مؤخراً معلوم أما يوسف فيما يعلم يعقوب له مكاناً ولا للمصيبة فيه كيفية.

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أعطيت أمة من الأمم (إنا لله وإنا إليه راجعون) غير هذه الأمة ولو كان أوتيها أحد قبلكم لأوتيها يعقوب حين قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤](٢).

٢- ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤].

أ. ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: ٨٤] أيّ: من شدة بكائه وحزنه غشيت عينيه غشاوة بيضاء تسببت في ضعف بصره جزئياً أو كلياً(٣).

ب. ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]: على وزن فعيل للمبالغة والقوة في الصفة. أي: يكتم حزنه ومشاعره وأمره في نفسه ولا يظهرها للناس، أو أنه يشكو أمره خفية إلى الله، ولا يعلنه، ولا يشكو إلى غير الله، أو أنه لا يظهر حزنه ولا يعبر عنه بما لا يرضى الله من أمور مخالفة كالعويل والولولة واللطم والصياح وتقطيع الشعر والثياب. والإسوة الحسنة في هذا هو فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عند موت ابنه إبراهيم ومن الكظم، كظم الغيظ والغضب. ولا يعني ذلك نفي الغضب مطلقاً، فقد كان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يغضب إذا انتهكت حرمات الله عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا أفصح القرآن الكريم عن عظيم حزن يعقوب عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وجزعه ولهفته على أبنائه وعلى رأسهم يوسف، بالقول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ [يوسف: ٨٤]. وبالجوارح:

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٨.

(٢) التفسير الكبير، (١٨/ ١٩٣) بتصرف.

(٣) المصدر السابق، (٤/ ٢١٦).

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، وفي النفس: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤].

- ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]: ممتلئ غيظًا وحزنًا. وشدة حزنه تدل على قوة مشاعر الأبوة في قلبه، وهي مشاعر إنسانية رفيعة تفيض بها نفوس الكُمَّل من الناس، وكلما ازداد الإنسان إيمانًا بالله سبحانه، كانت عواطف الأبوة أقوى في قلبه، وأنصع في نفسه، فالإيمان بالله يكمل إنسانية الإنسان، ويفجر فيها ينابيع الخير والإحسان والحنان. ولهذا نرى الكفار يغلب عليهم ضعف المشاعر الإنسانية ولا عجب أن نراهم يقطعون أرحامهم ويتخلون عن أبنائهم من أجل ملذاتهم الجسدية، وقد أصبحت قطيعة الرحم، وانحلال الأسرى أعظم السمات البارزة في حياتهم الاجتماعية. والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكمل الناس إيمانا، فهم أكملهم وأصدقهم في مشاعرهم الإنسانية عامة، ومشاعر الأبوة خاصة. وكان حزن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أثراً من آثار مشاعر الأبوة الكريمة، وإن الحزن الشديد غير محظور لأنّه من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وإنما المحظور والمنهي عنه لطم الخدود، وشق الجيوب، والنياحة، كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما مات ولده إبراهيم: «تَدْمَعُ العَيْنُ وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا ما يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللهِ يا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بكَ لَمَحْزُونُونَ»، ولما رأى عبد الرحمن بن عوف دموع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: وأنت يا رسول الله؟! قال: يا ابن عوف! إنها رحمة[١]. ودمعت عيناه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما رفع له ولد

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إنا بك لمحزنون)،ح رقم: ١٢٤١.

لإحدى بناته وهو يموت، وقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[١].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

ويبدو أنّ أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أشفقوا على أبيهم وخافوا أن تودي به الحال التي وصل إليها، فأرادوا تنبيهه ولعلهم ظنوا أن تقنيطه من لقيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أفضل وسيلة يمكن أن تطفئ حرقة قلبه بعد أن غاض ماء عينيه وذهب نورهما[٢] فقالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

- قال الدكتور أحمد نوفل: والقسم بهذه الصيغة: ﴿تَاللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٥] قلنا إنه تكرر في هذه السورة ما لم يتكرر في القرآن كله، والمعنى: والله لا تزال تذكر يوسف لا تنقطع عن ذلك حتى تقارب الهلاك أو تكون من الهالكين. ولا حظ سيطرة حرف (التاء) على جرس كلمات الآية تالله تفتأ تذكر، حتى تكون، أو تكون... مما يوحي بجوّ التعنيف.

وهذه التاء في قوله: ﴿تَاللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٥] حرف قسم كالباء والواو ويكن فيها زيادة معنى التعجب كأنهم تعجبوا من قوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

- تفتأ: أي: لا تفتأ، أي: لا تزال. وحذف حرف النفي، لأنّه لا يلتبس بالإثبات ونحوه: فقلت يمين الله أبرح قاعداً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب: عيادة الصبيان ،ح رقم: ٥٣٣١.

(٢) آيات للسائلين، ص ٥٢٢.

- حرضـًا: مشفيـًا على الهلاك مرضا. يقال: أحرضه، فهو حرض وحَرَض، بالكسر والفتح وكلام الأبناء مع يعقوب نصيحة منهم له، وإشفاق عليه، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال مجاهد: الحرض ما دون الموت، يعني: قريبا من الموت... وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن والهموم أو العشق أو الهم. يقال: رجل حرض، وامرأة حرض، ورجلان حرض، ورجال ونساء. كذلك لأنّه مصدر وضع موضع الاسم ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] أي: من الميّتين(١).

وإنما قالوا له هذا القول إشفاقا عليه وكفا له عن البكاء. أي لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض يهلكك، لأنّه كان قد أشفى على ذهاب بصره وفساد جسمه، أو تموت بالغم والهلاك. وذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب أين هو فالميت هالك لهذا المعنى(٢).

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: وجملة قالوا تالله محاورة بنيه إياه عند ما سمعوا قوله: يا أسفى على يوسف وقد قالها في خلوته فسمعوها.

والتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم. قال في «الكشاف» في سورة الأنبياء: «التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب». وسلمه في «مغني اللبيب» وفسره الطيبي بأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم.

---

(١) مختصر تفسير البغوي، عبد الله الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، (١/ ٤٥١).

(٢) سورة يوسف، ص ٥٢٣.

وجواب القسم هو تفتؤا تذكر يوسف باعتبار ما بعده من الغاية، لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف. وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد لأنّه لو كان مثبتا لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا.

ومعنى تفتؤ: تفتر. يقال: فتىء من باب علم، إذا فتر عن الشيء. والمعنى: لا تفتر في حال كونك تذكر يوسف. ولملازمة النفي لهذا الفعل ولزوم حال يعقب فاعله صار شبيها بالأفعال الناقصة.

وحرضا: مصدر، وهو شدة المرض المشفي على الهلاك، وهو وصف بالمصدر، أي حتى تكون حرضا، أي باليا لا شعور لك. ومقصودهم الإنكار عليه صدا له عن مداومة ذكر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على لسانه لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه.

وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنه يذكر أمرا لا طمع في تداركه، فأجابهم بأن ذكره يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ موجه إلى الله دعاء بأن يرده عليه. فقوله: يا أسفى على يوسف تعريض بدعاء الله أن يزيل أسفه برد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليه لأنّه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحي أو بفراسة صادقة وهي المسماة بالإلهام عند الصوفية[١]. والظاهر من الآية الكريمة أن أبناء يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان غرضهم تنبيه والدهم والشفقة عليه من مآلات لا تحمد عقباها، ولذلك أرادوا منه ترك البكاء والأسف على يوسف خوفًا على سلامته وصحته. لكن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يعلم من الله ما لا يعلمون

---

(١) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٣).

وكان يظن بالله ما لا يظنون وكأني به عَلَيْهِ السَّلَامُ يلتفت إليهم بعد أن تركهم وأدار لهم ظهره ويقول بلسان الواثق الذي لم ينقطع رجاؤه في العليم الحكيم، بقوله:

رابعـًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]:

وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية وفي هذا القلب الموصول بالله تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ولألائها الباهر. إن هذا الواقع الظاهر لميئس من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل، إن هذا كله لا يؤثر شيئا في شعور الرجل الصالح، بربه فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور وهذه قيمة الإيمان بالله ومعرفته سبحانه، ومعرفة قدرته ورحمته ورعايته عَزَّوَجَلَّ لعباده[١].

١- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]:

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شكا إلى الله ولم يشك من الله، ومن شكا إلى الله وصل، ومن شكا من الله انفصل، ولما شكا إلى الله وجد الخلف من الله.

إذا تمنى الناس روحا وراحـًا   تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا[٢]

قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (البث) أشد الحزن، سمي بذلك، لأنّه من صعوبته لا يطيق حمله، فيبثه، أي: ينشره[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٦).

(٢) اللطائف والإشارات، (٣/ ٢٠٠-٢٠١).

(٣) البحر المحيط، (٦/ ٣١٥).

وقال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿بَثِّي﴾ [يوسف: ٨٦]: همي أو حاجتي، والبث: تفريق الهم بإظهار مافي النفس(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنا، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثـًا. فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه(٢).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والبث: الهم الشديد وهو التفكير في السيئ والمسيء. والحزن: الأسف على فائت فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأنّه كان معتمـًا بالتفكير في مصير يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفـًا على فراقه(٣).

- ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]: قصر شكواه على التعلق بالله أي: يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة لأن الدعاء عبادة وصار ابيضاض عينيه الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى أثراً جسديـًا ناشئـًا عن عبادة، مثل تفطر أقدام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قيام الليل(٤). وقال أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿إِنَّمَآ﴾ [يوسف: ٨٦] من أدوات الحصر أي أنه لا يشكو همومه العارضة وأحزانه الدفينة إليكم بل يشكوها إلى الله وحده(٥).

---

(١) تفسير سلطان العلماء، (٢/ ١٣٦).
(٢) فتح القدير، (٣/ ٤٩).
(٣) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٣).
(٤) المصدر نفسه، (٦/ ٣٣).
(٥) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٢).

٢- ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]:

هذه الجملة تحوي في نفسه كل الرجاء الذي يرجوه والأمل الذي يأمله، وفيه دلالة لى أنه يعلم أن الله كاشف كربه، ومزيل همه، وهو علم من علم الله تعالى، لا من علم أحد، يعلمه بالإلهام أولاً، وبرجائه في الله ثانيًا، وبرؤيا يوسف الصادقة ثالثًا، ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين، وتأويل الرؤيا أن يكون في ظل يوسف، وهو في عز مكين، وإن ذلك واقع لا محالة[1].

- ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]: لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية، ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه، أي: أنا أعلم علما من عند الله علمنيه لا تعلمونه، وهو من علم النبوة، وحكي مثل ذلك عن شعيب في سورة الشعراء وفي هذا تعريض برد تعريضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع[2].

- وقال ابن العربي: وأحسن الكلام في الشكوى، سؤال المولى زوال البلوي، وذلك قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، من جميل صنعه وغريب لطفه، وعائدته على عبادته[3].

- وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنزال الفاقة بالناس أن يشكو إليهم ويترك الشكوى إلى الله، فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق جائزة لجاز إنزالها بالناس، وقد قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٣).

(٢) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٣).

(٣) أحكام القرآن، (٣/ ١١٠٤).

فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧ – ٨]. وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس: "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"[١].

ورأى الفضل بن عياض رجلاً يشكو إلى رجل فقال: يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك. وقال بعضهم: ذكر الله الصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل؛ فالصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق. والهجر الجميل الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل الذي ليس فيه عتاب[٢].

إن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طراز فريد من أولئك الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، ويعلمون من الله ما لا يعلمه الآخرون. وقد صرح لأبنائه بشيء مما يعلمه وكاشفهم بما يحقق قوله حين أذن الله تقدير انتهاء البلوى ومجيء الفرح فكلف أولاده بالبحث عن يوسف وأخيه، فجمع بين الصبر الجميل، وقانون الأخذ بالأسباب، وأمر إخوة يوسف أن يعودوا مرة ثالثة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وكأنه كان يتوقع وجود يوسف في مصر ويرى أن ما حدث لأخيه له علاقة بيوسف[٣] عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال لهم:

خامسًا: قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]:

لقد أخبر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أبناءه بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون، ثم أتبعه بقوله:

١ – ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]:

---

(١) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ،ح رقم: ٢٥١٦. حسن صحيح.
(٢) الاستغاثة، ابن تيمية، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، (١/ ٢٧٥– ٢٧٧).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٧).

- ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ [يوسف: ٨٧]: فقد علم من العلم الذي علمه الله إياه وأوحاه إليه أنه إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج، ولهذا فقد قوى رجاءهم وأمرهم أن يرحلوا إلى مصر ويتطلبوا يوسف وأخيه.

- وفي خطابه: ﴿يَـٰبَنِيَّ﴾ [يوسف: ٨٧] بوصف البنوة ترقيق لهم وتلطف. وفي هذا دلالة على الحنان الفائق الذي حباه الله لأبنائه مع أنه لا يزال يعتقد أن لهم يداً - على الأقل- فيما يتعلق بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

لقد دعاهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بمحض الرحم، وهو البنوة، ثم أضافهم إلى نفسه، وكأنه يقرب قلوبهم من قلبه بهذه الإضافة وهذا الضم، وكأنه يضمهم واحداً واحداً إلى صدره. وناداهم بحرف النداء، وهم في حضرتهم لإيقاظهم، وتهيّئهم، وإحضار عقولهم وقلوبهم لتلقي ما يقول. ثم قال لهم:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ وهذه كلمة عجيبة جداً، لأن معناها الذهاب إلى مصر، وأن يوسف في مصر، وأن أكذوبة أكله الذئب والدم الكذب على قميصه كذب في كذب، لا شك حين يسمعون منه هذا يتأكدون من أن الشيخ الجليل يعلمه الله ويكشف له الكذب، فيغسل الله قلوبهم من الباطل برؤية هذه المعجزات من أبيهم[٢].

ففي قوله: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ [يوسف: ٨٧]، دليل واضح على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ شعر بيوسف ولذا قال: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وإلا فكيف يأمرهم بالتحسس وهذه المرة بالذات من يوسف وأخيه وفي مصر بالذات إن لم يشعر بذلك؟ بل شعر وأظهر ذلك لبنيه، ولذلك استجابوا فوراً

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٣٦.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٤٦.

ولم يعارضوه، وهذه هي أهم الأسباب التي جعلت يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتوقع قرب اللقاء بيوسف:

- إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج.

- علم أن رؤيا يوسف صادقة.

- علم ذلك بوحي من الله.

لما أخبره أبناؤه بسيرة العزيز وكمال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو ويوسف.

- علم قطعاً أن بنيامين لم يسرق، وسمع أن العزيز ما آذاه، وما ضربه، فغلب على ظنه أن ذلك العزيز هو يوسف(١).

- ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]: يعني أعملوا حواسكم بكل ما فيها من طاقة، كي تصلوا إلى الحقيقة(٢).

أي: استخدموا مبلغ علمكم وجهد جواسكم وغاية ذكائكم وحيلتكم في الاستقصاء والتحري(٣).

ومعنى التحسس: البحث بالحواس. قال السمين الحلبي عن التحسس والفرق بينه وبين التجسس عند قوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: تطلبوه بحواسكم. التحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر. وقيل: التحسس ما طلبته لغيرك من معرفة أمور الناس. والتحسس ما طلبته

---

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحديث، ص ١٩١.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٥٣)

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧١.

لنفسك. وإن فعل (تحسسوا) يدل على البحث بحرص وانتباه مع تفاعل النفس والمشاعر والحواس والشعور بالأمل الكبير بالعثور على المطلوب. وكأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب منهم تشغيل كل حواسهم في البحث عن يوسف وأخيه في مصر، مع يقينهم بأنهما موجودان فيها[١].

- ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]: فيها دلالة صريحة في أن يوسف في مصر، بعد الدلالة الخفية التي في قوله: ﴿ٱذْهَبُواْ﴾ [يوسف: ٨٧] ثم فيها شيء آخر وهو أنكم سترون يوسف في الجهة التي فيها أخوه، وأن اجتماعهما في بحثكم عنهم لا يخلو من إشارة إلى اجتماعهما في مكانين متقاربين كانا أو متباعدين[٢].

- ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] ﴿مِن﴾ [يوسف: ٨٧] أي من أمر وعلم. ولم يقل: (عن) أي: عن أشخاصهم، فإذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، وبدأ بيوسف، لأنّه المجهول مكانه ومصيره، ويلزم للاستعلام على أمره أعظم التحسس والاستقصاء، وذكر أخاه (المعلوم نسبيًا) في هذا الموضوع، ليدل على أن المجهول يعلم من المعلوم وهذا من مسائل الرياضيات المعروفة[٣].

كما أن كلمة فتحسسوا فيها معنى الحس الأمني في البحث وجمع المعلومات على الآخرين ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات للوصول إلى الهدف المطلوب كما أن فيها أهمية العلم التجريبي المكتسب بالحواس والتحليل والاستنباط وغربلة المعلومات.

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٢٤).

(٢) من حديث يوسف وموسى، ص ١٩١.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧١.

٢- ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]:

- ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٧]: اليأس هو قطع الرجاء من غيرك أن يصيبك شيء أي: لا تقطعوا رجاءكم أبداً من رحمة الله وخيره، فهي مرسلة كنسيم الريح، تلامس كل بشرة، وتمر على كل أنف، ولا تنتهي ولا تتوقف ولا تنقطع ولكن العيب في الإنسان الذي يغلق الباب دونها ويأبي التعرض لنفحاتها. العيب في الأنف المزكوم الذي لا يتنفس ولا يشم ولا يتذوق. العيب في الوقر على الآذان الصم والأكنة على القلوب العمي، العيب في العجز والكسل والغفلة[١]. وهذه الآية الكريمة حصن حصين يحصن القلب المؤمن من البائس.

- وكلمة ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٧] كلمة ﴿رَّوْحِ﴾[يوسف: ٨٧] بفتح الراء تعني الفرج والمجيء بالخير بعد الشدة، وأنه إذا استحكمت وضاقت حلقاتها فلا بد أن تفرج، وأن الشدة إذا اشتدت انفرجت، وأنك تعيش ما تعيش مع الأمل، وهل يجوز لك أن تفقده وأنه هو الضياء الذي تراه في جوف الظلمة والنجم الذي تراه في قلب الحبرة وهذا الشيخ الجليل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي سماه: (روح الله) يعرس هذا المعنى في قلب أبنائه[٢]، ويوصينا من وراء الزمن أن نزرعه في نفوسنا وفي قلوب أبنائنا حتى لا تكسرنا الأيام، وخاصة إذا توحشت بفعل المعاصي والكبائر والإجرام والمظالم من البشر. إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم الأجيال السائرة على نهج الصراط المستقيم وطريق الأنبياء المرسلين هذه القيم العظيمة لأهميتها في حياة الناس. وأن الناس إذا أحاط بهم اليأس لما يرونه

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٢.

(٢) من حديث يوسف في الذكر الحكيم، ص ١٩٢.

من ظلم وفساد وخراب، وأن الظالم أباح لنفسه أن يظلم، وحرم على المظلوم أن يقول إنه مظلوم، وأباح لنفسه أن يخرب البلاد، وحرم على أهلها أن يهتفوا بإنجاز العمران. أقول لم يشأ سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدع هذا نصحا أو حكمة أو فلسفة، وإنما جعله من الدين وربط الإيمان بالله، بالإيمان بسداده، وعونه والقضاء على الكربات، وهذا لو زدته تأملاً زادك تأملاً زادك بهجة، وزادك قوة، وزادك عزماً وإن من عرف الله لا يعرفه اليأس أبداً[1].

٣- ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]:

أ. قال الطاهر بن عاشور: تعليل للنهي عن اليأس فموقع (إن) التعليل. والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ معتلين بطول مدة البعد الذي يبعد معها اللقاء عادة، فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك، فحقه أن يأخذ في سببه، ويعتمد على الله في تيسيره، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها[2].

ب. وقال ابن الجوزي في تعليقه على الآية: لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد[3].

ج. قال القرطبي: وفيها دليل على أن القنوط من الكبائر وهو اليأس[4].

د. وقال محمد متولي الشعراوي: لأن الذي ليس له رب هو من ييأس، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة لكن المؤمن لا يفعل ذلك،

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٢) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٤).

(٣) زاد المسير، (٤/ ٢٧٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٩/ ٢٥٢).

لأنّه يعلم أن له ربـًا يساعده. وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب فسبحانه يهبه مما فوق الأسباب ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣][(١)].

إن هذه القصة العظيمة في دروسها وعبرها تبين لنا أن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ما دب اليأس إلى نفسه قط رغم ما قيل له وما لقي من طول المدة، وبعد العهد بيوسف، مع ذلك كان يستشرف الأمل ويبعثه في نفوس بنيه وليس هو أملاً مبنيـًا على الأوهام والتخدير والقعود بل أمل إيجابي يحض فيه على الحركة والعمل الدؤوب، وهذا مقتضى تمام التوكل، وصحيح الإيمان، فاليأس من روح الله تعالى وظن السوء به جَلَّ وَعَلَا من خلق الكافرين. والذي يعرف قدرة الله المطلقة وتصرفه التام في الكون وعظيم رحمته بخلقه، ومعيته للمؤمنين، لا يملك إلا أن يتكل عليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولا يتوقع منه إلا كل خير، بل يرى العافية في ثناء البلاد، ويوقن أن العليم الحكيم، ما قدر عليه المصيبة إلا لخير يريده له، وهو مع هذا تلطف بالعباد ولا يكلفهم فوق ما آتاهم[(٢)].

وقد كانت لكلمات يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أثر في رفع معنوياتهم، فقد غرس فيهم أملاً وثقة في الله، فهم الآن مصيبون نفسيا وشعوريا للقاء يوسف، بل هم راغبون في لقائه ويتحسسون مصر وما فيها ليجدوه ويجتمعوا به وخلوا مصر واجتمعوا مع العزيز، الذي اجتمعوا معه مرتين من قبل وكان بينهم ما عرضته الآيات الآتية:

---

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٥٦).

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٣٢٥).

سادسًا: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]:

وهذا هو الدخول الثالث للإخوة على يوسف. وامتاز بأمر عظيم هو زوال الغشاوة التي كانت على البصيرة وقيام الإخوة بمبادئ التوبة وأفعال الأوبة إلى الله.

١- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٨٨]:

جاء بالفاء المعقبة أو السببية، ليدل على سرعة مبادرتهم واستجابتهم وتنفيذ أمر أبيهم في التحسس عن أمر يوسف وأخيه أو سعيًا وراء الحصول على شيء من العلم عن يوسف وبنيامين، وجاءت (لما) لتوكيد ذلك ولم يذكر في هذا الموضع بالاسم، بل بالضمير، فلما أبان عن حقيقة شخصه ذكر الاسم حتى تكون المقابلة بين الغائب عليه والمعلوم يوسف مفارقة واضحة جلية وهذا من فصاحة البيان والبلاغة[(١)].

٢- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨]:

- ﴿قَالُواْ﴾ [يوسف: ٨٨] أي لما دخلوا عليه قالوا: أي إن مقالهم جاء فور دخولهم عليه مباشرة دون تأخير ولا تلكؤ ولا انشغال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨]: نادوه بلقبه تفخيمًا وتعظيمًا له، وهو أهل لذلك. وقد تعطفوا إليه رجاء قضاء حاجتهم ونيل بغيتهم عنده[(٢)]. وقد كانت في الظاهر طلبًا صادقًا للميرة والصدقة وقد كانوا في مسيس الحاجة إليه، كما دل

---

(١) يوسف أيها الصديق، (٢/ ٣٢٥).

(٢) يوسف أيها الصديق، المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

خطابهم نظراً لتراكم نسبة الجدب والجفاف أعلاها، فكانت إصابتها لهم أشد وأعظم وهم أهل بادية، لاعتمادهم كليا على الغيث والمرعى، وهي في الحقيقة تحسس واستعلام عن أخيهم، وقد ابتدأوا رحلة البحث عن أخويهم بالدخول على العزيز: أولاً لأنهم يعلمون أن بنيامين عنده، والابتداء بالمعلوم أول الخطى في البحث عن المجهول. وثانياً: لأن العزيز بحكم مركزه ووظيفته تجتمع لديه المعلومات والأخبار عن أحوال البلاد والعباد. ثالثاً: لما لمسوه فيه من فضل وإكرام وإحسان. ورابعاً: لأن مصر كانت حاضرة البلاد في وقتهم ومركز شبكة القوافل والمواصلات لمن حولها[1].

٣- ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]:

قدموا ذكر ضعفهم وافتقارهم وما هم فيه من شدة بلغت منزلة الضر والاضطرار، انكسارا وتضرعاً[2].

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]: جعلوا الضر نفسه الذي هو المصدر هو الذي مسهم، وكأنه قصد إليهم، وأصابهم كبارهم وصغارهم، ونساءهم ورجالهم، فلم يدع الضر واحداً منهم إلا مسه[3]

٤- ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يوسف: ٨٨]:

وهذا اعتراف منهم بأن بضاعتهم التي أتوا بها هذه المرة قليلة القدر، لا تساوي ما يطلبون في مقابلها، إنهم يرجونه ألّا يؤثر كون البضاعة رديئة في التقليل من

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

(٣) من حديث يوسف في الذكر الحكيم، ص ١٩٥.

الكيل الذي كان يكيله لهم في المرتين السابقتين[١]. وكانت بضاعتهم رديئة غير مكافئة، يدفعها الناس ويردونها ولا تكاد تجد لها طالبا ولا راغباً[٢] ولهذا قالوا بعد ذلك:

٥- ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ [يوسف: ٨٨]:

أي أعطنا ببضاعتنا هذه ما كنت تعطينا قبل بالدارهم الجياد، وهذا هو المطلب الأول الذي طلبوه منه بعد أن ذكروا الأمرين: (الضر) و (صفة البضاعة)، والمطلب الثاني فهو قولهم[٣]:

٦- ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]:

قال السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يعني تفضل علينا باستيفائه منا مكان الجيد وتصدق علينا ما بين الثمنين، يعني ما بين الجيد والرديء[٤].

وقال عبد الحميد مهماز: بقبول بضاعتنا الكاسدة ولا تنقص كيلنا.

وقال محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولقائل أن يسأل: أليسوا أبناء نبوة ولا تجوز عليهم الصدقة؟ نقول: إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختص به الحق سبحانه آل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أمر خاص بأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الصدقة لا تنبغي لآ محمد، إنما هي أوساخ الناس[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٣.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٧.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٥٤.

(٤) تفسير السمرقندي، (٢/ ١٧٤).

(٥) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٦٠)، رواه مسلم، رقم: ١٠٧٢.

وقال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾[يوسف: ٨٨]: استدل بها من قال: إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء[١].

٧- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف: ٨٨]:

أي جزاؤك عند الله إذ ليس عندنا ما نستطيع أن نجازيك به أو نكافئك عليه وأنت على ما أنت عليه من كريم العطاء، ونحن على ما نحن عليه من الضرر والافتقار[٢]. وقال الدكتور وهبة الزحيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يثيبهم أحسن الجزاء. والتصدق: التفضل مطلقاً ولكنه اختص عرفاً بما يبتغي به من ثواب من الله[٣].

ونلاحظ في هذا الدخول الثالث لإخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لمصر، قد أضرت بهم المجاعة ونفذت منهم النقود وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية يشترون بها الزاد، يدخلون في حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام. وعندما يبلغ الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا يبقى في نفس يوسف قدرة المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته فقد انتهت الدروس وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ولم يطلع عليه أحد إلا الله[٤].

---

(١) محاسن التأويل، (٦/ ٢٧٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٩.

(٣) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (٧/ ٥٩).

(٤) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٧).

تاسعًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

تهيئت النفوس الآن للمصارحة، بعد هذه الكربات الشديدة والمصائب المتلاحقة ونفذ صبر يوسف على كتمانه لشخصيته ورق قلبه وأخذته الرحمة والشفقة بأهله وأطفالهم ونسائهم وبأبيه الشيخ الكبير، فقال لهم:

١- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]:

مجيء هذا القول في صيغة السؤال؛ ليدفعهم إلى التأمل والتدقيق لمعرفة شخصية المتحدث. وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العذر بالجهل ولم يتحدث إليهم بعزة الكبرياء وغرور المكانة التي وصل إليها وهدفه أن تخفف عنهم صدمة المفاجأة، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم. وقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطف، إنما يعبر أيضًا عن تأثره بشكواهم، ثم تسميته لهم، وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكره، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تبسم يوسف، فشبهوه بيوسف، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية(١).

وكان الاستفهام الذي استخدمه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٩]، استفهامًا تقريريًا تذكيريًا، حرك لديهم الذاكرة والذكريات فتبين لهم أنه يوسف، فقالوا مؤكدين ومتأكدين(٢):

---

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٦١).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٥).

٢- قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:

لقد تحقق بهذا الموقف ما أوحي الله تعالى به إلى يوسف عندما جعلوه في غيابة الجب: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وقد فاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم فما كانوا يتوقعون أن يؤول أمر يوسف إلى كل هذا العز والسلطان والتمكين حتى يصبح عزيز مصر، ويأتي إليه إخوته الذين ألقوه في الجب يطلبون فضله وإحسانه وكأنهم لم يصدقوا ما سمعوا فسألوه[١]:

أ. ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]: **لقد أعطاهم** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **علامة دقيقة** واضحة بينه وبينهم ولا يعلمها إلا هو وهم فقط وهي إشارته إلى فعلتهم معه التي طالما حاولوا سترها وإخفاءها سنين طويلة، لقد تصاعد الموقف الآن إلى قمته، فقد ثبت للإخوة أن الذي أمامهم لا يمكن أن يكون إلا أخاهم يوسف فقالوا:

- ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] وسؤالهم هذا فيه معنى التقرير أكثر من الاستفهام، فكأنهم قالوا من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف، فليس القصد من الاستفهام التثبت من أن الذي أمامهم يوسف بقدر ما هو بقصد التعبير عن غرابة المفاجأة غير المتوقعة على الإطلاق، وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه ولا يكتم نفسه عنهم[٢].

- ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]: قولهم هذا يدل على أنهم استشعروا من كلامه ثم من ملامحه، ثم من تفهم قول أبيهم لهم ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] إذ قد اتضح لهم المعنى التعريفي من كلامه فعرفوا

(١) التفسير الموضوعي، ٤/ ٢١٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٦١.

أنه يتكلم مريداً نفسه. وتأكيد الجملة بأن، ولا الابتداء، وضمير الفصل لشدة تحقيقهم أنه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة لأنهم تطلبوا تأييده لعلمهم به(١)، وجاء جوابه مجرداً عن التأكيد.

ب. ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]: أجابهم من فورهم ببساطة وإيجاز، دون مقدمات ولا فواصل ولا تفصيل، ودون إطناب ولا تفخيم ولا تهويل(٢).

ج. ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾[يوسف: ٩٠] وعرفهم بأخيه ويظهر أنه كان موجوداً في جملة من شهدوا الموقف ولهذا عينه باسم الإشارة ﴿وَهَٰذَآ﴾[يوسف: ٩٠] ويبدو من تعريفهم به أنه لم يكن معروفاً عندهم، وهذا يشعر بأنه لبس ثياب الأكابر مثله ووضع ما يضعون على رؤوسهم، مما يحجب بعض وجوههم، فمن باب أولى أن يكون يوسف كذلك، وعليه فإن ما ذكره بعض المفسرين من نزعه ما على رأسه ليس ببعيد(٣).

د. ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾[يوسف: ٩٠]: فيه إقرار بنعمه لا حدود لها لأن المن حين يكون من الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، ونلاحظ أن سيدنا يوسف أكد وحقق بكلمة (قد) وأسند المن إلى لفظ الجلالة (الله) الموصوف بكل كامل والمنزع عن كل نقص، ثم لاحظ أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول ما تراني فيه من جعلي على خزائن الأرض لم يكن عن علم عندي، وإنما هو محض عطاء من الله ومنّ وإكرام منه سبحانه(٤).

---

(١) سورة يوسف، ص ٥٣٤.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

(٣) آيات للسائلين، ص ٣٤٤.

(٤) من حديث يوسف وموسى، ص ١٩٨.

- ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٩٠]: بفضله ورحمته، فلا تعجبوا[١].

- ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٩٠]: بكل خير في الدنيا والآخر، وبالخلاص عما ابتلينا به، وبالجمع بيننا بعد التفرق[٢].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجملة إنه من يتق ويصبر تعليل لجملة من الله علينا. فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اتقى الله وصبر وبنيامين صبر ولم يعص الله فكان تقيا. أراد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم، وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

وإن ذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه، ومن ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء لأنّه من التبليغ كقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إني لأتقاكم لله وأعلمكم به»[٣].

أهمية التقوى والصبر والإحسان في التمكين ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

إن من شروط التمكين المهمة التي حققها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واتصف بها في حياته تقوى الله عَزَّوَجَلَّ. إن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ تجعل بين العبد وبين ما يخشاه من ربه

---

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٢٠).

(٢) فتح القدير، (٣/ ٧٢-٧٢).

(٣) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٧).

ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وهي أن نعمل بطاعة الله على نور من الله نرجو ثواب الله، وأن نترك معصية الله على نور من الله نخاف عقاب الله. وهذا ما قام به يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وظهرت ثمرات التقوى العظيمة في حياته.

- كالمخارج من كل ضيق وشدة.
- والسهولة واليسر في الأمور.
- تيسير العلم النافع.
- إطلاق نور البصيرة.
- محبة الله وملائكته والقبول في الأرض.
- ونصرة الله وتأييده وتسديده.
- والبركات من السماء والأرض.
- والحفظ من كيد الأعداء ومكرهم[١] وغير ذلك من الثمرات...

وقدم التقوى للأهمية: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]؛ فهي الأصل والأساس الذي يبنى عليه الصبر الإيماني، فصبر دون تقوى دنيا بلا آخرة كالذي يصبر عن الزنا خشية الفضيحة والأمراض، لا خوفا من الله. وأردف الصبر، لأن تقوى الله في عبادته والتزام نعمه والاستقامة على ذلك تحتاج إلى صبر دائب[٢].

والصبر لا بد منه على أمر الله وعن معصية الله وعلى كل مصيبة قدرها الله عَزَّوَجَلَّ. فالتقوى والصبر سلاح المؤمن وعدته في كل أحواله وتقلباته وخاصة في

---

(١) فقه النصر والتمكين، (٦/ ٣٧).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

أوقات المصائب والمحن[1]. وقد جاء ذكر الصفتين لمناسبتهما في المعنى، فقد اتقى وصبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على كيد إخوته وعلى مراودة امرأة العزيز.

وقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ [يوسف: ٩٠] لتعم كل متق وصابر. وجاء بصيغة المضارع لتفيد الحاضر والاستمرار، فقد يتوقف المرء عن التقوى والصبر وتتقلب حاله ويختم له بسوء الخاتمة والعياذ بالله[2].

هـ. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:

– ﴿فَإِنَّ﴾ [يوسف: ٩٠]: الفاء للتعقيب القريب أو للسببية، أي بسبب التقوى والصبر لله لا يضيع أجر المحسنين.

– و (إن) للتأكيد ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] قدم الأجر للأهمية ليدل في هذه المناسبة على ما صار إليه يوسف من أجر كريم وإحسان في الدنيا والآخرة[3].

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقرر حقيقة إيمانية يعلل بها لإخوته المدهوشين السبب من إنعام الله عليه، وفي إيصاله إلى ما وصل إليه، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

هذه القاعدة الإيمانية الربانية التي قررها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي علل بها سر توفيقه ونجاحه لقد تحققت فيه هذه الصفات الثلاثة، فأهلته لنيل فضل الله وإنعامه وهي: التقوى، والصبر والإحسان ولم تفارق هذه الصفات يوسف في أي مرحلة من مراحل حياته، فصاحبته هذه الصفات عندما كان في بيت العزيز،

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

وعندما راودته امرأة العزيز، وعندما راودته نسوة المدينة، وعندما أُدخل السجن، وعندما تعامل مع المساجين وعندما دعاهم إلى الله وعندما قابل الملك، وعندما ولي منصب عزيز مصر وعندما استلم اقتصاد البلاد، كان في كل هذه المراحل والمواقف تقياً صابراً محسناً قد كافأه الله على صبره وتقواه ولإحسانه أحسن الله له الجزاء في الدنيا فصار في هذا المنصب الكبير: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وهذا في جانب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي عرّف إخوته على نفسه وعل سير نجاحه.

وأما من جانب إخوته فإن الموقف أحرجهم وأخجلهم، حيث تذكروا ما فعلوه به وهو صغير، فشعروا بالندم، ثم ها هم يقابلون يوسف عزيز مصر ثلاث مرات، وهو يعلم أنهم إخوته وأنهم فعلوا به ما فعلوا، ومع ذلك كان يكرمهم ويحسن إليهم في كل مرة، ولم يعاقبهم أو يحاسبهم أو يعاتبهم، لقد قابل إساءتهم بالإحسان وجهلهم بالعلم، فازدادوا خجلاً أمامه عندها خاطبوه قائلين[(١)]:

ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١ - ٩٢]:

تفسير الآيات الكريمة:

١ - ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]:

بنفس اللغة الإيمانية واللهجة الصادقة معنى الإخوة في الكلام رابطين الأمور كلها بالله سبحانه، إذ الأمر كله لله وإليه يرجع والفاعلية المطلقة لمشيئته، ولا

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٢٩).

يكون شيء إلا بإذنه وعلمه وحكمته مقرين بالحق ولو على أنفسهم معترفين بالفضل ولو في غيرهم[1].

أ. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٩١]: مؤكدين قولهم بصيغة القسم الخاصة بالصادق في قسمه ﴿تَٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٩١][2] وقد مضى بيان أن التاء إذا دخلت على القسم أشعرت بتعجب[3].

ب. ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]:

- اللام للتأكيد. وكذلك (قد) إذا جاء بعدها فعل ماض. وقالوا: ﴿عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] بصيغة الجمع، أي: عليهم أجمعين، أي: إنه على مستوى وقدرهم جميعـًا في كفة أخرى دونه[4].

- ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ﴾ [يوسف: ٩١]: وهما جواب القسم، ومن دلالات قد أنها تقرب الماضي إلى الحاضر، وأن الله آثرك علينا في الزمن الأول، ولا يزال فضلك علينا ساريـًا إلى الزمن الذي نحن فيه، وهذا إقرار منهم بالمن الذي ذكره يوسف لما قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٩٠][5].

إن الله تعالى آثره عليهم فجعله عزيز مصر ذا الجاه والسلطان وآثره عليهم بما حباه من كريم الأخلاق وحسن الخصال وآثره عليهم بالتقوى والصبر والإحسان وآثره عليهم بالوحي والنبوة، فمثل ذلك الإيثار في الدينا بما أعطاه الله من نعم

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.
(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.
(٣) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.
(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.
(٥) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢٠٣.

والإثار في الآخر بما آتاه الله من النبوة، وكل تلك معان صحيحة محتملة. ثم قالوا مقرين معترفين بالذنب مشيرين إلى حسن التوبة وصلاح الأمر[١]:

ج. ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]:

- ﴿وَإِن كُنَّا﴾ [يوسف: ٩١]: كان من الكينونة للموجود في الوجود أي: وجوداً (حقاً وفعلاً) وبصيغة المتكلم الجمع في الماضي: أي فيما مضى من أمرنا.

- ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]: اللام للتأكيد، والخطأ مجاوزة ومجانبة الصّواب والتعدي عليه، وهو عام في كل أمر فيه خطأ وصواب. وقالوا: ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، ولم يقولوا: ظالمين، أو مسيئين؛ لأن الخطأ يشمل كل أنواع ودرجات ما سواه، من ظلم وإساءة وغير ذلك، ولأن الخطأ التعدي ومجاوزة حد الصّواب، فتضمين المعنى أن المخطئ يعرف الصّواب ويميز بينه وبين الخطأ. أي: إنه على دراية بأمره وليس جاهلاً أو غافلا أو ساهياً عما يفعل. وجاء بصيغة الماضي، ليدل على أن ذلك كان فيما مضى من أمرهم ولم يعد موجوداً في الحاضر.

لقد اعترف الإخوة بأن حساباتهم كانت خاطئة (نظريا وتطبيقياً) فأعادوا ترتيب الأوراق على الشكل الصحيح والصواب الذي أمرهم الله به[٢].

- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]: وهذا اعتذار عن الماضي الذي سلف والذي كان فيه ما كان. ويلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٠.

لم يذكر لهم أبشع ما يمكن أن يعمله إخوة بأخ لهم، وهو إلقاؤه في الجب، ولم يعاتبهم لكلمة واحدة يذكرهم فيها بأي شيء كان منهم، وإنما تكلم فقط بما أكرمه الله به وأنه حاول وجدّ في أن يكون تقياً صابراً صادقاً، محسناً في كل أعماله الدينية والدنيوية، وتفرغ لمسؤولياته في إدارة شؤون البلاد. وكانت سيرة يوسف في أمره كله لا تتجاوز الكلمتين الجليلتين اللتين ما زاد في حديث إخوته عن ذكرهما وهما: ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وإخوته ما زادوا له بعد هذه الغيبة الطويلة والأحداث الكثيرة عن ذكر أمرين:

الأول: آثرك الله علينا.

الثاني: وإن كنا لخاطئين.

وطوي الماضي كله بجملتين منه وجملتين منهم وانتقلوا إلى الحاضر، ولأن عقلاء الناس يعلمون أنهم لو عاشوا في الماضي ضاع منهم الحاضر، فلنكتف باختصاره وطيّه، ولنبدأ في معالجة ما نحن فيه(١). فقابل يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اعترافهم بالخطأ وتوبتهم وندمهم بالعفو الصريح البعيد عن اللوم والعتاب والتقريب، فقال:

٢- ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]:

وعفو يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في مثل هذا الموقف درس من أعظم الدروس، إنه عظة وعبرة لأصحاب الأنفس الموتورة والأحقاد المستورة، وما نالهم من الأذى معشار ما نال يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. انظروا إلى العزيز في ساعة الاقتدار ومن

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢٠٤.

آذاه في موقف الانكار، وفي إمكانه أن يأخذه بذنبه أخذ الجبابرة، فإذا به يعرض حتى عن اللوم والتوبيخ(١).

أ. ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾[يوسف: ٩٢]: أي لا ملامة ولا توبيخ ولا عتاب ولا أدنى مؤاخذة مني عليكم(٢). ولن أذكر لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضى بما فيه، وقد مسح لقاء اليوم شقاء السنين الطويلة، وعناء المحن الماضية الكثيرة، ولم يكتف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا، بل توجه إلى الله تعالى يسأله المغفرة لهم والستر عليهم(٣):

- ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[يوسف: ٩٢]: وهكذا نرى أن يوسف يرجع الأمر إلى الله ويرد الفضل إليه في كل مناسبة، فهو صاحب الشأن والأمر كله، وقال: ﴿يَغۡفِرُ﴾ [يوسف: ٩٢] بصيغة المضارع، لتدل على الحاضر المستمر ولتناسب قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾[يوسف: ٩٢] وليشير على معنى الدعاء المضمّن فيه. ولم يذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه، فلم يقل: غفرت لكم. ليشير - إضافة إلى تأدبه مع الله - إلى معنى أن الظلم والسوء لم يكن بينهم وبينه على الحقيقة، بل كان بينهم وبين الله، إذ فسقوا عن أمره، وعصوه واتّبعوا ما نهاهم عنه من طاعة النفس الأمارة، والشيطان. ومن البديهي أن يوسف ضمّن في كلامه هذا الصفح والعفو عنهم، وما ذكر مغفرة الله لهم إلا وهو يعلم أن مغفرة الله مرتبطة بحقوق العباد وأن من تمام مغفرة الله أن يعفو المظلوم، أو أن يأخذ حقه من ظالمه، فحق العباد محفوظ في ميزان عدل الله حتى يؤدَّى أو يعفو صاحبه.

---

(١) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٣.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢١).

وهكذا سكت يوسف – وهو صاحب الحق في ظاهر الأمر – عن التصريح بمغفرته لإخوته وضمّنها في قلبه، إعلاء لأمر الله، وأدباً معه، وتجرداً من العبد أمام الله عَزَّوَجَلَّ[١] صاحب المنّة والإحسان العظيم.

ج. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]: وهذا فهم بحقيقة أن أي رحمة في العالم أو من أي أحد، إنما هي مستمدة من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك وهو واثق من إجابة دعوته لأنّه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفا عنهم والله أولى منا بالعفو عنهم[٢]. وهذا موقف يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ القائم على العفو الصفح والتوجه إلى الله بالدعاء لإخوانه بأن يغفر لهم ويرحمهم جميعـاً، وكان على يقين بأن الله رحيم بعباده، ومن رحمته أنه يغفر الذنب ويقبل التوبة ويزيد من فضله إحسانـاً.

– ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [نوح: ٤] لأنّه غفور كريم، ويرحمكم بجماع الخير كله، ومنها الرحمة، لأنّه: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وهكذا ينتهي في هذا المشهد ظلم الإخوة ليوسف وأخيه بخاتمة الحسنى وتعود المياه إلى مجاريها وتصفو النفوس ويتآخى الإخوة بأخوة الإيمان الحقة الصادقة[٣].

وبعد قرون كثيرة متوالية وقف خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الكعبة المشرفة، بعد أن دخل مكة المكرمة فاتحـاً وقال يخاطب أهل مكة: ما تقولون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء[٤].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٢.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٦٦).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٣.

(٤) زاد المعاد، (٣/ ٤٠٨).

ولا شك أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقف من إخوته موقفاً كريماً ونبيلاً، ولكن موقف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أكرم وأنبل؛ لأن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال ذلك لإخوته، بينما النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك لقبيلته وعشيرته. وإخوة يوسف ألقوه في الجب، وأبعدوه عن أبيه، بينما المشركون كذبوا رسول الله وآذوه وعذبوا الصحابة ومنعوه أن يبلغ دعوة الله تعالى، حتى خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة فحاربوه، وحاولوا قتله، وقتلوا كثيراً من أصحابه، ومثلوا بهم، وجمعوا الأحزاب عليه، ثم بعد كل هذا عفا عنهم بعد أن تمكن منهم، فكان عفوه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أكمل وأنبل[١]، هذا وقد أمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يسرعوا بالبشرى إلى أبيه قائلًا[٢]:

٣- قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

عادت آيات السورة للمرة الثالثة إلى قميص يوسف وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ودليل براءته إنما حمل في هذه المرة الدواء والشفاء لعيني أبيه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فالأمر معجزة أكرم الله تعالى بها نبيين كريمين، وهو سبحانه قادر على خلق الشفاء من دون دواء وما الدواء إلا سبب للشفاء، أما المسبب الحقيقي فهو الله تعالى[٣].

وهذه الآية الكريمة تدل على أن بصر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد ذهب من شدة الكمد والحسرة والأسف، وكثرة البكاء، وارتداد البصر من خوارق العادات، وهذا يوسف ويعقوب يرد الله على أيديهما البصر بعد ذهابه قبل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٢١).
(٢) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٢١).
(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٢).
(٤) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٧).

أ. ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣]: تدل الآية على أن لهذا القميص شأناً. وكلمة: ﴿ٱذۡهَبُواْ﴾ [يوسف: ٩٣] تعني أنه جدير بأن تذهبوا به وحده. ثم قال: ﴿هَٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣] وكلمة (هذا) بعد: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي﴾ [يوسف: ٩٣] أفصحت الجملة عن شيء وراء القميص، وهذا الشيء هو أول ما كان بين يوسف وإخوته وله دلالة قاطعة على نبوّة يوسف لأن قوله بعد ذلك:

- ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ [يوسف: ٩٣] إخبار بغيب، ثم إن هذا القميص الذي يحمل دلالة نبوة يوسف هو نفسه الذي وجد يعقوب ريحه لما فصلت الجماعة من تراب مصر، وهي في طريقها إلى أرض يعقوب. وكان هذا هو الذي أومأت إليه كلمة: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي﴾ [يوسف: ٩٣] وكلمة ﴿هَٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣][1].

ب. ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]:

- ﴿فَأَلۡقُوهُ﴾ [يوسف: ٩٣]: الفاء للتعقيب، أي: بادروا من فوركم بإلقائه أو تكون لسببية، أي: إنه سبب لما سيكون من بعد، أي بسببه.

- ﴿عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]: وخص نفسه بالإضافة ولم يقل: أبانا، أو أبيكم، ليدل ويؤكد على الخصوصية بينه وبين أبيه[2].

ج. ﴿يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ [يوسف: ٩٣] جاءت ﴿يَأۡتِ﴾ [يوسف: ٩٣] بصيغة فعل المضارع، وبدون فواصل وذلك يدل على فورية الفعل، أي بمجرد إلقائه عليه فيعود بصيراً، وهذا يدل على إعجاز خارق من أمر الله القادر.

ويكون المعنى: طلب منهم أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيه، ليرتد إليه بصره فيأتون به، أي: يأتيني بصيراً، كما أنه لم يأت بصيغة الأمر في الفعل (ائتوني به) مثلاً كما فعل مع إخوته أدباً مع أبيه.

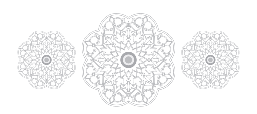
(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٢٠٦.
(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٥.

- ﴿بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]: على وزن فعيل، ليدل على قوة الصيغة وعظمتها. ولم يقل: مبصراً. أو بصيغة الفعل: يبصر. وجاء بصيغة الإبصار، ليدل على معنييها: الأول: في رؤية العين. الثاني: في العلم، أي: يبصر الأشباح والصور بعينيه، وحقيقتها وكنهها بقلبه. وهذا من كريمِ فيض الرحيم الرحمن[١].

هـ. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]: وهذا تعبير قرآني دقيق، أن يحضروا معهم كل من يمت بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم[٢].

- ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ [يوسف: ٩٣]: أي جهزوا أمركم من بعد دون استعجال مخل وانتقلوا إلى مصر تحت رعايتي فقد وجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قد مسهم الضر حقاً بهم وبأهلهم، لما ظهر له من توفية الكيل بلا ثمن، وطلبهم الصدقة، فأراد بذلك إكرامهم جميعاً[٣].

- ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]: أي أسرة آل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأصولها وفروعها ستنتقل من فلسطين إلى مصر، لتكون إقامتها هناك. ونلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صار هو الآمر الناهي وما على إخوته - وهم أكبر منه - إلا التنفيذ، أي: صارت قيادتهم وإمرتهم إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقام بالقيادة والمسؤولية خير قيام عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤].



---

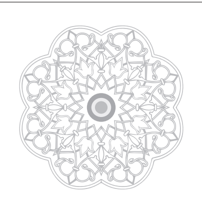
(١) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٢٠٦٧).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٧.

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢٣٢).





المبحث العاشر: أثر البشارة على يعقوب عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ وطلب أبنائه منه المغفرة واجتماع شملهم عند يوسف بمصر

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ٩٤ - ١٠١].

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٥]

فصلت العير، أي خرجت من مصر. وكلمة (لما) الحينية المتضمنة معنى الشرط توجب أن يكون يعقوب قال: إني لأجد ريح يوسف فور انفصالها عن أرض مصر،

لأن (لما) توجب ترتيب الجواب على الشرط، وتؤكد ذلك وتقطعه فور وقوع الشرط، وهذا من عطاء الله لصفوة عباده وأنبيائه. وقال العلماء: وقد أشمه الله ما عبق من القميص من ريح يوسف من مسيرة أيام، وهي معجزة ظاهرة. قال مالك: قد أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس، قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه[1].

١- ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]:

أ. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ [يوسف: ٩٤]: لمن حوله من الأهل والأحفاد، فأولاده في طريقهم إليه وهذا هو المفهوم بقرينة السياق والمقام.

ب. ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٩٤]: أي رائحته وهذه معجزة لنبي الله يعقوب، وإن كلامه في غاية الوضوح[2].

ج. ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]: أي إلا أن تنسبوني إلى الفند. والفند نقصان عقل بسبب الشيخوخة. وما هي شيخوخة، ولكنها نبوة وشفقة أبوة؛ ﴿لَوْلَآ ﴾[يوسف: ٩٤] حرف شرط، وتعليق وجوابه محذوف، أي لو لا أن تفندوني لصدقتم[3]. وقد حدث ما توقعه فقالوا:

٢- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]:

قال ابن عاشور: والذين قالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، هم الحاضرون من أهله، ولم يسبق ذكرهم لظهور المراد منهم، وليسوا أبناءه، لأنهم كانوا سائرين في طريقهم إليه[4]، وقد تابوا وأنابوا وحسن حالهم.

---

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٢٠٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٧٨.

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٩).

(٤) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٩).

قال الشعراوي: وكأنهم ملوا حديثه عن يوسف، وأعرضوا عن كلامه قائلين له: إلى متى ستظل على ضلالك وهم لا يعنون الضلال بمعنى الخروج عن المنهج، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي لا علاقة لها بالتدين من محبة شديدة ليوسف وتعلق به وتمني عودته، وكثرة الحديث عنه، وتوقع لقائه. وهم الذين ظنوا أن يوسف قد مات[١]. وأيّا ما كان مرادهم فإن العبارة فيها غلظة وخشونة ما كان لهم أن يوجهوها لجدهم فضلاً عن نبي. وذلك من جملة بلاء يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قضاه الله له ليرفع به درجته، فإن ظلم وجهل القرابة وقعه في النفس شديد؛

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهندِ.

بل ربما صدق في هؤلاء قول الآخر:

أشـــد عــــداوة وأقـــل نـفـعـًا من الـرجـل البعيد الأقـربـونـا[٢]

بنى الأحفاد قولهم على ما قاله آباؤهم كذبـًا على الله وعلى أبيهم وعلى الناس من قبل، وإن الإنسان ليعجب من حلم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصبره، فقد قابل أحفاده ومن حولهم برحمة وشفقة والتمس لهم العذر ولم يرد عليهم بقوله، بل ترك الأحداث والوقائع هي التي تحدث عن نفسها.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٧٠).
(٢) آيات للسائلين، ص ٣٥٧.

١ - ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦]:

(الفاء) عطف على التعقيب، ليدل على سرعة ولهفة البشير في المجيء و (أن) صلة مفصلة لتدل على قوة المعنى التالي لها.

- ﴿جَآءَ﴾ [يوسف: ٩٦] حضر، أي: وصار حاضراً معلوماً مشهوداً.

- ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦]: ب (أل) التعريف، وعلى وزن فعيل، ولم يقل مبشراً، ليدل على أنه معرف غير مجهول، ولا نكرة، وليدل على سعة وقوة وصفة البشارة التي جاء بها[١].

٢ - ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]:

- ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ [يوسف: ٩٦]: كما أمر يوسف حرفياً وجاء بالمفرد على الحقيقة، وقيل هو نفس الذي جاء بالقميص الكذب، أراد أن يشفع له ذلك عن سوء فعله.

- ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [يوسف: ٩٦]: أي على وجه يعقوب، والوجه فيه العين محل البصر. المراد: شفاؤه.

- ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ [يوسف: ٩٦]: الفاء للتعقيب الفوري، أو للسببية. أي: بسبب إلقاء القميص على وجهه ارتد بصيراً.

- ﴿ارْتَدّ﴾: جاء باللفظ، ليدل على العودة للحالة التي كان عليها من قبل، أي: إنه كان بصيراً ثم صار إلى حالة عدم الإبصار، ثم ارتد إلى حالة الإبصار التي كان عليها.

- ﴿بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]: قوة وسعة في صفة الإبصار[٢].

---

(١) آيات للسائلين، ص ٣٥٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠١

والآية تصف لنا بمجرد أن لامس القميص وجه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ارتد بصيراً كما كان. وهذا دليل على هذه المعجزة الخارقة للعادة، والتي يخترق بها القدر الرباني مألوف البشر. إنها آية أجراها الله عَزَّوَجَلَّ ليبين بها على كرامة عبده يعقوب ويوسف، ولتكون آية للناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل، وليقصها القرآن فتبقى من معالم الإيمان[١].

٣- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]:

ونرى في هذه الجملة ما فيها من ود وحب ورحمة وسمو في الأخلاق ونبل في المواقف.

- ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٩٦]: فأرجع ما به من علم إلى الله تأدباً مع الله وإحقاقاً للحق في إرجاع الأمر إلى مصدره وواهبه، وفيه تضمين إلى إرجاع نعمة بصره إلى الله سبحانه.

- ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]: أي مما لم تؤتوه، أي: من علم بأمر يوسف وشأنه ومآله وحسن خاتمتهم جميعاً، وأنه حي يرزق. وتأويل الرؤيا التي رآها يوسف مما لم يعلموه ولم يؤذن له بإعلامهم إياه إلا في حينه وبقيت خيوطه العريضة سراً في صدره يلمح به ولا يصرح رغم استفزازاتهم له بالتفنيد وأنه لفي ضلاله القديم. والعلم بالشيء لا ينافي الحزن والتأثر عليه، فهذا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حزن على ولده إبراهيم وهو يعلم أنه قد سبقه إلى الجنة، وفي هذا دليل على أن ليس كل علم يذاع وينشر، فبعض العلوم يختص الله بها بعض الناس وينهاهم عن إفشائها، وبعضها تعلن في مناسبتها وبعضها تعلن لبعض الناس دون غيرهم. وفي الحديث: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم».

---

(١) سورة يوسف، ص ٥٤٣.

أما علوم الدين من عقيدة وشريعة فيجب أن تذاع وتعلن وتبلغ وتعلّم، ولكن بأسلوب حكيم[١] على نهج الدعاة المهديين.

إن الآية الكريمة تبين أنه لا بأس أن تذكر الآخرين بصحة توقعاتك بعد تحققها شرط أن تكون مبنية على علم لا حدس، كما أن استحضار الخصوصية مع الله من أعظم الأسباب الجالبة للمحبة والشوق إليه سبحانه، فالحب ينبت على حافات المنن وشهود النعم[٢].

لقد أراد الله بآل يعقوب وإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خيراً، فساق لهم أسباب التوبة والرجوع إليه وعندما رأوا المعجزات للنبيين الكريمين والدهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخوهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وآخرها رجوع البصر إلى أبيهم بعدما ألقى البشير القميص على وجهه، انهدم كل شيء سلبي في نفوسهم وفاض الخير فيها فطلبوا من أبيهم الدعاء لهم بالمغفرة.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧]:

بعد أن جاء البشير وبان الأمر وظهر صدق يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يملك الأبناء إلا أن قالوا:

١ - ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧]:

- ﴿قَالُواْ﴾ [يوسف: ٩٧]: أي الإخوة وبدون مقدمات ولا فواصل.

- ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ [يوسف: ٩٧]: بنداء التقرب والتحبب.

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٣.

(٢) أيها الصديق، محمد خيري، ص ١٧٣.

- ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف: ٩٧]: طلبوا منه الدعاء بأن يغفر الله لهم ذنوبهم. وفي هذا الطلب تعبير عن طلب مزدوج، فهم يطلبون منه الصفح والعفو والنزول عن حقه حيالهم، بأن طلبوا منه أن يسأل الله تعالى أن يغفر لهم. وتلك التفاتة جميلة تدل على ذكاء وصفاء سريرة[١].

- ﴿ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف: ٩٧]: وهم يشيرون بذلك إلى أنها أكثر من ذنب واحد، أي: على الجمع في الذنوب؛ ليشمل سرها وجهرها، قديمها وحديثها، كبيرها وصغيرها، وعلى الجمع فيهم: ﴿إِنَّا﴾ [يوسف: ٩٧]؛ ليعمهم جميعـًا ممن أجرم بيده أو مشى برجله أو نطق بلسانه أو شارك برأيه أو أقر بقلبه، أو سكت عن نصحه فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر، فالكل مذنبون وإن اختلفت درجاتهم وتبعاتهم.

- ﴿إِنَّا﴾ [يوسف: ٩٧]: أصلها: (إنّ) للتأكيد، و(نا) للجمع، أي: إنهم أكدوا ثانية خطأهم وأقروا به جميعـًا.

- ﴿كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧]: بصيغة الجمع في اسم الفاعل، ليدل على الخطأ في فعلهم فيهم جميعـًا والخطأ بشمل كل ذنب، فعمموا ولم يخصصوا، فربما غفلوا في التخصيص عن ذنوب تسللت بعضها من بعض، ولم يعرّف الذنب، ولم يعرف نوع الخطأ؛ لأن الله سبحانه أمر بالستر[٢].

ولم يجبهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى طلبهم مباشرة، بل أخره إلى وقت آخر، كأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يشعرهم بفداحة ذنبهم. أو أنه أخر الاستغفار إلى وقت ترجى فيه الإجابة أكثر، كوقت السحر. أو لعله عَلَيْهِ السَّلَامُ أخره حتى يلتقي بيوسف ويراه ويطمئن عليه، "فَمَا رَاءٍ كَمَنْ سَمِعَا"[٣].

---

(١) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٥.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٧).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]:

إن الآية الكريمة تدل على حب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه متأصل متجذر في أعماقه، وهذا سر من أسرار الله فمهما كانت قسوة الأبناء على الآباء شديدة ومتمادية، فليس أسرع من قلب الآباء صفحاً وعفواً، ولو أدرك الأبناء عظمة هذا السر لما وقع ولد في جرم العقوق(١).

أ. ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨]:

- ﴿سَوْفَ﴾ [يوسف: ٩٨] كلمة السين وسوف تدلان على وقوع الفعل في المستقبل، وكلمة (سوف) تدل على بعده قليلاً من (السين) ومعنى هذا أن سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لو قال: (سأستغفر لكم ربي) لدل على أنه سيستغفر بعد قليل، ولكنه قال: (سوف) فدل على أنه سيستغفر بعد زمن وإن قل، ولهذا قال بعض سادتنا العلماء إن يعقوب أمهلهم قليلاً حتى يتقربوا من الله أكثر، فإذا استغفر الله لهم غفر لهم. ولم يكن هذا مع يوسف لأنّه قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢] وهذا طرح منه لكل ما فعلوه، ثم أضاف الدعاء لهم، وقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٩٢]، ثم طمأنهم بأنه سبحانه أرحم الراحمين، وأنه مهما عظم ذنب الناس، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوسع رحمة وأعظم فضل.

- قال عطاء: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها في الشيوخ، ألا ترى قول يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨].

---

(١) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٣٦٨.

- قال العز بن عبد السلام: في قوله ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾[يوسف: ٩٨]: أخره إلى صلاة الليل أو السحر وليلة الجمعة[١].

إنّ الدعاء في الأوقات الفاضلة معروف في السنة، ومنه شرع الاستغفار بالسحر، وعقب الصلوات وفي السجود وعند الآذان وبينه وبين الإقامة وعند الإفطار في الصيام أقرب للإجابة مما عداها[٢].

- ﴿أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ﴾[يوسف: ٩٨]: أي أسأل لكم المغفرة.

- ﴿رَبِّيٓ﴾[يوسف: ٩٨]: جاء بلفظ الرب ﴿رَبِّيٓ﴾[يوسف: ٩٨] ليبين حال السكينة والطمأنينة التي يعيشها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلمة واحدة قالها، وهو تعبير عن ثقته بالله وشعوره بقربه منه[٣].

وفي كلمة ﴿رَبِّيٓ﴾[يوسف: ٩٨] تأدب مع الله في إرجاع الأمر كله إليه، عرفاناً وذلاً وفقراً إليه سبحانه. وللدلالة على صلة الحب القوية بين الله الرب، ونبيه العبد، فالرب مولى النعم كلها، والمغفرة عطاء من عطاءات الربوبية[٤] وفيه تضمين منه بأنه غفر هو لهم وعفا عنهم.

ب. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يوسف: ٩٨]:

- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ [يوسف: ٩٨]: إن للتأكيد والهاء الضمير عائدة إلى: ﴿رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] والضمير ﴿هُوَ﴾ [يوسف: ٩٨] لزيادة التأكيد، وأنه هو صاحب الشأن، ولتمييز كمال صفاته عن نظائرها في غيره ولم يقل: سوف أستغفر لكم ربي

---

(١) تفسير سلطان العلماء، (٢/ ١٣٩).

(٢) إتحاف الإلف، (٢/ ٨٤٢).

(٣) لطائف التفسير، ص ٣٦٧.

(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٦.

الغفور الرحيم، بل أضاف: ﴿إِنَّهُۥ﴾ [يوسف: ٩٨] للدلالة على عظيم تقديره ومعرفته ويقينه بعظيم صفات ربه[١].

- ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ [يوسف: ٩٨]: الذي يستر الذنب فلا يظهره ولا يؤاخذ عليه[٢]، فالغفور والعفو سبحانه، هو الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعدنا بالمغفرة لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

فالغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب[٣]. فيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على معرفة عميقة بمن يغفر الذنوب، فذكر نفسه به وكذلك دعا أولاده إلى قصده وحده سبحانه، فجدران اليأس وجبال الهموم وكآبة المعاصي تتصدع وتزول وتتلاشى، وتنطلق أرواحهم من سجون المعاصي إلى آفاق التوبة، فهل هناك أجمل من طلب المغفرة بعد الوقوع في الذنوب والمعاصي من الله؟

قل: استغفر الله، لا تقلها فقط، تأمله فيها: استغفر الله، إن قلتها من قلبك تتناثر جميع الوساوس والهواجس والمخاوف[٤]. وسبحان القائل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٥].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٧.

(٣) ولله الأسماء الحسنى، ص ٥٦٩.

(٤) لأنك الله، علي جابر الفيفي، ص ١٥٦.

- ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]: بإسباغ الخيرات كلها ظاهراً وباطنا وحسّاً ومعنى. وأضاف (أل) التعريف وبصيغة (فعيل) للدلالة على قوة الصفة وعظمتها وسعتها(١).

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلمنا عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله ومغفرته وعدم اليأس من رحمته التي وسعت كل شيء وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً. ومما تستجلب به رحمة الله، الاستغفار ولذلك قدم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اسم الغفور الذي يغفر الذنوب ويرحم العباد. والملاحظ في خطاب يعقوب لأبنائه حضور اسم الرب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[يوسف: ٩٨] مع الانكسار والخضوع والتوجه في طلب المغفرة من الغفور والرحمة من الرحيم.

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أكد لأبنائه بأن ربه هو ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] فقد جمع بين الاسمين الكريمين، لأن المغفرة تسقط عقوبة الذنوب، ويستر الله عَزَّوَجَلَّ ذنوب عباده ويقيهم آثامها، كما يقي المغفر الرأسَ من السهام، وهذا مقتضى رحمته سبحانه، كما أن في الجمع بين هذين الاسمين الكريمين إشارة إلى الكرم الغامر والفضل العميم، فإن كونه سبحانه (الغفور) يقتضي تجاوز عن الزلات والعثرات فإذا قرن (الغفور) ب (الرحيم) الذي ظهرت آثار رحمته فهو الفضل الذي ليس وراءه فضل، فالمغفرة تخلية عن الذنوب، والرحمة تحلية بالفضل والثواب(٢).

- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]: حقيقة إيمانية أساسية من حقائق الابتلاء والجزاء، والذي من رحمته سبحانه بعباده أن يغفر ذنبهم ويرحم ضعفهم

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

(٢) ولله الأسماء الحسنى، ص ١٤٨.

إذا ما أخلصوا التوجه إليه وحده وجاء ذكرها مناسباً لطلبهم الاستغفار وليقرر ويؤكد أن الله سبحانه هو صاحب الحق أولاً وآخراً وأنه بيده الأمر كله وأنه أهل التقوى وأهل المغفرة(١).

وبكلام يعقوب لأولاده: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]؛ طوى الماضي بأحداثه وصرنا أمام مرحلة جديدة في حياة آل يعقوب فقد أخذ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أهله جميعاً؛ أبناءه وخدمهم ودوابهم ومواشيهم وأموالهم وأغراضهم، وسار الموكب الإيماني من جنوب فلسطين إلى مصر ليستقروا جميعاً عند يوسف عزيز مصر.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠].

وصل الموكب إلى مصر، ودخلوا جميعاً على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، عزيز مصر وحاكمها الفعلي(٢).

١- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]:

هذا هو الدخول الرابع للإخوة وهو الأول بعد المغفرة والخاتم في القصة. وتميز بدخول آل يعقوب جميعاً وتميز بتأويل الرؤيا الصادقة، نظرياً في

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢٣٠).

أول القصة تأويلاً عملياً واقعياً حقاً، وتميز بأن بهذا الدخول ما بعده من استقرار بني إسرائيل في مصر أمداً طويلاً وما جرى لهم فيها من أحداث خطيرة اختتمت بمجيء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخراجه منها بأمر الله[١].

أ. ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٩٩] جاء بالفاء المعقبة، ليدل على لهفتهم بسرعة الدخول على يوسف ولقائهم به، وصرح باسم يوسف ولم يضمره ولم يأت بلقبه ليدل على أنه علَم هذا الدخول ومحوره صاحب الشأن فيه والقائم عليه وأن الابن والأخ يوسف كان المقصود بذاته أيّا كان لقبه وصفته.

ب. ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: ٩٩]: خاصة من دون الباقين، أي: ضمنهما إليه وأسكنهما عنده، ليدل ويؤكد بهذه الآية على أن إيواء الأبناء للآباء - خصوصاً إذا كبروا- برّ محمود وواجب مفروض أكدته الشرائع السماوية والأخلاق الزكية[٢].

ويبدو من ظاهر الآية أن أمه كانت حية خلافاً لما ذهب إليه أكثر المفسرين، فإنهم قالوا: ماتت أمه قبل أن تبدأ أحداث القصة وتأثروا بذلك بما يروى عن بني إسرائيل من أخبار، وهي أخبار تحتاج إلى دليل صحيح من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأصل حمل الكلام على حقيقته[٣].

ويبدو أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم، وهذا هو الدخول الأول الذي آوى فيه أبويه، ثم دخل بهم الدخول الثاني إلى البلد بدليل أنه قال:

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١١.

(٣) القصص القرآني، (٢/ ٧٢٢٧).

- ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]: أي ادخلوا آل يعقوب جميعكم مصر وكرر لفظ الدخول ليميزه عن الدخول الأول على يوسف حيث آوى إليه أبويه، وجاء به بصيغة فعل الأمر، ليدل على معنى دخولها مع البقاء والإقامة المستقبلية فيها. ويلاحظ أن يوسف قال: (ادخلوا) ولم يقل: اسكنوا. أو: أقيموا في مصر، فتفضل الله على نبيه يوسف ببركة قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]؛ فأمن الداخلين من آل يعقوب بصورة خاصة ولم يعم ذلك إلى ذراريهم من بني إسرائيل لحكمة أرادها الله، وهذا من دقة أداء اللفظ القرآني[١].

- ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]: إن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ دائم الصلة والتوجه إلى الله والأدب معه سبحانه، يذكره على جميع أحواله، يردع إليه في كل خير ويرد إليه الأمر في كل شأن وها هو هنا يعلق الأمر، بأمنهم في دخولهم. وقد قال الطاهر بن عاشور: والمقصود: الأمن حال اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك. وجملة: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٩٩] تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمن[٢].

عاش آل يعقوب آمنين في مصر إلى أن جاء العهد الفرعوني، فتعرضوا على أيدي الفراعنة إلى أشد أنواع العذاب والتنكيل واستعبدوا حتى بعث الله فيهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ليخرجهم من أرض مصر[٣]، وكان ما كان وكأن المشيئة على لسان يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مشيرة إلى أن هذا الأمن لن يدوم وإن طال زمنه[٤].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٣.
(٢) التحرير والتنوير، (٦/ ٤١).
(٣) لطائف التفسير، ص ٣٧٢.
(٤) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢١٦.

لقد هيأ الله ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنيه أسباب الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الحضر وأدخلهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في حضارة مصر من بابها الواسع[١] في مدينتها المتحضرة في جوانبها المادية، وقام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بدعوة التوحيد في تلك المملكة الهكسوسية.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

ويا له من مشهد بعد توالي الأعوام وانقضاء الأيام وبعد طول المعاناة والألم والضيق وبعد الامتحان والابتلاء وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامي الشديد.

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة، ذلك في ضمير العيب وهذا في واقع الحياة. ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته له - تكريما واحتراما وتقديرا- وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه كما رأى الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين[٢].

أ. ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف: ١٠٠]: إن من تمام البر ان لا يعتبر نفسه في حضرة والديه هو العزيز، ولا يرتفع عليهما في المجلس وإن كان يسرهما هذا، ولكنه من خلقه العظيم وبره الكريم لا يفعله بل يرفع أبويه على سدّة الحكم وكرسي الوزارة[٣].

(١) سنن الله في الحضارة، ص ٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٩).

(٣) سورة يوسف، القره داغي، ص ٥٤٧.

ب. ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[يوسف: ١٠٠] عطف على ما سبق، أي: بعد رفع أبويه واستوائهما على العرش خر القادمون على يوسف له سجداً، وترك للسامع المتدبر أن يفهم أن في مقدمة الساجدين ومن قصدوا بذلك هم إخوة يوسف، بدليل قوله لأبيه من بعد: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾[يوسف: ١٠٠].

والخر: سقوط بصوت، وهكذا جعلنا اللفظ نتخيل حركات الساجدين وما رافقها من أصوات حركتهم وأفواههم بالتحية والتعظيم والإجلال.

- ﴿سُجَّدًا﴾[يوسف: ١٠٠] وهذا التعبير أضاف لفعل السجود الحالة الوصفية والمعنوية لجمع من الساجدين(١).

وقد أجمع أهل العلم على أن هذا السجود لم يكن عبادة مصروفة ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأما هو سجود تحية وإكرام. وقال القرطبي: أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان، إنما كان تحية لا عبادة(٢).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهم خروا سجداً لله من أجل جمع شمل العائلة، ولم يخروا سجداً ليوسف، بل خروا سجداً لمن يجب السجود إليه وهو الله(٣).

وقال الشيخ محمد طاهر بن عاشور: وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعاً في الشرائع، وإنما منعه الإسلام لغير الله وتحقيقاً لمعنى مساواة الناس في العبودية، ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقاً، لأنّه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم(٤).

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٦.

(٢) آيات للسائلين، ص ٣٧٤.

(٣) تفسير الشعراوي، (١٢/ ٧٠٧٧).

(٤) التحرير والتنوير، (٦/ ٤١).

وقال محمد راتب النابلسي: أي وخروا لله عَزَّوَجَلَّ سجداً جميعاً يوسف وأبواه وإخوته الأحد عشر كوكباً، أو أن هذا سجود التحية وكان تقليداً في مصر وهو انحاء الرأس، فحينما ينحني الرأس قليلاً فهذا اسمه عند أهل مصر قديماً سجود، فلا يراد به سجود العبادة، بل هو سجود تحية[1].

ج. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[يوسف: ١٠٠]:

- ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: ١٠٠]: التفت يوسف إلى أبيه قائلاً له ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: ما حصل الآن من السجود له أمام ناظرك هو:

- ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]: أي رؤياي المنامية التي رأيتها، وقصصتها عليك، وأنا غلام صغير، وقد آلت الآن بعد كل تلك السنين إلى ترجمة صادقة لها، أي إن هذا الذي تحقق الآن من إكرامي بكما يا شمسي ويا قمري، ومن سجود إخواني لي بالتحية والإجلال والاحترام والتقدير هو التأويل الواقعي الحي لرؤياي الرمزية من قبل، والتي قصصتها عليك فصدقتني النصح بحكمتك وعلمك النبوي الرباني.

- ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[يوسف: ١٠٠]: قد جعلها ربي حدثاً حيا نشاهده وحقيقة واقعة نعيشها وكعادته يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يغفل عن ذكر ربه مُرجعاً كل خير وحق وفضل إليه سبحانه. وصيغة: (قد) قبل الفعل الماضي تفيد التأكيد والتحقيق. وجاء بصيغة (الرب) ليدل على أن هذا من عطاء صفات الربوبية في الفضل والنعمة والرحمة والإكرام والعطاء السابق بغير حساب. وقال: (ربي) بياء الإضافة ليشير إلى عمق خصوصية الصلة والرابطة بينه كعبد، وبين ربه، ومزيد

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٧.

العرفان والشكر له سبحانه. وقال: (حقـًا) ليدل على التحقيق والوجوب واللزوم والصدق والثبوت. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

د. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

استمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معدداً – في معرض التحرث بنعم الله وفضله– بعض آلاء ربه ذي الإحسان ويأتي بنعمة إخراجه من السجن على رأسها، ويغفل ذكر نعمة إنقاذه من الجب لطفـًا وأدبـًا مع أبيه وإخوته فلا يؤذيه في أبنائه بتلك الذكرى الأليمة القاسية عليهم جميعـًا، خاصة بعد أن غفر لهم وصلح حالهم[١].

– ﴿أَحْسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]: الواو للعطف. ﴿وَقَدْ﴾ [يوسف: ١٠٠] قبل الماضي للتأكيد والتحقيق. وأحسن: والفعل الحسن من الله، حسن في ذاته حسن في أسلوبه، حسن في مقدماته، ونتائجه. وقال: ﴿بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: لي؛ ليدل على عرفان بلصوق النعمة به وحلولها وإسباغها عليه.

– ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]: أرجع الفضل في إخراجه من السجن إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو مسبب الأسباب ومدبر الأمر، وجعله مثالاً لإحسان ربه إليه والإخراج من السجن كان خلاصة أمور ونعم عظيمة من قبل، من فتنة النّسوة وحفظ ونجاة وبراءة وتصديق ومن بعد تمكين وتأمين. وجعله على خزائن الأرض، والعزيز على مصر، ثم ما جرى له من إخوته حتى آل الأمر إلى ما هم فيه إلا من خير ولمّ شمل وصلاح[٢].

د. ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]: وحضوركم إليّ في مصر وترككم البادية إحسان آخر بي وبكم. فلقائي بكم وضمّكم إليّ، وأنتم على أحسن حال

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٨.

كان أمنية لي طال انتظارها، ومجيئكم إليّ كان فوق ذلك خاتمة حسنة لمسيرة طويلة من المعاناة والحزن والصبر الجميل ومجيئكم من البادية من شظف عيشها وقحطها وقساوة بيئتها إلى حاضرة مصر في رغد عيشها ولين بيئتها وسعة رزقها المادي والمعنوي[١].

- قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فجمع الشمل وانتقلتم من الشقاوة إلى القمة بسكن الحاضرة، وكان منزل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأطراف الشام في بادية فلسطين وكان رب إبل وغنم وبادية[٢].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: والمجيء في قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾[يوسف: ١٠٠] نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو. والبدو: ضد الحضر، تسمى بدواً؛ لأن سكان بادون. أي: ظاهرون لكل وارد إذ لا تحجبهم جدران، ولا يغلق عليهم أبواب، وذكر: ﴿مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] إظهاراً لتمام النعمة؛ لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة[٣].

هـ. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾[يوسف: ١٠٠]: أي أفسد ما بيننا من عاطفة الأخوة، وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيحة القرب بإغراء الحسد، وتهييج الشر.

وقد ذكر يوسف نفسه وقدمها على إخوته في نزع الشيطان بينهم تواضعاً وأدباً[٤].

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٩.

(٢) المحرر الوجيز، (٣/ ٢٨٢).

(٣) التحرير والتنوير، (٦/ ٨٢).

(٤) يوسف أيها الصديق، ٤٢٠.

ولا يوجد في اللغة على سعتها تعبير ألطف وأدل على كمال التواضع من هذه العبارة الوجيزة جعل ذلك النزع المزعج كأنه كان مشترك بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما مع أنه كان من جانب إخوته وليس منه[١].

ثم عقب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على قصته بتقرير جوهر الحقيقة، وهي أن مشيئة الله كانت هي الفاعلة بجميع صفات الرب الحسنى من لطف وعلم وحكمة[٢].

و. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا﴾ [يوسف: ١٠٠]: أي إن ربي عالم بدقائق الأمور، رفيق بعباده فينقذ من يشاء من خلقه بحكمته البالغة، فمن ذا الذي كان يدور بخلده أن الإلقاء في الجب يعقبه الرق، ويتلو الرق فتنة العشق، وبسببه يزج في غيابات السجن، ثم منه إلى السيادة والملك. فسبحان الله يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة[٣] من أمور يدبرها بلطفه الخفي. وتعبير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يفيد عظم رفقه سبحانه بعباده وإيصاله الخير لهم من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون وذلك لكمال إحاطة علمه بالظواهر والسرائر والخفايا والبواطن والدقائق والخبايا. ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠][٤].

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يستشعر أثر اسم الله اللطيف ويعلمنا الإيمان به والتوكل عليه، فمن أسماء الله الحسنى اللطيف، وقد عاش يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع اللطيف بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحدثنا عن تجربته وخبرته، ومن ذاق عرف ولا ينسى يوسف أبداً ذكر ربه ويعيد إرجاع الفضل إليه، فهو مصدر الخير كله ومولى النعم، وهو لطيف بما يشاء[٥].

---

(١) سورة يوسف، ص ٥٥١.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٠.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠٠.

(٤) آيات للسائلين، ص ٣٧٩.

(٥) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٠.

- اسم الله الطليف:

اللطيف هو الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة. اللطيف بعباده المؤمنين: هو الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى الخبير ومعنى الرؤوف.

ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وهو بيان لما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذا يستلزم العلم والغاية المقصودة، والعلم بالطريق الموصول، وكذلك الخبرة[1].

ز. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]: وبصيغة التأكيد والاختصاص والشأن العظيم، وكما الصفة في العلم والحكمة في ربه ومولاه يختم يوسف حديثه، وجاء بصفتي العلم والحكمة لمناسبة ما تضمنته قصته بصورة عامة، والآية بصورة خاصة، من تحقيق الرؤيا ومن إخراجه من السجن ومن مجيء أهله إليه ومن ندم إخوته ومن لطف المشيئة الربانية الفاعلة عن علم مطلق محيط وعن حكمة واسعة عظيمة[2].

ونلحظ في هذه الجملة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] في آخر هذه الآية الكريم توافقاً مع آخر الآية الكريم المشتملة على تأويل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لرؤيا يوسف، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٦/ ٣٥٤).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢١.

عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] فبداية البشريات التي بشر بها يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابنه يوسف في تأويله لرؤياه وإتمام هذه البشريات، يقع تحت نور الاسمين الجليلين من أسماء الله الحسنى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] بداية ونهاية، فسبحان من هذا كلامه(١).

- **اسم الله** ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

الحكيم هو من وضع الأشياء مواضعها وساق الأمور إلى أوقاتها المقدّرة لها(٢).

خامسًا: قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والسلطان والرغد والأمان، ليتجه إلى ربه في ذكر نعمائه عليه، وهو في أبهة السلطان وفي فرحة الأهل، أن يتوفاه ربه مسلماً وأن يلحقه ربه بالصالحين. وهكذا يتوارى الجاه والسلطان وتتوارى فرحة اللقاء والاجتماع بالأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه وأن يلحقه بالصالحين(٣).

١- ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

بدأ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذكر النعمتين العظيمتين في الدنيا والتي يندرج تحتها نعم لا تعد ولا تحصى ألا وهما نعمة الولاية على الملك ونعمة العلم(٤).

---

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠١.

(٢) تفسير السعدي، ص ٥١٨.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٠).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠٤.

أ. ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

- ﴿رَبِّ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ أي يا رب. وحذف أداة النداء، ليدل على شعوره بقرب المنادى وقوة الوصل معه وشدة الاتصال، وعلى قرب لحاق المنادى به، لحاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بربه.

- ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

(قد) للتحقيق. ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾ [يوسف: ١٠١]: صيغة تحقيق وتأكيد.

- ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ أي من بعض ملك الدنيا من سلطان وموالي وبيت ومركب ومال وجاه.

ب. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]: (من) للتبعيض، أي: وعلمتني معرفة مآل الأحاديث سواء كانت رؤيا في المنام، أم كانت أحاديث الناس، شعوباً ودولاً وجماعات من علم سياسة الدولة، وكيف يدبر أمرها، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]: أي علمه بعضها، لا كلها وفوق كل ذي علم عليم، فما علم كل سياسة الحكم، ومعاملة الناس وما علم كل تأويل الرؤى ولكن علم بعضها[١]، وذلك من تواضعه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام علام الغيوب. وكفى بنعمة العلم من نعمة وكفى بأن يكون الله هو المعلم[٢].

٢- ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

أي: يا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق[٣].

---

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٦٣).
(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٥.
(٣) التفسير الموضوعي، (٣/ ٢٢٩).

٣- ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾[يوسف: ١٠١]:

أي ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخر ومن أدبه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - في مناجاته مع ربه عَزَّوَجَلَّ- أنه قد الثناء على الله تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾[يوسف: ١٠١] ثم ذكر عقب ذلك الدعاء. وفي صحيح السنة أن من آداب الدعاء وشروط إجابته تقديم الثناء على الله تعالى، ثم الصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ما يطلبه العبد من ربه.

٤- ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١]:

ودعاء يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يشتمل على أمرين:

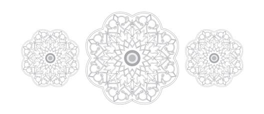
أ. ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾[يوسف: ١٠١]: أي أتمني وأنا مستسلم لأمرك ومشيئتك وحدك وهي أمنية كل مؤمن بالله تعالى، أن يموت على الإسلام الكامل له جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢]. فالموت على الإسلام مطلب عزيز ونفيس وشريف، حتى تشوقت إليه نفس الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾[يوسف: ١٠١]: وصية الله لعبادة ووصية الأنبياء لأتباعهم والآباء لأنبائهم ودعاء الصالحين وهكذا نطق يوسف الصديق بحكمة النبوة ومشكاتها التي أنارت بنورها آباءه من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فكان وفيا لإرثهم، أميناً على وصيتهم.

ب. ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١]: واللحاق بالصالحين في الآخرة يلخص كل دعوات الخير في الدنيا والآخرة، فالصالح في الآخرة قد توفي مسلماً وكان في الدنيا من المرضيين ومن التحق بركب الصالحين فقد فاز

الفوز العظيم، ومن التحق بالصالحين من آبائه فقد نال الدرجات العلا. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

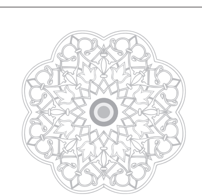
ولقد كانت دعوة يوسف متناغمة مع هذه الآيات: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. شهادة من الله وكفى بالله شهيداً، وبهذا الابتهال والتعقيب والدعاء بحسن الختام يختم المولى عَزَّوَجَلَّ قصة نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ[(١)].

هذا، وأثناء شرح هذه الآية الكريمة تلقيت خبر وفاة العلامة الدكتور الشيخ يوسف عبد القرضاوي، فانتابني شعور عجيب وحزن عميق وبكاء على الشيخ، (إنا لله وإنا إليه راجعون) فقد لازمته عقدين من الزمن وتعرفت عليه عن قرب واستفدت من محاضراته ودروسه وكتبه ومواقفه، فقد مر بابتلاءات ومحن وغربة ومطاردة، وكان ثابتاً راسخاً مخلصاً نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، في دعوة الإسلام ورسالته ووضع الله له قبولاً كبيراً وترجمت كتبه وانتشرت في الآفاق، فنسأل الله العلي العظيم الكبير المتعال الرؤوف الرحيم الغفور الكريم أن يتقبل شيخنا القرضاوي ويتجاوز عنه وأن يلحقه بالصالحين، وأن يعلي ذكره في المصلحين، وأن لا يحرمنا أجره ولا يفتننا بعده.



(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٧.





المبحث الحادي عشر: تعقيبات ربانية على قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢ - ١١١]:

أولاً: قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]:

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها، وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعدد، في صفة الكون، وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم، فتأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق، وهو ترتيب ذو هدف معلوم، تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم بعث إليهم، وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة، وقد غيرت بهم القرون وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣] فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ويختم ختامها على مطلعها[1].

١- ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]: اسم إشارة للمفرد البعيد، والبعيد هنا بعد زمان غابر ومكان مغاير[2] وجاء به بالمفرد؛ لأن السورة اشتملت على قصة واحدة: (قصة يوسف كاملة).

٢- ﴿مِنْ﴾ [يوسف: ١٠٢]: وهي نبأ واحد من أنباء الغيب الكثيرة التي أنبأك الله بها.

وتعني كذلك علوماً منقولة إلى السامع من زمان او مكان مغاير.

٣- ﴿أَنبَاءِ﴾ [يوسف: ١٠٢]: الأنباء جمع نبأ وهو الخبر الخطير ذو الشأن وتعني كذلك علوماً منقولة إلى السامع من زمان أو مكان مغاير.

٤- ﴿الْغَيْبِ﴾ [يوسف: ١٠٢]: أي ما غاب عنك وعن قوم ولا سبيل لمعرفته إلا بالوحي، والمقصود تفاصيل القصة على ما ذكر بالقرآن، ويجوز أن يكون المراد بالغيب، أي النسبي الذي يعلمه بعض الخلق كمن شهده وإن غاب

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣١).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٣٠.

عن الأمم التالية، ولا شك في أحداث القصة غيب لم يعلمه بعض من كان له دور فيها، فكيف يقص محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ائتمار الإخوة في خفاء، واجتماعهم على الكيد، إن لم يكن رسولاً يوحى إليه؟

فعلم أن إخباره بهذا النبأ من دلائل صحة نبوته وصدق الكتاب الذي جاء به[١].

٥- ﴿نُوحِيهِ﴾ [يوسف: ١٠٢]: بصيغة الجمع في الموحي سبحانه، للدلالة على التفخيم والتعظيم فيه وفيما يوحى إليه، وللدلالة على أنه أوحي بجميع صفاته سبحانه من علم وحكمة وقدرة.

٦- ﴿إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]: يا محمد بالإفراد للخصوصية، وبكاف الخطاب للمقابلة، والتوجيه المباشر بين المتكلم والمخاطب، وبحرف (إلى) الدال على منتهى البلوغ وتمام الوصول مع الخصوصية[٢].

٧- ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]:

- ﴿وَمَا﴾ [يوسف: ١٠٢]: نفي لما بعدها.

- ﴿كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]: أي وجود كينونة في محيطهم[٣] وجملة ما كنت لديهم في موضع الحال إذ هي تمام التعجب[٤].

- ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]: أي اجتمع أمرهم. أي: تفصيل رأيهم وقرارهم عملياً بأخذ يوسف من أبيه بالحيلة والمكر وإلقائه في الجب مجتمعين على ذلك، وإن كان فيهم من عارض إلا أنه في النهاية صمت وأقر ووافق[٥].

---

(١) آيات للسائلين، ص ٣٨٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣١.

(٥) سورة يوسف، ص ٥٥٨.

- ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]: حال من ضمير أجمعوا. وأتت يمكرون بصيغة المضارع لاستحضار الحال العجيبة[١].

إن الآية الكريمة تبين أن الوحي مصدر من مصادر المعرفة والعلم وهو مصدر يقيني لا يخطئ أبداً ولا مجال لإنكاره؛ لأنّه يحمل في مضمونه مؤيدات صدقه وشواهد وقوعه وصحته[٢].

إن الآية التي أشارت لإثبات رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طريق الإخبار بالقصص الماضية التي لا يمكن علم حقائقها إلا عن طريق الوحي كثيرة، كقصة مريم مع زكريا وكفالته لها والتي جاءت في سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]؛ وفي ذلك إشارة إلى مجموع الاختبار الواردة في الآيات السابقة من نذر امرأة عمران لما في بطنها لله، إلى ميلاد مريم وكفالة زكريا لها، إلى بشارة يحيى، إلى كلام الملائكة لمريم وهذه الأخبار من أبناء الغيب واعتبرتها الآية الكريمة غيباً لأنها وقعت في الماضي وحدثت قبل قرون من حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما أنه لم يكن موجوداً عند حدوثها فهو غيب بالنسبة له والله هو الذي أوحى بهذه الأنباء لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره بها، وهذا يثبت نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجه دلالتها على النبوة والوحي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يجهلون أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمي لا يكتب ولا يقرأ وهذا معناه أنه لم يكن يعلم بهذه الأخبار من الكتب ولم يصاحب أحبار أهل الكتاب فكيف علم بهذه الأخبار الخفية التي لا يعلمها إلا عدد قليل من الأحبار واليهود.

---

(١) سورة يوسف، ص ٥٥٨.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٣٣).

- وكذلك في التعقيب على قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩].

- وكذلك التعقيب على قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ [القصص: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]. وعند الحديث عن قصة آدم في سورة ص قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩].

فهذه القصص وغيرها في القرآن الكريم تشير إلى صحة نبوة نبينا ولون من ألـوان الإعجاز في الذكر الحكيم. ومع كل هذه الحقائق التي أوردتها السورة، والتي تؤكد ظاهرة الوحي ووقوعها، ونزول القرآن الكريم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة الوحي، مما يدل على صحة نبوته ورسالته، نرى كثيراً من الناس يعرضون عن هذه الحقائق وينكرونها ويجادلون فيها، ويثيرون الشبهات حولها، ولهذا جاء التعقيب الثاني:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٣ - ١٠٧].

تفسير الآيات الكريمة:

١ - ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]:

فمهما كنت حريصاً على إيمانهم وتصديقهم، فقررت له الحقائق وحشدت لهم البراهين القطعية والحجج البالغة فإن أكثرهم يبقى معرضاً عن الحق معانداً له، وهي حقيقة واقعة ملموسة ومشهودة في كل عصر من عهد النبي ﷺ وحتى يومنا هذا، فلا عجب بعد ذلك أن نرى في عصرنا المادي الحاضر أقواماً ينكرون ظاهرة الوحي، ويستبعدون حدوثها، بل ينكرون الجوانب الروحية في الإنسان، كما نرى أيضاً من ينكر نبوة النبي وصحة رسالته؛ زاعمين أنه اقتبس ما في القرآن الكريم من أخبار من كتب أهل الكتاب وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون، وما حملهم على هذه المزاعم الباطلة إلا التعصب الأعمى المذموم، وإن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] لدليل على أنه كلام العليم الخبير الذي وسع كل شيء علما في كل زمان ومكان[١].

قال القاسمي والرازي ما معناه: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها، أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا من النبي ﷺ قص نبأ يوسف تعنتاً فكان يظن أنهم يؤمنون إذا تلي عليهم، فلما نزلت، أصروا على كفرهم. وكأنه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][٢].

في سورة الشعراء كررت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨] تسع مرات فيمن أرسلهم الله، وهم: نوح وهود وصالح وإبراهيم؛ ولوط وشعيب وموسى. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فهذه الآيات تفيد أن طبيعة أكثر الناس عدم الإيمان وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم أقلية[٣].

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٦٣).
(٢) إتحاف الإلف، (٢/ ٨٨٥).
(٣) المصدر نفسه، (٢/ ٨٨٥).

٢- ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]:

وهذا دليل على صدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقد فتح فتوحـًا كبيرة، وجاءته أموال كثيرة وغنم غنائم عظيمة، وتوفي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ودرعه مرهونة، وليس في بيته شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير على رف حجرة السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[١].

فمن فعل ذلك غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ ولما ملك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كنوز مصر وخيراتها وأصبح الحاكم الحقيقي فيها سأل الله تعالى أن يرحل عن الدنيا ليلحق بقافلة الصالحين في الرفيق الأعلى وما سأل ذلك عندما كان ممتحنا في الجب والسجن، بل سأل ذلك وهو متربع على سدّة الحكم في مصر وبيده مفاتيح خزائنها وخيراتها وكذلك فعل نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما شعر أنه بلغ دعوته وأدى أمانته، وعلم أنها أصبحت في أيد أمينة ستحملها بعده إلى أطراف الدنيا، اختار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرفيق الأعلى[٢].

والآية الكريمة تشير إلى أن دعوة الله يجب ان تقدم إلى الناس وأجر الداعية يكون على الله تعالى الذي يدعو إليه، كما أن الآية الكريمة تشير إلى عالمية الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].[٣]

٣- **قال تعالى** ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]:

والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في رحاب الكون، معروضة للأبصار والبصائر في السماوات وفي الأرض، يمرون عليها صباح

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٣٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٣٧)

(٣) إتحاف الإلف، (٢/ ٨٨٦ - ٨٨٩).

مساء، آناء الليل وأطراف النهار، وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها، بارزة تواجه العيون والمشاعر، ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق. وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها وفي ظلها الممدود، ولحظة تأمل في الخضم الزاخر والعين الفوارة والنبع الروي، ولحظة تأمل في النبتة النامية والبرعم الناعم، والزهرة المتفتحة، والحصيد الهشيم، ولحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوانات والحشرات والهوام لحظة واحدة كافية لامتلاء هذا القلب إيمانا ويقيناً. لحظة واحدة يستمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب، إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستحب، ولكنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون؛ لذلك لا يؤمن الأكثرون[١].

- ﴿وَكَأَيِّن﴾ [يوسف: ١٠٥]: الكاف للتشبيه. وأي: للتعجب والاستفهام. فصار في الآية معنى (كم) الاستفهامية التي أضيف إليها معنى التعجب.

- ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٥]: للتبعيض، وكل ما في السماوات والأرض من شيء كبر أم صغر آية في ذاته، لكن منها ما يدركه جميع الناس، كالشمس والقمر والماء والهواء، ومنها ما لا يدركه إلا أهل العلم والاختصاص كالذرة والمجرة. ومنها ما لا يزال خافياً على الناس وينكشف لهم تدريجياً كلما توسعت دائرة علومهم. أو تكون (من) للجنس، أي: من جنس آية في السماوات والأرض: عالم الخلق والشهود المشهود بعين البصر والبصيرة العلمية وهو (الكتاب المنشور) وجاء بصيغة الجمع في السماوات ليدل على أن الآيات في جميعها

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٢).

وليست مقتصرة على آيات السماء الدنيا فحسب. وجاء بالأرض بصيغة المفرد، وبأل التعريف، ليدل على السماوات والأرض التي يعرفها الناس.

- ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ١٠٥]: أي يمضون عنها ويتجاوزونها، ولا يتجاوز المار الشيء إلا بعد الوصول إليه أولاً. وقال: ﴿عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ١٠٥] ولم يقل: بها؛ ليدل على أنه تجاوزها بعد أن تم له الاستعلاء والوقوف، أي: مرور المكين لا مرور العابر.

- ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]: الواو حالية.

- ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]: كأنهم لا يرونها، أو كأنهم لا يروم ما فيها من دلائل القدرة والإعجاز والحجة والبرهان، أو لأنهم لا يستدلون بها على خالقها، ولا يريدون ربطها به. وقدم: ﴿عَنْهَا﴾ [يوسف: ١٠٥] - أي: الآيات - على المعرضين، ولقد كان الصديق يوسف قدوة فيما يعرفه عظمة صفات ربه وآلائه فيها ويشكره عليها والثناء عليه بما هو أهله، وموالاته وحده في معاشه ومعاده حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١][(١)].

٤- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]:

فهم يقرون بوجود الله تعالى فما أنكر وجود الله تعالى إلا حفنة من الماديين والدهريين ولكنهم مع إقرارهم بوجوده يشركون بعبادته وطاعته وما أرسل الله تعالى الرسل ليقولوا للناس: آمنوا بوجود الله، فالإيمان بوجوده سبحانه فطرة مركوزة في فطر الناس عرفها كل الأمم والشعوب، وإنما أرسل الله تعالى الرسل

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٣٨.

ليقولوا للناس: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ اعبدوه وحده وأطيعوه وحده، ولا تعبدوا غيره من صنم أو وثن أو حاكم أو شيطان، أو ملك أو ولي أو نبي.

ومر معنا قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحبيه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فتأمل الانسجام والاتفاق بين ما حكى الله من كلام يوسف وبين ما جاء في التعقيب على القصة: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٣ - ١٠٦][(١)].

- ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]: أي نازلة ومصيبة فجأة[(٢)].

- ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧] أو تأتيهم يوم القيامة بأهواله وهم لا يشعرون بإتيانه وغير مستعدين له[(٣)]. فالغيب موصد الأبواب، لا تمتد إليه عين ولا أذن، ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة فكيف يأمن الغافلون؟

وإذا كانت آيات هذا القرآن الذي يحمل دليل الرسالة وكانت الآيات التي يحفل بها الكون معروضة للأنظار، إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ويشركون بالله شركًا ظاهرًا أو خفيًا وهم الأكثرون فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماض في طريقه ومن اهتدى بهديه، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين[(٤)].

---

(١) التفسير الموضوعي (٤/ ٢٣٨).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٣٨).

(٣) المصدر نفسه، (٤/ ٢٣٨).

(٤) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٤).

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

آية عظيمة تلخص موقف الداعية ومنهجه ونفسيته، بعد كل الذي قيل من إعراض الأكثرية، يواجه الداعية هذا الموقف بالثبات والإعلان الجريء القوي في مواجهة التيار المنحرف الجارف[١] ليقول:

١- ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

- ﴿ قُلْ ﴾ [يوسف: ١٠٨]: يا محمد وبلغ وأسمع.

- ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ [يوسف: ١٠٨]: اسم إشارة للقريب، ليدل على أن سبيل الحق والهدى قريبة، بسطها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أيدهم وتحت أنظارهم.

- ﴿ سَبِيلِىٓ ﴾ [يوسف: ١٠٨]: وهذه السبيل هي الطريق المنزلة من عند الله والممتدة لتصل إلى الله، وأضافها إلى محمد وأفردها لتدل على أن سبيل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي السبيل الحق الأوحد.

٢- ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

أي على نور ودليل وبينة لا لبس فيها ولا غموض ولا ألغاز ولا طلاسم، ظاهرة وواضحة لكل عين مبصرة، ومن ابتغى الحق فالحق أبلج. قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وجاء بصيغة الجمع هنا، ليدل على أن جميع آيات الله بلا استثناء هي بصائر في كل واحدة منها، وجاء بالمفرد في آية يوسف على المصدر،

(١) سورة يوسف، ص ٥٧١.

وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وفي خطبة الوداع بين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المعنى وأكده فقال: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[١].

- ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]: البصيرة في الدعوة نفسها، والبصيرة في الداعي إلى الله بأن يكون بصيراً في أمره بصيراً بما يدعو الناس إليه عالمـاً به، بصيراً بمن يدعوهم واختلاف درجات عقولهم وثقافتهم: "أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم"، بصيراً بالأسلوب الحكيم في خطابه للناس: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣- ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]:

- ﴿أَنَا۠﴾ [يوسف: ١٠٨]: ضمير المتكلم المفرد، وهو أيضـاً يدل على ضمير المتكلم الفاعل المستتر وجوبـاً (المضمر). والتقدير: قل هذه سبيلي أدعو أنا، على بصيرة أنا. وكرر الضمير وأخره لتوكيد على معنى إماميته وأوليته في الاستجابة لدعوة الله والاستقامة على سبيله وأنه الإمام المتبع.

- ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]: عطف على ضمير: (أنا) أي: من الذين اتبعوني على هذه الدعوة واستقاموا معي على هذه السبيل. أي: إن هذه السبيل التي أدعوا إليها هي التي أمرني الله بها وهي السبيل المفردة الحقّة الواضحة البينة التي اتبعتها، وكل من اتبعني، فأنا قائم على رأسها ومن خلفي كل متبع غير مبتدع وفي هذه الآية دليل على أنّ:

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٤٤.

- محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام الدعاة إلى الله وأولهم.

- أن الدعوة إلى الله واجب على كل مؤمن متبع لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- أن سبيل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي وحدها سبيل الله.

- أن سبيل الله قريبة ميسرة، واضحة بينة، وعليها من الله برهان.

- أنها مستقيمة لا عوج فيها، وأنها مفردة لا ثاني لها(١).

٤- ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]: أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل، أو نديد، أو ولد، أو صاحب، أو وزير، أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً(٢).

٥- ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

أي وأنا بريء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني(٣).

أي: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيله البراءة من أهل الشرك وأن منهجه وطريقته الدعوة إلى التوحيد والتنزيه عن الشرك والبراءة من المشركين أجمع(٤). ودعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه ليست بدعـًا من دعوات الأنبياء قبله، بل هي مكملة وخاتمة لها وكما أوحي الله إليهم أوحى إليه(٥).

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٢٢).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٣٠.

(٤) آيات للسائلين، ص ٤١٥.

(٥) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٤٠).

رابعًا: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

١- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي إن الذي أرسلهم هو الله وحده، وجاء الضمير الجمع المتكلم، ليدل على عظمة المرسل سبحانه الحاضر المشاهد وعلى فاعليته بجميع علياء صفاته الكاملة.

- ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي يا رسولنا محمد، وفيه تضمين لانقطاع الرسل من بعده فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ خاتمهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وأكدت الآية على أنه لا رسول مرسل ولا نبي منبأ من بعد النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

- ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ [يوسف: ١٠٩] استثناء منقطع.

- ﴿رِجَالٗا﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي متصفون بصفات الرجولة الكاملة الحسية والمعنوية.

- ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ [يوسف: ١٠٩] وهكذا لخص لفظ الرجال الصفات الحسية والمعنوية في الرسول من: بشرية، وذكورة، وقوة في البنية، وبلوغ مبلغ الرجال في السن والعقل والفهم والعلم والحكم وكريم الصفات. علمًا بأن صفات الرجولة هذه صفات تكليف لا صفات تشريف، فملك كريم خير من بشر كافر، ومؤمن من الجن خير من كافر في الإنسي وامرأة صالحة خير من رجل ظالم،

ويكفي الرسل فخراً وتشريفـاً وتكريمـاً، أن ينسبوا برسالتهم إلى الله العلي العظيم وأن يكون الموحى إليه من أهل القرى[١].

٢- ﴿نُّوحِىٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

- ﴿نُّوحِىٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]: بضمير الجمع في الموحى للتفخيم والتعظيم فيه سبحانه وبجميع صفاته العليا وفي الموحى إليهم أي: جميع رسله. واختار الله الوحي وسبله للتبليغ عنه إليهم. والوحي من الله شرط أساسي[٢] من شروط التكليف والتشريف بالنبوّة والرسالة.

- ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]: أي المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو، ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلمـاً وأجل فضلاً[٣].

٣- ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

- ﴿أَفَلَمۡ﴾ [يوسف: ١٠٩] للتقريع والتوبيخ والإنكار فهم قد ساروا وسمعوا الأخبار ورأوا الآثار.

- ﴿يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ١٠٩]: ولقد كان أهل مكة الرحالة يمرون في سفرهم على ديار عاد وثمود ويرون بأعينهم كيف أهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم وعنادهم[٤]. والتمييز في: ﴿يَسِيرُواْ﴾ [يوسف: ١٠٩] عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر ومن عادى الرسول وأنكر رسالته فقال: هلا يسيرون

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥١.

(٣) فتح القدير، (٣/ ٨٤-٨٥).

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٣٢.

في الأرض فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة ويرون مصارع الأمم المذبة فيعتبرون بذلك[(١)].

- ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[يوسف: ١٠٩]:

إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب حتى قلوب المتجبرين ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم، وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون، يخافون ويرجون ويطعمون ويتطلبون... ثم إذا هم ساكنون لا حس ولا حركة، آثارهم خاوية، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم ودنياهم الماثلة للعيان، والكامنة في الضمائر والمشاعر.

إن هذه التأملات لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن قاسياً غافلاً ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين[(٢)].

٤ - ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]

- ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]: اللام للتأكيد، والدار محل السكن والإقامة.

- ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]: هي التالية والخاتمة لما قبلها ولا دار بعدها.

- ﴿خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]: إذ فيها حقيقة الخير وماهيته ومصدره، وهي خير من كل خير في الدنيا لأنّه أبقى وأدوم فلا يفوتنك ولا تفوته ولأنه صاف من كل كدر ولأنه أعظم وأكبر.

(١) آيات للسائلين، ص ٤٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

- ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾[يوسف: ١٠٩]: اللام للإضافة، والذين اتقوا هم الذين جعلوا بينهم وبين أمر الله لهم في دار الابتلاء طاعة[١].

٥- ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[يوسف: ١٠٩]:

استفهام تقرير استنكاري. وتقدمت همزة الاستفهام على فاء العطف لأصالتها، ولا: نافية. والمعنى: كيف أنكم لا تعقلون ما ذكرناه آنفًا وقد أنعمنا عليكم بالعقل وميزناكم وكرمناكم به، وفي الصيغة استنكار لمن أسقط دور العقل في مثل هذه الأمور، وحث لمن كان له قلب حي أو ألقى السمع وهو شهيد، على أن يعقل أمره، ويكون ذلك بأمور:

- فكراً: فيدين بدين الحق وحده ويسقط جميع الأديان الباطلة والمعتقدات الخرافية والأفكار الخاطئة.

- وعملاً: فيقوم بالصالح النافع من الأعمال التي تنفعه في دنياه وآخرته ومعاشه وعاجل أمره وآجله.

- وخلقًا: فيتخلق بالأخلاق الحميدة.

- ووعظًا وتهديداً: لمن لم يعقل أمره ممن غفل وما وعى، أو ممن غلب على عقله الهوى.

- ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[يوسف: ١٠٩]: هذه الحقائق وتغلبوا بسلطان العقل المستنير بالحق والهدى كيد الشيطان الضعيف والهوى السيئ، فمن جاهد وصبر فقد فاز وأفلح، ومن أسلم عقله للشيطان والهوى فقد خاب وخسر، ولا يلومن إلا نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦][٢].

---

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٥٣.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٥٤.

- ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]: فتتدبروا سنن الله في الغابرين. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]: فتؤثرون المتاع الباقي على الفاني.

ثم يصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله، وتمضي فيها سنة الله التي لا تتخلف ولا تحيد(١).

خامسًا: قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]:

مهما اشتدت المحن، وطال عليها الزمن، فلا بد أن يأتي الله بعدها بالفرج، فكل آت قريب والصبح غير بعيد لقد امتدت محنة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أكثر من عشرين سنة ثم جعل الله العاقبة الحميدة الطيبة له فلا يأس من رحمة الله تعالى، ولا قنوط، فالنصر قد يتأخر والفرج قد يتراخى والأمر منوط بمشيئته تعالى وقدرته، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يعجل لعجلة العباد(٢).

١- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠]:

إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل وهم يواجهون الكفر والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل وتكر الأعوام والباطل في قوته وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة، إنها ساعات حرجة والباطل يتنفس ويطعن ويبطش ويغدر(٣). ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تضل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده يشتد الكرب

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٥).
(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٤١).
(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٦).

عليهم ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً:

٢ - ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]:

تلك سنة الله في الدعوات لا بد من الشدائد ولا بد من الكروب حتى لا يبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء النصر من عند الله فينجو الذين يستحقون النّجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المذبين، وينجون من البطش الذي يلطه عليهم المتجبرون، ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمراً ماحقاً لا يصده عنهم ولي ولا نصير[١].

قال المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذه سنة الله في الأمم يرسل إليهم الرسل بالبينات ويؤيدهم بالمعجزات، حتى إذا أعرضوا عن الهداية وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادي التكذيب وتراخي النصر، جاء نصر الله وأخذ المكذبين العذاب بغتة، كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكت عادا قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠].

وفى هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام

---

(١) المصدر نفسه، (٤/ ٢٠٣٦).

الرسل كما قال في سورة القمر: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣] وقد نصر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه روى البخاري بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وعن عائشة: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠] (مخففة) أخرجه ابن مردويه.

ونحوه عن ابن عباس قال: "يئس الرسل أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به، جاءهم نصرنا" ونحوه

– ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ أي فنجي الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم، لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها، هم الذين يستحقون النّجاة دون غيرهم كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ – ١٠].

– ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ أي ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وكذبوا رسله، وما أتوهم به من عند ربهم.

وقد جرت سنة الله أن يبلّغ الرسل أقوامهم ويقيموا عليهم الحجة وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن المهتدون، ويصرّ المعاندون، فينجى الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين.

ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

ثم ختم الله سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كنموذج من قصص المرسلين فيها عبرة لمن يعقل وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل[٢].

سادساً: قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]:

حثّ الله عَزَّوَجَلَّ على الاعتبار والتأمل والاستبصار في القصص القرآني.

١- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١]:

- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ [يوسف: ١١١]: أي قصص الأنبياء عموماً وقصة يوسف خاصة[٣].

- ﴿عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]: والعبرة: العظة والفائدة التي تنتقل من الماضي إلى الحاضر لتفعيله وترشيد المستقبل.

ولاحظ التنكير بـــ ﴿عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١] ليفيد العموم لا المفرد، فهذا جنس لا فرد واحد.

والعبرة مأخوذة من عبر، ومنه العبور والعَبَرات: الدموع التي تعبر من العين إلى الخد. والعبير: الذي يعبر من الزهرة أو العطر إلى الأنف. سميت العبارة هكذا،

---

(١) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٤٦م، (١٣/ ٥٥-٦٥).

(٢) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٧).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٤٦٢.

لأنّه تنقل الفكرة من ذهن إلى ذهن ومن شخص إلى شخص، والعبّارة تنقل الناس في البحر... إلخ

والاعتبار: أمر في غاية الأهمية ووجه ضرورته أن الحياة الإنسانية قصيرة والتجارب التي يحصلها في عمره المحدود محدودة وهو يحتاج إلى تجار كثيرة، فكان لا بد إذا من الاستعانة بتجارب الآخرين، ونقل عبرتهم إلى واقعنا.

وهذا مؤشر على أهمية مدرسة التاريخ، فليس بعاقل من لا يتعلم إلا من تجربته وإن السعيد كما قالوا من اتعظ بغيره. كما يقول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عاقل ... من لا يعي التاريخ في صدره
ومن درى أخبار من قبله ... أضاف أعماراً إلى عمره.

- ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[يوسف: ١١١]: ولكن من يجتني هذه العبرة ويستفيد منها: إنهم أولو الألباب، أصحاب العقول النيرة والقلوب الحية، ولكن غير هؤلاء قد يشهد الآية والحادثة بنفسه ثم تضمحل آثارها في تلك النفس. المهم أن الإنسان مسؤول عن نفسه أن يبقيها صالحة لتلقي موحيات الكون ودروس التاريخ[١].

٢- ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾[يوسف: ١١١]:

أي: ما كان هذا القرآن الذي أنزل فيه القصص حديثاً يفترى ويختلق دون وحي؛ لأن المختلق الخيالي يعرفه الناس ويستطيعون أن يبينوا الفوارق الجوهرية العميقة بين هذا وهذا والحديث المفترى أنى يأتي بتلك التفاصيل ثم يكون مطابقاً للوقائع التاريخية[٢].

---

(١) سورة يوسف، ص ٥٨٧.

(٢) سورة يوسف، ص ٥٨٧.

٣- ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [يوسف: ١١١]:

أي أنه تصديق الذي بين يديه من الكتب المنزلة من السماء ومن كل الرسل المعصومين الذين أوحى الله إليهم، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]؛ فهذا القرآن الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالحق، وهو الصدق في إخباره عن الله، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر، وعن جميع الغيوب السابقة واللاحقة، العدل في أحكامه، فلا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن الشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وأيضـًا؛ فإن هذا القرآن صدق بجميع ما جاءت به الرسل وهيمن عليها، واتفق منها على الأصول العظيمة، والشرائع الكبار العامة الشاملة. وأيضـًا، فإن الرسل أخبروا وبشروا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصدق مخبرها وحققت بشارتها(١).

٤- ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يوسف: ١١١]:

إنه تفصيل لكل شيء، وهذا شامل بجميع ما يحتاجه التخلق في عقائدهم، وأخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفي دينهم ودنياهم فقد شرح الله به، وفصل التوحيد، والرسالة والجزاء وجميع العقائد الصادقة الصحيحة شرحـًا وتفصيلا لا يساويه في ذلك أي كتاب كان. وفصل فيه الحث على حقائق الإيمان وعلى التخلق بالأخلاق الجميلة والتنزه من الأخلاق الرذيلة، وبين الطريق والأسباب التي يحصل بها حسنها والتي يدفع به سيئها.

---

(١) فوائد من قصة يوسف، ص ٩٢-٩٤.

كما فصل الشرائع الظاهرة والأعمال الصالحة، والحلال والحرام والخير والشر. وفصل فيه جميع المقاصد والغايات النافعة، الدينية والدنيوية. وفصل ما يتوصل به إليها؛ فصل فيه البراهين العقلية، كما فصل فيه البراهين السمعية.

٥- ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]:

إنّه هدى ورحمة لقوم يؤمنون؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] أي: لكل حالة قويمة وطريقة مستقيمة، يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي لمصالح الدين كلها، ومنافع الدنيا التي بها يقوم الدين، وتتم السعادة.

والفرق بين الهدى والرحمة: أن الهدى هو الوسائل والطرق الموصلة إلى خيرات الدنيا والآخرة والرحمة من نفس الخيرات والثواب العاجل والآجل. فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة على اتباع هذا القرآن علماً وعملاً. وحض الله المؤمنين بالهدى والرحمة؛ لأنهم هم المنتفعون على الحقيقة، وبإيمانهم اهتدوا وزادهم الله هدى ورحمة؛ فهذا القرآن بصائر للناس كلهم بصّرهم بجميع ما يحتاجون إليه، فلم يبق خير إلا دلهم ولا شر إلا حذّرهم منه، فقامت به الحجة على كل أحد ولكنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون[١].

✧ سابعـًا: جذور بني إسرائيل التاريخية:

ينتسب بنو إسرائيل إلى إسرائيل نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقد ذكر القرآن الكريم ليعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اسمين: يعقوب، وإسرائيل.

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، السعدي، ص ٩٢-٩٤.

أما يعقوب فهو اسم أعجمي، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وكونه أعجمياً يدعونا ألا نبحث له عن معنى في العربية ولا نلتفت إلى الإسرائيليات في تعليل تسميته بيعقوب[1].

١- مواضع ورود اسم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ **في القرآن الكريم:**

ورد ذكر (يعقوب) خمس عشرة مرة في القرآن، فقد ورد في السور المكية الآتية:

- في سورة مريم: ذكر مرتين، مرة في الإخبار عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومرة في دعاء زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ طالباً من ربه الولد.

- وفي سورة هود: ورد مرة في الإخبار عن بشارة سارة بإسحاق، ثم يعقوب.

- وفي سورة الأنبياء: حيث ذكر مرة في الإخبار عن بشارة إبراهيم بإسحاق ثم يعقوب.

- وفي سورة العنكبوت: ورد مرة في الإخبار عن جعل الله النبوة في ذرية إبراهيم وحفيده يعقوب.

- وفي سورة (ص) ذكر مرة في جمع الكرام الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وأما السور المدنية التي ذكر فيها، فهي:

- سورة البقرة: وذكر فيها أربع مرات، وذلك في معرض الحديث عن إسلامه ووصيته لأولاده وهو على فراش الموت بالإسلام، ودعوة ذريته إلى الدخول

---

(١) القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، (٢/ ٥٠).

في الإسلام والإيمان بالكتب المنزلة، وبجميع الرسل المبعوثين، ويلزم من هذا اتباع اليهود لرسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخولهم في دينه.

- سورة آل عمران: حيث ذكر فيها مرة واحدة في معرض دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٢- مواضع ذكر اسمه الثاني (إسرائيل) وقد ذكر في القرآن الكريم مرتين:

الأولى: في سورة آل عمران، عند الحديث عمّا حرمه يعقوب على نفسه وما حرمه الله على بني إسرائيل.

الثانية: في سورة مريم، عند الحديث عن شجرة النبوة المتفرعة عن إبراهيم وعن يعقوب عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ[(١)].

والذي حرمه إسرائيل هن نفسه جاء في قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. وقد أنزل الله هذه الآية في مجادلة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الكتاب وبالذات اليهود بشأن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما حرمه عن نفسه تقرباً إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وتكذب هذه الآية وما بعدها اليهود في مزاعمهم وأكاذيبهم حول يعقوب، فقد دوّن أحبار اليهود في سفر التكوين في العهد القديم الأخبار، ونسجوا الأكاذيب حول يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، زعموا فيها أن يعقوب قد صارع الرب ليلاً وأنه قد صرعه عدداً من المرات، وأن الرب المصروع المغلوب باركه وبارك نبيه

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥١).

وجعل الأرض المقدسة لهم إلى قيام الساعة[١]. وهذه من الأكاذيب والافتراءات في حق الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حق نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إن الآية الكريمة: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، تنص على الاسم الثاني ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعقوب هو إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأولاده وذريته هم (بنو إسرائيل) وكان إسرائيل موجوداً قبل إنزال التوراة؛ لأن الله أنزل التوراة على نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإسرائيل وجد قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعشرات السنين، وبما أن إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي، فإن ما التزم به قد أصبح شرعاً ملزماً له، وقد ألزم الله به ذريته وأبناءه وجعله تشريعاً لهم.

ويخبرنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح أن أحب الطعام لإسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لحوم الإبل، فلما مرض يوماً مرضاً شديداً بعرق النسا واشتد به سقمه وطال مرضه، نذر نذراً لله، لئن شفاه الله وعافاه، ليتقربن إلى الله بترك أحب الطعام إليه، والامتناع عن أكله[٢].

وبما أن أحب الطعام إليه هو لحوم الإبل، فقد وفّى بنذره، بعدما شفاه الله، وامتنع عن تناول لحوم الإبل شكراً لله الذي عافاه من مرضه. وهذا تناسق لطيف مع الآية السابقة من سورة آل عمران التي تدعونا إلى التصدق بأحب شيء إلينا، لننال البر والأجر عند الله[٣].

---

(١) موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢، ص ٣٥.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ١٥٨).

(٣) موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله، ص ٣٦.

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢]:

فإذا كان المسلم الصالح لا ينال البر حتى ينفق في سبيل الله أحب شيء إليه، تقربا إلى الله، وبما أن أحب شيء إلى نبي الله إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو لحوم الإبل فقد امتنع عنها وتقرب بذلك الامتناع إلى الله، وجعله في سبيل الله لينال البر عند الله، ويحظى بالدرجات الرفيعة.

وقد ألزم الله بعد ذلك أبناء إسرائيل بما امتنع عنه أبوهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصار هذا تشريعـًا من تشريعاتهم، وحرم عليهم بذلك أكل لحوم الإبل[١].

٣- شجرة النبوة الإبراهيمية:

تبين آيات القرآن الكريم: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء وأبو هذه الأمة وأن شجرة النبوة منه، وأن الأنبياء المذكورين بعده في القرآن، والمبعوثين، بعد زمانه، وهم من نسله وذريته[٢].

وبهذا السياق ورد اسم إسرائيل - يعقوب - للمرة الثانية في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨].

ذكرت الآية أربعة أنبياء: آدم، ونوحـًا، وإبراهيم، وإسرائيل. ذكر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره أبا البشر، وذكر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره أبا البشرية الثاني، بعد الطوفان.

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٩).

(٢) المصدر نفسه، (٢/ ٥٩).

وذكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأن النبوة انتهت إليه وشجرة النبوة استقرت عنده. وقد تفرع من شجرة النبوة فرعان:

أ. الفرع الإسماعيلي: المتمثل في إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهذا الفرع ختم بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سيد ولد آدم، بل أفضل المخلوقين جميعًا وأحبهم إلى الله.

ب. الفرع الإسرائيلي: المتمثل بإسرائيل حفيد إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وهو أبو بني إسرائيل وأصل أسباطهم وكل أنبيائهم من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابن مريم من ذرية يعقوب من جهة الأم؛ لأنّه لا أب له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولهذا الاعتبار ورد ذكر إسرائيل معطوفًا على إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ في الآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [مريم: ٥٨]. وقد صرح القرآن بأن الله جعل النبوة من ذرية كل من إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦ - ٢٧].

فالله وهب لإبراهيم كلا من إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وكان ذلك بعد أن هاجر إلى الله، وغادر العراق إلى الأرض المقدسة[١].

٤- أنبياء الفرع الإسرائيلي:

جعل الله النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم وحفيد يعقوب عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، والراجح أن ضمير التثنية في قوله: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ [الحديد: ٢٦] يعود على إبراهيم ويعقوب،

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦٠).

ووجه الترجيح في ذلك ما سبق أن قررناه من تفرع فرعي النبوة من الشجرة الإبراهيمية: الفرع الإسماعيلي، والفرع الإسرائيلي.

لقد استمرت النبوة في الفرع الإسرائيلي عدداً من القرون حيث بعث الله أنبياء كثير إلى بني إسرائيل، وأولهم نبي الله إسرائيل نفسه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي كان نبياً لأبنائه، ثم ابنه نبي الله يوسف، ثم الأنبياء الآخرون من بني إسرائيل، مثل موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وآخرهم هو عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

٥- ختم النبوة بالفرع الإسماعيلي:

ختم الله النبوة في الفرع الإسرائيلي بعيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، الذي خلقه الله خلقاً معجزاً، دون أب وأظهر على يديه كثيراً من المعجزات.

وشاء الله أن يختم النبوة كلها بنبي من الفرع الإسماعيلي وهو أفضل الخلق جميعاً محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

٦- بداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب:

يبدأ تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصلتهم بإبراهيم كصلتهم بإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، أليس إسماعيل عماً ليعقوب؟ أليس هو شقيق أبيه إسحاق؟ فلماذا لا يجعلون تاريخه تاريخاً لهم مع أنه عم لأبيهم؟

لو كانوا (بنو إبراهيم) لبدأ تاريخهم من تاريخ إبراهيم ولو كانوا بني إسحاق لبدأ تاريخيهم من تاريخ إسحاق، ولأنهم (بنو إسرائيل) أي: بنو يعقوب، فإن

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦١).

تاريخهم يبدأ من تاريخ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولهم أن يتوقفوا عند حياته وحياة أبنائه الاثنا عشر، وأن يعتبروا ذلك بداية لوجودهم وحياتهم وتاريخهم، هذا لمن يثبت أصله ونسبه ليعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[١].

٧- من هم الأسباط؟

وردت كلمة أسباط في القرآن الكريم خمس مرات: أربعة منها في سياق تعدد أسماء بعض الأنبياء ونصت هذه الآيات على وجوب الإيمان بمن سمتهم الأسباط وهم أنبياء كرام من بني إسرائيل ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

- كما وردت كلمة الأسباط في سورة آل عمران، وفي السياق نفسه، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

- كما وردت كلمة الأسباط في سورة النّساء في السياق نفسه أيضاً: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣].

---

(١) المصدر نفسه، (٢/ ٦٣).

إن الأسباط مذكورون في هذه الآيات الأربعة كلها في إطار ذكر الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا الذكر جعل الكثيرين يعدّون الأسباط أبناء يعقوب الاثني عشر، فهل هذا صحيح؟ وهل إخوة يوسف أنبياء؟

إن الذي يعدون إخوة يوسف أنبياء يجعلون معنى الأسباط: الأبناء. فهم أسباط يعقوب، أي أبناؤه، وهم أبناء من صلبه، فهل يصح أن نطلق في اللغة على الأنباء أسباطـًا؟

قال الإمـام الراغب في معنى (السبط): أصل السبط انبساط في سهولة. والسبط: ولد كأنه امتداد الفروع. وقوله تعالى: ﴿الأسباط﴾ أي: قبائل كل قبيلة من نسل رجل[1].

وقال السمين الحلبي: الأسباط جمع سبط، وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب. وقال الأزهري: الأسباط في ولد إسحاق، والقبائل في ولد إسماعيل، فعلوا ذلك تفرقة بين الأولاد الأخوين، أعني إسحاق وإسماعيل. واشتقاق السبط في الامتداد والتفريع، لأن السبط ولد الولد، فكأنما النسب امتد وانبسط وتفرع. وقيل: اشتقاق الأسباط من السبط، وهو الشجرة التي أصلها واحد، وأعضاؤها كثيرة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[الأعراف: ١٦٠].

فترجم الأسباط بالأمم، فكل سبط أمة، وفي الحديث: الحسن والحسين سبطا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال المبرد: سألت ابن الأعرابي عن الأسباط، فقال: هم خاصة الولد أي: هم أولاد الولد. إذن السبط في اللغة: هو الشيء المنبسط الممتد المتفرع عن الأصل، وهو يطلق على ولد الولد وليس الولد،

(١) مفردات غريب القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ص ٣٩٤.

ومعلوم عندنا أن الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هما سبطا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهما ابنان لابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وإن الأسباط المذكورين في القرآن ليسوا أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل ذريته المتفرعة من أبنائه[1].

٨- أسباط بني إسرائيل هم قبائلهم:

والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، فهم بمعنى الأمم، كما ورد في صريح القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[الأعراف: ١٦٠].

- ﴿أُمَمًا﴾[الأعراف: ١٦٠] في الآية منصوبة، لأنها بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾[الأعراف: ١٦٠] أي: قطعنا بني إسرائيل اثنتي عشرة أمة، ولهذا فجر الله لهم الحجر اثنتي عشرة عيناً على عدد قبائلهم وأسباطهم، وإذا كانت (الأسباط) بمعنى قبائل بني إسرائيل، فإن الأسباط ليسوا أنبياء وإنما ذكرهم الله ضمن مجموعة من الأنبياء على تقدير حذف مضاف. والتقدير: أنبياء أسباط بني إسرائيل، أي: آمنا بما أنزل على الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأن الله أخبرنا بأسمائهم أنهم أنبياء، وآمن بالأنبياء الآخرين الذي بعثهم الله إلى أسباط وقبائل بني إسرائيل، ولم يخبرنا الله عن أسمائهم.

لقد بعث الله إلى أسباط بني إسرائيل أنبياء كثيرين ولم يخبرنا إلا عن أسماء قليل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر: ٧٨].

٩- الراجح عدم نبوة إخوة يوسف:

رأى بعض المفسرين أن المراد، بالأسباط في الآيات الأربع الأولى إخوة يوسف الأحد عشر، فبعد أن تابوا عن ذنوبهم واعتذروا إلى أخيهم يوسف عن

(١) موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله عدو المستكبرين وقائد المستضعفين، ص ٤١.

فعلتهم الشنيعة به، وقال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾[يوسف: ٩٢]، وبعد أن استغفر لهم أبوهم يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أنعم عليهم بالنبوّة جميعـًا ونالوا هذه الدرجة لذا فهم المعنيون بكلمة الأسباط. وهذا الرأي يفتقر إلى الأدلة القوية الصحيحة التي تؤيده وتقرره، بل إن هناك أدلة قوية ترده وتدحضه، وأسوق هنا بعضها:

– إن كلمة أسباط لا تطلق على الولد، بل على ولد الولد فما دون، قال صاحب كتاب الدر المصون: الأسباط جمع سبط، وهم في ولد يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل، واشتقاقهم من السبط، وهو التتابع، سموا بذلك لأنهم أمة متتابعون. وقيل للحسنين: سبطا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لانتشار ذريتهم. وقال عن ذرية إسرائيل: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾[الأعراف: ١٦٠].

– لم يذكر مؤمن آل فرعون من الأنبياء الذين دعوا المصريين إلى التوحيد غيرَ يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فقد قال للمصريين: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر: ٣٤]، ولم يقل جاءكم يوسف وإخوته.

إن إخوة يوسف قد هموا بقتله وطرحوا في غيابة الجب، وهذا عمل لا يفعله من يُعد لدرجة النبوة.

– إن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال لهم وبعد سنين طويلة من فعلتهم به: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾[يوسف: ٧٧].

– إن كلمة أسباط لم تطلق على ذرية يعقوب، إلا في سيناء بعد الخروج ولم تطلق عليهم أبداً في مصر طيلة ما يزيد عن مائتي سنة، وهذا يفيد أن معنى كلمة الأسباط هو القبائل التي تكونت من أبناء وذرية كل من أولاد يعقوب، لا أسماء آبائهم[١].

(١) كلام اليهود مجموعة مقالات في اليهود، محمد علي دولة، دار القلم، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ٢٤٥.

إن الذي أراه - وهو ما صح عندي - أن كلمة (الأسباط) التي وردت في القرآن الكريم في سياق تعداد بعض الأنبياء الكرام، إنما تعني الأنبياء الذين بعثوا من ذرية يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طيلة تاريخ بني إسرائيل في فلسطين وليس المراد بهذا اللفظ أولاد يعقوب الأحد عشر كما يرى بعض المفسرين(١).

وكل ما تقوله عن إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: كانوا في أفعالهم الخاطئة التي سجلتها لهم آيات سورة يوسف عصاة مخطئين ارتكبوا تلك الذنوب والآثام، وبعد ذلك شعروا بتأنيب الضمير، فتابوا إلى الله وأنابوا له، واستغفروا من ذنوبهم، بل طلبوا من أخيهم يوسف أن يستغفر الله لهم، كما طلبوا هذا من أبيهم، وبعد ذلك تابوا وأنابوا، واستقاموا وأصلحوا، فأقصى ما وصلوا إليه أن يكونوا مؤمنين صالحين، وعابدين محسنين وبهذا ختموا حياتهم(٢).

١٠- حياة بني إسرائيل في مصر:

بدأت قصة بني إسرائيل في مصر بعد مجيء يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليها ودعوة والده وإخوته للمقام فيها بعدما تمكن من الحكم وأصبح الرجل الثاني فيها. وقصت علينا سورة يوسف الأحداث العجيبة والمثيرة التي جرت ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منذ أن كان طفلاً صغيراً يكرهه إخوته الكبار ويغارون منه إلى أن صار رجلاً عظيما محفوفاً برعاية الله وكرمه(٣).

تفضل الله عليه، فنجاه من المكايد المتتابعة التي لحقته، وعلمه من تأويل الأحاديث ما ارتفع به شأنه بين الناس وآتاه من الملك في أرض مصر، وكان من

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.
(٢) القصص القرآني، (٢/ ٢٥٤).
(٣) موسى كليم الله، ص ٦٣.

أجل نعم الله عليه أن اجتباه نبيـًا ورسولاً وأتم نعمته عليه، كما أتمها على آبائه الكرام: يعقوب وإسحاق وإبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

تولى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الوزارة في مصر وساس تموين البلاد في مجاعة شملت مصر وأرض كنعان ووضع لذلك خطته البارعة التي ذكرها القرآن الكريم وأثنى عليها، فأنقذ البلاد من تهلكة كانت معرضة لها لا محالة. وخلال تلك الأزمنة دخل إخوته يلتمسون منه قوتـًا لأهليهم وتكرر دخولهم عليه، وهو يعرفهم وهم لا يعرفونه حتى كشف لهم عن نفسه – وقد مر معنا تفاصيل ذلك – ثم طلب من إخوته الإتيان بجميع آل يعقوب إلى مصر.

وقد هاجر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه من الأبناء وزوجاتهم والأحفاد إلى مصر بدعوة من يوسف وذلك في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وكان عمر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مئة وثلاثين سنة، وقد استقبله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استقبالاً حافلاً ثم استقبله ملك مصر وكان من الهكسوس، ورحب الملك بوالد يوسف وإخوته أجمل ترحيب وقال ليوسف: أبوك وإخوتك قد قدموا إليك فهذه أرض مصر أمامك، فأقم أباك وإخوتك في أجود أرضها[1].

١١ – وصية يعقوب لبنيه حين حضره الموت:

عاش يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أرض مصر معززاً مكرمـًا سبع عشرة سنة حتى صار مجموع عمره مئة وسبعـًا وأربعين سنة كما تذكر بعض كتب التاريخ، ثم حضرته الوفاة وكان قد أوصى أبناءه بهذه الوصية التي أخبر القرآن الكريم عنها في اللحظات الأخيرة من حياته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكانت في مصر، وبين أولاده، قال تعالى:

---

(١) ينو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، دار القلم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ٢٢٧.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٣].

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي الكريم داعية إلى الله في كل لحظات حياته الأخيرة وإن يعقوب النبي الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يوصي أولاده بالإسلام وعبادة الله، وقد جمعهم عندما حضره الموت ليذكرهم بهذا الحقيقة ويوصيهم أن يلتزموها، ويأخذ عليهم العهد ألا يخالفوها، وهذا ما يهم الناظر في التاريخ أن يعرفه وما يمكن أن يستفيد منه من حياة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

وصى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاده وهو يحتضر بعبادة إلهه وإله آبائه: إسحاق وإسماعيل وإبراهيم، فهو أوصاهم بالإيمان بالله وحده، والابتعاد عن عبادة غيره سبحانه، وهذا هو قوام الدين المستقيم؛ وهذه الوصية هي آخر كلامه الذي ختم به حياته، وكانت وصيته هي وصية الأنبياء والمرسلين جميعـًا من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لأبنائهم وأهليهم وأقوامهم، فجميعهم صلوات الله وسلامه عليهم عاشوا وماتوا وهم يدعو إلى عبادة الله وحده والتمسك بدينه والابتعاد عن الشرك والمعاصي والآثام ويعقوب عاش ومات وهو يخاطب قومه وأمته مثلما خاطب محمد خاتم المرسلين أمته والناس: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦].

---

(١) الشخصية اليهودية، د. صلاح الدين الخالدي، دار القلم سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ٦٣.

إنّ دين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هو دين الإسلام، وهو دين الأنبياء والمرسلين جميعـًا، فكل نبي جاء بالإسلام، وطلب من قومه الدخول فيه، وإحسان العبادة لله عَزَّ وَجَلَّ والإسلام دين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ودين كل رسول، وليس هو الإسلام بالمعنى الخاص الذي يطلق على دين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي نسخ الله به الرسالات والشرائع وهو الخضوع والاستسلام لله بإخضاع الآخرين وتعبيدهم لله[1].

لقد غادر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الحياة وهو مطمئن على بنيه، بعد إجابتهم على سؤاله الذي شغل باله وهو على فراش الموت، يا أبنائي، ما تعبدون من بعدي؟ وأي دين تلتزمون من بعدي؟

فكانت الإجابة: نعبد رب العالمين وحده، فهو ربنا وخالقنا وإلهانا؛ لأن إلهك وإله الأنبياء من قبل: جدك إبراهيم وعمك إسماعيل، ووالدكم إسحاق. إنه إله واحد لا شريك له، ونحن مسلمون لله، خاضعون لله، داخلون في دين الله، ملتزمون بطاعة الله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ولقد جاءت هذه الآيات في بيان حقيقة دين إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في معرض نقاش اليهود والنصارى ونفى صلتهم بإبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والخطاب في الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ ...﴾ [البقرة: ١٣٣]، لهؤلاء اليهود والنصارى، يقول الله لهم: لماذا تزعمون أن يعقوب كان يهوديـًا أو نصرانيـًا؟ وهل كنتم حاضرين وشاهدين وسامعين آخر كلام قاله يعقوب قبل أن يموت؟

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦٩).

إنكم لم تكونوا معه هناك؛ لأنكم لم تكونوا مولودين يومها، فقد أوصى بنيه بالإسلام دينـاً، وقد قبل الأبناء وصية الأب وقالوا: نعبد الله وحده إلهـاً واحداً ونحن له مسلمون[١].

١٢- وفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

عاش بنو إسرائيل في مصر محفوفين بالتكرمة، وصنوف الامتيازات، وطاب العيش لهم في أرض الكنانة، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، يحظى باحترام كبير في مصر، وذكر الله لنا في كتابه العزيز دعاء ختامياً ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَٰخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه وأن يلحقه بالصالحين بين يديه[٢].

وقد أشار القرآن الكريم إلى وفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على لسان مؤمن آل فرعون، عندما خاطب قومه ودعاهم إلى التوحيد فجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

عاش نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مصر داعياً إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بالعبادة في سجنه وفي قصره ووظف منصبة الكبير توظيفاً دعوياً، وقدم الآيات البينات على نبوته، والبراهين على دعوته فآمن به من هداه الله إلا قليلاً من الناس:

---

(١) القصص القرآني، ص (٢/ ٧٠).

(٢) موسى كليم الله، ص ٦٩.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾[غافر: ٣٤]، وعبر المصريون عن معارضتهم لدعوة يوسف بعد وفاته، فما أن توفي عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى قالوا: لن يبعث الله لنا من بعده رسولاً، وكأنهم ارتاحوا لأنهم تخلصوا منه ومن دعوته(١).

ولعل القرآن الكريم عبر عن موت يوسف بالهلاك لأجل عدم استجابة أهل لدعوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

ولا تتحدث النصوص القرآنية والحديثية عن بني إسرائيل بعد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا تشير إلى ما جرى لهم في هذه الفترة حتى قرب عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا تبين كم بقي بنو إسرائيل في مصر في تكريم وإعزاز، ولا تحدد الفترة التي بدأ فيها اضطهاد الفراعنة لهم وتعذيبهم(٢).

وإن كان القرآن الكريم قد بيَّن سبب هذا التعذيب، وهو العلو والاستنكار الفرعوني. ونختم كلامنا عن وفاة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بما قاله الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء والمعراج؛ حيث روى البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال في حديث المعراج الطويل: «فأتينا السماء الثالثة، قيل: من هذا؟ قيل: هذا جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت يوسف، فسلمت عليه فقال مرحباً بك من أخ ونبي».

لقد وضع الله عَزَّوَجَلَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الثالثة لاستقبال محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عروجه إلى السماوات العلا، وأما قبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأرض مبهم غير محدد، وجسمه فيه لا يبلى، لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء(٣).

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥٥).

(٢) الشخصية اليهودية لليهودي، ص ٦٦.

(٣) القصص القرآني، (٢/ ٢٥٦).

بقي جثمان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مصر، وتذكر بعض كتب التاريخ بأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل يرعى إخوته وينظر في شؤونهم حتى دنا أجله، فأوصاهم بما وصى به يعقوب بنيه، كما أوصى بنقل جثمانه الطاهر معهم إذا عادوا إلى كنعان، وذلك ليدفن مع آبائه هناك (صلوات الله وسلامه عليهم).

واختلفت الروايات في تقدير عمره عَلَيْهِ السَّلَامُ ما بين ١١٠ - ١٢٠ عامـًا، فتكون مدة حياته في مصر بعد وفاة والده يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ما بين ٦٠- ٧٠ عامـًا، ولما توفي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإخوته بأرض مصر بقي أعقابهم وكثروا فيها حتى زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فخرج بهم إلى سيناء ونجاهم الله من فرعون وجنده الذي أغرقوا فأدخلوا ناراً[١]. وقد فصلت الحديث عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبني إسرائيل في زمنه في كتابي: "موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله عدو المستكبرين وقائد المستضعفين". وقد أخرج جثمان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على يد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمن حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبي أعرابيان. أخذ علينا ميثاقا من الله ألا نخرج من مصر[٢].

✧ ثامنـًا: حقيقة النبوة وأمور تفرد بها الأنبياء:

إنّ النبوة واسطة بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه وسفارة بين الملك وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم تَبَارَكَ وَتَعَالَى بخلقه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الآخر، فهي نعمة مهداة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى

---

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٥٦).

(٢) حديث طويل أخرجه الحاكم، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين حدثنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ إملاء في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربع مائة: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، وذكر مناقبهم وأخبارهم مع الأمم على لسان سيدنا المصطفى صلى الله عليه ذكر يوسف بن يعقوب صلوات الله عليهما ،ح رقم ٤٠٨٨.

إلى عبيده. وفضل إلهي يتفضل به عليهم، وهذا في حق المرسل إليهم. وأما في حق المرسل نفسه، فهي امتنان من الله يمن بها عليه واصطفاء من الرب له من بين سائر الناس وهبة ربانية يختصه الله بها من بين الخلق كلهم. ولا تنال النبوة بعلم ولا رياضة ولا تدرك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس كما يظن من في عقله بلادة، وإنما هي محض فضل إلهي واصطفاء رباني، فهو جَلَّ وَعَلَا كما أخبر عن نفسه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فالنبوة لا تأتي باختيار النبي ولا تنال بطلبه، ولذلك لما قال المشركون: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فأجابهم الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ فالله تعالى هو الذي يقسم ذلك ويتفضل به على من يشاء من الناس ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه، ما كانت الخِيَرة لأحد غيره، وما كان الاجتباء لأحد سواه[١].

وإنّ الإيمان بالنبوّة هو الطريق الموصل إلى معرفة الله ومحبته والمسلك المفضي إلى رضوان الله وجنته والسبيل المؤدي إلى النّجاة من عذاب الله والفوز بمغفرته[٢]. إذ يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والإيمان بالنبوّة أصل النّجاة والسعادة، فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب[٣].

وإن حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوّة أشد من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنفسونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه؛ إذ من فقد

---

(١) كتاب النبوات، ابن تيمية، (١/ ٢٠).

(٢) كتاب النبوات، (١/ ٣٣٧).

(٣) المصدر السابق، (١/ ٤٤٧).

أحد هؤلاء خسر الدنيا، أمّا من عدم الإقرار بالنبوّة فخسارته أشد وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة - عياذاً بالله تعالى- ولا شك أن معرفة الله، والإيمان به وعبادته، ومعرفة رسوله وطاعته يحتاجه كل مخلوق مكلف، ومن حكمة الله تعالى أنه كلما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنه جَلَّ وَعَلَا يجعله سهلاً ميسراً غير ذي عوج[١].

ولحاجة الناس إلى معرفة النبوة، والإقرار بالرسول، فقد وضحها المولى عَزَّوَجَلَّ في كتابه توضيحا أعظم من أن يشرح في هذا المقال، إذ الشرح يطول، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتقرير النبوات من القرآن الكريم أعظم من أن يشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كل خير وجماع كل هدى.

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي الكريم قام بواجب النبوة وتبليغ الرسالة على نهج إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من صفوة الخلق الذين أكرمهم الله بالنبوّة، وقام بدعوة التوحيد، وإفراد العبادة خير قيام، ونفع الله به الناس في عصره على مستويات عدّة في العقائد والأخلاق والاقتصاد وإدارة الأزمات. وكان قدوة مميزة كمّله الله بالأخلاق الفاضلة وعصمه من الشبهات والشهوات النازلة وساهم في تطهير النفوس وتزكيتها وتطهيرها من كل ما يضرها. وظهر أثره على كل من احتك به، من امرأة العزيز وصاحبيه في السجن والملك وإخوته...إلخ.

ومن الأمور التي تميز بها الأنبياء:

١- الوحي.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، (٩/ ٦٦).

٢- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

٣- الأنبياء لا يورثون.

٤- تخييرهم عند الموت.

٥- لا تأكل الأرض أجسادهم.

٦- العصمة.

وقد ذكرت تفاصيل ذلك بالأدلة وقضايا تتعلق بهذا الموضوع كالفرق بين النبي والرسول والنبوة والرسالة، وحقيقة النبوة والحكمة من بعث الرسل، ووظائف الأنبياء والمرسلين، وأهمية الإيمان بالأنبياء والمرسلين، وأولى العزم منهم في كتبي: (نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية) و (إبراهيم خليل الله) و (وموسى كليم الله) فمن أراد التوسع فليرجع إليها[١].

✧ تاسعًا: أهم صفات وأخلاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

بينت قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الكثير من صفاته وأخلاقه في ثنايا القصة، والتي ذكرتها في محلها في هذا الكتاب، فقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات عظيمة وأخلاق كريمة منها الإخلاص والعلم والحكمة والإحسان والعفة والصبر والفطنة والحلم وكظم الغيظ والحفظ والأمانة؛ والتواضع والكرم والشجاعة والعدل والوفاء، والفصاحة وغير ذلك من الصفات التي ذكرتها في شرحي للآيات المتعلقة بقصته العجيبة.

وقد ذكر القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ما قاله علماء الأخلاق والحكماء في مقدمة رائعة وتأصيل حكمة ورؤية نافذة في صفات المصلحين والراشدين وفي

---

(١) نوح والطوفان العظيم، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، ص ٧٥ إلى ٩٨.

أخلاقهم المعهودة ثم قال: وسيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة ونحن لا قبل لنا بالنبوّة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة، هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة، لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيها للمتعلمين - العاشقين للفضائل- على نفائس الكتاب العظيم، وليعلموا أن تلك القصص قد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب.

أهم شروط الحكام في رئيس المدينة الفاضلة:

١- العفة عن الشهوات، ليسقط نفسه وتتوافر قوته النفسية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٢- الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

٣- وضع اللين في موضعه والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩].

٤- ثقته بنفسه: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٥- قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

٦- جودة الصورة والقوة المخيلة، حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

٧- استعداده للعلم وحبه له وتمكنه منه: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

٨- شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ٣٩] وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما فالأول، بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]. وشهدا له بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

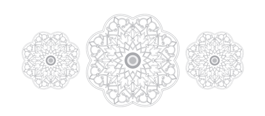
٩- العفو مع المقدرة: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

١٠- إكرام العشيرة: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

١١- قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤].

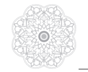
١٢- حسن التدبير: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، ثم تأمل في اقتدار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على سياسة الملك وكيف جذب إليه القلوب بالإحسان، وقال: ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع، والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم،

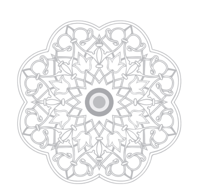
كما عليه جميع الأمم الشريفة الحية، من الرفق بالأمة المحكومة لهم، فيسوسونهم بدينهم وعاداتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء، مما يناسب حكم سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك أنه أمر اتباعه أن يسألوهم: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]، فكانت شريعة النبي يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع، فعاملهم بما هو عليه ولذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[يوسف: ٧٦]؛ امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم. وهذه - وإن كانت مسألة بسيطة في الظاهر - هي أم السياسة ورأس علوم العمران وأول ما يوصي به السواس والعقلاء[١]. وهذه بعض الصفات والأخلاق الكريمة التي لخصتها من عالم التفسير رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمال الدين القاسمي.



(١) محاسن التأويل، (٩/ ٣٠٢-٣١٤).







الخلاصة

بعد الانتهاء من عرض قصة النبي الوزير يوسف الصّديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **من بدايتها إلى نهايتها كما جاءت في كتاب الله العزيز، وبعد الوقوف على أهم التفاسير والمصادر التي تناولت دراسة وتفسير سورة يوسف، ووقفت على أهم دروسها وعِبرها وفوائدها، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:**

١. قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي القصّة الوحيدة التي جاءت في مكان واحد (سورة يوسف)، ولم تتكرر في مواضع أخرى. ولو قارنتها مع قصة موسى كليم الله أو قصة إبراهيم خليل الرحمن أو غيرها لوجدت أن تلك القصص تحتمل التوزيع والتقطيع على مشاهد متعددة؛ لأن كل مشهد هو وحدة كاملة مثل موسى والخضر، وإبراهيم وحواره مع عبدة النجوم والكواكب .... إلخ.

٢. سورة يوسف إحدى السور المكيّة الّتي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردتْ الحديث عن قصّة نبيّ الله يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر، وفي السجن، ومن تآمر النّسوة، حتّى نجّاه الله من ذلك الضيق.

٣. سورة يوسف هي السّورة الكريمة التي أنزلها الله بأسلوب فذّ وبديع في ألفاظها ومعانيها، وتعابيرها وأدائها، بل إنها تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري برقّتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن

كانت من السور المكية الّتي تحمل في الغالب طابع الإنذار، إلّا إنّها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريّة نديّة في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جوّ الأنس والرحمة والرأفة والحنان، وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلّا استراح إليها».

٤. اجتمع ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من عراقة النسب الشيء العظيم؛ الكرام أبناء الكرام، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٥. ذُكر اسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم في (٢٦) آية، ومنها (٢٤) آية في سورة يوسف، وآية واحدة في سورة الأنعام، وآية واحدة في سورة غافر.

٦. معنى (يوسف) عَلَم لا يحتاج إلى تعريف؛ لأنّه علامة تدلّ على الطّريق، وهو معلّم للخير، ويدلّ على الصّراط المستقيم، إمام وقدوة، ومعلم، ومنذر يُستدل به، فهو عنوان قائم للنّاس على مرّ الزمن.

٧. يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام فهو من أشرف الناس نسباً وذلك أنه نبي وأبوه نبي وجده نبي وجد أبيه نبي، فهو من سلالة أنبياء.

٨. افتتح الله تعالى سورة يوسف بالحروف المقطعة، وفي هذا دلالة إعجازية لمعاني ومدلولات الذكر الحكيم، وهذا هو الواقع في تسع وعشرون سورة ذُكرت في أولها الحروف المقطعة؛ ﴿الٓر﴾[يوسف: ١]: تشير إلى التحدي، وبأن القرآن الكريم مكون من الحروف التي يتكلم بها العرب، لكنه معجز، فهو من جنس كلامهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله؛ لأنّه فوق طاقتهم. وستبقى حقيقة معنى هذه الأحرف المقطعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٩. هزّت سورة يوسف المشاعر والعواطف وحرّكت الضمائر، إذ تجول بنا في عالم الحياة الإنسانيّة بحوادثها ووقائعها ومشاعرها وعواطفها وأفكارها وعقائدها. وإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقصُّ فيها مسيرة حياة الإنسان؛ إنّها قطعة من الحياة بعروقها النابضة، ومشاعرها المتأججة، ونوازع الخير والشرّ فيها.

١٠. تعرضت قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للتشويه من قبل الروايات الإسرائيلية والتي أوردها بعض المفسرين والرواة الذين تأثروا بالأساطير الملفقة والموضوعة والمدسوسة والخطيرة المناقضة للشرع في قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وما نسب له في الهم وروايات البرهان الذي رآه فقد كانت اعتداء صارخـًا على عصمته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ولقد كان العلامة الـرّازي في تفسيره من خير المدافعين عن النبيّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ دفع عنه هذه التهمة الظالمة الّتي لا تليق بكمال الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الّذين اختارهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واصطفاهم ليكونوا الأسوة الحسنة للناس.

١١. قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تخط في الحوادث، وتبلغ الغايات المقدرة، وإنّها تفتح أمامنا أفق اليقين المطلق بالقضاء والقدر لنجعل إرادتنا من إرادة الله، منفّذة لقضائه، منسجمة مع غايات قدره الّتي هي الخير المحض؛ فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل.

١٢. إنّ سورة يوسف، تكشف لنا النقابَ عن سرّ الإرادة والقدر، وعن العناية الإلهية الّتي تخفى، إلّا على من آتاه الله حسّـًا مرهفـًا وإيمانـًا عميقـًا من وراء حوادث الكون، وأسبابها الظاهرة، وعواطف الإنسان، ومقرراته وتصميماته. وذلك ما أبصره يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أوّل القصّة، فانكشفت له الحقيقة الكبرى فصبر وآمن وترقّب لطف الأقدار وصنيع العناية.

١٣. تتشابه قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخوته مع قصّة النبيّ محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته لقومه (قريش) في مكة، فإذا كان إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تآمروا عليه، وفكّروا في قتله وإبعاده وإخراجه، وقالوا: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩]، فإن هذه القصة كان تثبيتاً لفؤاد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم تآمروا عليه في دار الندوة، وقرروا حبسه أو قتله أو إخراجه من مكة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فظروف الغدر والتآمر التي مرَّ بها يوسف مرَّ بها رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه.

١٤. لقد نزلت سورة يوسف في فترة الحزن على وفاة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ووفاة أبي طالب (عمّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الّذي كان يحميه، وهي فترة اشتدّ فيها أذى المشركين للنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واجترأوا عليه لوفاة عمه، ولغياب الزوجة الصالحة الّتي كانت تسلّيه وتواسيه، فكان بحاجة إلى تسلية تخفف عنه ما تلقّاه من الأذى وما يُعانيه من الحزن. ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخرها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

١٥. ذُكرت قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعظمها في سورة يوسف، والقصّة القرآنية من خصائصها أنّها ربانيّة المصدر، موحى بها من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي لا يعتريها ما يعتري القصص البشرية من نقصٍ وتحريف، وقد حفظها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحفظه لكتابه، حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهي جزء من كتاب الله الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

١٦. إن القصّة القرآنيّة لا تحلّق بالإنسان في عالم المثاليّات الّتي لا وجود لها في عالم الواقع، بل تخاطبه على أنّه بشر له طاقة محدّدة لا يمكن أن يتجاوزها، فهي قصَّة واقعية لا تخرج عن حياة البشر، ولكن هذه الواقعيّة رغم عدم إنكارها لحالات الهبوط، وواقعيّتها، إلّا أنّها لا تمجّدها وتسلّط الأضواء عليها، كم تفعل بعض القصص البشريّة. فهي قصّة شاملة لجميع نواحي الحياة، وجميع جوانب الإنسان المختلفة تصوّر الواقعة أدقّ تصوير بعيداً عن الإسفاف والمبالغة.

١٧. إن للقصص القرآني غرضـًا تربويـًا عاليـًا، ألا وهو العبرة والعظة في الأحداث والأشخاص، فمن أساء منهم ومن أحسن أمامَ دواعي الخير والشرّ، وذلك أنّ القصّة القرآنية تُربيّ الأفراد والمجتمعات على إفراد العبوديّة لله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعدم الشرك به، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتُربّي الأجيال على التّحلي بالأخلاق الفاضلة، والبعد عن رذائلها وذميمها.

١٨. إنّ القرآن الكريم كتاب مبين واضح جليّ لأنّه نزل بلغة العرب، وهي أفصح اللغات وأكثرها بيانـًا، وأكثرها تأدية للمعاني، وهذا يُفنّد مزاعم القائلين بعجز اللغة العربيّة عن مسايرة ركب التطوّر العلمي في العصر الحاضر، وهي أكذوبة كبيرة وفِرْيَة عظيمة على اللغة العربيّة، روّجها أعداء الإسلام من المستشرقين، وأخذ بها - مع الأسف - كثير من المثقّفين العرب، فعزلوا لغتهم العربيّة عن مجالات الدّراسة والتدريس في معظم الجامعات والكليّات العلميّة وغفلوا عن حقيقة هامّة، هي أنّ اللغة العربيّة كانت لغة الحضارة الإسلاميّة، الّتي ضمّت تحت أجنحتها مختلف الثقافات والعلوم الّتي كانت سائدة في العالم، الحضارة الّتي خلّفت أكبر تراث علميّ وحضاريّ لأمّة من الأمم. وغفلوا أيضـًا عن كون اللغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم الّذي لا تنتهي معانيه، والّذي أخبر عن كثير من الحقائق العلميّة الّتي ما عُرفت إلّا في العصر الحاضر.

١٩. **إنّ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرسل محمّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرآن الّذي تميّز عن سائر كتب الرسل الّذين سبقوه، بأنه كتاب ومعجزة ومنهج حياة في آن معـًا، بينما كانت معجزات الرّسل السّابقين عليهم الصلاة والسلام منفصلة عن كتب الأحكام الّتي نزلت إليهم، ويظل القرآن معجزة تحمل منهجـًا إلى أن تقوم الساعة.

٢٠. من مواضيع سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ موضوع الرؤيا، وقد ورد في القرآن في سبع رؤى في ستة مواضع، ثلاثة مواضع اشتملت على أربع رؤى جاءت في سورة يوسف، منها رؤية يوسف، والساقي، وحامل الخبر فوق رأسه، ورؤية الملك، وقد تم بيانها في محلها في مواضع الكتاب. وأولها **الرؤيا الصادقة،** فهي من الله تعالى، منها قول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعون جزءاً من النبوّة»، وأما **الحلم**: وهو من الشيطان، فقال النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الحلم من الشيطان". وأضغاث أحلام أو **أحاديث النفس**: وهي تفاعل للنفس تجاه الواقع والمواقف الّتي يمرّ بها الإنسان، فتستخرج هذا المخزون في شكل أحلام، يقول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بُشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه.

٢١. إن رؤيا الأنبياء حق وما عداها هي إما مبشرات أو منذرات، أو أضغاث أحلام وأحاديث نفس. وإن جميع الرؤى من غير الأنبياء حتى رؤية المسلم في المنام، حتى رؤية المسلم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام ليست دليلاً شرعيـًا لإثبات أحكام شرعية جديدة من إيجاب وندب أو تحريم وكراهية، وصحة وبطلان لأن الأحكام الشرعية تؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته ومن بقية الأدلة المعتبرة. وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: فلم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة.

٢٢. أدرك يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بحدسه وبصيرته بأن وراء رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتي قصَّها عليه بأن هذا الغلام له شأناً عظيماً، ولم يفصح هو عن ذلك، ولهذا ينصحه بأن لا يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءه لأخيهم الصغير (غير الشقيق)، فيجد الشيطان من وراء هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلئ نفوسهم بالحقد، فيدبروا له الأمر.

٢٣. كان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حريصاً على ربط أبنائه بسيرة آبائه السادة والقدوات الصالحة إسحاق وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ويظهر في ذلك أهمية ربط الأولاد بسير المصلحين من الأنبياء والمرسلين والصحابة الكرام الغُرّ الميامين.

٢٤. لا شك أنّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قصّ على أولاده، ومن بينهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سيرة إبراهيم، وما حدث له من أحداث في العراق وهجرته إلى الشام، وذهابه إلى مصر وبناء البيت الحرام بمكة المكرمة، وكذلك سيرة إسحاق جده، وإسماعيل عمّ يعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما بذلوه من جهاد عظيم في الدعوة إلى الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، ومحاربة الشرك، والتحلّي بالأخلاق الحميدة، والمحافظة على العبادة الرّشيدة، وفهم تصوّرات الوجود عن الكون والحياة، والإنسان والقضاء والقدر، والجنة والنار. وإنّ سيرة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانت من عوامل الثبات بعد الله والاستمرار على نهجهم في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢٥. إن الأحد عشر كوكباً الذين رآهم يوسف الصدّيق هم الإخوة، وإن رؤياه عَلَيْهِ السَّلَامُ تبيِّن أنّه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً؛ ثمّ رآهم بعد ذلك ساجدين. وهذا يعني أنّه رآهم أولاً بصفاتهم الّتي نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود؛ ثمّ رآهم وهم ساجدون له، وذلك بملامح الخضوع لأمر من الله، ولذلك تكررت كلمة (رأيت) لإيضاح الأمر.

٢٦. بيّن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنّ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]؛ أي: أن أعمال الكيد الّتي يقوم بها النّاس، قريبهم وبعيدهم تجاه الحقّ والصدق والتقوى، إنّما الشيطان هو بطلها الحقيقي. ولذلك تجد الشيطان في هذه القصّة حاضراً في كلّ مواطن التأزم والكيد والمكر.

٢٧. ظهر من خلال سورة يوسف، حرص يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتعلق ابنه بربه من خلال إجابته على سؤال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الرؤيا، ووضح له ما خصّه ربه به من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

٢٨. علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن رفعة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مستقبله رفعة إلهية؛ لأنّه علم أن نِعم الله تعالى متناسبة، فلما كان ما ابتدأه به من النِعم اجتباء وكمالاً نفسيًا تعيّن أن يكون ما يلحق بها، من نوعها ثمّ إنّ ذلك الارتقاء النفساني الّذي هو من الواردات الإلهيّة غايته أن يبلغ بصاحبه إلى النبوءة أو الحكمة.

٢٩. إنّ في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخوته عِبر كثيرة، وعظات بليغة، وأدلّة قاطعة على أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى لكل الّذين سألوا عن قصتهم، وللذين لا يسألون، فالقصّة غنية بالمعاني والمواعظ والحِكم والدروس المستفادة، ولم تذكر في التنزيل الحكيم لمجرد الاطلاع على أحوال بعض الأمم السالفة، ويتنزّه كلام الحكيم العليم عن اللغو والباطل وما لا فائدة فيه؛ ولهذا كرّر القرآن الكريم دعوة النّاس ليتدبروا آياته، ويعرفوا ما فيها فوائد واعتبار، كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٣٠. إن المقدّمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة، فإخوة يوسف افترضوا أنّ أباهم في ضلال مبين وأنّه يحبّ أخاهم أكثر منهم رغم أنّهم عصبة، ثمّ تصرفوا

بناءً على هذا التصور، والنتيجة أنّهم ندموا ندماً عظيماً، فلم يخْل لهم وجه أبيهم كما افترضوا، ودفعوا نتيجة فعلهم والله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١].

٣١. أساء أبناء النبي المبارك يعقوب الظنّ، وحسدوا أخاهم يوسف على منزلته من أبيه، والحسدُ داء عضال قتال، وهو نكد في الدنيا وخسارة في الآخرة؛ لذا جاء النهي عنه صريحاً واضحاً: «ولا تحاسدوا»، وفي الحديث الآخر قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «دبّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتّى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم».

٣٢. كان يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أصغر إخوانه، وكما هو مسلّم به عند كلّ أب وأم أنّ للصغير حباً خاصاً تظهر فيه الرأفة والحنان والشفقة، وأما الكبير محبوب، ولكن يعكس هذا الحبّ التقدير والاحترام والاعتزاز بالابن، فمثلاً النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كان يحبّ فاطمة ويحب ابنيها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، ولكن كان أسلوبه في استقبالهم والتعامل معهم مختلفاً، فكان إذا دخلت عليه فاطمة قام إليها وقبّلها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه.

٣٣. إنّ الشخص لا يُلام على محبّته لبعض أبنائه دون بعض، أو بعض النّاس دون بعض؛ إذ المحبة من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهو الّذي يلقيها في قلوب العباد، فهذا النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحبّ فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض».

٣٤. إنّ الحبّ والحنان، وكذلك البغض والغلظة مسائل عاطفيّة لا تخضع إلى التقنين؛ ولا تكليف بها، وحينما يتعرض القرآن لها، فالحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوضّح بأنّ الحبّ والبغض انفعالات طبيعيّة؛ فأحبِبْ مَنْ شئتَ وأبغِضْ مَنْ شئتَ؛ ولكن إياك أن تظلم النّاس لمن أحببت أو تظلم مَنْ أبغضت، بل اقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٣٥. أُصيب إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بداء الحسد والغَيرة، وأطاعوا أهواءهم، فوقعوا في عقوق الوالدين وقطع الأرحام والظلم الكبير ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فرموه في غيابات الجب. كما أن الحجج التي جاء بها إخوة يوسف لأبيهم في كون يوسف أكله الذئب قبلها النبي المبارك يعقوب بن إسحاق، فهو صاحب الفراسة والذكاء والفطنة، وبتوجيه من الله تعالى.

٣٦. استقبل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف ومصيبته أيضـًا بعقوق أولاده واحتيالهم وكذبهم وحقدهم على أخيهم وحسدهم له بالصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلا لله مع الرضا بالقضاء والقدر والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، وذلك ليعلّم النّاس: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فالأمّة بحاجة إلى من يعلّمها الصبر، وحريٌّ بنا أنّ نقتدي بالّذين هدى الله وجعلهم أئمّة.

٣٧. نجد في سورة يوسف، بيان أن عاقبة المكر السيّئ خسارٌ وبوار، فإخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مكروا به من أجل إبعاده، فكيف كانت العاقبة؟ وامرأة العزيز كادت ومكرت، وغلّقت الأبواب، وأعتدت للنّساء متّكأً، فلمن كانت العاقبة؟ وفي هذا طمأنة وعزاء للأمّة وبيان لها بأنّ مكر أعدائها سيرتد عليهم، فإنّ المكر

الكبَّار يحاك الآن على مستوى الأمم، وعلى مستوى الدّول، ومستوى الشّعوب، والأفراد، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر: ٤٣].

٣٨. نزل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الجب وهو بحالة الذل، ولم يغادره إلا وهو مُوحى إليه، سواء كان بوحي الإلهام أو بوحي النبوة، فالله عَزَّوَجَلَّ تداركه برحمته ولطفه بما سكن نفسه المضطربة وأزال وحشته وخوفه، فشعر بأن الله معه يرعاه ويرحمه ويلطف به، وبأنه سينجيه من محنته ويظهره أيضاً على إخوته حتى يأتي الوقت الذي يذكرهم فيه بجريمتهم.

٣٩. إن غيابة الجبّ في محنة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبيل الرحيل به لمصر فيها تسلية للنبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في غار ثور قبيل الهجرة للمدينة. وكما ذكرنا، فإن سَجن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمصر ظلماً وعدواناً فيه ذكرى للنبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهم في شِعب أبي طالب بعد أن حاصرتهم قريش وقاطعتهم ظلماً وعدواناً، وهذا كلّه يُفصح عنه قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠].

٤٠. إن الوصف القرآني يصور لنا واقع الخطة بكاملها بكلمتين اثنين: ﴿غيابة الجبّ﴾، فإذ بنا نفهم أنّ المقترح أراد التخلص من يوسف دون أن يتم قتله بصورة مباشرة، بأن يُقصى عن أبيه، وأن لا يذهبوا به بعيداً جداً لمشقة ذلك عليهم، ولا يتركوه في مكان قريب يمكنه من العودة إلى أبيه، ولا يتركوه في الفلاة في مكان مكشوف.

٤١. إنّ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عمل على إبقاء الثقة بينه وبين أولاده، واعتذر عن دعوتهم لأخيهم بعذرين: أولاً الحزن على يوسف وذهابه من عنده. ثانياً: بخوفه أن يأكله الذئب في ساعة غفلة منهم. وتأمل الحكمة وأسلوب التربية العظيمة،

فإنّه ليس من الحكمة أن يهدم جسر الثقة بينه وبين أبنائه، فيعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعلم منهم يقيناً ما هم عليه من سوء طويّة، لكنّه لا يفاتحهم بذلك حرصاً على بقاء خيط الحياء في نفوس الأبناء موصولاً، فإذا انقطع تجرأوا على المعصية أكثر. فلينتبه الآباء والأمّهات والمدرّسون إلى هذه النقطة: أن انقطاع حبل الحياء بين الكبير والصغير يجعل الحياة لا تطاق.

٤٢. في دعوة نبي الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] أيّ: وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب، ولا يستطيع الإنسان تحمّل مثل هذا الاختلال والتمويه إلّا بعون الله، وتجميله بالصبر الجميل. فهكذا استقبل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف، ومصيبته أيضاً بعقوق أولاده، واحتيالهم وكذبهم وحقدهم على أخيهم وحسده له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليواجه كذبهم وتزويرهم وما كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى. استعان بالله تعالى وحده ولم يطلب معونة أولاده لأنّه يعلم أنّهم هم سبب بلائه ومصيبته.

٤٣. وفي استشعار مراقبة الله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]؛ أي لا يخفى ما فيها من تهديد ووعيد لأولئك الّذين استعبدوا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو حرّ كريم، واستعباد الحر واسترقاقه من كبائر الذنوب في الإسلام. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثمّ غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره.

٤٤. ساق الله عَزَّ وَجَلَّ الأسباب التي أخرج بها يوسف من البئر، وانتقل إلى مصر، وسارع أهل السيارة إلى بيعه والتخلص منه، فقد أصيبوا بالقلق والهم من عند الله، ففقدوا الحرص عليه والرغبة فيه، فتم بيعه، ليمضي قدر الله في يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٤٥ . استقرأ عزيز مصر في وجه يوسف الخير والنبل والبركة وحسن الطالع، فألقى الله تعالى محبته في قلبه وهو ما رغَّبه في شرائه، فاشتراه وأخذه إلى بيته معززاً مكرمـاً، وأوصى امرأته به.

٤٦ . قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أفرس الناس ثلاثة، أولهم العزيز، حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، والثاني: التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، والثالث: أبو بكر الصديق حين تفرس في عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٤٧ . جرت العادة أن يُهان الرقيق ولا يُكرم، ولكن الله تعالى هيّأ ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يعيش مكرّمـاً معززاً في أرفع بيوت مصر وأعلاها، ممّا يدل على عناية الله تعالى ورعايته له في محنته وغربته وحرمانه من أبيه وأهله، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

٤٨ . أصبح ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مكانةً في بيت العزيز بعد أن أحبه، وعامله باحترام وتقدير، ولذلك حرص على تعلم شؤون الإدارة في البلاد، وصار قريبـاً من مراكز صناعة القرار في مصر وتعلم الشيء الكثير من أحوال البلد وعقلية الإدارة، والتركيبة السياسية والاجتماعية، والإمكانات الاقتصادية، واطلع على تفاصيل المجتمع المصري، فكانت رعاية الله وحفظه محاطة بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتوفرت له أسباب الراحة وهناء العيش والنعيم، ثم كل أسباب التعليم، وساعده ذلك فيما بعد عندما تولى مقاليد الحكم في اتخاذ القرارات الصحيحة التي أنقذت مصر من كارثة محققة.

٤٩ . تعتبر مرحلة حياة يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأولى في مصر من أكثر المراحل خطراً، وأشدها صعوبة، وأقساها امتحانـاً، فلئن ابتلي مع إخوته بتشريده الأسري، فلقد كان ابتلاؤه في هذه المرحلة من حياته للجانب الروحي والخلقي نتيجة الجمال الخَلْقي والخُلُقي.

٥٠. تحدّث العُلماء عن مقاصد سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقد وقفوا على أهمها: التّعقّل والتّدبّر والتبصّر، فقال سبحانه: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ أي: تعقلون ما أنزل الله تعالى من الآيات والقصص، وتتفكرون في مآلات الأمور، أضف لذلك، تقوية الإيمان بالله تعالى، والتّوكل الكامل عليه، وتفويض الأمر إليه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

٥١. من مقاصد قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الرضا التّام من المؤمن بقضاء الله تعالى وقدره، وحسن اليقين بالله تعالى، بأن المصائب والابتلاءات والمحن تحمل في طيّاتها المنح الربانيّة ما دام صابراً راضياً مطيعاً لله تعالى، فلا يستيئس من رحمة الله، ولا يقنط من فضل الله، بل يطمع في نصر الله، وفي تفريج الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والنبي المبارك سيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مثّل قمّة الرضا والأمل الكبير، وطردِ البأس والقنوت. والدّلالة على الطريق الّتي تؤدّي إلى تقوى الله من خلال بيان وإظهار ثمارها في حياة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنّه سبب للمخرج من كلّ ضيق وبها ييسّر الله الأمور وينوّر العقول، ويطهّر النّفوس، وبها تتنزّل البركات الماديّة والمعنويّة، وبها الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم.

٥٢. إن من أغراض قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدّين كلّه من عند الله، وبيان أنّ الدين كلّه موحّد في الأساس، وبيان أن وسائل الأنبياء في الدّعوة موحّدة، وتثبيت فؤاد النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجال الدّعوة، والعِبرة والاتّعاظ، وتصديق التبشير والتحذير، وبيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، وتنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان.

٥٣. إن العبرة بحال العبد في الخواتيم والنهايات، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب

النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماع التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء بالمغفرة والرحمة.

٥٤. صان يوسف إرث النبوّة بما فيه من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة، فعفا عن إخوته بما روته السّورة: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقالها سيد البشر محمّد لأهله يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء"، فالسورة حملت لنا معاني الإحسان في سيرة السادة الأنبياء الذي اجتباهم الله ليكونوا قدوة الأمم، وقد نالوا الرفعة في الدنيا والآخرة.

٥٥. لزم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مقام الإحسان في شتى شؤونه في سرائه وضرائه، وفي خاصة نفسه، ومع والديه، ومع إخوته وفي حال الفتنة، وفي حال الانتصار وفي حال عبادته لربه.

٥٦. قصّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد ضمنها سبحانه من النكت والعبر والحكم أمراً عظيماً، وذكر فيها حسن مجاورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لإخوته وصبره على أذاهم وحلمه عنهم وإغضاءه عند لقائهم عن تبكيتهم وكرمه في العفو، والأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن والتوحيد والنبوة والإعجاز والتعبير والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجميع الفوائد الّتي تصلح للدين والدنيا، وذكر الحبيب والمحبوب، ولم يدخل فيها شيئاً من غيرها دون سائر القصص، وكان عقابها إلى خير وسلامة واجتماع شمل وعفو من الله وتجاوز عن الكل.

٥٧. إنّ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه السّورة في نهاية أمرهم، ندموا وطلبوا العفو والسماح من يوسف ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وحسنت توبتهم ورجوعهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فقد عَلم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ما عزموا على فعله ذنب، وأنّهم قد عقدوا العزم على التوبة منه بعدُ، وهو لا يسوغ فعلهم بل يعطينا الدليل على قيمة المعصية وبأن لا رجوع عنها إلا بالتوبة الصادقة والإقلاع عن الذنب تماماً.

٥٨. نجد في سورة يوسف قصص التائبين المستغفرين، وبيانَ أثر التّوبة والاستغفار في حياة الإنسان، وقد تتبَّعتُ الدّعوةَ إلى التّوبة والاستغفار في القرآن، فوجدتّ أنّه ما من نبي إلّا وقد أمر قومه بهما، والاستغفار خفيف على اللسان، وهو مع ذلك من أخصّ الدّعاء، والدّعاء هو العبادة كما في الحديث، ويقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فالتّوبة والاستغفار من السمّات الظّاهرة في سورة يوسف.

٥٩. إن العلم والحكمة الّتي أفاضها الله على يوسف إنّما هي جزاء إحسانه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن سنة الله في الخلق أن يجزي المحسنين بهذا الجزاء: العلم والحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. والمرّة الثانية الّتي وصفه بها ربه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]؛ إن ثمرة الإحسان في الدنيا، التّمكين للمحسنين في الأرض مع ادّخار أجرهم كاملاً يوم القيامة. وفي مرّة ثالثة وصف يوسف بالإحسان على لسان السّجينين: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

٦٠. من المعلوم أنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان فائق الجمال، وأنّ الله قد خصه من الجمال ما لم يهبه لأحد من قبل. عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن

رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «أعطي يوسف شطر الحسن». ولمّا رأت امرأة العزيز أنّ موقف النّسوة تغير وتبدل بعد رؤية يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وشاهدت الانبهار والاندهاش وظهور الصدمة على وجوههن.

٦١. استبدت الشهوة بالمرأة وطغت على جميع مشاعرها واندفعت وراءه وشقت قميصه طولاً من جهة ظهره ووجدت زوجها أمامها. وقد سارعت بذكاء عجيب وقلبت كل الحقائق واتهمت يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحاولت أن تجعله أمام زوجها خائنـًا، وهكذا وضعت نفسها في موضع المدّعي والقاضي وأصدرت الحكم بسجن المتهم أو بمعاقبته بعذاب أليم. وهذا يدل على أنها أرادت الانتقام من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لكبرها التي مرّغ بالتراب.

٦٢. إن مراودة امرأة العزيز ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أعظم المحن التي مرت عليه؛ مرّت الأيام ولعلّها شهور وأعوام على هذه المعركة الصامتة الرهيبة بين الطهر والعفاف، والحياء المسلح بسلاح الإيمان بالله تعالى من جهة، وبين الشهوات المسعورة المسلّحة بسلاح الفتنة والإغراء، والتمكّن والسّلطان من جهة أخرى، وكلّما ازداد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إعراضـًا وإباءً، ازدادت إقبالاً عليه وشغفـًا به، وازدادت تهتكـًا وإغراءً. واستمرت تراوده بخداع رهيب عسى أن توقعه في أسر عبودية الشهوة ووحل ذلّ الهوى.

٦٣. إنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاذ بمعاذ فانتصر، وعزّ من اعتزّ بالله وانتصر من استنصر بالله، فانتصرت البراءة والطهر على الرذيلة والدناءة والسفاهة. وفي قول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٢٣]: لفتٌ لنظرها إلى أنّ البيت، وإن خلا من الرقباء، فإنّ عليها رقيبـًا لا يغيب، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الّذي يجب أن تخافه وتخشى غضبه وعقابه، لأنّه هو العليم السميع البصير.

٦٤. التجأ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ربّه ومعاذه وملجئه يدعوه متضرعـًا إليه، وهو واقف بينهنّ وهنّ يراودنه عن نفسه، بالقول والحركات واللفتات ويتبارين في عرض فتنتهنّ وجمالهنّ عليه. وإذا هو يستنجد ربّه أن يصرف عنه محاولاتهنّ لإيقاعه في حبائلهن، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدّائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه ويدعو الله أن ينقذه منه.

٦٥. اختار يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخفّ الضررين، وأهون الشرين، فالسجن فيه إضرار ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرار بدينه وخلقه، وهو أشدّ ضرراً وأعظم من الأول. ورسم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سلوكه هذا، القاعدةَ الشرعيّة الفقهية: (يُختار أهون الشرّين، وأخف الضررين). والسجن بلاء لا ينبغي لأحد أن يتمناه، ولكنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آثر ما يدعونه إليه فهو معنى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

٦٦. تواضع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ، وأظهر افتقاره لمعونته سبحانه، فجرّد نفسه عن كل حول وقوة، فلا حول له إلا بالله تعالى، ولا ثبات له في محنته إلا بتثبيته سبحانه، فأقبل إلى الله يناجيه بضراعة وخشوع، وجاءه الفرج والسمو والعزة والتمكين.

٦٧. رحل عزيز مصر عن مسرح الأحداث قبل دعوة امرأته للنّسوةَ إلى القصر لمشاهدة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأن امرأة العزيز هي التي صارت لها السلطة على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعده فقد كانت تقول للعزيز وهو حي ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٥]، أما الآن فهي تملك وتحكم وتهدد وتقول: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وفعلاً، نفذت تهديدها بمساعدة أهل الحل والعقد، وحكم على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالسجن رغم براءته من كل سوء. والله أعلم.

٦٨ . من أدب القرآن العظيم أنّه لم يذكر اسم المرأة الّتي راودته، ولا أشار إلى زوجها، وهو عزيز مصر، وفي ذلك توجيه للتحلّي بهذا الأدب الرفيع، وألّا يذكر في مثل هذا المقام إلّا ما يظهر الحقيقة فقط دون الخوض في التفاصيل.

٦٩ . خرجت أخبار امرأة العزيز مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نسوة في المدينة، وقد تسرب الخبر من خدم القصر الذين لاهمّ لهم إلا الحديث عن خفايا القصور وفضائحها حتى صارت الحكاية على ألسنة النّسوة. وقد نجحت امرأة العزيز في الكيد لنسوة المدينة ووقعن في فخها، وكان لدخول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهن بأمر امرأة العزيز تأثيراً بالغاً عليهن، فقد رأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله جمع بين الهيبة والجمال والنور والبهاء والصفاء الباطني والحسن الظاهري، وانهمكن في النظر إلى جمال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فعملت السكاكين عملها في أيديهن وجزتها ونزفت الدماء من أيديهن وهن لا يشعرن بألم الجراح أو بنزف الدماء لأنهن مخدرات الأعصاب والمشاعر. وشبهت النّسوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالملائكة؛ لأن الملائكة هي مضرب الأمثال في الجمال.

٧٠. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]؛ فيها صراحة شديدة واعتراف صارخ بأهواء النفس، والحديث الواضح عن الأهواء داخل نفس امرأة العزيز، ومن هذه الآية يظهر خطاب القوة ولغة الفوقية والتهتك الذي يعكس حياة تلك الطبقة المترفة، وواضح أنها لا تخشى لومهن ولا تستحي مما عملت، بل تفخر به وتستعلي به عليهن. فالعصمة هي برهان على العظمة ودليل للقوة، فكان النبي الصدِّيق عَلَيْهِ السَّلَامُ أقوى من الشهوة العارمة، ولم يعبأ بكل مظاهر الأبهة والسلطان والترف.

٧١. لم تستطع هذه المرأة بكل سلطانها وجمالها وأنوثتها أن تنتصر على نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي لا يزال يعيش قريباً منها في قصرها وتحت

أمرها وسلطانها وهي تعرض كل ما تملك من أسباب الفتنة والإغراء وأسباب الوعيد والتهديد.

٧٢. إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُعلمنا أهمية الفرار من مواطن الفتن فقد فرّ هاربـاً يطلب الباب ليتخلص من شرّها وهذا درس عملي علّمه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لكل عاقل يتدبر معاني كلمات الله في تنزيله الحكيم فما فعله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يحتاج إليه كل فتى وفتاة في هذا العصر عند الابتلاء بالفتن، فقد بادر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ترك موضع الفتنة واتجه مسرعـاً إلى الباب.

٧٣. دخل نبي الله الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم السجن بعد أن خرج من محنته الكبرى في قصر العزيز تقيـاً نقيـاً ليواجه محنة أخرى: ضيق السجن وظلمته ووحشته والشعور بالظلم والاضطهاد، وهو سجن آخر للنفس يزيدهما همّـاً وألمـاً وحسرة. ومن رحمة الله تعالى بيوسف أنه هيأ له سبب خروجه عند دخوله.

٧٤. يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان في حال من الضيق والمعاناة إذ فقد والده وأهله، وابتلى في عرضه الشريف واجتمع عليه كيد إخوته وامرأة العزيز والنسوة وأخيراً السجن ظلمـاً، فحين تظهر عليه سجية الإحسان في هذه الحال فكيف في سائر أحواله.

٧٥. كان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعبّر للسجناء رؤاهم وأحلامهم وكان أيضا يحسن إليهم في معاملته، ويواسيهم ويساعدهم، فهو من المحسنين حقـاً وأحسن في معاملته مع الناس في سعة القصو وفي ضيق السجون وبقي محافظـاً على جوهره الأصيل ثابتـاً في مقام الإحسان رغم ما طرأ على حياته من تغير وتبدل.

٧٦. بقي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السجن بضع سنين، وعندما أراد الله خروجه ساق الأسباب الخفية، فكانت سبباً في خروجه من السجن. فرؤيا الملك وعجز الملأ عن تأويلها وتذكر الذي كان معه في السجن ساهم في ذلك كلّه. وإذا أراد الله أمراً هيّأ له أسبابه وأراد الله أن يخرج يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من السجن معززاً مكرماً فكانت رؤيا الملك بداية الفرج.

٧٧. في تأمل تجربة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع صاحبَي السجن نجد أصلاً من أصول منهج الدّعوة، فعندما سأل السجينان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الرؤيا بدأ بالتوحيد، فدعا إليه رغم ظروف سجنه، ولم يعدّ السجن عائقاً عن الدعوة، بل جاء في السّورة تقرير منهج الدّعوة مجملاً: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والدّعاة في مشارق الأرض ومغاربها بحاجة إلى التّذكير بهذا المنهج.

٧٨. إن يوسف كان مظلوماً في سجن الملك، وهو يملك المعلومات والخطط ما يجعله في محل قوة عند المفاوضة إلا أنه لم يشترط لنفسه شيئاً، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح، والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلماً لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مستوعباً لفقه الخلاف، حيث إن الملك والشعب بعيدون عن المنهج، منغمسون في مناهج الجاهلية، ومع هذا التقى معهم في الخير المحض، والسعي نحو إنقاذ البلاد والعباد في محنة المجاعة والقحط. وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة الناس، ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض.

٧٩. عجز الملأ عن تأويل رؤية الملك (سبع بقرات سمان وبقرات عجاف وسنبلات الخضر وأخر يابسات)، وأخبر الملك بذلك وذهب إلى يوسف

وأجاب يوسف الساقي في طلبه ولم يطلب لقاء الملك ليخبره بالتأويل؛ وهذا يدل على نبل نفسه وترفعه رغم السجن وهو يعلم أنهم لم يأتوا إليه إلا لمّا عجز غيره عن تعبيرها.

٨٠. رفض يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الاستجابة لدعوة الملك بالخروج من السجن بعفو ملكي، ولم يتعجل الاستجابة لدعوة الملك، مع أنه مسجون ظلماً، ومضى على سجنه بضع سنين، ومن كان مثله متلهفاً للخروج، فما أن تبدو أول إشارة للخروج حتى يتعجل، هذا وإن لم يَرجُ ويتوسط ويشفع.

٨١. إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال للساقي المفرج عنه من قبل: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] هو نفسه يوسف الذي رد دعوة الملك للخروج بعد بضع سنوات، ورفض الخروج حتى تظهر براءته.

٨٢. فتح الملك ملف قضية يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وباشر التحقيق، واعترف الجميع ببراءة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما في ذلك امرأة العزيز التي وجدت نفسها بين مطرقة الملك في هجومه الصاعق ومعرفته بتفاصيل القضية وشهادات النّسوة اللاتي جهرن ببراءة يوسف، فلم تجد مخرجاً ولا مناصا فقد آن الوقت من الخروج من تأنيب الضمير والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ وكشف الحقيقة.

٨٣. إنّ السياق القرآني يبين أن الملك عرض على يوسف الوزارة، وكان الذي أشرف عليه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما يمكن أن يوازي اليوم هذه الوزارات: التخطيط، التموين، الزراعة، المالية، الاقتصاد، العمل، الثروة الحيوانية، وزارة القوى البشرية والتعليم، الإعلام؛ وهذا يستخلص من قوله تعالى: ﴿خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾[يوسف: ٥٥].

٨٤. يُقرر الله بأن استلام يوسف للوزارة، هو باب التمكين له في الأرض، وأنه رحمة أصابه بها، وإنه أجر دنيوي عاجل، وما ينتظره من الله من الثواب الآجل وهو أعظم وأكبر: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]، ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يصرح بأن استلامه للحكم كان من نعم الله عليه ولم يكن نقمة: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

٨٥. وجد الملك في يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأمانة والخبرة، فوافق على طلبه، وسلمه مسؤولية إدارة الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مملكته كلها، وأصبح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الوزير الأول في مصر وعزيزها، وصاحب الكلمة النافذة فيها بعد ملكها، وجمع الله له بهذا النبوة والحكم فقد كان نبياً وحاكماً وفي هذا ردٌّ على أولئك الذين يحصرون مهمة الأنبياء في بيان شؤون العقيدة والعبادة فقط، ويحاولون عزل الدين عن شؤون الحكم والسياسة والاقتصاد وغير ذلك.

٨٦. إن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أراد أن يقوم بعمل كبير، ويتحمل مسؤوليته، فرشّح نفسه لأخطر المناصب أعلاها وأكبرها عملاً وجهداً وسهراً، وأكثرها نفعاً لعامة الناس كبارهم وصغارهم وضعفائهم وفقرائهم، والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزمات اقتصادية خانقة، تبعة كبيرة ومسؤولية جسيمة، يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تكلفهم رؤوسهم.

٨٧. تولى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الوزارة في مصر، وساس تموين البلاد في مجاعة شملت مصر وأرض كنعان، ووضع لذلك خطته البارعة التي ذكرها القرآن الكريم وأثنى عليها الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فأنقذ البلاد من تهلكة كانت معرضة لها لا محالة. وخلال تلك الأزمنة دخل إخوته يلتمسون منه قوتاً لأهليهم،

وتكرر دخولهم عليه، وهو يعرفهم وهم لا يعرفونه حتى كشف لهم عن نفسه (وقد مر معنا تفاصيل ذلك)، ومن ثم طلب من إخوته الإتيان بجميع آل يعقوب إلى مصر.

٨٨. المسلم يستطيع أن يجعل أعماله في الدنيا وقوته وماله وغناه لتحقيق غايتي الدنيا والآخرة، فلو التزم المؤمن بالنية الصادقة، والعمل الصالح، فإن جميع أعماله من الإصلاح والملك وتحقيق العدالة وتوفير الخير للناس أجمعين فهو لله تعالى، وينال جزاءه في الآخرة -كما فعل سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- فليس هناك تناقض بينهما.

٨٩. وصى يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولاده بعدم الدخول من باب واحد وإنما من أبواب متفرقة وهذا من باب الأخذ بالأسباب. ولا يمنع وقوع قدر الله إذا أراده، وهو مؤمن به راض بقضائه مستسلم لحكمه متوكل عليه. ومرّت أحداث جسام على يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتمسّك بالصبر الجميل والشكوى إلى الله وحده وعدم اليأس من روح الله وانتظار الفرج والثقة في الله بأنه أصبح قريباً.

٩٠. عندما ضاقت الأمور على إخوة يوسف ومسهم الضر وطلبوا من عزيز مصر التصدق عليهم، رقّ قلب يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعرّفهم بنفسه وطلبوا منه العفو والصفح واعترفوا بخطئهم، وعفا عنهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾[يوسف: ٩٢]؛ أي: لا ملامة عليكم ولا توبيخ ولا عتاب ولا أدنى مؤاخذة مني عليكم، ولن أذكر لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضي بما فيه، بل توجه إلى الله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢].

٩١. إنّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قدوة للشباب في التقوى والخوف من الله وألّا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقدوة في الوفاء والأخلاق العظيمة، وفي التفكير في المآلات، وفي تحمّل النتائج مهما كانت مؤلمة.

٩٢. نجد في هذه السّورة استثمار الفرص، وخاصة من قِبل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يُسجن، وأثناء سجنه، وبعد السجن، وحتّى آخر مراحل عِزّه. وإن الأمّة بحاجة إلى أن تستثمر الفرص استثماراً حقيقياً في موضعه، فتركُ الفرصِ غَصَص، والفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود.

٩٣. ذُكر التمكين في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مرتين، المرّة الأولى هنا وذلك بعد أن أراد إخوته أن يزيلوه عن ظاهر هذه الأرض فألقوه غيابة الجبّ. والمرّة الثانية بعد أن بدا لذوي المرأة أن يحولوا بينه وبين رحابة الحياة وسعة الأرض في غيابة السجن، فانظروا أرشدني الله وإياكم إلى التدبير الرباني والإحكام القرآني حيث كان التّعقيب على هاتين كلتيهما؛ أعني إخراج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من غيبة الجبّ وإخراجه من غياهب السجن بهذه العبارة القرآنية: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

٩٤. لم يذكر مؤمن آل فرعون من الأنبياء الذين دعوا المصريين إلى التوحيد غيرَ يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال للمصريين: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، ولم يقل جاءكم يوسف وإخوته.

٩٥. نرى النبي الوزير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ابتدأ بإثبات معجزته، ثم نهى عن الشرك، ووجههم إلى الاقتداء بشخصه، وقد صاروا له صاحبين، ومن ثم وازن بين الوحدانية وتعدد الآلهة، ثم بيَّن لهم أنه لا وجود لما يسمونه آلهة، وأن الدين الحق الذي يوافق قضية العقل البديهية هو الوحدانية وعبادة الله الواحد الأحد.

٩٦. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وضع سلسلة من الحقائق المنطقية المتسلسلة المتتابعة، وذلك بتناسق موضوعي متدرج وصل به إلى هدفه المنشود في دعوة

صاحبيه إلى دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد يقال: إن دعوته إلى الوحدانية، كانت بين اثنين. وإنّ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتدأ دعوته بين زوجه وصديقه أبي بكر وابن عمه علي ومولاه زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعـًا، وبقي مستخفيـًا بالدعوة بضع سنين، فليست العبرة بكثرة العدد، ولكن باليقين وقوة الإيمان.

٩٧. نرى بأن سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكتف بتعبير الرؤيا، بل نجده بادر، فوضع لهم خطة عمل لمواجهة سنوات القحط والجفاف، وكانت خطة اقتصادية تتناول الحياة الزراعية والتنموية للأمة خلال خمسة عشر سنة مقبلة، وخطط التنمية في مختلف مجالات حياة الأمم والشعوب من تعليم وزراعة وصناعة وعمران، والتي عرفها الناس في العصور الحديثة، ليست حديثة ولا مبتكرة، إنها قديمة ذكرها القرآن الكريم ووضع أصولها وطبقها النبي الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٩٨. إن العلوم التي علمها الله تعالى يوسف لم تكن محصورة في علوم العقيدة والعبادة وتعبير الرؤيا، فقد كان النبي الوزير مهندسـًا وعالمـًا، لديه خبرة وعلم بكثير من العلوم التي تتعلق بشؤون الزراعة والادخار والتموين، وتعلمها دون أن يدخل مدرسة وجامعة، وقد علمه الله إياها بواسطة الوحي الذي كما مر معنا في قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي﴾ [يوسف: ٣٧]. ولم يبخل عليهم بعلومه وخبرته، كما يفعل الآن الخبراء الذين تستقدمهم الدول المختلفة من الدول المتقدمة في مجال العلوم، فلا يقدمون مشورتهم وخبرتهم للمحتاجين إليها حتى يأخذوا عليها ثمنـًا باهظـًا وامتيازات كبيرة.

٩٩. إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رسم هذه الخطة الإستراتيجية لتحسن أحوال الشعب المصري المعيشية، وللإعداد لمرحلة مستقبلية تمتد خمسة عشر عامـًا، وهو نبي

كريم مؤمن بقضاء الله وقدره، ويعلم أن كل شيء خلقه الله بقدر سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به مشيئته في الأزل، ويعلم بأن الإنسان لا يستطيع أن يخترق أسوار القدر، ولكن القدر غيب عن الإنسان، وقد أمر بأن يسعى في تحصيل أسباب ما يراه نافعـًا، واجتناب أسباب ما يراه ضاراً ثم يرضى بما قدر الله تعالى له.

١٠٠. كان من ثمار تدبير يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء وفي هذا القصص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي، لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها.

١٠١. إن من شروط التمكين المهمة التي حققها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واتصف بها في حياته تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ تجعل بين العبد وبين ما يخشاه من ربه، ومن غضبه وسخطه وعقابه، وإنها وقاية تقيه من ذلك، وهي أن نعمل بطاعة الله على نور من الله نرجو ثواب الله، وأن نترك معصية الله على نور من الله نخاف عقاب الله، وقد ظهرت ثمرات التقوى العظيمة في حياة يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

١٠٢. كان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دائم الصلة والتوجه إلى الله والتأدب معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يذكره على جميع أحواله، إذ يرجع إليه في كل خير، ويرد إليه الأمر في كل شأن، وكان كثير الدعاء والرجاء والأمل بالله، وهو صاحب الجود والإحسان على من أساء له، وهو ما جعل دعوة هذا النبي الجميل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائمة على طمأنينة في النفس وراحة بالبال ودأب في العمل، والتكليف بالدعوة لصلاح الإنسان في دنياه وآخرته.

١٠٣. إن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طراز رفيع من أولئك الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، ويعلمون من الله ما لا يعلمه الآخرون. وقد صرح لأبنائه بشيء

مما يعلمه، وكاشفهم بما يحقق قوله حين أذن الله تقدير انتهاء البلوى، ومجيء الفرح، فكلف أولاده بالبحث عن أخيهم يوسف، فجمع بين الصبر الجميل، وقانون الأخذ بالأسباب، وأمر إخوة يوسف أن يعودوا مرة ثالثة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

١٠٤. يُعلمنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أهمية عبودية الرجاء، والتعلق برحمة الله، ومغفرته، وعدم اليأس من قضائه وقدره، ورحمته التي وسعت كل شيء، وهو الذي يغفر الذنوب جميعـًا. ومما تستجلب به رحمة الله صفة الاستغفار، ولذلك قدم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اسم الغفور الذي يغفر الذنوب ويرحم العباد.

١٠٥. هاجر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من الأبناء وزوجاتهم والأحفاد إلى مصر بدعوة من يوسف وذلك في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وكان عمر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مئة وثلاثين سنة، وقد استقبله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استقبالاً حافلاً ثم استقبله ملك مصر وكان من الهكسوس، ورحب الملك بوالد يوسف وإخوته أجمل ترحيب وقال ليوسف: أبوك وإخوتك قد قدموا إليك فهذه أرض مصر أمامك، فأقم أباك وإخوتك في أجود أرضها.

١٠٦. وصى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاده، وهو يحتضر بالإيمان بالله وحده، والابتعاد عن عبادة غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو قوام الدين المستقيم؛ وهذه الوصية هي آخر كلامه الذي ختم به حياته، وكانت وصيته هي وصية الأنبياء والمرسلين جميعـًا من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لأبنائهم وأهليهم وأقوامهم، فجميعهم صلوات الله وسلامه عليهم عاشوا وماتوا، وهم يدعون إلى عبادة الله وحده، والتمسك بدينه، والابتعاد عن الشرك والمعاصي والآثام، ويعقوب عاش ومات وهو يخاطب قومه وأمته مثلما

خاطب محمد خاتم المرسلين أمته والناس: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦].

١٠٧. وجدنا بأن قصّة بني إسرائيل بدأت في مصر بعد مجيء يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إليها ودعوة والده وإخوته للمقام فيها، واستمروا فيها إلى عهد موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وخروجهم معه.

١٠٨. عاش بنو إسرائيل في مصر محفوفين بالتكرمة، وصنوف الامتيازات، وطاب العيش لهم في أرض الكنانة، وكان يوسف الصدّيق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، يحظى باحترام كبير في مصر، وذكر الله لنا في كتابه العزيز دعاءً ختامياً ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يبتهل إلى ربه وداعياً بأن يلحقه بالصالحين: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

١٠٩. لقد عاش نبي الله يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في مصر داعياً إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بالعبادة في سجنه، وفي قصره، ووظف منصبة الكبير توظيفاً دعوياً، وقدم الآيات البينات على نبوته، والبراهين على دعوته فآمن به من هداه الله إلا قليلاً من الناس: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾[غافر: ٣٤]، وعبَّر المصريون عن معارضتهم لدعوة يوسف بعد وفاته، فما أن توفي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتى قالوا: لن يبعث الله لنا من بعده رسولاً، وكأنهم ارتاحوا لأنهم تخلصوا منه ومن دعوته.

١١٠. إن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من صفوة الخلق الذين أكرمهم الله بالنبوّة، وقام بدعوة التوحيد، وإفراد العبادة خير قيام، ونفع الله به الناس في عصره على مستويات عدّة في العقائد والأخلاق والاقتصاد وإدارة الأزمات. وكان قدوة مميزة كمّله الله بالأخلاق الفاضلة وعصمه من الشبهات والشهوات النازلة

وساهم في تطهير النفوس وتزكيتها وتطهيرها من كل ما يضرها. وظهر أثره على كل من احتك به، من امرأة العزيز وصاحبيه في السجن والملك وإخوته...الخ

١١١. أظهرت قصة يوسف الصدّيق عَلَيْهِ السَّلَامُ الكثير من صفات وأخلاقه في ثنايا القصة، والتي ذكرتها في محلها في هذا الكتاب، فقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات عظيمة وأخلاق كريمة، ومنها الإخلاص والعلم والحكمة والإحسان والعفة والصبر والفطنة والحلم وكظم الغيظ والحفظ والأمانة، والتواضع والكرم والشجاعة والعدل والوفاء، والفصاحة وغير ذلك من الصفات التي ذكرتها في شرحي للآيات المتعلقة بقصته العجيبة.

١١٢. مهما اشتدت المحن، وطال عليها الزمن، فلا بد أن يأتي الله بعدها بالفرج، فكل آت قريب والصبح غير بعيد لقد امتدت محنة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر من عشرين سنة ثم جعل الله العاقبة الحميدة الطيبة له فلا يأس من رحمة الله تعالى، ولا قنوط، فالنصر قد يتأخر والفرج قد يتراخى والأمر منوط بمشيئته تعالى وقدرته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يعجل لعجلة العباد.

١١٣. انتهت قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعبر خاتمة للسورة؛ إذ تحتوي على دروس عظيمة وفوائد جليلة وحجج وبراهين على صدق الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته وطبيعة الناس وموقفهم من دعوات الأنبياء والمرسلين، وأن تبليغ الرسالة لا يكون بمقابل مادي من الناس وإنما الأجر على الله، وأن جوهر دعوة الله؛ أنها تذكير وبلاغ للعالمين جميعاً، فهي ليست إكراهاً وقهراً وليست لعباً ولهواً. وإن من أسباب كفر الناس إعراضهم عن آيات الله في كتابه المنثور وعدم الإخلاص لله في التوجه والقصد.

١١٤. بينت التعقيبات، أن دعوة الله واضحة بينة مبرهنة، ووضحت بعض صفات المرسلين وصفة الرسالة ودعت إلى إعادة النظر في الأمور وترهيب

من سوء العاقبة وترغيب بحسن الخاتمة ودعوة إلى التعقّل في الأمر. ووعدت الرسل وأتباعهم بحسن الختام في الدنيا والآخرة ووعيد للمجرمين بشديد العذاب. وفيه تضمين برفع المعنويات وإشاعة الأمل، والتثبّت على الحق.

١١٥. في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ظهرت أهميّة ربط الحياة بالقرآن والسنّة، فالأمّة الآن تعيش ظروفـًا صعبة لم تمرّ بها في تاريخها وأعلم يقينـًا أنّ المخرج يكمن في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

١١٦. تبيّن السّورة أهميّة القصّة، وأثرها على حياة الداعي والمدعو، وقد اشتملت سور القرآن على عدد من القصص كما بيّن الله في هذه السّورة. والحاجة ماسة لاستخدام هذا الأسلوب القرآني من قبل الدّعاة وطلاب العلم والمصلحين.

١١٧. نجد في هذه السّورة قواعد وأصولاً في السياسة الشرعيّة الّتي نحن في أمسّ الحاجة إليها في هذا العصر في الشّورى، في التخطيط، في بُعد النظر، في العدل، الّذي هو أساس قيام الدول وغير ذلك، وكما نجد في السّورة أيضـًا قواعد وأصولاً في معالجة الأزمات، بل إدارتها، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمّة. وأمّتنا تمرّ بأزمات متنوّعة، ومن أقوى الأزمات الّتي ورد ذكرها في السّورة، السبع الشداد. وفي أسلوب إدارته عَلَيْهِ السَّلَامُ للأزمة الّتي مرّت بمصر فوائد ينبغي أن نقف معها.

١١٨. الارتباط الوثيق بين الأمم السّابقة واللاحقة، فرغم اختلاف العصور يبقى التوافق في الطبع البشري، وفي الظّروف البشريّة؛ ولذلك قصّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نبيّه هذه القصّة رغم وقوعها قبل قرون من مبعثه ليستفيد ممّا فيها من دروس وعبر، وتستفيد منها أمّته إلى قيام الساعة. والقرآن الكريم بيّن أنّ

قراءة سير الأولين للاعتبار منها، ترفع كفاءة الأمّة، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

١١٩. من دروس هذه السّورة الثبات في منهج يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واطّراده وعدم تذبذبه من أوّل حياته، وحتّى آخر لحظات عمره، فهو مطّرد مستمر في منهج معتدل في سرّائه وضرّائه في البئر، في السجن، مع الملك، وهو يرفع أبويه على العرش، في كلّ أحواله الّتي قصّتها السّورة، نلحظ اطّراداً عجيباً. والدّعاة وطلّاب العلم، بل الأمّة كلّ الأمّة بشعوبها ودولها تحتاج إلى الاستقامة والاطّراد على المنهج الصحيح وبخاصّة في هذه الظروف الّتي تُقلّب فيها رياحُ الفتنِ القلوبَ وتصرفها.

١٢٠. إن قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أحسن القصص، وليست أحسن القصص، وإنما القصص القرآني هو أحسن القصص، قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير، ولهذا فهي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن الكريم، بل قصص سائر الأنبياء كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين أعظم من قصة يوسف ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف. فقصص القرآن على وجه العموم (أحسن القصص) وليس المراد قصة يوسف على وجه الخصوص.

١٢١. في آخر آية في سورة يوسف حث الله عَزَّوَجَلَّ على الاعتبار والتأمل والاستبصار في القصص القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

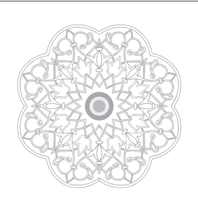
١٢٢. من الـدروس المستفادة في قصة النبي الـوزيـر يوسف الصدّيق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن إفراد العبودية لله وحده وتولي مسؤولية التكليف بعمارة الأرض يستدعي الأخذ بكل أسباب القوة والتمكين والعزيمة على المستوى السياسي والاقتصادي والحجج المنطقية والحوار والدعوة إلى الإصلاح. ختم يوسف حياته بهذا الدعاء العظيم: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

١٢٣. إن مهمة أهل العلم وعلماء الأمة لا تقتصر على نشاطات دعوية محدودة لها علاقة بالعبادات وأركان الإسلام وحسب، بل لا بد للداعية والعالم والمفكر أن يدخل معترك الحياة العامة، والأخذ بالسنن التي خطها لنا الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والقدوات الصالحة، فنبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أصبح وزيراً أو بالأحرى رئيس وزراء كما هو في زماننا، ولذلك فإن الإسهام في دراسة وإعداد الخطط التنموية، وترسيخ مفاهيم الدولة والهوية الجامعة والازدهار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي مسؤولية جماعية، فلا بد من تحمل المشقة والأهوال، والابتلاءات، لتشييد هذا الصرح السياسي والأخلاقي والحضاري، ويكون العالم العامل هو مرجعية عليا وسند للحاكم والمحكوم، وبالتالي يؤدي دوراً متكاملاً مع أدوار العاملين والمتخصصين في شتى مجالات الحياة الإنسانية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين







المصادر والمراجع

١- إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، محمد بن موسى بن نصر، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢- أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني، منال فهد، المكتبة المركزية، رسالة جامعية، ٢٠١٩م.

٣- أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٤- اختيارات ابن تيمية، محمد بن سريع، دار التدمرية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.

٥- الإخلاص في القرآن الكريم، محمد بن محمد الوهيبي، دار التوحيد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

٦- أخلاق الأنبياء، محمد درويش.

٧- أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ.

٨- الاستغاثة، ابن تيمية، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٩- أسرار ترتيب السور، السيوطي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ.

١٠- أسماء الأنبياء ودلالاتها ومعانيها، خالد محمد، نور حوران للنشر والتوزيع، دار العرب للدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

١١- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ.

١٢- الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، د. أشرف أحمد، مكتبة آفاق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦/ ٢٠١٥م.

١٣- آيات للسائلين تفسير تحليلي وموضوعي، د. ناصر العمر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

١٤- أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٣م.

١٥- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، دار الجيل، الطبعة الثالثة، ١٤٣١هـ.

١٦- أيها الصديق، محمد خيري، مركز آيات لتعليم القرآن الكريم، حقوق الطبع محفوظة.

١٧- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٨- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣١٩هـ.

١٩- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٥٧م.

٢٠- بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، محمد بن زريق الرحيلي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ.

٢١- البكاء والقيم الجمالية له بصيغة الجمع في النصوص القرآنية، د. قاسم صالح العالي، دار المقتبس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

٢٢- البيان في علم المناسبات، فايز السريح، دار القبس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

٢٣- تأملات إيمانية في سورة يوسف، ياسر برهامي، دار الخلفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٢٤- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٢٥- التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد المغراوي.

٢٦- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٧- التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢٨- تفسير ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

٢٩- تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٣٠- التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، رفيق المصري، دار القلم، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٣١- تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٢- تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، أبو الليث نصر السمرقندي.

٣٣- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٣٤- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى.

٣٥- تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.

٣٦- التفسير الكبير، أبو عبد الله فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٣٧- تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٣٨- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٤٦م.

٣٩- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٤٠- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤١- التفسير الموضوعي لسور القرآن، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.

٤٢- تفسير النابلسي، د. محمد راتب النابلسي.

٤٣- تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، دار ابن حزم، الطبعة الأولى.

٤٤- تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

٤٥- تفسير من وحي القرآن، فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨هـ.

٤٦- توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٤٧- جامع المسانيد والسنن، ابن كثير، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

٤٨- جماليات النظم القرآني، د. عويض العطوي، مركز تدبر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٤٩- الحق الواضح المبين، السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٥٠- حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٥١- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

٥٢- دراسة أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣م.

٥٣- دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٥٤- دعوة الرسل، مصطفى العدوي.

٥٥- دلالة الألفاظ التي انفردت بها سورة يوسف، جهاد محمد، جامعة آل البيت، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

٥٦- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٥٧- الروايات الإسرائيلية في قصة يوسف، رحمة سعد، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر.

٥٨- روح المعاني، شهاب الدين الآلوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٩- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م.

٦٠- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦١- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

٦٢- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٦٣- السلسلة الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٦٤- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٦٥- سنن الترمذي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

٦٦- سنن الله في الحضارة، أحمد سريرات، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٦٧- سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان- الأردن.

٦٨- الشخصية اليهودية، د. صلاح الدين الخالدي، دار القلم سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٦٩- شرعة الله للأنبياء، د. محمد الزحيلي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

٧٠- شفاء العليل، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ.

٧١- صحيح ابن حبان، ابن حبان البستي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٧٢- صحيح مسلم، مسلم ابن الحجاج، دار الطباعة العامرة، ١٣٣٣هـ.

٧٣- صفوة البيان، حسين مخلوف، دار المحدثين للنشر والترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٧٤- الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين الصغير، دار الرشيد، بغداد - العراق، ١٩٨١م.

٧٥- عجائب فريدة من سورة يوسف، عادل أكتوف، دار طليطلة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

٧٦- العدد في القرآن الكريم، د. عبد الرحمن سعود إبداح، دار دروب، عمان - الأردن، الطبعة ٢٠٢٢م.

٧٧- غرر البيان من سورة يوسف، أحمد الشوابكة، دار الفاروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٧٨- فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٧٩- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، د. علي الصلابي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٨٠- فوائد مستنبطة من قصة يوسف، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٨١- في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٨٢- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

٨٣- فيض القدير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

٨٤- قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.

٨٥- قصة يوسف مدرسة أخلاقية، محمد محمود حماد، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

٨٦- قصة يوسف، محمد أحمد عبد الله ثابت، مكتب مدبولي، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٨٧- قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٨٨- القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح بن عبد الفتاح الخالدي، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٨٩- الكشاف، أبو القاسم الزمخشري، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٩٠- كلام اليهود مجموعة مقالات في اليهود، محمد علي دولة، دار القلم، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٩١- الكليات، أبو البقاء الكفوي، دار الرسالة، بيروت - لبنان.

٩٢- لأنك الله، علي جابر الفيفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٢٠م.

٩٣- لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٩٤- لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة.

٩٥- اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمة، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

٩٦- مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي، مكتبة القدسي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٩٧- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد للطباعة والنشر، السعودية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٩٨- محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨.

٩٩- مختصر تفسير البغوي، عبد الله الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٠٠- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٠١- مسند أحمد، أحمد ابن حنبل، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٠٢- المسيح عيسى ابن مريم، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

١٠٣- مصر في القرآن والسنة، أحمد يوسف، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٠٤- معجم تقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٠٥- مفردات غريب القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٠٦- من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.

١٠٧- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة ١٤.

١٠٨- مواقف إسلامية، د. عبد العزيز كامل، دار المعارف الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

١٠٩- مؤتمر تفسير سورة يوسف، عبد الله العلمي، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١م.

١١٠- موسوعة الأخلاق، إشراف الشيخ علوي عبد القادر السقاف، الدرر السنية، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

١١١- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م.

١١٢- الموطأ، الإمام مالك بن أنس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١١٣- النبوءات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١١٤- نظرات في التفسير، عبد الحميد كحيل، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.

١١٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - مصر.

١١٦- نوح والطوفان العظيم، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير.

١١٧- الوحدة الموضوعية، محمد محمود حجازي، مطبعة المدني، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ.

١١٨- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ.

١١٩- وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

١٢٠- ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، بدون طبعة.

١٢١- بنو إسرائيل في ميزان القرآن، البهي الخولي، دار القلم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

١٢٢- يوسف الأحلام، محمود المصري، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

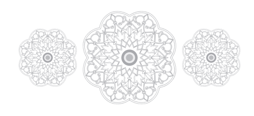
١٢٣- يوسف أيها الصديق، د. محمد عاطف السقا، دار المكتبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٢٤- يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي القره داغي، دار النداء، إستنبول - تركيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

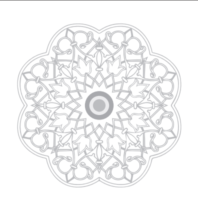
١٢٥- يوسف في بيت العزيز، عبد السلام المجيدي، مكتبة عالم الثقافة، بدون طبعة وتاريخ.

١٢٦- يوسف وقصته العجيبة، عليش متولي، شركة مكتبة المعارف المتحدة، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

١٢٧- يوسفيّات، علي جابر الفيفي، دار الميمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.







كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

٨. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢. الوسطية في القران الكريم.

١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧. عصر الدولة الزنكية.

١٨. عماد الدين زنكي.

١٩. نور الدين زنكي.

٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القران في العقائد.

٢٨. فتنة مقتل عثمان.

٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠. دولة المرابطين.

٣١. دولة الموحدين.

٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١. الشورى في الإسلام.

٤٢. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤٣. الإيمان باليوم الآخر.

٤٤. الإيمان بالقدر.

٤٥. الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٦. الإيمان بالملائكة.

٤٧. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

٤٨. السلطان محمد الفاتح.

٤٩. المعجزة الخالدة.

٥٠. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

٥١. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥٢. التداول على السلطة التنفيذية.

٥٣. الشورى فريضة إسلامية.

٥٤. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٥. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٦. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٧. العدل في التصور الإسلامي.

٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٩. الأمير عبد القادر الجزائري.

٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦١. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦٢. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٣. أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».

٦٤. المشروع الوطني للسلام والمصالحة

٦٥. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

٦٦. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٦٧. الإباضية... مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٨. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (الحقيقة الكاملة).

٦٩. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

٧٠. نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم؛ ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٧١. إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة.

٧٢. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (كليم الله)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين

٧٣. قصة الحوار بين موسى والخضر عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

٧٤. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.

٧٥. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص.

٧٦. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٧. قصة مؤمن آل فرعون.

٧٨. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات).

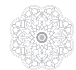
٧٩. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).

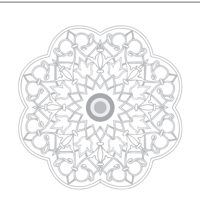
٨٠. سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).

٨١. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

٨٢. النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.

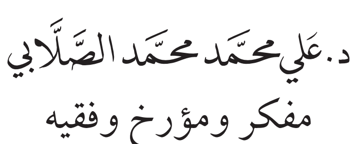






السيرة الذاتية للمؤلف





- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

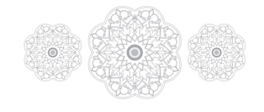
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- **زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:**

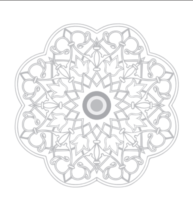
- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- سير الخلفاء الراشدين.
- الدولة الحديثة المسلمة.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
- الإباضية... مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (الحقيقة الكاملة).
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ
- نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم؛ ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة.
- موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (كليم الله)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين
- قصة الحوار بين موسى والخضر (عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ).
- موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.

- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.
- قصة مؤمن آل فرعون.
- لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات).
- سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).
- سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).
- مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

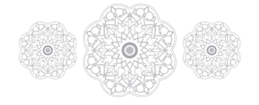


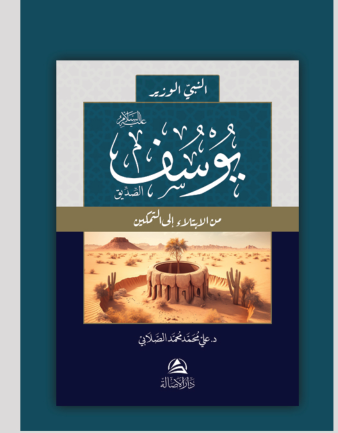






فهرس الموضوعات





إن قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حد ذاتها مدرسة للتربية والتزكية والصبر الجميل والأمل الكبير، والسياسة الرشيدة، والإدارة الناجحة الناجعة، وبخاصة في مجال السياسة الاقتصادية، والخطة المحكمة للحفاظ على الأمة وتنميتها، وهي مدرسة القيم والأخلاق والبصيرة والتحليل العميق للمآلات.

كما أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قدوة للشباب في العفة وسمو الأخلاق، ومقاومة الشهوات، كما أنه قدوة للاقلية المسلمة في التعامل مع الأكثرية غير مسلمة من حيث التعامل بالحكمة، ومن حيث الاتجاه نحو العلم المؤثر في حياة الناس، والتخطيط المبرمج لتصبح الأقلية أقلية نافعة تحتاج إليها الأكثرية، وليست عبئاً عليها، وهذا لن يتحقق في عضرنا هذا إلا بما فعله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أهل مصر.

أ.د علي محيي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين